شعر الفتوح الإسلامية

في صدر الإسلام

شعر الفتوح الإسلامية
في صدر الإسلام

تأليف
النعمان عبد المتعال القاضي

مقدمة

بقلم الأستاذ الدكتور شوقي ضيف

أستاذ الأدب العربي بآداب القاهرة والمشرف على البحث

يصحح هذا البحث ما كان قد استقر فى نفوس كثرة الباحثين من أن الشعر العربى ظل فى عصر صدر الإسلام ثابتاً عند موضوعاته ومعانيه القديمة ، وأن الإسلام لم يخلف فيه آثاراً واضحه إلا بعض خيوط ضئيلة مبثوثة فى قصائد شعراء المدينة ، أما من وراءهم من شعراء نجد وغير نجد فقد ظلوا لايتحولون ولا ينحرفون بأشعارهم عن صورة الشعر الجاهلى وما عبر عنه من مشاعر وأحاسيس وأفكار وأخيلة .

وكأن الشعراء حينئذ لم يمس الإسلام قلوبهم ولا نفوسهم مع تحولهم من الحياة الوثنية المادية إلى حياة الدين الحنيف الروحية ، ومع تلاوتهم للقرآن الكريم وما يصور من عظمة الله وجلاله ، ومع استئصال الإسلام لما كان فى حياتهم من رذائل وآثام ، ومع إحيائه لضمائرهم واستشعارهم مراقبة الله الذى يعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور ، ومع تبتلهم إليه وعباداتهم ورفضهم لعرض الدنيا الزائل انتظاراً لما عنده من النعيم الدائم ، ومع جهادهم فى نشر الإسلام وبذل أرواحهم فى سبيله مخلصين صادقين .

وفى ذلك مخالفة صريحة لطبائع الأشياء ، إذ لا يستطيع أحد أن ينكر أن للأحداث الجسام آثاراً عميقة فى حياة الناس ما تلبث أن تترك ظلالها وأصداءها فى شعرائهم وما ينتجون من شعر ، وهل الشعر إلا تعبير عن حياة الناس وكل ما يؤثر فيها من أحداث . ولم يكن الإسلام حدثاً جسيماً فحسب ، بل كان

حدثاً خطيراً فى حياة العرب الروحية والاجتماعية والسياسية ، فقد أخرجهم من عالم التعبد للأوثان وقوى الطبيعة إلى عالم التوحيد والإيمان بالكائن الأعلى مـــدبر الكون ومنشئه ، ومن عالم البغى والظلم والعـــدوان واقتراف الآثام إلى عالم الأمن والعدل والمساواة والأخلاق الفاضلة ، ومن عالم التشتت في وحدات قبلية متنابذة إلى عالم التجمع فى أمة واحدة متكافلة متعاونة يشد بعضها بعضاً كالبنيان المرصوص .

وطبيعى أن يترك ذلك كله آثاراً بعيدة فى نفوس العرب وأن يدفعهم إلى أنحاء جديدة من الإحساس والشعور والتفكير ، إلا أن تكون عوائق تصدت لهم وصرفتهم عن الإسلام ودعوته وهداه ، وهو ما لم يحدث ، إنما الذى حدث أنهم آمنوا به أخلص الإيمان وأصدقه ، وقاموا دونه يحمونه بسيوفهم وأرواحهم ، حتى إذا أضاءت أقباسه فى جميع أرجاء الجزيرة حملوها إلى أقطار الأرض فى الشرق والشمال والغرب .

ليس من شك إذن فى أن العرب قد تأثروا بالإسلام تأثراً عميقاً ، يستوى فى ذلك الشعراء وغير الشعراء ، وما كان الشعراء ليحرموا هذا التأثر ، وهم يمتازون بدقة الحس ورقة الشعور وتهيئهم دائماً لتلقى الانطباعات من عصورهم وبيئاتهم . وكأنما غابت كل هذه الحقائق عن كثرة الباحثين فى أدبنا العربى ، فإذا هم يرددون أن روحانية الدين الحنيف لا تظهر فى شعر صدر الإسلام ظهوراً بيناً ، وهو ترديد مرده — فى رأينا — إلى أنهم لم يطلعوا اطلاعاً كافياً على مادة هذا الشعر ولا أحاطوا بها إحاطة دقيقة .

وقد رأى السيد النعمان القاضى أن يدرس جانباً من هذه المادة الغزيرة ، محاولاً أن يكشف فيه عن التأثيرات الإسلامية التى لم يتبينها هؤلاء الباحثون ، واختار شعر الفتوح الإسلامية موضوعاً لدرسه ، ومضى يستقصيه فى مظانه الكثيرة من أدبية وتاريخية وجغرافية ، باذلا فى ذلك كل ما يملك من قوة وجهد ووقت ، غير حافل بعناء ولا بمشقة ، حتى إذا استقصاه استقصاء دقيقاً أخذ يخضعه للدرس العلمى المنظم ، واضعاً بين يديه تاريخ الفتوح ووقائعها الكثيرة

وناقدا إلى تذوق الشعر ونقده وتحليله ورسم شخصيات الشعراء رسماً دقيقاً ، وكان كثير منها مجهولا لمؤرخي الأدب العربي أو كالمجهول .

وقد استهل البحث بدراسة مفصلة للفتوح في صدر الإسلام وما تطاير في وقائعها من أشعار كثيرة ، مقارناً بين ما نظم منه في مختلف الميادين ، شرقية وشمالية وغربية ، من حيث بيئاته الجديدة وظروفها المختلفة ، ومن حيث تسجيله للأحداث والمعـــارك ، ومن حيث وفرته وقلته وحظوظ القبائل المضرية واليمنية ، واختلاف هذه الحظوظ باختلاف مواهبها الشعرية .

ثم درس شعراء الفتوح دراسة قويمة وزعهم فيها على ثلاث طوائف : طائفة كانت تصوغ الشعر وتنظمه في الجاهلية قبل دخولها في الإسلام ، وطائفة لم تكن تصوغه ولا كانت تنظمه قديماً . فقد انطقها به وأسالته على لسانها الفتوح ومعاركها الدائرة ، وطائفة لم تعرف أسماؤها ولا تبين الرواة أشخاصها . واتخذ من عمرو بن معد يكرب الزبيدي مثالا للطائفة الأولى وصور شخصيته تصويراً تاماً ، كما اتخذ من القعقاع بن عمرو التميمي مثالا للطائفة الثانية مبرزاً فيه صورة الشاب العربي المسلم الذي تمثل أشعاره استبساله العنيف في سبيل عقيدته وترامیه على حياض الموت ابتغاء رضوان الله وحسن مثوبته .

وأخـــذ بعد ذلك يدرس شـــعر الفتوح مستنبطاً مقوماته وانطباعاته وخصائص معانيه وأساليبه ، ولاحظ شيوع الأراجيز والمقطوعات القصيرة فيه وفاء بحاجة المجاهدين إلى أناشيد قصيرة تستثير حماستهم وتشعل حميتهم ، كما لاحظ تطوراً واضحاً في موضوعاته القديمة بتأثير الدوافع الإسلامية التي رافقتها وماصوبه فيها من إشعاعات روحية . وتبين بجانب ذلك موضوعات جديدة لم يكن للعرب بها عهد ، في مقدمتها حنين مؤثر كان يعصف بقلوب هؤلاء المحاربين حـين يذكرون أوطانهم في الجزيرة ومن تركوا فيها من أهليهم وذويهم ، ووصف لبعض مظاهر الطبيعة وألوان الحضارة في أوطانهم وبيئاتهم الجديدة .

ووقف طويلا عند الطوابع الإسلامية فى أشـعار هؤلاء الفاتحين ، وما أذاعوا فيها من روح الإسلام ومثاليته ، وألفاظ القرآن الكريم ومعانيه ودعوته إلى التفكير فى خلق السموات والأرض والعظة بالأمم الدائرة ، حتى إذا أكمل تصوير هذا الجانب تصويراً دقيقـاً بسط الحديث فيا ساد هذه الأشعار من طوابع شعبية لاشتراك ألسنة كثيرة فيها معروفة ومجهولة ، ولدورانها فى قصص شعبى كانوا يحكونه عن الأبطال والفرسان الفاتحين ، ولما اتسمت به من قصر وسهولة وما يتضح فى كثير من جوانبها من أنها نظمت عفو الخاطر بديهة وارتجالا دون تقويم أو تثقيف .

والبحث بذلك كله يفتح صفحة جديدة فى مباحث الأدب العربى بعرضه لأول مرة شعر الفتوح الإسلامية ودراسته دراسة علمية فاحصة تكشف عن جوانبه وطوابعه الإسلامية وخصائصه الفنية كشفاً تاماً دقيقاً إلى أبعد حدود الدقة وقد استطاع به السيد النعمان القاضى أن يحمل أساتذته فى كلية الآداب بجامعة القاهرة على أن يمنحوه درجة الماجستير فى الآداب بلقب ممتاز أرفع ألقاب النجاح ، وأنا أهنئه أخلص التهنئة بما بذل فى بحثه من جهد علمى خصب ، وما أدرك به من فوز جدير به . والله ولى الهدى والسداد .

شوقى ضيف

تقـــديم

موضوع هذه الرسالة « شعر الفتوح الإسلامية فى صدر الإسلام » وهو يتنـــاول الدراسة الفنية فى شعر المحاربين من العرب المسلمين فى فترة مشرقة من فترات تاريخهم ، بل لعلها أكـــثرها إشراقاً ، فهى الفـــترة التى تذخر بأسمى المشاعر الروحية الإسلامية ، ويتجلى فيها أثر الإسلام عقيدة وفكرة فى نفوس العرب ، وفى حملهم على البذل والتضحية والفداء ، كما أنها تصور الانقلاب الهائل الذى أحدثه الإسلام عن طريق الارتقاء بالنوازع الوجدانية القبلية والفردية الضيقة الحدود إلى وجـــدان متوحد ، من أجل هدف واحد نبيل « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها »(١) .

وإلى جانب هذا التمثيل الصادق للأخوة الإسلامية تمثل العرب دينهم خير دين ارتضاه الله لهم ، وأن نبيهم الذى بعث فيهم إنما بعث إلى الناس كافة ، وأنهم هم ورثته فى هداية هذه الأمم الضالة إلى طريق الحق ، وقد خلق هذا فى نفوسهم شعوراً متوثباً ، لا يقنع بالانطواء على ما تأجج فى صـــدورهم من ألق العقيدة ، فاندفعوا ينتشرون بهـــذا الشعور خارج حدودهم إلى الشرق والشمال والغرب ، لا يأبهون بقوة فى الأرض ، وهم

---

(١) سورة آل عمران .

على ثقة كاملة من نصر الله لهم . وكلهم أمل فى إحدى الحسنيين : الشهادة أو الظفر .

وشعر الفتوحات الإسلامية فى هذه الفترة يرسم صورة مشرقة للانطلاقة الهائلة الواسعة ، التى انتزعت العربى من حيزه الضيق لتطوف به فى أرجاء ممتدة وبعيدة لم يستشرفها من قبل ، كما أنه يرسم صوراً رائعــة للفروسية العربية فى ذلك الإطار الجديد الذى وضعه الإسلام لتقاليدها ، وصوراً رائعة أخرى للإيمان القوى ، والتصديق العميق بما وعد به المؤمنون المجاهدون ، ولصنيع هــذا الإيمان بتلك النفوس ؛ من اكتشافها لذواتها ، ومعرفتها بقدرها ، فراحت من ثم تدك بإيمانها معاقل الأكاسرة وعروش الأباطرة والجبابرة ، وتقود ولاياتهم إلى حظيرة الإسلام .

وعلى هذا : فإن شعر الفتح بتصويره للآثار النفسية لما تمثله العرب من روح الإسلام ، يكشف فى جلاء عن الأسباب الفاعلة فى انتقال هــذه الأمة من ضلال وضعف وتخبط فى عمايات الفتن والتناحر ، إلى ما صارت إليه من اقتدار على رسم خريطة جديدة للعالم وقتذاك .

وفضلا عن ذلك يرسم شعر الفتح صوراً لبأس المسلمين فى حومات الوغى وزحمات القتال ، لا يغادر فى سبيل ذلك معركه أو اشتباكاً ، حتى ليعد وثيقة تاريخية هامة فى هذا السبيل ، تسجل النتائج الناجمة عن الفتوح ، من احتكاك بالبيئات الجديدة ، وتأثر النفوس العربية المنطلقة بتلك الأجواء الغريبة فى طبيعتها وحياتها ، وسبل هذه الحياة ، وعما استحدثته فى ظروف البعد عن المواطن الأولى ، من استشعار الاغتراب والحنين ، وعن هجرة البذور الأولى للشعر العربى إلى الأمصار والمناطق المفتوحة ، وتصوير حياة المسلمين فى هذه البقاع ، وعلاقاتهم بأولى الأمر فيها قبل استقرار المجتمعات الإسلامية .

وقد عنيت فى هــذا الموضوع الذى يتخذ تلك الفترة المهمة من تاريخ الإسلام مسرحاً له باستجلاء طبيعة الفتوح ومظاهرها ، وطوابع

الشعر ، وخصائص الشعراء ، متوخياً بتلك العناية أن أعرض شعر الفتوح الإسلامية فى معارض شتى ، مكسوة بالتاريخ ، ومحفوفة بتأثيرات الدين الجديد وروحه ومثله فى نفوس المسلمين ، لما لهذه الفترة من ارتباط وثيق بالدين الحنيف ، ولما لهذه الفتوحات من صلة وثيقة بروح الأمة الإسلامية فى هذا الزمان ، وارتباطها بتصوير مجدها وعزها .

فشعر المعارك الحربية كان أبداً ودائماً ولدى جميع الأمم سجل فخرها ، وعنوان بأسها وأناشيد بطولتها . وقد اخترت أن تكون رسالتى فى هذا السبيل وسيلة متواضعة للفت أمتنا العربية فى عزة حاضرها وتوثبها إلى مجد ماضيها وعظمته ، واجتلاء تصوير الشعر لما اضطلع به المسلمون الأول من واجبات مقدسة ضخمة فى سبيل نشر معتقدهم ، وما عانوا فى هذا السبيل من حياة القلق والحركة والانتشار والتمدد ، وما قاسوا من مشقات النزوح والهجرة وأهوال الحروب وقسوة المعارك ، والصراع الدامى فى ملحمة لم يعرف تاريخ العقائد لها مثيلا على مر العصور وكر الدهور .

وقد سدد عزيمتى إلى ذلك أن فى الإمكان أن تجلى فى شعر هذه المعارك برغم قسوتها عواطف إنسانية عالية من النجدة والفداء والإيثار والتضحية ، والذود عن العقيدة ، والتمكين لها فى إطار من التاريخ ، وأن ننظر فى مظاهر الحقائق خلال معرض من الأخيلة والعواطف فنرى الشعر على صنع الخيال وتهويمه معرباً عن حقائق التاريخ ، مبيناً عقيدة الإنسان وبساطة إنسانيته وسموها .

ولا شك أن تصوير الشعر لهذا الحدث الفذ فى تاريخ العقيدة الإسلامية ليس إلا تصويراً لجوانب الحياة الإسلامية عامة فى نفس الوقت ، إذ أن الحقيقة التى لاجدال فيها أن الفتوح كانت أهم ما شغل حياة المسلمين ، سواء من كان منهم تحت ظلال السيوف أو على حافة الميادين ، فما من شك فى أنهم كانوا يتنسمون أخبارها ، ويترقبون ما يمكن أن تسفر عنه هذه الحركة الهائلة فإذا بأنبائها من يوم إلى آخر تطلع عليهم فى أقاصيص ممتزجة بغبار الوقائع

وصهيل الخيل وصليل السيوف وصياح المحاربين ، وإذا بهذه الروايات تنتشر فى ربوع الديار العربية لتشغل كل اهتمامات المسلمين، ولتصبح زاداً لسمرهم ؛ لا يزالون يقصونها ويزخرفونها ويعجبون بها .

ولهذا اندفعت فى اختيار هـذا الموضوع مقدراً أهميته التى تتجلى فى تصوير هذه الاهتمامات ، التى استنفدت منازع المسلمين وشغلهم ، وتصوير تلك الحياة الوجدانية الثرة ، وتلك التجارب الطريفة التى تعرضوا لها فى ظروف جديدة عن حياتهم السابقة كل الجدة ، فصاغوها بما تأتى لهم من مشاعر ؛ فكان هذا الشعر الذى يمثل وثيقة تاريخية ونفسية خطيرة فى تاريخ الأدب العربى ، من حيث كونه مرحلة حية من مراحله طالما أنكرها الدارسون وتجافوا عنها ، ومروا عليها عابرين ، لا يكلفون أنفسهم أكثر من أن يعزوا إليها موات الشعر أو خموده وضعفه ، لغلبة النشاط الفكرى الإسلامى عليه، نتيجة الاستعاضة بالقرآن الكريم والسنة الشريفة وتعاليم الدين .

قدرت هذا وتأتى لى أن أرى هـذه المرحلة ليست كما وصفت ، وإنما هى فترة حية ، لم تستطع الظروف القاسية التى رافقتها من حركة الفتح والهجرات والصراع أن تذهب فيها بالمواهب الفنية للنفس العربية التى ألفت الشعر ومرنت عليه . وما كان لهذا التيار المتدفق عبر القرون من الماضى النفسى والوجدانى البعيد لهذه الأمة أن ينقطع فى هذه المرحلة ليتصل من جديد، أو يمحى ليخلقه العرب فيها بعد خلقاً آخر فى عصر بنى أمية . على ضخامة ما رافق هذه المرحلة من أحداث شملت جوانب الحياة الإسلامية .

ولقد يبدو غريباً ونحن نعتبر شعر الحرب أناشيد بطولة الأمة وسجل عزها وخلودها ألا نجـد فى الدراسات الأدبية عناية بشعر الشعراء المحاربين فى هذه الآونة ، بل إننا لنعجب أن كثرتهم مجهولون ومغمورون ، وبعيدون عن الأضواء ، ومحرومون من الاحتفال بحيواتهم وشخصياتهم وشعرهم !

ولقد سلكت إلى قصدى نهج التبويب والتفصيل والترقيم . معتمداً على التحليل والتركيب حيناً ، والمقارنة والنقد حيناً آخر ، لاستجلاء المقومات

والطوابع الفنية للشعر ، وربطها بمسبباتها والأصول التي صدرت عنها ، ونظرت إلى موضوعي الذى آثرته فوجدت أن بعض الدارسين يربطون بين هذا الشعر وبين شعر الملاحم ، ويفترضون أن هذه الأشعار المفرقة ليست إلا ملحمة فى حاجة إلى النظم ، فكان ضرورياً أن أعقد تمهيداً أقرر فيه حقيقة شعر الفتح وغنائيته ، وأفرق بينه وبين شعر الملاحم القصصي الذى يختلف عنه فى شروطه وقواعده ، ثم وجدت أن الشروع فى استكناه مقومات شعر الفتح يستوجب دراسة الفتوح ذاتهـا كوعاء لهذا الشعر ، وتلك بدورها بحاجة إلى دراسة تلك الدوافع التي انثال المسلمون بوحي منها، ينساحون فى الأرض حاملين فى مواضع الاعتقاد منهم الأمن والثقة والأمل بما وعدوا ، إلى جانب الدعوة لهذا الدين الذى ارتضوه . وكان على الدارس إزاء هذا أن يتعقب هذا الانطلاق فى إطار التاريخ شرقاً وغرباً وشمالا وفى كل اتجاهاته ، ليعرض من ثم لمواكبة الشعر للأحداث فى الميادين المختلفة ، متتبعاً الشعراء ومدى خصبهم وأصالتهم وأسباب ذلك ، الأمر الذى يستدعى بالضرورة تصنيف الجيوش والإمدادات تصنيفاً يتعقب هذه الأصالة الفنية وثراء الروح الشعرى بين القبائل . مما سيترتب عليه اختلاف حظوظ الميادين المختلفة فى وفرة النتاج الشعرى أو قلته أو ندرته ، ووسم الأمصار الإسلامية فيما بعد الفتوح بهذه الصفات على اختلافها .

وهكذا يذهب البـاب الأول الذى يعالج الشعر فى الفتوح بفصوله الثلاثة فى هذا السبيل ، بينما يذهب الباب الثانى الذى يعالج شعراء الفتح فى التعريف بهم ، ومناقشة ما يشيع حولهم من مشكلات ، سببها تنوعهم وتعددهم بين شعراء قدماء مخضرمين ، ومحاربين أنطقتهم الفتوح ولم يكن لهم شهرة بالشعر ، ومجهولين ينسب شعرهم لغير قائل .

وكان طبيعياً أن يجد الدارس ضرورة إعطاء نموذج للشعراء المخضرمين الذين أسهموا فى الفتوح بسيوفهم وألسنتهم . كعمرو بن معديكرب الزبيدى

ونموذج آخر للشعراء المؤمنين الخلص الذين أنتجتهم الفتوحات ، كالقعقاع ابن عمرو التميمي .

وبهذا يذهب الباب الثاني بفصوله الثلاثة في شعراء الفتح : ليعقبه الباب الثالث في فصول أربعة ، تعالج في دراسة فنية مقومات الشعر وطوابعه ، فتتناول في فصل منها أنواعه وموضوعاته ، وما تطور منها وما لم يتطور . وما استحدث منها وسبب استحداثه ودواعيه ، وتتناول الطوابع الإسلامية في فصل آخر ، تتبين خلاله الآثار الإسلامية في هذا الشعر ، من صدوره عن وجدان الجماعة ، والأخوة الجديدة الإسلامية ، وروح الدين ومثله ، وتصور أحاسيس المحاربين ومشاعرهم الدينية الجديدة ، وما تأتى لهم من صياغة المعاني الإسلامية المتعددة في أشعارهم .

وفي فصل آخر تناولت الدراسة ما وسم هـذا الشعر من السمات الشعبية ، التي بعثها تعلق المسلمين بأحداث الفتوح ورواياتها وزخرفتها والتغني بها ، وما وجد من شعر مجهول القائل كثير ، وعرضت الدراسة لأحاديث البطولة هذه بين الواقع والأسطورة ، ولقصص الفرسان المشاهير وتلونها ونموها وتضخمها ، كما حاولت الكشف عن هذه الآثار الناجمة عن كل هذا في الشعر الشعبي .

وأخيراً تتجمع في الفصل الأخير من هذا الباب الطوابع الفنية الصرفة التي طبعت الشعر ، والتي كانت أثراً من الآثار الإسلامية في الصياغة ونتيجة للظروف المرافقة لولادة هذا الشعر .

وكان ضرورياً بعد هذا ، أن تلخص الدراسة تلخيصاً موجزاً ، يكشف عما انتهت إليه وما حاولت أن تحققه .

ويتضح من خلال هذا المنهج : ما تهدف إليه الدراسة من تجلية القيم التاريخية والاجتماعية والفنية لشعر الفتح الإسلامي ، والتعريف بشعرائه المجهولين . وتسليط الأضواء عليهم ، وتبين القيمة الحقيقية لهذا الشعر ،

كجسر عبر عليه الشعر العربي من العصر الجاهلي إلى ما تلاه من العصور الإسلامية .

وإزاء هذا الهدف يجد الدارس نفسه مضطراً إلى دراسة حركة الفتح الإسلامي ذاتها باعتبارها وعاء هذا الشعر ، إذ وجد فيها وزكا في أجوائها ، وكان أثراً من آثارها ونتيجة من نتائجها . وفضلا عن هذا فإن الشعر لايوجد منفصلا عن الفتوح ، وهو على كثرته متفرق لايجمع شتاته جامع ، وإنما ينتشر في تضاعيف كتب التاريخ الإسلامي المختلفة ، وكتب الصحابة والفتوح ، والجغرافية التاريخية ، وكتب الأدب . وهـذه كلها كتب لاتعنى بهذا الشعر إلا عناية قريبة ، تجعل منه شاهداً لحكاياتها ، ومصداقاً لسردها الوقائع وقصها الأحداث ، أو زينتها في أغلب الأحيان .

ونفس الأمر يصدق على حركة الفتح ذاتها ، إذ أن الكتب التي تتناولها لا يهمها إلا مجرد سرد الحوادث ، دون النفاذ إلى الروح التي تكمن وراءها كعامل مؤثر في الحياة الإسلامية بعامة ، وفي الحياة الأدبية بخاصة . وكذلك لايهمها أن تكشف النقاب عن هؤلاء الذين قاموا بهذه الحركة . لا تشذ عن ذلك دراسة من الدراسات الأدبية التي تعنى بالعصور المختلفة التي أعقبت الفتوح ، فإنها لا تحاول التعرف على حركة الفتح ذاتها ، ولا على أولئك الذين اشتركوا فيها وتغنوا بها ، وإنما قنعت بأنه كان هناك فتح ، ومضت تنظر فيما كان بعد ذلك ، دون ربط بين سبب ونتيجة . على الرغم من أنه يبدو منطقياً لمن يدرسون العصور الأدبية التي أعقبت الفتوحات الإسلامية ، ولمن يدرسون العصور الأدبية في الأقاليم الإسلامية التي هاجر إليها الشعر أن يعنوا بدراسة حركة الفتح الإسلامي . وما تشتمل عليه من البذور الفاعلة من هجرة الدين واللغة والدم .

ولا شك أن المصادر التي تشتمل على شعر الفتح كثيرة ومتعددة إلا أن المتقدمين من العرب عالجوا هذا الشعر لا بسبيل الفن وقيمه ، وإنما فعلوا ذلك لغاية التاريخ ، وفي مطالب الأحداث التاريخية والتراجم وما أشبه ،

إبعل فا كن عبد البر ٣٦٨ هـ بتأريخه للصحابة تأريخا إجمالياً فى « الاستيعاب فى معرفة الأصحاب » حينما يترجم لمن اشترك فى الفتوح منهم ، ذاكراً أثارة من شعرهم إن كان لهم نصيب من الشعر . ومثله فى ذلك ابن الأثير ٦٣٠ هـ فى « أسد الغابة فى معرفة الصحابة » وإن كانت تراجمه أوسع ، ومقدار ما يروى من الشعر أكثر . وعلى مثل هذا سار ابن حجر العسقلانى ٨٥٢ هـ فى « الإصابة فى تمييز الصحابة » إلا أن تراجمه أشمل من صنيع سابقيه ، وفيها فرصة لإيراد أكثر من رواية للحادثة الواحدة ، وإن كان لايعنى بمناقشة ما يتعارض من الروايات وما يختلف من الأشعار . وبجانب كتب الصحابة هناك كتب التاريخ الإسلامى ، وأكثرها اهتماماً برواية شعر الفتوح « تاريخ الأمم والملوك » لابن جرير الطبرى ٣١٠ هـ وهو يروى الشعر فى ثنايا الوقائع أو فى أعقابها ، منسوباً إلى صاحبه أو إلى أحد المسلمين. ومنها أيضاً « فتوح مصر » لابن عبد الحكم على ندرة ما يروى من الشعر . وكذلك « مروج الذهب ومعادن الجوهر » للمسعودى ٣٤٥ هـ و « فتوح البلدان » للبلاذرى ٢٧٩ هـ . وعلى الرغم من قلة ما يرويه من الشعر فإنه ينفرد أحياناً برواية أشعار لا يرويها كتاب غيره . وكذلك « فتوح الشام » للواقدى ٢٠٧ هـ و « الأخبار الطوال » وغير ذلك .

وفى الحقيقة أن كثرة شعر الفتوح تقع فى « معجم البلدان » لياقوت . فهو لايذكر مدينة أو بلدة أو قرية أو محلة للجند إلا ويروى ما قيل فى فتحها من الشعر ، ولكنه لا يتحرى فى الأغلب ذكر المناسبة القريبة . ولا يحدد الفتح تحديداً تاريخياً قدر تحريه رواية كل ما قيل فى فتحها بصورة عامة ، قد تشمل عصوراً متعاقبة ، دون أن يفصل بين الأشعار فصلا تاريخياً ، مما يضطر الدارس فى أغلب الأحيان إلى التحقق من الشعر ومن قائله ، ورد الشعر والشاعر إلى عصرهما .

ومن كتب الأدب التى عنيت بشعر الفتح « الأغانى » وذلك فى تراجم الشعراء الذين كان لهم بلاء فى حركة الفتح ، برغم اقتصاره على الترجمة

لأولئك المشهورين من الشعراء دون عناية بغيرهم . وكذلك « الشعر والشعراء » لابن قتيبة و « طبقات الفحول » لابن سلام ، وما يروونه من الشعر قليل إلى جانب ديوان أبي محجن الثقفي ، وهو ديوان مفرد ، ليس لشاعر من شعراء الفتح ديوان غيره .

هذا فضلاً عن كتب أدبية أخرى ، لا يجد الباحث فيها غير قصائد قليلة ، كذيل الأمالي، والخزانة ، وديوان الهذليين ، والمؤتلف والمختلف ، والمفضليات ، والحيوان ، وغير ذلك كثير .

هذا عن مصادر الشعر . وقد يفيد الباحث من تعددها في التحقق من أصالة الشعر ، وصحة نسبته إلى صاحبه . أما عن المصادر العامة لحركة الفتح وحوادثه فهي كثيرة ومتعددة أيضاً ، إلا أنها كثيراً ما تختلف في تحديد التواريخ التي وقعت فيها بعض المعارك ، وقليلا ما تتفق على وقوع معركة في تاريخ واحد محدد ، ونادراً ما تشير إلى تصنيف الجيوش والإمدادات التي انطلقت من شبه الجزيرة إلى ميادين القتال ، أو إلى الكيفية التي خرجت عليها في تصنيفها .

ومهمة الدارس هنا أن يحاول مقارنة الأحداث والوقائع في الروايات المختلفة في إطار التاريخ العام ، وعلى ضوء ما يروى من الشعر لو كان في ذلك غناء ، وتجميع هـذه الأثارات من خلال الموضوعات التي لا تقصد إلى ما يبغي ، ولم أطرافها ليكون منها — جاهداً — صورة لتصنيف الجند قريبة من الأصل أو دالة عليه .

وكذلك تصعب مهمة الدارس أمام الاختلاط الذي يصادفه في حوادث الفتح وتضارب بعضها ، فيعكف على تتبع الروايات التاريخية وتنسيقها ، وتحري الدقة في ترتيبها ترتيباً زمنياً وميدانياً ، ووضعها في إطار الخطة الإسلامية العامة للفتوح .

ويرجع هذا الاختلاط في حوادث الفتح إلى ما كان من وقوع هذه الأحداث في أكثر من ميدان في آن واحد ، وإلى أن فتح بعض البلدان

قد تكرر أكثر من مرة لانتقاضها وإعادة فتحها من جديد ، وبهذا يؤرخ لفتحها مرتين ، أو يكتفى بالتأريخ لها فى المرة الثانية دون الأولى ، فتضيع الحقيقة ويحدث الاضطراب .

ولا يستطيع باحث فى هذا السبيل أن يجحد قيمة الفائدة التى تعود عليه إذا ما اهتدى خلال هذه الدروب الملتوية بدراسات المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل عن الصديق أبى بكر ، والفاروق عمر ، فكثيراً ما كانت تكشف اللبس وتزيل الغموض ، وتقود إلى الحقيقة فى التأريخ للفتوح ، وفى تحديد المواقع والأماكن ، تحديداً يساعد على اكتمال الصورة التى يحاول الدارس تكوينها ، حتى لا يكون حديثه عنها حديثاً مجرداً عائماً ، ولترتبط الأسماء والمواقع بمدلولاتها ارتباطاً وثيقاً .

بينما كانت مصادر هذه الدراسة فى بابها الخاص بشعر الفتح هى : كتب الصحابة والتاريخ والفتوح والجغرافيا التاريخية والأدب ، فإن الباب الثانى الخاص بشعراء الفتح لم يقتصر على الكتب الأدبية الصرفة التى تترجم للمشهورين منهم ، وإنما كان من الضرورى الاعتماد على كل ما يمت إلى الفتوح بسبب ، من كتب التراجم والصحابة والتاريخ والجغرافية وغيرها .

وقد نظرت لدى محاولة الدراسة الفنية لهـــذا الشعر واجتلاء مقوماته وطوابعه — إلى ما سبقنى إلى هذا الموضوع أو ما يماثله ، من دراسات للشعر الحماسى وشعر الحروب ، فوجدت أن المتقدمين قد عالجوه بسبيل مطالب أخرى غير الدراسة الفنية ، كالتاريخ واللغة فى تفسير كلماتها ، أو للإعراب فى مناقشة وجوهه . لا يعنيهم سوى جمعه فحسب ، بعد أن يتخيروا أحسنه ، دون تصنيف أو تنسيق ينتمى إلى التاريخ أو إلى الفن ، ولا يربط بين مختاراتهم سوى وحدة الموضوع .

ومن ثم فإن الباحث فى هـــذا السبيل لا يجد دراسة بعينها تتعمق فى البحث الفنى فى مقومات شعر البطولة والحرب ، وتعنى بالكشف عن طوابعه بعامة ، وفى خلال هذه الحركة الهائلة فى تاريخ الإسلام بخاصة .

وقد يصادف الدارس كتاباً أو كتابين لبعض الباحثين المحدثين فى هذا السبيل فيظن فيهما غناء . ولكنه لا يلبث أن يصاب بخيبة أمل . فهذا كتاب يدرس (المجتمعات الإسلامية فى القرنين الأول والثانى الهجريين) . ويمهد هـــذه الدراسة بدراسة تمهيدية ضافية لحركة الفتح الإسلامى ، إلا أنها لا تسلم فى أجزائها التاريخية مما سار عليه الأقدمون . وهدف الدراسة التى يقوم عليها الكتاب فى حـــد ذاته تمهيد لدراسة الظواهر الأدبية المختلفة عن استقرار المجتمعات بعد الفتوح ، ومع ذلك — فإنها لا تتعرض لشعر الفتح إلا تعرضاً طفيفاً .

وهذا كتاب آخر يدرس شعر الحرب فى أدب العرب من صـــدر الإسلام إلى أبى فراس الحمدانى ، لا يشير إلى الفتح الإسلامى ولا إلى شعره بكلمة واحدة . برغم أن هذه الدراسة تجعل شعر الحرب فى العصر الأموى نتاجاً لمنازع الحزبية والتسلط المذهبي وسطوة التاريخ : بينما تجعل شعر الحرب فى العصر العباسى نتاجاً خالصاً لمنازع الفن وحده بعد تخاخل تلك السيطرة الحزبية والمذهبية. وكان منطقياً أن يأخذ شعر الفتح مكانه قبل هذين العهدين فى تلك الدراسة كنتاج لتمثل الفكرة الإسلامية حتى تكتمل الصورة التى عنى البحث برصدها .

وإزاء هـــذا النقص يشعر الدارس لدى محاولة تقييم هذا الشعر أن عليه أن يعتمد كل الاعتماد على الانعكاسات الحرة الطليقة لهذا الشعر ، وأن يضع النصوص الشعرية وحدها أمام ناظريه ، معتمداً عليها تماماً فى استكناه الأبعاد الفنية ومقومات الشعر وطوابعه . وعلى الله قصد السبيل .

النعمان عبد المتعال القاضى

تمهيـــد

شعر الفتوح وشعر الملاحم

هناك فكرة لا تزال تتردد وتشيع لدى بعض الدارسين ، وهى أن الشعر الجاهلى الذى قاله أصحابه فى أيام العرب ليس إلا ملحمة عربية كبرى، وإن كانت مقطّعة الأوصال ، وأن فى المعلقات الجاهلية . وفى سائر ما نظم الجاهليون لما يُتنخل منه ملحمة عربية كبرى .

وهذه الفكرة تنسحب لديهم أيضاً على التاريخ الحربى للمسلمين ، الذى يبدأ بغزوات النبي صلى الله عليه وسلم . وينحدر فى حروب الفتوح فى ديار فارس وأرض الروم ، وسائر الأقطـــار التى بلغ إليها المسلمون بسيوفهم . فيمثل هذا التاريخ فى زعمهم ملحمة ، تتكون من أجزاء ملحمية : تصف المعـــارك وتوجيه العسكر ، وثورة العدو واستجاشة العدة ، وترسم صوراً للالتحام والكر والفر والإقبال والإدبار ، والرمى بالنبل والحجر ، والطعن بالسيف والرمح ، والخبط بالأعمدة وغيرها . وتصور أيضاً ماينكشف القتال عنه من قهر أو ظفر ، أو اندفاع الفائزين بالغنيمة والفخر ، وانطواء الخاسرين على تضميد الجروح وإعداد الثأر[1] .

ويجد هؤلاء الدارسون ما يؤكدون به زعمهم فيما أثير مؤخراً من دراسات بعض النقاد حول هوميروس وملحمتيه المشهورتين ، وما انتهى

(1) « شعر الحرب فى أدب العرب »ص ١٧ ، ص ١٨ .

إليه نفر منهم من الشك فى شخصيته وإنكارها . وما قرره هذا النفر من أن اسمه ليس إلا عنواناً فحسب للطائفة الشعرية التى جمعت من أفواه الأقدمين ، وأن هاتين الملحمتين ليستا له بتمامهما . ويظلم هؤلاء الدارسون الذين يعتنقون هذه الفكرة أنفسهم ، كما يظلمون الأدب العربى ، فى محاولتهم المتعسفة إيجاد ملحمة عربية على صورة من الصور ، عندما يذهبون إلى أن كل شعر طال أو قصر ، وصفت فيه المعارك ، وسردت فيه أخبار البطولة ، ورويت فيه ملاحمات الجلاد ، هو من شعر الملاحم[1] .

ولا يضير العرب فى شيء أن يخلو أدبهم من الملاحم ، وليس يفترض فيهم أن يحتفلوا بهذا الضرب من الشعر ، فإن كان فاتهم الاحتفال به فما أشد عسف الدارسين الذين يتصيدون لهم فى شعر الحرب ما يزعمون أنه يمت إليه بسبب وثيق ، وهو فى الحقيقة بعيد عنه كل البعد ؛ ذلك أن الملحمة الشعرية حكاية لأمر خارق عجيب ، أو عمل حماسى عظيم ، له أثره فى حياة شعب بأسره ، وهى فضلاً عن هذا سداها الخرافة ، ولحمتها التلفيق .

وقد كانت حروب العرب مع الروم والفرس حوادث أساسية خارقة وعجيبة حقاً ، تناولها الشعراء والرواة والقصاصون ، وصنعوا فيها القصائد والأناشيد والحكايات ، وربما جسموها بالخيال ، وموهوها بالمبالغة . لكننا لا نستطيع أن نعد هذا من شعر الملاحم فى شيء ؛ فشعر الفتوح شعر غنائى ، يتغنى فيه المجاهدون بجهادهم وبلائهم ، ويفخرون فيـــه بشجاعتهم وتفانيهم وفعالهم بالعـــدو . فى حين أن شعر الملاحم شعر قصصى ، يعنى بحكاية الأحداث فى إطار من التهويل والمبالغة ، والإغراق فى الخيال .

وبينما نجد مؤلف الملحمة أو مؤلفيها يحرصون على الاختفاء من عصورهم ليظهروا فى عصر الموضوع والأبطال الذين تقوم عليهم ملاحمهم، فلا يكادون يذكرون أنفسهم ، ولا يكادون يعنون بالتعبير عن عواطفهم الخاصة فيما يقصون من الحوادث ، نجد شاعر الفتوح الإسلامية ــ شأنه شأن غيره من

(١) شعر الحرب فى أدب العرب ص ١٦ .

شعراء الحماسة — لا يملك اختيار موضوع بعينه ، وإنما هو يصور ابتداء كل ما يعتمل فى وجدانه ومشاعره ، وما يعيش خلاله من أحداث يظهر وجدانه الشخصى فيها ظهوراً تاماً وأساسياً ، فيغنى عواطفه الخاصة فيما يعبر عنه من المشاعر ، وما يصوره من الأحداث .

وبهذا يدخل شعره فى باب الشعر الغنائى عن هذا الطريق ، بخلاف شعر الملاحم الذى يدخل فى باب الشعر القصصى .

على أنه ينبغى أن نلاحظ بعناية ما يذهب إليه بعض النقاد العرب من المزج بين شعر الملاحم والشعر القصصى مزجاً فى باب واحد دون ما تفريق ، إذ يعتبرون كلا منهما مثل الآخر[1] ، والحقيقة أن الملحمة قلما تضم شعراً قصصياً ، ولكن ليس كل شعر قصصى ملحمة ، فإن جاز أن نسمى كل ملحمة شعراً قصصياً فلا يجوز أن نسمى كل شعر قصصى ملحمة .

على أن هؤلاء الذين يجعلون القصص الشعرى ملحمة يجدون فى الأدب العربى مالا ينقضى جماله من هذا القصص الكثير . ولكنا لا نستطيع أن نعده شعراً ملحمياً فى قليل أو كثير ، كما لا نستطيع أن نقبل أن يكون شعر الحرب — على إطلاقه — من شعر الملاحم كما زعم البعض .

والحقيقة التى لا تقبل الجدل أن العرب لم يحفلوا بالملحمة الشعرية أى احتفال ، على الرغم من أننا نجد تاريخهم مملوءاً بالغير والأهوال ، إذ لم يخل فى أية حقبة من القتال والنزال من سحيق الجاهلية حتى عصورهم الأخيرة .

وليس يجدى شيئاً أن يلتمس هذا البعض للعرب أعذاراً فى عدم احتفالهم بها ، كمثل قولهم : إنه لو كان أمر الملاحم الفنية لديهم مألوفاً لورثنا عنهم كثيرا منها[2] .

ويبدو هذا الزعم مجانباً للصواب ؛ إذ أن العرب عرفوا الملاحم منذ استهلال العصر العباسى ، فقد كان هوميروس وإلياذته معروفين لديهم بعد

---

(1) « شعر الحرب فى ادب العرب » ص ١٤ .

(2) المرجع نفسه ص ١٧ .

نهضة الترجمة في المائة الثانية للهجرة[1] . ويذكر الشهرستاني عن هوميروس ما يدل على معرفة العرب به ، إذ يقول : « أوميروس الشاعر من القدماء الكبار الذي يجريه أفلاطون وأرسطاليس في أعلى المراتب ، فيستدل بشعره لما كان يجمع فيه من إتقان المعرفة ومتانة الحكمة ، وجودة الرأي وجزالة اللفظ ، ثم ترجم مقطوعات من أشعاره بجمل معقودة الكلم على المواعظ والحكم ، ذيلها بأن الشعر في أمة اليونان كان قبل الفلسفة ، وإنما أبدعه أوميروس »[2] .

ويذكر القفطي : أن حنين بن إسحق كان ينشد أشـعاراً بالرومية لأوميروس رئيس شعراء الروم[3] .

وقد ترجمت الإلياذة إلى السريانية في أيام المهدي ، على يد « تيوفيل الرهاوي » غير أن نقل الإلياذة إلى العربية لم يكن هيناً يومئذ ، لما فيها من أساطير الديانات الإغريقية .

وهكذا لا ينبغي أن نعنت العرب فنطلب إليهم أن يكون لديهم ملحمة شعرية ، أو نحاول أن نتصيد لهم ملحمة أو ما يشبه الملحمة ، في حين نرى ابن الأثير مثـلا في خاتمة المثل السائر يتعجب من أنه لا يوجد في اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها وأغراضها منظومة كالشهنامة ، على أن لغة العجم بالنسبة إليها كقطرة في بحرها .

ولعله يبدو في جلاء أن العرب لم يعرفوا هذا الضرب من الشعر ، حتى في أوج النهضة الثقافية التي أعقبت حركة الترجمة في العصر العباسي .

ولعل حبهم للقافية الواحدة يجري عليها روي القصيدة زهدهم في الملحمة فيما بعد ، إذ كانت تقتضي آلاف الأبيات ، ومن أين لهم بروي

(1) مقدمة ابن خلدون ص ٥٢١ ، « طبقات الأطباء » لابن أبي أصـيبعة / جـ ١ ص ١٨٤ .

(2) « الملل والنحل » بهامش الفصل لابن حزم / جـ ٣ ص ١٩ .

(3) « أخبار الحكماء » / ص ١١٩ ، « تاريخ الحكماء » ص ٦٧ .

واحد يجرى به الكلام إلفاً ، زد على ذلك ميل العرب الفطرى إلى الإيجاز ، وغلوهم فى اختصار الكلم ، والتزامهم مقاطع الجمل القصيرة التى تحمل غزير المعانى ، فكان أن لم يحاولوا – إلا فى قليل – زيادة أبيات المطولات على المائة بيت ، ذلك لأن شعر العرب يفتقر إلى الروية والفكرة ، وهم أهل بديهة وارتجال ، لا يعنون بالإلمام بطبائع الناس وأحوالهم ، كما أنهم لا يحفلون بالتحليل والتطويل ، وهم أشد الناس اختصاراً للقول ، وأقلهم تعمقاً فى البحث . فضلاً عن أن دينهم فى بساطته قد حرمهم كثرة الأساطير والخرافات وهى أغزر ينابيع الشعر القصصى الملحمى .

ولكن أملا – بالرغم من كل هذا – لايزال يداعب بعض الدارسين فى أن يقيض الله للأمة العربية شاعراً يتقدم إلى هذا التاريخ الحافل فيسجله ويصوره ، ليكون للمعاصرين ولمن يأتى بعدهم كتاب فخر وسفر مجد ، يتلوه الأبناء بعد الآباء(١) .

ويذهب هؤلاء الدارسون بعيداً فى أملهم عندما يقررون : أنه لابد للأدب العربى من يوم ينهض فيه أقوامه إلى جمع ما تشتت من قصائد الشعراء فى وصف الحروب العربية فى الفتوح وغيرها ، وما لابس ذلك من وشائج الحياة والموت فى السلم والحرب ، فتؤلف الملحمة الكبرى بعون ذلك الشعر .

وهذا ضرب من الأحلام اللذيذة ليس غير . فالعرب كما تقدم لم يعرفوا من فنون الشعر إلا الغنائى منه طوال ماضيهم ، حتى إذا كانت العصور الحديثة واتصلوا بالآداب الغربية ، وألفوا فنونها من الشعر الملحمى والتمثيل كانت تلك الفنون الشعرية الكبيرة فى سبيلها إلى الانقراض ، فحل النثر محل بعضها كالشعر التمثيلى ، على حين انتهى شعر الملاحم ، ولم يعد يستطيع الحياة ، بعد أن تطورت الإنسانية وأصبحت عاجزة عن أن تأتى فيه بما أتى القدماء فى فجر الإنسانية ، عندما ازدهر هذا الفن على نحو ساذج ، خال من التعقيدات العقلية والفنية ، ولعل هذا يفسر فشل الملاحم الحديثة التى

(١) شعر الحرب « فى أدب العرب ١٦ ، ق « أصداء الأدب » للدملك / ص ٢٢١ .

حاولها عدد من الشعراء فى اللغات المختلفة ، ابتداء من عصر النهضة حتى القرن التاسع عشر ، فطوى الزمن ملاحمهم فى جوف أمواجه ، ولم تعد الإنسانية تقرأ وتعجب إلا بالملاحم القديمة ، كالإلياذة والأودسة والإلياذة فى الغرب ، والماهبهاراتا والرميانا فى الهند ، والشاهنامة فى فارس .

وإن كانت بعض الملاحم قد امتد بها العمر زمناً انتقلت فيه من الأدب الفنى إلى الأدب الشعبي النثرى كما حدث فى ملحمة عنترة ، فإن الملحمة الشعبية هى الأخرى آخذة فى الانقراض .

وهكذا يصبح مجرد التفكير فى كتابة الملاحم فى عصرنا الحديث ضرباً من المجازفة ، يتنافى مع حقائق الأدب المعاصر ، بل حقـائق النفس الإنسانية فكيف لمثل هذا الشاعر — الذى يحلم به هؤلاء الدارسون — أن يهيئ فى نفسه تلك الطفولة الغضة ، والسذاجة الساحرة ، التى يكمن فيها جمال الملاحم القديمة ؟!

وجملة القول أن الأدب العربى يخلو تماماً من شـعر الملاحم بصفاته وشروطه وقواعده المعروفة له ، وأن شعر الحماسة — بما فى ذلك شعر الفتوح الإسلامية الذى نعنى بدراسته هنا — لا يدخل فى هذا الضرب من الشعر لمجرد كونه شعراً حربياً ، يعنى بتصوير المعارك والالتحام ، كما أنه لا ترتبط بهذا الضربُ صلة ما تخول لبعض الدارسين أن يفترضوا أن أشعار العرب المفرقة فى أيامهم ومعلقاتهم ، وغزوات نبيهم وفتوحاتهم تكون ملحمة كبرى للعرب ؛ ذلك لأن هذه الأشعار فى مجموعها تدخل فى باب الشعر الغنائى ، الذى يعنى الشاعر فيه بتغنى عواطف ووجدان قومه وجماعته كما يشعر به ، ويصور أحداثاً يعيشها ، بينما يعنى شعر الملاحم باستدعاء أحداث خارقة عظيمة قديمة ومغرقة فى القدم ، ليحكيها فى إطار من التلفيق والخرافة والتهويل ، ويشيع فيها جواً أسطورياً يصور طفولة الأمة فى فجر الإنسانية .

وإن كان قد فات العرب لأسباب معينة أن يحفلوا بهذا اللون فمن العجيب أن نحاول إثبات معرفتهم به بطرق متعسفة ، أو أن نحاول الاعتذار

عنهم والتماس الحجج لهم ، كأنما كان من المفروض عليهم أن تكون لهم ملاحم شعرية .

وسوف نرى أن شعر الفتح قد صور بالرغم من كل هـــذا أحداث الفتوح ومشاعر الفاتحين تصويراً رائعاً ، يمكن أن يكون كتاب فخر وسفر مجد ، يتلوه الأبناء بعد الآباء .

الباب الأول

الشِّعْرُ الإِسْلَامِيّ فِي الفُتوح

الفصل الأول

الفتوح في صدر الإسلام

١ — دواعي الفتوح (الجهاد)

عجيب أن تقتدر أمة ناشئة كأمة العرب المسلمين ، تتعاورها الفتن والاضطرابات ، وحركات الارتداد والانتقاض من كل جانب ، على أن تهدم إمبراطوريتين عظيمتين لتشيد على أنقاضهما إمبراطورية عظيمة ، فى مدى لايتجاوز عشر سنوات ، تشتمل على العراق والشام جميعاً وتتخطاهما فتشتمل على فارس ومصر ، حتى تبلغ حدودها الصين من الشرق ، وتونس من الغرب ، وبحر قزوين من الشمال ، والسودان من الجنوب ..

إن هذه لمعجزة بلا ريب ، ووجه الإعجاز فيها أنها حدثت بأيدى العرب الذين كانوا إلى سنوات قبائل متنافسة ، لا تهدأ منازعتها ، ولا تطمئن فيما بينها إلى قرار .. وبدهى أن قيام الإسلام هو أول هذه العوامل التى حققت المعجزة ، فهو الذى وحد العرب بعد شتات ، وجعل قبائلهم المتنافرة أمة متضافرة ، و فعهم إلى إذاعة تعاليمه ، وإعلاء كلمته . ودفع من يريد فتنة الناس عنه .

وقد كان العرب قبل الإسلام ضعافاً أمام الفرس والروم ، بل إن مناطق كثيرة من بلادهم كانت تخضع لنفوذهما ، فلما أسلموا أسرع هذا النفوذ إلى الانحسار والزوال عن بلادهم كلها ، ولم يلبثوا حتى تخطوا إليهما

للتخوم ، وبواجهوا جيوشهما التى حسبوها من قبل لا تغلب ، وحاصروا حصبونها التى توهموها لا تؤخذ ، فإذا هى تنقض تحت صلابة إيمانهم من قواعدها . وإنما اقتدر العرب بعد إسلامهم على الفرس والروم لأن الإسلام نشأهم نشأة جديدة ، وبث فيهم روحاً أحالتهم خلقاً جديداً ، ذلك بأن اقتحم على نفوسهم مناطق عقائدهم ، واتصل بوجدانهم فى صميمه ، وألقى فيه بذور التوحيد والإيمان والأخوة والتوحد ، صافية فى جوهرها ، نقية من كل شائبة بسيطة البساطة كلها ، فتحررت نفوسهم من قيود الوهم ، وتطهرت قلوبهم من رجس الوثنية ، وشعر كل واحد منهم بأنه لاحجاب بينه وبين الله ما عمل صالحاً واتقاه حق تقواه .

أخذ الإيمان بمجامع قلوبهم ، فجمع بينهم بما سن من نظم روحية واجتماعية ، دفعت فى أفئدتهم قوة معنوية عظيمة ، وحفزتهم للاندفاع إلى ما وراء تخومهم ومواجهة الفرس والروم فى أعقار دورهما ، وهذه القوة المعنوية هى أسس الظفر فى كل نضال ، فصاحبها لا يعرف الهزيمة ولايرضاها ويستهين بكل صعب ، بل يستهين بالحياة نفسها فى سبيل الظفر بالغاية التى يريد بلوغها .

بهذه القوة اندفع العرب لقتال الفرس والروم ، لا حباً فى الغزو وتهافتاً على مغانمه ، وإرضاء لهوى القتال الكمين فى طباعهم — كما يحاول المغرضون أن يصوروا هذا الاندفاع — وإنما جهاداً فى سبيل الله ، يدفعهم إليه الإيمان الصادق بالعقيدة السليمة ، والقوة العاتية التى بثها فيهم الإسلام ، فحببت إليهم الاستشهاد فى سبيل الله ، وفى سبيل الدعوة إلى الحق الذى أوحاه إلى رسوله ، فانطلقوا على رغبة وحنين إلى الجنة ، وباستهانة نادرة بالحياة يتمثلون الآخرة بنعيمها وظلالها ، وكأنما يرونها رأى العين ويطيرون إليها ، متغنين بما وعدوا من جنان تحت ظلال السيوف ، وآخرة هى خير وأبقى ، بأن الله اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيله فيقتلون ويقتلون ، وبأن الذين يقتلون فى سبيل الله ليسوا أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ،

به ، وبشعر لبيد ، وطرفة ، لما فيه من معانٍ تقرب من معانى الإسلام .
وظلت هذه الاتجاهات أهم قيمة نقدية فى الميزان النقدى خلال صدر الإسلام وتمسك بها الراشدون ، فأعلنوا رضاهم عن كل شعر فيه إشادة بالعقيدة والمثل العليا للأخلاق ، التى رسمها الإسلام وأبدوا سخطهم على كل قول يناهض هذه المثل ، أو يثير ما نهت عنه ، أو يدعو إلى رذيلة ، أو يشيع فاحشة ، أو حتى يؤثر الدنيا على الآخرة أو لايجعل الإسلام رادعاً للنفوس عن الانزلاق إلى النزوات كما عاب عمر بن الخطاب على شعر سحيم عبد بنى الحسحاس؛ إذ قدم الشيب على الإسلام رادعاً عن العبث ، فحرمه الجائزة لهذا السبب .(1)

وكان من أضخم تلك الغايات الإسلامية وأهمها ، حركة الدعوة الكبيرة التى بدأها المسلمون وانطلقوا بها عبر حدودهم إلى العراق ، وخراسان ، والشام ، وأفريقية ومصر . وكان على الشعراء الذين استجابوا لهذه التعاليم أن يكونوا فى مقدمة الجيوش الزاحفة أو من خلفها ، يقومون بأداء ما التزموا بأدائه .

ووجد الشعراء الذين أحجموا من قبل عن الالتزام بهذه التعاليم ، فرصة فى انطلاقهم إلى الميادين جنوداً يجاهدون فى سبيل الله ، ويفخرون بجهادهم وبجهاد قبائلهم فى نصرة العقيدة ، بينما انطلق شعر كثير على ألسنة جنود لم يعرفوا بالشعر من قبل . واتسم هذا الشعر كله بالاتصال بوجدان جماعة المسلمين والصدور عنه ، والعزوف عن تقاليد الشعر الجاهلية ، ورفض كل ما لا ترتضيه الفكرة الإسلامية ، فسكتت النعرات القومية المحلية ، وخفت صوت الفخر القبلى ، الإسلام وبالجهاد فى سبيله . واندثر الغزل الحسى ، وأطيح بالمقدمات الطللية ، وما كان يفخر به الفرسان من قبل برواية المغامرات المشتملة على الطرب والشراب والعبث . وإذا بالشعر فى كل أغراضه ومعانيه يتلون بما لا يخدش الغايات السامية . وينطبع بطوابع إسلامية واضحة فى معانيه وألفاظه كما أسلفنا .

ولا ريب أن هذا الالتزام كان يخضع لرقابة المجتمع ، وبعبارة أدق

---

(1) الكامل للمبرد / جـ 1 ص 372

لرقابة وجدانه ، وكما كان يحدث للمنحرفين من الشعراء عن هذه الجادة في الجزيرة من سجن كما حدث للحطيئة ولوم كما حدث لحسان ، كان يحدث ذلك لشعراء الفتح ، وسكان الأمصار المفتوحة من الفاتحين . فهذا النعمان بن نظلة يعزل عن ولاية دست ميسان ، لأنه قال شعراً تغنى فيه بالشراب ، وسماع غناء الدهاقين والقيان . وهذا ، ذو الكلاع يقع في حد الخمر ، عندما يتغنى بنبيذ الشام ، ويكون ذلك سبباً في طبخ كل نبيذ هناك .

وهكذا نستطيع أن نقول : إن طابع الالتزام الذى طبع شعر الفتح غيّر مفهوم الشعر الإسلامى بعامة ، وشعر الفتح بخاصة ، إذ جعله أداة فى خدمة المثل الإسلامية ، والغايات والمبادئ التى تدعو إليها .

وكان لهذا أكبر الأثر فى تلوين أغراض الشعر ومعانيه بلون إسلامى واضح ، يتفق وهذا الالتزام .

وينبع الطابع الثانى ، الذى يطبع شعر الفتح ، من قيم المجتمع الإسلامى أيضاً ، ومن ظروف الفتوح المادية والنفسية ، ومن التقاليد الأدبية الموروثة كذلك . وهذا الطابع هو الإيجاز والقصر . فشعر الفتح : مقطعات قصيرة في مجموعه ؛ ونادراً ما نصادف قصيدة يزيد عدد أبياتها عن العشرة . فقد تخفف شعر الفتح من بعض التقاليد الفنية للقصيد العربى ، وأصبح القصيد مقطعات قصيرة ، لا تحتوى على أكثر من غرض واحد . والإيجاز طابع كان يحظى بتقدير الفكر الإسلامى ، فهذا القرآن الكريم معجزة الفصاحة والبلاغة فى هذا الوقت يبلغ حد الروعة المذهلة فى غير كثير من الإسهاب ، أو الاستدلال فيما لا يحتاج إليهما . وهذا الرسول صلى الله عليه وسلم : يبغض الثرثارين والمتفيهقين ، ويعدهم أبعد الناس منه مجالس يوم القيامة [1] .

وهذه ظروف القتال وحياة الجند المليئة بأعباء الفتوح ، والحركة الدائبة ، وأهوال القتال ، وشدائد اللقاء ، لا تدعو إلى استقرار ، كما لا تساعد على تمهل أو امتداد نفس أو غناء ، او تشقيق للكلام ، أو توليد

---

(1) الكامل للمبرد / جـ ١ / ص ٤

للمعانى . بل إنها لتدعو إلى الإيجاز دعوة ملحة ، وتدفع إليه دفعاً ، وتضطر إليه اضطراراً .

فليس ثمة شيء يريد المجاهد أن يفضى به غير مشاعر اللحظة الوجيزة الحادة . يلقيها دونما إسهاب أو إطالة ، فهى مشاعر واضحة وبسيطة ، وليست بحاجة إلى بيان أو إيضاح أو إفاضة ، كما أنها ليست بحاجة إلى إلحاح على الفكرة أو تقليب لها على وجوهها ، أو تشقيقها أو التوليد منها .

وإنما هى بريق خاطف ، وانفعال لاهب ، وانطلاق راكض ، وتعبير مركز مضغوط . وكانت النتيجة تغيّر صورة القصيدة العربية إلى مقطوعة قصيرة . وأبيات تستوعب الانفعالات الحادة والعواطف الملتّهبة ، التى تشبه الضربات المتلاحقة فى غير امتداد فى النفس أو تمهل فى الغناء ، فانفسح بهذا المجال أمام الرجز بأبياته القليلة لتأدية معانى القصيدة . وقد يجد الشاعر فرصة فى أعقاب المعركة يستشعر فيها على مهل عواطفه ، ويتأمل ذاته تأملاً مستأنياً ، ولكن ذلك كان نادر الحدوث .

وهذا الطابع من القصر والإيجاز يسلمنا إلى طابع آخر ، اتسم به شعر الفتح نتيجة لانطلاق التعبير وحدّته ، والقصد إلى الفكرة مباشرة ، دون إسهاب ، فاتسم الشعر لهذا بطابع العفوية .

ولسنا نقصد بالعفوية ، التحلل من كل قيد ، أو تقليد فنى ، أو نظام . كما أننا لا نعنى بها خلو هذا الشعر من أية قيمة جمالية فنية ، إنما نعنى بها انعدام الصقل والتهذيب والمعاودة والمراجعة . وبالتالى انعدام التكلف والتقعر والتعمل. ونتج عن هذا : أن شعر الفتح وبلا استثناء يتسم بالصدق والحرارة الانفعالية . كاستجابة نفسية حرة وطليقة من إسار العناية والصنعة .

وواضح لمن يمعن فى قراءة هذا الشعر أنه ثمرة خالصة للانفعالات النفسية ، دون شحذ أو صقل ، وأنه استجابة نفسية لما يشعر به الفرد فى تدفق ينساب كانسياب الماء فى المجارى الطبيعية ، الخالية من الصنعة المستأنية والتدبير والتصميم السبقى .

وكان ذلك أثراً من آثار القيم الإسلامية الجديدة أيضا تلك القيم التى

تستمد من سماحة الإسلام وبساطته ، وكراهة التعمل والتكلف ، وهى صفات عنى الإسلام بغرسها فى نفوس المسلمين عامة .

وكان النبي نفسه قد وصف بها فى القرآن الكريم : بأنه لم يكن من المتكلفين [1] وعلى هدى هذه القيم ، كانت الكفة الراجحة فى الميزان النقدى الإسلامى لما كان جارياً مع الطبع ، بعيداً عن التكلف . وكانت الكفة المرجوحة لكل كلام غالى فيه صاحبه وتكلف. فكان التقعر والتشادق عيباً وتصنعاً . ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يعجبه السجع المصنوع الذى يستوى لديه بسجع الكهان ، والذى كان الكهنة يتصنعونه فى حديثهم عن المغيَّبات ، ليكون لكلامهم وقع لدى العامة .[2] وكذلك كان عمر بن الخطاب ينكر الإغراب والتكلف ومخالفة الطبع [3] .

وهو فى الحقيقة إنكار لكل محاولة تهدف إلى التكلف والتشدق ، وإعجاب بكل سمح يبتعد عن القسر والاستكراه . وكان لهذه السمة فضل إيثار الشعراء للإفهام فى صورة بسيطة صادقة مطبوعة ، دون زخرف أو زينة ، ولهذا جاء شعرهم خالياً من أية محاولة مصنوعة للتعمّل ، وتوافرت عناصر الصدق ، وحرارة التعبير ، والاقتدار على التأثير ، بما لها من سماحة الطبع وجيشان العاطفة وعذوبة التعبير ، دون إلحاح على تصوير بيانى دقيق ، أو تصيّد لتشبيه ، أو تعسّف لاستعارة ، أو استجداء لصبغ أو زخرف . وإنما بتعبيره البسيط ، فى صورة بسيطة ، تضمن الأداء على أى وجه اتفق .

وجملة القول أن شعر الفتح الإسلامى قد طبع بعدة طوابع فنية ميزته ، استمدها من الإطار الفكرى الإسلامى العام ، ومن ظروف حركة الفتح الإسلامى الخاصة ، التى صدر فى ظلالها ، ومن التقاليد الفنية الموروثة .

فهو شعر ملتزم بغايات ومبادىء ، يعمل فى خدمتها كأداة اجتماعية وفكرية . وهو شعر قصير وموجز ، تنعدم فيه الإطالة والتهل . كما أنه شعر مطبوع ، طبعته العفوية السمحة التى تتنكب التعقيد والالتواء والتقعر بطوابع من سماحة الإسلام ، وصدق التعبير وحرارته .

---

(1) سورة / ص / آية ٨٦ — (2) المثل السائر ص ١١٦

(3) ذيل الأمالى ص ١٤٢

خاتمة

١ ــ خلاصة البحث

حاولت في الصفحات السابقة أن أدرس شعر الفتوح الإسلامية في عصر صدر الإسلام فبدأت بدراسة حركة الفتوح ذاتها ، باعتبارها وعاء هذا الشعر ، ومهدت لذلك بتجلية الدوافع القوية التي تمثلت في فكرة الجهاد، فدفعت المسلمين إلى الإنسياح في الأرض ينشرون دعوة الإسلام ، واثقين مما وعدوا به من النصر أو الشهادة .

وتعقبت المجاهدين في انطلاقهم إلى العراق ، وما كان للتفكير في فتحه من صلة ، بردة أهل اليمن ودسائس الفرس فيها ، واكتساح المثنى ابن حارثة لتخوم شبه الجزيرة مساحلاً الخليج الفارسي ، إلى أن بلغ العراق واستمال بعض القبائل العربية إليه ، وشجع ذلك أبا بكر على أن فتح العراق . فمهد بفتحه بإرسال خالد بن الوليد وعياض بن غنم إليه ، واستطاع خالد بن الوليد أن يجتاح العراق رافعاً لواء الإسلام في كل المواقع التي خاضها ، ولم يقف في سبيل تدفعه فرس أو عرب غير مسلمين ، حتى حاز سواد العراق ، وضاق بإبطاء عياض الذي كان عليه أن يلقاه بالحيرة فخرج خالد للقائه وكان محاصراً بدومة الجندل ، وفتح في طريقه الأنبار ، وعين التمر ، واستطاع أن يهزم العرب غير المسلمين في دومة الجندل ، وعاد إلى الحيرة ليجد السواد قد انتقض ، فأعاده خاصعاً لسيطرة المسلمين :

وتمكن من أداء فريضة الحج والعودة إلى الحيرة مع جيشه ، دون أن يشعر بذلك أحد .

وفى الحيرة جاءه كتاب أبى بكر ينتدبه لحرب الشام ، فخلّف المثنى ، وفصل بنصف الجند إلى المسلمين باليرموك . وما كاد ابن الوليد يرحل عن العراق حتى ثار أهله بالمسلمين ، ولكن المثنى انسحب من الحيرة إلى بابل ، واستغل أزمة البلاط الفارسى ليقابل أبا بكر فى المدينة ، ويستأذنه فى السماح لمن حسن إسلامه – من أهل الردة – بالجهاد ، وتصادف أن الخليفة التحق بالرفيق الأعلى ، بعد أن أوصى خلفه بندب الناس مع المثنى . وكان أول من انتدب أبو عبيد مسعود الثقفى ، الذى لحق فى جنده بالمثنى ، حين كان أهل فارس قد قضوا على خلافاتهم ، ووضعوا الأمر فى يد رستم . فدس الدهاقين للثورة بالمسلمين ، وجهز جيوشاً هزمها المسلمون فى النمارق وباقسياثا. وعاود رستم الكرة فجهز جيوشاً التقت بالمسلمين فى قس الناطف حيث حدثت كارثة الجسر وهزم المسلمون لأول مرة فى الفتوح ، وفرّ منهم إلى المدينة عدد كبير أحسن عمر استقبالهم ، وأمدهم من روحه بما أعاد لهم الثقة بأنفسهم ، وراح يندب الناس جاهداً ، أو يستصلح بعض القبائل ، كبجيلة ، والأزد ، وبنى كنانة . بينما كان المثنى يستميل بعض نصارى بنى النمر والتقى بالفرس عند أُلَيّس وانتصر عليهم وانتهت الخلافات بين رستم والفيرزان فأرسلا مهران فى جند عظيم ، ثأر منه المسلمون لشهداء الجسر عند البويب وما لبثت الخلافات بين رستم والفيرزان أن عادت تفرّق شمل الفرس، لكن أهل فارس ثاروا عليهما ولم تهدأ الثورة حتى نصب يزدجرد ، وتوحدت صفوف الفرس لمواجهة العرب فى وقعة فاصلة . وكانت القادسية التى تعد ملحمة المسلمين ، لما كان فيها من بلاء عظيم وفداء صادق ، وانتصر المسلمون فيها بفضل إيمانهم ، وتثبتت أقدامهم فى العراق . وهزم المسلمون فلّ القادسية فى بابل ، ولم يبق أمامهم إلا المدائن فحازوها ، كما حازوا قصور كسرى وأمواله وجواهره .

ويبدأ المسلمون يفكرون فى إسقاط فارس ؛ فتم تمصير الكوفة والبصرة بعد أن لم يتلاءم المسلمون مع جو المدائن ، فأخذت الفتوحات تترى بعد

ذلك ، حيث فتح أهل الكوفة الرى وأذربيجان وأرمينية وطبرستان وجرجان ، وفتح أهل البصرة الأهواز وتستر ورامهرمز والسوس وجند يسابور .

وبسقوط المدائن انتهت المقاومة الفارسية الرسمية للمسلمين ، ولكن بقاء الملك يزدجرد حياً كان رمزاً يتجمع حوله الفرس من حين إلى حين ، فطارده المسلمون فى حلوان ، وفى الرى ، وفى قرميسين ، ثم فى نهاوند حيث دارت معركة تقرر فيها مصير دولة الفرس نهائياً . وبعد فتح الفتوح لم يلق المسلمون كيداً ، فقد راحوا ينطلقون فى أطراف السواد ، فحازوا تكريت ، وماسبذان ، وقرقسيا . وعقدت ألوية المسلمين لإسقاط فارس . فاستطاع الأحنف بن قيس أن يسيطر على خراسان ، وحاز عثمان بن أبى العاص اصطخر ، وسارية بن زنيم فسا ودراخرد . وسهيل بن عدى كرمان . والحكم بن عمرو مكران ، حتى وصلوا إلى السند .

وتقدم المسلمون يطاردون يزدجرد حتى قتلوه فى الرى . وأمرهم عمر بألا يعبروا النهر فتوقفوا على مضض. وبهذا يكون فتح العراق وفارس قد تم فى عهد أبى بكر وعمر ، إذ اقتصرعهد عثمان على تأمين هذه الفتوح فحسب ، ولم يفتح فى عهده غير طبرستان ، على يد سعيد بن العاص .

ثم رافقت المجاهدين فى فتح الشام الذى اتجه إليه أبو بكر ، استكمالا لسياسة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تأمين التخوم العربية الشمالية . وقد اقترنت ظروف فتحه بحرب الردة أيضاً ، فقد أرسل أبو بكر بخالد بن سعيد ليكون ردءاً للمسلمين فى تيماء ، حيث اجتمع إليه بعض القبائل العربية . وكان العراق قد وقع فى أيدى المسلمين ، وفتح الله عليهم دومة الجندل ، فى الوقت الذى أرسل فيه خالد بن سعيد إلى أبى بكر يستأذنه فى لقاء الروم وبعد أن استشار أبو بكر أولى الرأى من المسلمين عقد العزم على فتح الشام ، فكتب إلى أهل اليمن يستنفرهم ، وإلى عماله يخيرهم بين العمالة والجهاد ، وأرسل إلى خالد بأن يلقى الروم ، وانتصر خالد على الروم وحلفائهم من

العرب . وتقدم وأبو بكر يرمى إلى الشام بكل من يقدم عليه ،فسير إلى خالد عكرمة والوليد بن عقبة ، حيث التقى المسلمون بباهان ، فخدعهم عن أنفسهم فى مرج الصفر ، ففر خالد ، وانحاز عكرمه بالمسلمين ، حيث لحق به الوليد . ولما بلغت الهزيمة أبا بكر اهتاج للشام ، فعقد ألوية أربعة لأبى عبيدة ، وليزيد بن أبى سفيان ، ولشرحبيل بن حسنة ، ولعمرو بن العاص . وعين لكل منهم وجهته ، والتقى الأمراء الأربعة بعد أن و ل الروم بكل منهم جيشاً ، وخشوا أن يلقوا الروم على انتشار ، وكان رأى الخليفة أن يجتمعوا .

وفى اليرموك التحق بهم خالد بن الوليد ، حيث كان النصر فى أول يوم تأمّر فيه . وتقدم المسلمون يحاصرون (فحل) فلما استعصت عليهم قصدوا دمشق ففتحها الله عليهم ، وعادوا ففتحوا (فحل) وسيروا كتيبة العراق بقيادة هاشم بن عتبة ابن أبى وقاص . كما سارت حملات لتطهير الأردن ، ففتح شرحبيل وعمرو بيسان ، وأبو الأعور السلمى طبرية . وصالحت أذرعات وعمان وجرش ومأرب وبصرى . وحاول الروم استعادة دمشق فقضى خالد ويزيد على محاولتهم ، وانطلق أبو عبيدة يطاردهم ، وحاصر بعلبك ، وانتهى إلى حمص . وكان هرقل قد فرّ منها إلى أنطاكية ، وبعد حصار طويل سلمت المدينة وسلمت حماة واللاذقية بعد ذلك . وفتح خالد قنسرين ، وسلمت حلب لأبى عبيدة ، وسلمت انطاكية بعد أن فر هرقل إلى الرها ، وأقام فيها حامية ،بعد أن أخمد عياض ثورتها . ولكى يتصل الشام بالعراق بدّد أبو عبيدة شمل عرب الجزيرة ، وفتح قورس ، وفتح خالد مرعش ، وكان يزيد قدفتح بيروت والثغور المجاورة . ويئس هرقل ، فترك الرها إلى القسطنطينية ، حيث التحق به جبلة بن الأيهم بعد أن ارتد .

وبينما كان أبو عبيدة يجتاح الشام ، كان عمرو وشرحبيل يواجهان الأرطبون فى فلسطين ، حيث أرسلا معاوية لفتح قسيارية ، حتى لا يأتى المدد منها لأرطبون . ووجها علقمة بن حكيم ومسروق العكى إلى إيلياء ،

وابا أيوب المالكي إلى الرملة ، لتتبدد قوى الأرطبون بين هذه المناطق .
والتقى عمرو بالأرطبون فى أجنادين ، حيث اندحر الروم وفروا إلى بيت المقدس
ورأى عمرو أن يقطع عليهم خط الرجعة من ناحية البحر ، فأرسل حملات فتحت رفح ، وغزة ، وسبسطية ، ونابلس واللد ، وعمواس ، وبيت جبرين ، ويافا . وحاصر عمرو بيت المقدس ، وبعد استماتة المدينة فى الدفاع طلبت الصلح ، واشترطت حضور الخليفة ، حتى يمكن للروم الانسحاب إلى مصر .

ولم يعترف الروم بضياع سلطانهم على الشام ، ولم ييئسوا ، فحاولوا استعادتها ، فرتبوا مع القبائل العربية فى شمال الشام مؤامرة رافقت وصول حملة قسطنطين إلى أنطاكية ، ووجد المسلمون سلطانهم على الشام مهدداً بالضياع ، واهتم الخليفة عمر بالأمر . فأمد أبا عبيدة ، وأفلح المسلمون فى عزل العرب عن الروم وانفردوا بهم . حيث لقنوهم درساً وألجئوهم إلى الانسحاب .

ولم يكد المسلمون يفرغون من الروم حتى حدث وباء الطاعون ، وصادف ذلك مجاعة بشبه الجزيرة . وأضر الطاعون بالمسلمين ، فراح ضحيته خمسة وعشرون ألفاً منهم . وكانت أقدام المسلمين قد ثبتت فى الشام ، ولكن حملة قسطنطين أكدت لهم أن بقاء مصر فى يد الروم أمر لا تحمد عقباه ، ومن ثم راح عمرو بن العاص يلح على عمر فى الجابية بفتح مصر .

وصادف فتح مصر تردداً من الخليفة بادئ الأمر . ولكن عمراً استطاع أن يقنع الخليفة بالمكاسب التى يمكن أن تعود على المسلمين من جراء فتحها ، وبسط له أمر الخلاف المذهبي بين الحكام والمحكومين ، وما يعانيه المصريون من عسف الروم ، وما يرزحون تحته من أعباء الفتن والضرائب والمكوس ، والاضطهاد الدينى الذى يلقاه المصريون اليعاقبة من محاولة هرقل فرض مذهبه الجديد ، الذى ابتكره له سرجيوس ، للتوفيق بين الملكانية واليعقوبية ، فضلا عن الاضطهاد الاجتماعى والسياسى الذى يتعرض له المصريون ، نتيجة للسيطرة الرومية على أمور المصريين جميعاً .

وسار عمرو إلى مصر ، حيث أدركه كتاب عمر الشهير بقرية من قرى العريش ، فسار على بركة الله ، واخترق رمال سيناء إلى العريش ففتحها ثم اتجه إلى الفرما فافتتحها ، وكانت بمثابة مفتاح مصر . وبعد حرب دامت شهراً استولى على بلبيس ، وهزم الروم بها هزيمة بالغة . ومضى عمرو حتى أتى أم دنين ، وهي قرية على النيل شمالى حصن بابليون ، وتعتبر مسلحة للحصن الذى لاذ به الروم ، وتجهزوا لحرب فاصلة . وحاصر عمرو أم دنين ، وأرسل يتعجل المدد فوصله في الوقت المناسب ، حيث استطاع المسلمون فتح أم دنين ، ومنها استقلوا سفناً كانت راسية بمرفئها وعبروا النيل إلى الغرب ، حيث انتصروا في الفيوم على حنا ، وعادوا سراعاً ليلتقوا بأمداد جديدة في هليوبوليس حيث عسكروا بعين شمس .

وخشى الروم أن يظن بهم المصريون الخور أمام المسلمين إذا ظلوا ملازمين لبابليون فخرجوا إلى المسلمين ، وأقام لهم عمرو كمينين في طريقهم عصفا بهم . واحتل المسلمون حصن أم دنين كرة أخرى ، وكان فل الروم قد لجأ إليه ، وحاصر عمرو بابليون ، وأرسل حامية استولت على إقليم الفيوم ، وحامية أخرى استولت على إقليم المنوفية ، والروم يفرون هلعاً إلى الإسكندرية .

وحال ارتفاع النيل بين المسلمين والحصن ، وتراشق الروم والمسلمون بالسهام والمنجنيق ، ولم ييئس المسلمون بعد شهر فرأى المقوقس أن يصالحهم ، ولم تجد المفاوضات ، واقتتل الفريقان حتى ألجأ المسلمون الروم إلى الصلح ، وعلق نفاذه على موافقة هرقل ولكن هرقل رفض وعزل المقوقس وعاد القتال بين الفريقين كرة أخرى واستمر الحصار سبعة أشهر ، حتى خشى عمرو أن يضيق جنده ، فوهب الزبير نفسه وتسور الحصن ففتحه الله عليهم ، وانفتح الطريق أمام المسلمين إلى مصر السفلى . واستجاب القبط للمسلمين فعاونوهم في تمهيد طرقهم إلى الإسكندرية . على الرغم من فيضان المياه .

واستغرق مسير المسلمين إلى الإسكندرية اثنين وعشرين يوماً ،

اصطدم فيها المسلمون بالروم فى ترنوط عند فرع رشيد . وعند الكوم وفى سنطيس ، وانتصر المسلمون فى هذه المصادمات . ثم التقوا مع الروم فى وقعة الكريون ، حيث اقتتلوا عشرة أيام متصلة قتالا عنيفاً ، إذ كانت الكريون آخر سلسة من الحصون قبل الإسكندرية . وكانوا فى الحقيقة يدافعون المسلمين عن التقدم إلى الإسكندرية ، واستبسلوا فى الدفاع حتى صلى عمرو صلاة الخوف ونصر الله المسلمين .

وأبلت الإسكندرية فى الدفاع أمام المسلمين ، الذين لاقوا شدة من منجنيقاتها وحصانتها . وتنبأ عمرو بطول الحصار ، فأرسل حملات لتطهير الدلتا . وبرغم توقف الإمدادات وموت هرقل لم تيئس الإسكندرية . وكان عمر فى المدينة حنقاً لإبطاء الفتح ، فأرسل كتاباً عنيفـاً إلى عمرو قرأه فى جنده ، وعقد لواء الإسكندرية لعبادة ففتحها الله عليه . وأسرع المقوقس ليعقد الصلح مع عمرو .

وذهل المسلمون أمام روعة الإسكندرية وراحوا يستقرون بمصر ، وابتنوا الفسطاط ، ولكن الروم عادوا كرة أخرى كما فعلوا بالشـام يحاولون استعادة مصر بحملة قادها منويل ، فاحتل الإسكندرية ، وتقدم إلى الدلتا . وانتدب عثمان بن عفان عمراً رائد فتح مصر فأذاق الروم هزيمة منكرة فى الإسكندرية ، ثم هدم أسوارها ، وارتدت الحملة خاسرة لكن الروم عادوا بعد ذلك يحاولون نفس المحاولة بعد تسع سنوات فى مشروع قسطانز ، لاستعادة مصر والشام ، وأوقع العرب بهم ، ولقيت فلولهم عاصفة أتت عليهم فى البحر .

ولم يستطع المسلمون أن يتقدموا فى بلاد النوبة بعـد ما لاقوا فى المعركة التى قادها عقبة بن نافع — إذ رجع المسلمون وقد أصابت سهام القوم أحداقهم ، فاتجهوا إلى الغرب . وفتح عمرو بعد فتح الإسكندرية ، برقة وطرابلس ، ثم بعث بنافع ففتح زويلة ، وأراد الانسياح فأوقفه الخليفة ، فاستدار يتوسع فى المناطق الداخلية فحاز فزان ، وودان ، وسبرت .

وفى عهد عثمان ، استطاع عبد الله بن سعد بن أبى سرح – والى مصر – أن يهزم جرجير ويفتح أفريقية ، ولكنه بعد حرب دامت شهور يتركها عائداً إلى مصر ، بعد أن بلغته أخبار حملة منويل – على ما نظن – ولكن ما تلبث حتى يتلألأ اسم عقبة بن نافع فى هذه المنطقة فيما بعد عصر الراشدين .

وقد تبين لى ، أن تصنيف الجيوش والإمدادات التى فتحت هذه المناطق الشاسعة كان له أثر بعيد فى كثرة الشعر على ألسنة الفاتحين فى الميدان الشرقى ، ذلك أن الجيوش التى وجهت إلى هذا الميدان كانت نزارية . فكتيبة المثنى كانت تضم قبائل بكر وإياد وتغلب والنمر . وكتيبة خالد كانت كثرتها من المهاجرين والأنصار ، وفيها قوم من طىء وجديلة . وانتدب أمراءه الأربعة : حرملة ، وسلمى ، والمثنى ، ومذعوراً ، وكانوا فى ثمانية آلاف من ربيعة ومضر . وكانت كتيبة عياض من ربيعة ومضر أيضا .

وكان لواء أبى عبيد من الأنصار ، ولحق به بعض المتطهرين ، واستطاع المثنى أن يستميل نصارى بنى النمر ، ثم كان جيش الثأر مكوناً من بجيلة ، والأزد ، وكنانة ، فى سبعمائة ، ولحق بهم نفر من الرباب ، ونفر من بنى سعد ، ومن خثعم ، ومن بنى حنظلة ، ومن بنى ضبة ، وناس من عبد قيس ، والنمر ، وتغلب .

وكان جيش سعد بن أبى وقاص إلى القادسية مكوناً من ألف ، من قيس عيلان ، وألف وخمسمائة من بارق ، وألمع ، وغامد ، وألف من نخع وأمده عمر فى الطريق بألفى يمنى ، وألفى نجدى من غطفان وسائر قيس ؛ ولحق به ألف وسبعمائة من أهل اليمن . وتتام جيش القادسية بعد انضمام جند المثنى ، وعدته عشرون ألفاً ، منهم ثمانية آلاف من ربيعة ، وأربعة آلاف من حلفاء المثنى ، وأربعة آلاف من جند أبى عبيد ، وألفان من بجيلة ، وألفان من طيئ ، وستة آلاف من جند خالد الذين قدموا من اليرموك . فتتام جنده فى القادسية ستة وثلاثين ألفاً ، كثرتهم من عرب الشمال النزاريين .

ولما استوطن العرب الكوفة والبصرة ظهر فى تخطيطها غلبة عرب الشمال على عرب الجنوب ، مما كان له أكبر الأثر فى كثرة الشعر على ألسنة الفاتحين ، حتى ليخيل إلى الدارس أن الفاتحين جميعاً كانوا شعراء دون استثناء ، إذ أصبح الشعر أو كاد يكون حظاً مشتركاً بين جميع الفاتحين . فشكل شعر الفتح فى الميدان الشرقى كثرة شعر الفتوح ، ثم راح يسجل أحداث الفتح وسيره خطوة خطوة ، فلم يغادر معركة ، ولم يترك صداماً ، ولم يقصر عن تسجيل حوادث الفتح جميعها ، تصويراً شاملا ودقيقاً ، حتى ليمثل وثيقة تاريخية واجتماعية خطيرة فى هذا الميدان .

والأمر يختلف فى الشام ، فلواء خالد بن سعيد كانت كثرته من قبائل العرب الضاربة فى تخوم الشام ، كقضاعة ، وكلب ، وجهينة ، وعذرة . وعندما استأذن فى لقاء الروم راح أبو بكر يستنفر أهل اليمن فأجاب دعوته وجوه اليمن ، كذى الكلاع فى حمير ، وقيس بن هبيرة فى مذحج ، وجندب بن عمرو فى الأزد ، وحابس بن سعد فى طيء ووافق قدوم كتاب خالد قدوم عكرمة فيمن معه من تهامة وعمان والشحر والبحرين ، فبعث بهم أبو بكر إلى خالد ، واستنفر الخليفة عماله ليستنفروا من حولهم ، فاستجاب لعمرو خلق كثير من عمان ، واستجاب للوليد جموع من قضاعة . وأمر أبو بكر يزيد بن أبى سفيان على ألف من أهل مكة ، كما أمر أبا عبيدة على جند عظيم من المهاجرين والأنصار .

وكان جيش عمرو الذى فتح مصر من جند الشام . ويجمع المؤرخون على أنه كان يمنياً من عك أو من عك وغافق ، وانضم إليه بعض الأبناء وعرب سيناء القضاعيين ، وقوم من بنى راشدة ، وأناس من لخم . ولو رجعنا إلى تسمية القبائل فى الخطط التى نزلوها فى مصر لاتضح لنا أن كثرة هذه القبائل من عرب اليمن ، الذين ظلوا غالبين على من سواهم من العرب ، حتى ولاية عبد العزيز بن مروان ، الذى ضاق ببلد ليس فيه أحد من بنى أمه .

وكانت نتيجة غلبة اليمن على جند مصر والشام ، أننا لا نكاد نجد فى

الشعر صورة كاملة للفتوح في الشام كهذه التي رأيناها في العراق ، فالشعر في الشام لم يستطع أن يصور جوانب الفتوح تصويراً شاملا ولا دقيقاً ، بينما لا نكاد نجد في مصر شعراً على الإطلاق . سوى ما كان من آثار الهذليين ، وهي أبيات قليلة لأبي ذؤيب في أفريقية ، وقصيدة وحيدة لأبي العيال الهذلي ، قالها في حملة « قسطانز » ، وقد لاحظت أن لكون المؤرخين ورواة الشعر عراقيين دخلا في عدم الإهتمام بتدوين شعر مصر والشام والعناية به .

وبعد أن درست الشعر في الفتوح على هذا النحو حاولت أن أتعرف على شعراء الفتوح الذين خلّفوا لنا هذا الشعر . وإذا بالإسلام يغير مظاهر الحياة العربية جميعها ، ومنها الشعر ، فيحدد له قيما تتفق و تعاليمه ، فإذا بنفر من الشعراء يقوم بها خير قيام ، وإذا بنفر آخر لا يستطيع أن يواكب هذه القيم وتلك المهام ، فيخفت صوتهم إلى حين . ويعلو صوت القرآن ، إذ يجد فيه المسلمون بغيتهم . وعندما يتدفق المجاهدون إلى الفتوح تذكو جذوة الشعر العربية وتنطلق ألسنة الشعراء بما حبس في نفوسهم زمناً ، عندما يقفون مواقف قريبة من مواقفهم القديمة مع فارق الهدف . وتفتح الفتوح أمامهم آفاقاً واسعة ، وتمدهم بتجارب كثيرة وحافلة بألوان من العواطف والمشاعر ، كأنما أطلقت عقدة ألسنتهم ، وأسعفتهم التجربة الشعورية الضخمة ، فشارك في الفتوح شعراء ناضجون ، كأبي محجن الثقفي ، وعبدة بن الطبيب ، وربيعة ابن مقروم الضبي ، وعمرو بن معد يكرب الزبيدي .

وشعر هؤلاء يتميز عن شعر غيرهم بأصالته ونضجه ، وغلبة الفخر الفردي على الفخر بجماعة المسلمين ، كصدى لإحساسهم القوي بأنفسهم . وللأسف لا يمثل شعر هؤلاء الشعراء إلا قدراً قليلا جداً من شعر الفتوح ، برغم طول القصائد التي تروى لهم في الفتوح ، كاللامية المنسوبة لعبدة ، واللامية الأخرى المنسوبة لربيعة بن مقروم الضبي .

وقد تبين لي أن هاتين القصيدتين وغيرهما من شعر القدماء قد استغرق نظمهما عصرين مختلفين ، بمعنى أن أبياتاً قليلة تتحدث عن الفتوح في القصيدة

لا تبرر القصيدة كلها ، التي يتحدث الشاعر فيها عن أشياء حظرها الإسلام ، كالخمر واللهو والعبث بالنساء والطرب والغزل الحسي . واستنتجت من ثم أن تكون أبيات الفتح قد ضمت إلى القصيدة الجاهلية فيما بعد الفتوح . وأكد هذا ، اختلاف شعر الفتح في شكله وفي مضمونه عن شكل أمثال هاتين القصيدتين ، وما هو بيّن من اختلاف في الصياغة بين الأبيات الإسلامية والقصيدة برمتها ، حتى لتبدو هذه الأبيات غريبة في مكانها من القصيدة كما أكد ذلك ما هو جلي من خلاف بين القصيدة ، وما هو ثابت من شعر إسلامي ، منسوب للشاعر في المضمون والصياغة .

والمزج الذي حدث في شعر هذين الشاعرين بين الإسلامي منه والجاهلي حدث في أخبار ابن محجن الثقفي ، إذ حاولت الروايات ـ بتأثير النزعات الشعبية ـ رسم صورة مغرية للشاعر الفارس ، مزجت فيها أخباراً بأخبار ، وأوّلت أحداث حياته في الفتوح تأويلات تخدم هذه الصورة المغرية .

وقد يبدو جلياً أن هؤلاء الشعراء القدامى لا يتسع تأثير الإسلام عندهم ، على حين لا نجد لغيرهم شعراً على الإطلاق .

وإلى جانب هذا الجيل القديم من الشعراء نبت جيل آخر في حقل الفتوح ، وهو جيل يختلف عمن سبقه من الشعراء في حظه من النضج ، ومدى إسهامه في التعبير عن أحداث الفتح ومشاعره ، وكثرة الشعر الذي انطلق على ألسنتهم ، حتى ليخيل إلى الدارس أن الفاتحين جميعاً استحالوا شعراء في الفتوح .

وهؤلاء الشعراء الذين أنطقتهم الفتوح ينقسمون في تصورنا إلى قسمين قسم مغمور كان له كلف بالشعر القائم وإن لم يعرف به ، أو يذع له ذكر ، بدليل هذا النضج الذي نجده في شعرهم ، وهذا الإنكار الذي نجده لأسمائهم وحياتهم في تاريخ الأدب . لانعدام رصيدهم الفني قبل الفتح . ورغم هذا فإن دورهم هو الدور الرئيسي في التعبير عن أحداث هذه التجربة .

والقسم الثانى – من هؤلاء الشعراء الذين أنطقتهم الفتوح – يشكل ظاهرة جديرة بالنظر؛ إذ لم يكن منهم أحد يرتبط ارتباطاً ما بالشعر. وكانت أول علاقتهم به يوم أن حملوا السلاح وخاضوا المعارك فإذا بأنفسهم تجيش بالشعر فينطلق البيت أو البيتان، تنفيساً خالصاً.

وهؤلاء يمثلون السواد الأعظم من الفاتحين، وشعرهم ليس إلا استجابة حرة لتجاربهم ومشاعرهم، ولكثرتهم وتشابه ظروفهم اختلط شعرهم فيما عدا من كان منهم قائداً أو أميراً، فحافظت شهرته الحربية على شعره.

ومن الشعراء القدامى أخذت أنموذجاً، عمرو بن معد يكرب الزبيدى الشاعر الفارس الشهير؛ فإذا حياته الجاهلية تمثل شعره الجاهلى تمثيلا صحيحاً. وشعره يدل على حياته دلالة واضحة، أما حياته فى الإسلام فلا يكاد شعره فى الفتوح يحدد جوانبها أيما تحديد. ويلاحظ الدارس نفس الملاحظة، التى يمكن ملاحظتها فى شعر عبدة وربيعة. كما يلاحظ أن شعره لم يتأثر تأثراً ما بالإسلام، ولم يكتسب خصائص إسلامية من واقع الحياة التى عاشها فى الفتوح. فإن شعره القليل الذى خلفته الفتوح لا يكاد يفترق فى شىء عن شعره الجاهلى، وإن مال إلى التقريرية، ولكنه احتفظ بخصائص قديمة له كحرارة التعبير، ولا يخرج الأمر عنده عن استبداله أياماً إسلامية بأيام جاهلية.

ويتضح ما بين هذا الجيل القديم والجيل الجديد من الشعراء الذين أسهموا فى التعبير عن حركة الفتح حينما يستعرض الدارس أنموذجاً للشعراء الذين نضجوا فى أثناء الفتوح، كالقعقاع بن عمرو التميمى، فحياته فى الفتوح واضحة فى شعره وضوحاً كبيراً. ومفصلة فيه تفصيلا دقيقاً، إذ هو فتى أشربت روحه الإسلام، وباع حياته خالصة فى سبيل الجهاد، واستمات فى نصرة الدين يرجو به وجه الله فحسب، فى حين رأينا عمراً يبغى أن يحافظ على مجد قديم، وشجاعة سارت بذكرها الركبان فى الجاهلية. ولهذا فإن شعر القعقاع مرآة لحياته الباسلة فى سبيل الله، كما أنه مرآة للفتوح بأسرها. ومن ثم

يمكن أن يكون شاعر الفتوح بلا منازع ، إذ تتمثل فيه كل خصائص شعراء الفتح ، ويجمع شعره كل طوابع شعر الفتوح .

فإذا ما أراد الباحث بعد هذا أن يتبين ماهية هذا الشعر ومقوماته وطوابعه فإنه يتبين قبل كل هذا خطر شعر الفتح ، ودوره فى نجاح هذه الفتوح ، مما يكشف عن القيمة الفاعلة للأدب فى صنع الحياة ، وما كان من استيعابه للطاقات النفسية التى أضرمت فى نفوس المجاهدين .

وهذا الشعر ينقسم إلى لونين من حيث شكله هما : القصيد والرجز الذى انفك عن دوره القديم كوزن من أوزان الشعر ، له مهمة خاصة فى الحداء والحروب والمفاخرة ، إلى أن صار قالباً من قوالب التعبير الفنى كالقصيد سواء بسواء فقد كان أداة كثرة الشعراء المغمورين ، الذين عبروا فيه عن أنفسهم تعبيراً بسيطاً ، يتناسب ومدى النضج الذى يتمتع به شعرهم . وكان أيضاً قالباً اتسع لموضوعات القصيد ، نتيجة لاستخدامه على هذه الصورة ، فقاسم القصيد ألوانه وموضوعاته ، إلى جانب قيامه بدور الطبول التى تقرع لتحميس الجند ، وإشعال أوار الحروب . وقد فُسح للرجز أن يشارك القصيد فى موضوعاته ، نتيجة لما أصاب القصيد من انكماش فى شكله ، لظروف القتال واضطرابها وقلقها ولما حظره الإسلام من الغزل وغير ذلك مما يجافى طبيعة الظروف الجادة فى المعارك . فاستحال القصيد إلى مقطعات قريبة فى شكلها من الرجز ، وتخفف القصيد من المقدمات والغزل وما إلى ذلك من التقاليد الفنية القديمة ، وأصبحت مقطوعات القصيد تشتمل على غرض واحد ، ومستقل كالرجز سواء بسواء .

ومن بين الموضوعات التى جال فيها شعر الفتح موضوعات قديمة فى الشعر العربى ، كالفخر والرثاء ، ولكننا نجدها يتطوران فى شعر الفتح ، إذ يتطور الفخر القبلى الذى يقوم على المفاخرة بالأحساب والعصبيات والنعرات إلى شعر يفخر فيه المجاهد ببلائه وبطولته فى سبيل فكرة الجهاد

من أجل العقيدة التي يؤمن بها ، ويتعدى ذلك إلى استشعار الشاعر وجداناً جماعياً للمسلمين يصدر عنه ، سواء أتغنى به أم تغنى بفرديته كعضو فى إطاره .

وتشيع فى هذا الشعر معانى الفداء والتضحية والإيمان بنصر الله ، كما يشيع فيه إخلاصٌ للفكرة الإسلامية ، ورفض لما عداها من زخرف الدنيا . وقد قاسم الرجز القصيد فى هذه المعانى ، فى حين تطور الرثاء من الإشادة بالفقيد — وما كان يتمتع به من صفات المروءة الجاهلية — إلى أن يصبح تعبيراً عن الإيمان المؤكد بالموت ووجوبه ، والتسليم به ، والصبر عليه ، واستشعار ما أعده الله للشهداء ، فضلا عن الإشادة ببطولة الشهيد ، وما قدم فى سبيل الله من تضحيات ، إشادة تتصل بالفخر والجهاد اتصالا وثيقاً . وبرغم قلة الرجز الذى ذهب هذا المذهب فإنه يعبر عن مدى التطور الذى أصاب الرجز الجاهلى فى رثاء المحاربين ، وقد استجد فى الرثاء لون طريف صوره الشعر والرجز ؛ ذلك أن بعض المجاهدين راحوا يرثون ما كانوا يفقدون من أعضاء أجسادهم وأشلائهم ، رثاء يمتلئ بصـــور من البسالة والاستهانة بما فقدوا فى سبيل الفكرة ، أمام ما أفقدت العدو من أرواح وأعضاء ولا يستشعر الراثى أى شعور بالحسرة ، إلا بسبب حرمانه من الجهاد بسبب ما فقد من أعضاء جسده .

ويرى الدارس لشعر الفتوح موضوعات جديدة لم يعرفها الشعر العربى من قبل ، نتيجة لنزوح المجاهدين إلى بيئات بعيدة ومختلفة عن مواطنهم ، فكان أن أحسوا بالغربة ، وامتلأت صدروهم بشجى الابتعاد عن مواطنهم وأحبائهم ، وراحوا يبكون غربتهم وحرمانهم فى حنين شجى حزين ، يذكرنا ببكاء الأطلال فى الشعر الجاهلى . كما راحوا يعبرون عن مشاعرهم بإزاء البيئات الجديدة ، ويصورون مدى التزاوج بين نفوسهم وبينها . وكثر الشعر الذى يتشوق فيه المحاربون إلى نجد ، ويذمون فيه مواطنهم الجديدة . وهرب بعضهم إلى الطبيعة فبثها شجوه فى شعر رائق ، ولم يستطع الرجز بما أوتى من نغم جهورى أن يعبر عن مثل هذه المشاعر المهموسة .

وحظيت المشاهد الغريبة التي عاينها الفاتحون بالتفاتهم فصوروها ، وصوروا انطباعاتهم بإزائها ، فوصفوا الطبيعة في بيئاتهم الجديدة ، وبردها وثلجها . ووصفوا الفيلة وغرابتها وشدة قتالها . ووصفوا ما عانوا من الأوبئة والحشرات ، وما تعرضوا له من عبور الماء وركوب البحر ، وما ذاقوا من الأطعمة والأشربة الفارسية ، وما آل إليهم من الفيء والمغانم ، وما رأوا من ألوان الحضارة الفارسية المختلفة في الملبس والحديث ، وما انزلق إليه بعضهم من العبث والسماع والطرب والخمر . وواكب الرجز شعر القصيد في هذه الموضوعات جميعها .

وانطبع شعر الفتوح في مجموعه بطوابع إسلامية واضحة في شكله ومضمونه . ومن أبرز هذه الطوابع ، صدور الشعر عن روح الجماعة الإسلامية ووجدانها الجماعي ، الذي استوعب النزعات القومية المحلية ، والعصبيات القبلية ، فطواها وصاغها صياغة جديدة في إطار جديد ، كما صدر عن تلك المثل الإسلامية الرفيعة وعني بتمثلها ؛ وصور تطبيق النظم الإسلامية في الأمصار الجديدة .

وانطبع هذا الشعر أيضاً بما انطبعت به النفوس المؤمنة من المشاعر والحرص على الفوز بما وعد ، والاستسلام لقضائه . وما بثه الإسلام في العرب من ثقة بأنفسهم واعتزاز تضاءلت أمامه هيبة الدول التي تسلطت عليهم بالأمس فأدالوها وسادوها ، بما دفعه الإسلام فيهم من روح جديدة ، أكدت لهم أن الله اصطفاهم لهداية العالمين إلى ما هداهم به .

واصطبغ الشعر كذلك في ألوانه جميعاً بصبغ إسلامي خالص ، في معانيه وتعبيراته وألفاظه ، تجلت بصورة أوضح فيما حاوله بعض الشعراء الذين تعمقوا روح الإسلام من محاكاة المعاني الإسلامية ، والتعاليم الدينية ، وآيات الكتاب الحكيم .

واتسم الشعر أيضاً بعدة طوابع شعبية في نصوصه ورواياته ، وما دار حول شعرائه من أقاصيص ، بفعل اهتمامات أفراد الشعب في المعارك

وعلى أطرافها ، وتغنيهم بانتصارات المسلمين ، ورغبتهم فى تصويرها تصويراً معجباً ، يرضى نوازع الزهو فيهم ، وتملق القصاص فيهم هذه المنازع وأرضوها بما زادوه فى قصص الفتوح ، وما نسبوه إلى فرسانها المشهورين من أفعال ، تحولت بسيرهم من الواقع إلى ما يكاد يشبه الأساطير ، ونسبته إلى من لم تكن له شهرة بالشعر منهم . وللأسف ضاع جل هذا الشعر ولم يبق منه شيء وإن وجدنا أثر هذه التزيدات واضحاً فى سير الفرسان دائماً.

وتخلف عن هذه المعارك بعض أبيات من الشعر ، قالتها العصبيات إبان المواقع الفاصلة ، من أجل المفاخرة بين أحياء العرب ، كالذى حدث فى القادسية ، من نسبة الشعر إلى الجن ، وهذا فى حد ذاته يفسر اتجاهاً شعبياً إلى إظهار الاهتمام البالغ بهذه الواقعة ، ويكشف فى نفس الوقت عن ثقافة العامة ، وإيمانها بالمتوارثات الشعبية .

ويمثل الشعر الذى لانعرف له قائلا قدراً كبيراً من شعر الفتح ، يعالج كل موضوعات هذا الشعر ، وينطبع هذا القدر بطوابع شعبية تتجلى فى تغنيه بروح الجماعة ، وفى تغنى الناس به ترنماً ، وما يبدو فيه من بساطة وسهولة وقرب من الحديث العادى ، الذى يدل على أنه شعر عامة الجند مما يبدو من كثرة الرجز فيه وفى هلهلته وضعفه .

ولا ريب أن قيمة شعر الفتوح تنبع من كونه المتنفس الشعرى الوحيد فى عصر صدر الإسلام ، والتعبير الأدبى الوحيد أيضاً عن الحياة الإسلامية فى هذا العصر ، بتصويره لتلك الآثار التى تركها الإسلام فى نفسية العربى ، والتغيير الهائل الذى أحدثته فى نفسه وفى أعماله ، كما أنه يرسم صورة رائعة لفعل هذه الآثار فى الانطلاقة المذهلة ، التى تمثلت فى الفتوحات الإسلامية . ويرسم صوراً رائعة للفروسية العربية فى ملحمتها الخالدة .

وهو فضلا عن ذلك يمثل سجلا وافياً ، ووثيقة تاريخية أو اجتماعية ، وشعورية لهذه الملحمة ، تصحح الحوادث التاريخية ، وتعطينا صورة لحياة الفاتحين ومشاعرهم .

وبرغم قصر المدة التي تمت فيها هذه الوثبة أفلح الشعر في إعطائنا ملامح بارزة للمناطق التي افتتحها المسلمون . كما ألقى إلينا ببعض الضوء على مدى التزاوج الذي بدأ يحدث بين النفوس العربية وبيئاتها الجديدة ، والانعكاسات الشعورية المتولدة عن هـــذا الاحتكاك البكر بين العرب ومواليهم ، وسجل عواطف المحاربين بعيداً عن مواطنهم وحنينهم إليها .

ويعتبر هذا الشعر – الذي هاجر في صدور المحاربين وعلى ألسنتهم إلى هذه المناطق على تفاوت في غنائه وكثرته – البذرة الأولى للشعر العربي في هذه الأمصار الجديدة ، التي وسمتها بسمات أدبية معينة . فضلا عن تصوير هذا الشعر لحياة المسلمين في الأمصار الجديدة ، وما اكتنف حياتهم من جراء معيشتهم في مجتمعات إسلامية جديدة .

وإذا كانت الفتوح قد مثلت أكبر هدف شغل المسلمين في فترة بعينها صورها هذا الشعر الإسلامي – فإن قيمة شعر الفتوح لا تكمن في مجرد مواكبته لحوادث الفتح فحسب ، بل تكمن في تصوير حياة المسلمين جميعاً في هذه الفترة . ومن ثم يكون شعر الفتح ممثلا لعصر صدر الإسلام تمثيلا كاملا . ويكتسب من هذه القيمة قيمة تاريخية واجتماعية ، لعصر من العصور الأدبية ، طالما مر الباحثون به مرور الكرام ، ونسبوا إليه ركود حركة الشعر وجمودها .

ويصبح من ثم أدق نموذج لشعر الإسلامي . والمجـــال الطبيعي لاستجلاء آثار الإسلام في الشعر العربي ، لمواكبته قيمه ومثله وحياته ، وتطوره مع أهدافه وغاياته بتصويره لأضخم جوانبه . وكانت النتيجة لاكتسابه طوابع فنية خاصة به .

وهذه الطوابع الفنية التي طبعت شعر الفتح استمدها من الإطار الفكرى الإسلامي . من ظروف حركة الفتح التي صدر في خلالها ، ومن التقاليد الفنيه الموروثة للشعر العربي . على اختلاف في مدى هذه المصادر وفاعليتها .

فطابع الالتزام الذي طبع الشعر نتيجـــة لالتزامه بغايات ومبادئ تعمل في خدمتها أداة اجتماعية وفكرية طابع مستمد من الفكر الإسلامي ،

ومن جدية الظروف التى صدر فيها وسموها . وطابع القصر والإيجاز الذى اتسمت به قصـــائد شعر الفتح مستمد من ظروف القلق والاضطراب والحركة فى الميادين ، ومن روح الإسلام التى تكره الثرثرة والتفيقة ، ومن الموروثات القديمة التى قررها الذوق العربى من قديم ، فى كراهة الإسهاب والإطالة ، وإعجابه بالإيجاز البليغ .

أما العفوية التى وسمت شعر الفتح نتيجـــة لظروف القتال ، وتعبير المجاهدين عن أنفسهم تعبيراً قريباً من التنفيس الشافى لأرواحهم من مخزون الطاقات النفسية، وتطهيرها فى سرعة وحرارة، ودون تعمل أو تمهل تستمد أيضاً من روح الإسلام ، التى تكره التقعر والالتواء ، وتتنكب التعمل وتقصد إلى السماحة والطبع والصدق .

٢ — ثمـــار البحث

ولست أزعم أنى قد أتيت بجديد خارق فى هذا البحث . وكل ما فى الأمر أنه تأتى لى أن أنعم النظر فى هذا الشعر فوجدته يستطيع النهوض أمام الشعر العربى الذى نعرف فى كل العصور الأدبية ، وأنه يمكنه أن يكون مرآة لهذه الفترة الجليلة من تاريخ الإسلام والمسلمين .

إذ يستطيع أن يعين الباحثين فى تاريخ الفتوح الإسلامية إعانة ملحوظة ، فى تصحيحه لحوادث التاريخ التى سجلها . كما يعين الباحثين فى المجتمع الإسلامى فى هذه الحقبة على الكشف عن النظم الاجتماعية والإدارية ، والعلاقات الإجتماعية بين المسلمين، وبينهم وبين حكامهم وأمرائهم ، كما يصور الانطباعات النفسية للفاتحين ، وصدى هذه الأحداث على نفوسهم .

ويستطيع شعر الفتح فضـــلا عن ذلك أن يكشف بطريق إيجابى أو سلبى عن غزارة الإنتاج الشعرى فى بيئات إسلامية بعينها ، وقلته فى بيئات أخرى ، تدفع الباحث إلى تعقب مواكب الفاتحين إلى هذه البيئات ، ليحقق هذه الحقائق التى صار لها فى دراستنا الأدبية وزن ملحوظ ، ليصدر مثل هذه الأحكام مطمئناً إلى صحتها ، بعد التحقق من تصنيف الفاتحين فى هجرتهم إلى هذه البيئات .

ويغرى شعر الفتح بدراسة الشعراء الذين أسهموا فى تصوير الفتوح دراسة تبين مدى تأثرهم بالمثل الإسلامية ، والأحـــداث الخطيرة التى تعرضوا لها فى ظلال الإسلام . ويستطيع الباحث بهذا وبمقارنتهم بشعراء آخرين ألهبتهم هذه الأحداث أن يتبين عمق هذه الآثار فى نفوس جيل من المسلمين تعمق الإسلام ، وجيل آخر من المخضرمين لم يمسسه من آثار الفكرة الجديدة شىء على الإطلاق . وعلى حين انطلقت ألسنة الفاتحين المسلمين

بالشعر فذكت جذوته بعد خمود ، نرى الشعراء القدامى لا يستطيعون الخروج من إجفالهم ، رغم ما حاولته الروايات من تشويه هذه الحقيقة ، وتقوية دورهم فى الفتوح ، بإضافة شعرهم الجاهلى إلى شعرهم الإسلامى القليل .

وبرغم هذا يستطيع الشعراء المغمورون أن يرسموا جوانب هـــذه الحركة بصورة لافتة ، ويمثل شعرهم جميعاً تعبيراً دقيقاً عن الحياة الإسلامية فى هذه الفترة التى اتسمت بالفتوح والانتشار والحركة . وهو لا يقصر عن تصويرها أدنى تقصير ، وكأنه يثبت بهذا خطأ الفكرة التى تذهب إلى أن العرب لهوا بالفتوح عن الشعر .

وهو — لتصوير جوانب الحياة ومثلها وقيمها — يعتبر مرآة للعصر الإسلامى ، ينتغى فيه تبين صورة الحياة الإسلامية وآثار الإسلام فى النفسية العربية ويأخذ بهذه القيمة مكانه بين عصور الأدب المختلفة ، كمجاز للشعر العربى من العصر الجاهلى إلى العصر الأموى ، بما اكتسب من طوابع إسلامية ، تطورت فيه تطوراً محدوداً ، وامتد تطورها من بعد ، كما هو واضح فى شعر الجهاد والرثاء ، وما يسمهما من طوابع إسلامية. فكأنه خلص الشعر من قيود الجاهلية ، وأسلمه إلى العصر الأموى ، ليتطور فيه تطوراً ملحوظاً ورغم هذا فقد حقق تطورات جديرة بالتدبر ، كما هو واضح فى شعر رثاء الأشلاء . واكتسب موضوعات جديدة لم تعرف فى الأدب العربى القديم ، كشعر الحنين الذى ورث بكاء الأطلال إلى حين ، وأورثه لشعر الغزل العذرى فيما بعد،وكشعر المشاهد الغريبة التى سجلت فى الأدب لأول مرة .

كما يعتبر التطور بوزن الرجز إلى أن يكون قالباً شعرياً ممهداً لما كان بعد من تحديد لهذا القالب عند الرجاز الأمويين والعناية به . وفضلا عن تصوير هذا الشعر للطوابع الإسلامية التى انطبعت بها حياة النـــاس ومشاعرهم فإنه تظهر فيه آثار الاهتمامات الشعبية ، وما شاع حوله من أقاصيص الفرسان الشعراء .

وفضلا عن هـــذا اكتسب الشعر لنفسه طوابع فنية تسم به ، تقربه إلى الناس ، وتجعل في قراءته لذة فنية طبيعية ، لا تتيسر لشعر كثير مثله .

وفي هذه الخاتمة التي أسأل الله حسنها أرى أن هـــذا الموضوع يستحق أن يستكمل بحثاً في العصور الإسلامية التالية . ثم تصوير الملحمة الإسلامية الكبيرة . وبالله التوفيق .

ثبت المصادر

١ ـ ابن الأثير (عز الدين)	الكامل فى التاريخ	ليدن / ١٨٦٧ هـ
٢ ـ	أسد الغابة فى معرفة الصحابة (جمعية المعارف بالقاهرة سنة ١٢٨٦ هـ)	
٣ ـ ابن الأثير (ضياء الدين)	المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر	نهضة مصر ١٩٥٩
٤ ـ ابراهيم العدوى	الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم	مطبعة الرسالة بالقاهرة ١٩٥١
٥ ـ احمد امين	ضحى الاسلام	لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٩
٦ ـ احمد امين	فجر الاسلام	لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٩.
٧ ـ الاصفهانى (ابو الفرج)	الأغانى	ط . الساسى دار الكتب المصرية ١٣٢٢ هـ
٨ ـ ابن ابى اصيبعة	طبقات الأطباء	الطبعة الوهبية ١٨٨٢
٩ ـ اوليرى	بلاد العرب قبل الاسلام	لندن / ١٩٢٧
١٠ ـ بتلر	فتح العرب لمصر	ترجمة أبو حديد / لجنة التأليف والترجمة دار الكتب ١٩٣٣
١١ ـ بروكلمان	تاريخ الشعوب الاسلامية	ترجمة / نبيه فارس البعلبكى / دار العلم للملايين ١٩٤٩
١٢ ـ البستانى	ترجمة الياذة هوميروس	طبعة الهلال مصر سنة ١٩٠٤
١٣ ـ البلاذرى	فتوح البلدان	ليدن / ١٨٦٦ م
١٤ ـ البغدادى (عبد القادر)	خزانة الأدب	ط بولاق ١٢٩٩ هـ
١٥ ـ التغريبردى (أبو المحاسن)	النجوم الزاهرة فى أخبار ملوك مصر والقاهرة	دار الكتب ١٩٢٨ م

١٦ ـ الجاحظ	الحيوان	ط . الحلبي
١٧ ـ ابن حجر العسقلاني ـ ٨٥٢ هـ	الاصابة في تمييز الصحابة	مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٣ هـ
١٨ ـ ابن حوقل	المسالك والممالك	ليدن / ١٨٧٣ م
١٩ ـ حسن ابراهيم حسن	عمرو بن العاص	مطبعة المعارف بالقاهرة ١٩٢٦
٢٠ ـ حسين نصار	مصر العربية	الجمعية الأدبية ١٩٦١
٢١ ـ ابن خلدون	العبر وديوان المبتدا والخبر	بولاق / ١٢٨٤ هـ.
٢٢ ـ ابن خلدون	المقدمة	الطبعة الادبية ببيروت سنة ١٨٨٦
٢٣ ـ ابن دقماق المصري	الانتصار بواسطة عقد الأمصار	بولاق / ١٣١٤ هـ
٢٤ ـ الدينوري (أبو حنيفه	الأخبار الطوال	وزارة الثقافة / ١٩٦٠
٢٥ ـ ابن رشيق القيرواني	العمدة	مطبعة السعادة ١٩٠٧
٢٦ ـ ابن زيني دحلان	الفتوحات الاسلامية	المطبعة الشرقية بالخرنفش / ١٣٢٣ هـ
٢٧ ـ زكي المحاسني	شعر الحرب في أدب العرب	دار الفكر العربي القاهرة ١٩٤٧
٢٨ ـ ابن سعد	الطبقات الكبرى	ليدن / ١٣٢٢ هـ
٢٩ ـ ابن سلام	طبقات الشعراء (الفحول)	المعارف / ١٩٥٢ م
٣٠ ـ سيدة اسماعيل الكاشف	مصر في فجر الاسلام	دار الفكر العربي ١٩٤٧ م
٣١ ـ السيوطي (جلال الدين)	حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة	المطبعة الشرقية
٣٢ ـ شكري فيصل	حركة الفتح الاسلامي	دار الكتاب العربي بمصر سنة ١٩٥٢ م
٣٣ ـ شكري فيصل	المجتمعات الاسلامية	دار الكتاب العربي بمصر سنة ١٩٥٢ م
٣٤ ـ شوقي ضيف	التطور والتجديد في الشعر الأموي	لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٢ م
٣٥ ـ شهاب الدين الابشيهي	المستطرف في كل فن مستظرف	طبع حسين حسني سنة ١٢٩٢ هـ
٣٦ ـ الشهرستاني	الملل والنحل بهامش الفصل في الملل والأهواء لابن حزم	المطبعة الأدبية بمصر ١٣٢٠ هـ
٣٧ ـ الطبري	تاريخ الأمم والملوك	ليدن / ١٨٦٣ م
ـ طه حسين	في الأدب الجاهلي	دار المعارف ١٩٥٢
٣٩ ـ طه حسين	حديث الأربعاء	دار المعارف ١٩٥٤

٤٠ ـ ابن عبد الله النمري القرطبي	الاستيعاب في معرفة الاصحاب	حيدر آباد ١٣١٨ هـ
٤١ ـ ابن عبد الحكم	فتوح مصر والمغرب	توري ليدن / ١٩٢٠ والجزء الخامس بمصر (ماسيه) ١٩١٤
٤٢ ـ عبد الرازق حميدة	الأدب العربي في مصر	لجنة البيان العربي سنة ١٩٥١
٤٣ ـ ابن عبد ربه	العقد الفريد	لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٢ م
٤٤ ـ ابن عساكر	التاريخ الكبير	ط . روضة الشام / ١٣٢٩ هـ
٤٥ ـ العقاد (عباس العقاد)	اعلام الاسلام	
٤٦ ـ عمر الدسوقي	الفتوة عند العرب	مكتبة نهضة مصر سنة ١٩٥٩
٤٧ ـ فسكا	دائرة المعارف الاسلامية	فصل (أسامة)
٤٨ ـ فيليب حتى	تاريخ العرب	بيروت دار الكشاف ١٩٥١
٤٩ ـ القالي (ابو علي)	ذيل الأمالي	دار الكتب ١٩٢٦
٥٠ ـ ابن قتيبة	الشعر والشعراء	احياء الكتب العربية سنة ١٣٦٤ هـ
٥١ ـ القفطي	اخبار الحكماء	طبع السعادة بمصر
	تاريخ الحكماء	طبع أوربا
٥٢ ـ القلقشندي	صبح الاعشى	المطبعة الاميرية ١٩١٩ م
٥٣ ـ الكندي	الولاة والقضاء	الكاثوليكية بيروت سنة ١٩٠٨
٥٤ ـ ماسينيون	خطط الكوفة ـ ترجمة المصعبي	
٥٥ ـ المبرد	الكامل	التقدم / ١٣٢٣ هـ
٥٦ ـ محمد احمد حسونة	الجغرافيا التاريخية الاسلامية	مصر ١٩٥٠ م
٥٧ ـ محمد حسين هيكل	حياة محمد	دار القلم ١٩٦٠ م
٥٨ ـ محمد حسين هيكل	الصديق أبو بكر	مطبعة مصر ١٩٤٢ م
٥٩ ـ محمد حسين هيكل	الفاروق عمر	مطبعة مصر ١٩٤٥ م
٦٠ ـ محمد كرد علي	الاسلام والحضارة العربية	لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٩
٦١ ـ المسعودي ـ ٣٤٦ هـ	مروج الذهب ومعادن الجوهر	مطبعة الشرق الاسلامية بالقاهرة
٦٢ ـ المفضل الضبي	المفضليات	الآباء اليسوعيين ١٩٢٠ ودار المعارف

٦٣ ـ القريزى	المواعظ والاعتبار	بولاق ١٢٧٠ هـ
٦٤ ـ ملن	تاريخ مصر تحت حكم الرومان	ط سنة ١٩١٣
٦٥ ـ نصر بن مزاحم المنقرى	وقعة صفين	احياء الكتب العربية
٦٦ ـ نولدكه	امراء غسان ترجمة بندلى جوزى وقسطنطين رزيق	بيروت ١٩٣٣
٦٧ ـ ابن هشام	التيجانى فى ملوك حمير	ط حيدر آباد
٦٨ ـ ابن هشام	السيرة	ط مصطفى الحلبى ١٣٢٩ هـ
٦٩ ـ الواقدى	فتوح الشام	مصر ١٣٠٢ هـ
٧٠ ـ ياقوت الحموى (شهاب الدين)	معجم البلدان	ليبزج / ١٨٦٦ م
٧١ ـ ديوان الهذليين		دار الكتب المصرية
٧٢ ـ يوليوس فلهوزن	الدولة العربية وسقوطها ترجمة دكتور يوسف العش	مطبعة الجامعة السورية دمشق سنة ١٩٥٦

المحتـــوى

الفصل الثالث

الطوابع الشعبية

١ — أحاديث البطولة بين الواقع والأسطورة

لا ريب أن أنباء الفتح وأخبار المسلمين مع الفرس والروم وأقاصيص غزواتهم العديدة وما كان يلقى المسلمون هنا وهناك من تقدم أو تقهقر أو عسر أو يسر كان ينتقل بين الميادين المختلفة ، وتنعكس أصداؤه على المسلمين فى شبه الجزيرة العربية ، حيث كانوا هناك يستشرفون هذه الأخبار وينتظرونها بشغف ، ويتتبعونها فى حرص ولهفة ، ذلك أنهم وجهوا كل اهتمامهم آنذاك إلى ما قد تتمخض عنه هذه الحركة الهائلة فى تاريخهم وتاريخ عقيدتهم .

وكان هذا الاهتمام يظهر فى وضوح فى أثناء المعارك المهمة والفاصلة ، إذ يروى الرواة : أن العرب كانوا يتوقعون وقعة القادسية فيما بين العذيب إلى عدن ، وفيما بين الأبلة وأيلة ، ويرون أن ثبات ملكهم وزواله بها . وكانت كل بلد مصيخة إليها ، تنظر ما يكون من أمرها . حتى إن الرجل كان يريد الأمر فيقول : لا أنظر فيه حتى أنظر ما يكون من أمر القادسية . (١)

وكان المسلمون يتلهفون على أنباء المعارك والانتصارات . وكان الفاتحون وكثرتهم من المسلمين العاديين الذين انطلق الشعر على ألسنتهم ولم

---

(١) الطبرى ١ / ٥ / ٢٣٦٤

يكونوا يعرفون به من قبل يسجلون انتصاراتهم ويغتبطون بها ، وكان كل هذا يتجمع فى روايات الرواة ، فى صورته الأولى التى صدر فيها ، والتى لم تصل الينا على كل حال . إذ أن هذه المرويات المأثورة من أخبار الأبطال وبلائهم ، وأفانين بسالتهم ، وما يروون لهم أو عنهم من الشعر فى إطار زمنى يحـــدد سير المعارك قد تعرضت فى صورتها البسيطة الواقعيـــة لغير قليل من محاولات النسج ، والسبك والتضخيم ، والإغراق ، وّدخلها كثير من الخيال الشعبى .

فقد ظلت هذه الآثار تتناقل على الألسن زمناً قبل تدوينها . وأسهم القصاص الذين كانوا يتحدثون إلى الناس فى مساجد الأمصار – فيذكرون لهم من أخبار المغازى والفتوح ما يمثل لهم أهواءهم وشهواتهم ومثلهم – إسهاماً خطيرا فى البعد بهذه المرويات المأثورة من الواقع إلى الخيال البعيد .

فقد كان هؤلاء القصاص يمضون مع الخيال إلى حيث يستطيع الخيال أن يذهب بهم ، لا إلى حيث يلزمهم العلم والصدق أن يقفوا . وكان الناس كلفين بهؤلاء القصاص ، مشغوفين بما يلقون إليهم من حديث . (1) كما كان القصاص كلفين بإرضاء روح الشعب الذى كانوا يتحدثون إليه ، والذى يطلب المعجزة فى كل شىء ، فعنوا عناية كبيرة بالأساطير والمعجزات وغرائب الأمور ، وصوروا له تاريخه وفتوحه كما يحب أن يراها وأن يسمعها ورسموا له صور الأبطال الذين يعجب بهم ويتمثلهم رسماً خيالياً أسطورياً .

وكانت هذه الأحاديث . شأنها شأن القصص الشعبى كله فى حاجة إلى الشعر فالبطل لا بد أن يكون شاعراً إلى جانب فروسيته ، وعاشقاً ومستخفاً بكل المصاعب التى يواجهها . وهذه المواقف فى حاجة إلى الشعر ، لتزيينها ، وتشويق الشعب لسماعها . ورصعت هذه الأحاديث بالشعر ، وأضيفت هذه الأشعار إلى الشعراء وغير الشعراء ، ونتجت أشعار تنسب إلى غير قائل ، وأشعار أخرى تنسب إلى الجن ، وولدت الروايات ، وامتلأت بالأعاجيب

(1) فى الأدب الجاهلى / ١٨٩ .

والتهاويل . حتى ليذهب بعض الباحثين المحدثين : إلى أن الأخبار التي استخلص منها تاريخ العرب ليست إلا المظهر القصصي للحياة العربية القديمة ، ذكرها العرب بعد أن استقروا في الأمصار ، فزادوا فيها ونموها وزينوها بالشعر (١) .

وظلت الروايات هذه تتعرض لعمل الرواة والقصاص . وتتأثر بالظروف التي تروى خلالها ؛ حيث اشتدت العداوة والسياسة . وعادت العصبية جذعة عقب الانتهاء من الفتوح ، واشتعلت الفتن . ولعبت هذه الظروف — فضلاً عن تعلق روح الشعب الذي شغف برواية أخبار الفتوح — دورها في تغيير صور هذه الآثار إلى ما يرضي نزعات الشعب . من الإغراب والإعجاب وما يساير نزعات السياسة والعصبية . وبعد هذا كله عن الوقائع ، إلى أن أصبحت أساطير أو كادت . حتى دونت في القرن الثاني الهجري .

ومن بين هذه العوامل جميعاً نجد روح الشعب أكثر فاعلية في البعد بهذه الأحاديث عن الواقع إذ أن المسلمين الذين تحققت على أيديهم المعجزة فدكوا صروح الفرس والروم بهرتهم المعجزة التي صنعوها بأيديهم ، فراح وجدانهم يطلب الإعجاز في تبريرها . ويسهم بطريق غير مباشر في رواية تاريخ الفتوح . رواية تشبع مطامحه وترضى اعتزازه ، كما يبدو في تصوير بلاء الفرسان الأفذاذ . كخالد بن الوليد . والقعقاع ، والمثنى ، وعمرو بن العاص ، وأبي محجن الثقفي . وعمرو بن معد يكرب ، وغيرهم من الأبطال الذين نسبت إليهم أفعال معجزة لا تكاد تصدق . بل إن هذه الأفعال كثيراً ما نسبت إلى المحاربين العاديين . فهذا حياص بن قيس ابن الأعور القشيري ، الذي قطعت رجله يوم اليرموك يقتل ألفاً من الروم وحده في هذا اليوم(٢) .

ولو رحنا نعدد القتلى الذين قتلهم المسلمون من الفرس والروم في

---

(١) في الأدب الجاهلي / ٢٠٠

(٢) الإصابة ، جـ ٢ / ٦٨

الوقائع المختلفة جميعــاً لربا مجموعهم على كل ما نعرف الآن من ضخامة الجيوش الحديثة .

ونحن لا نذهب مذهب الشك الخالص فى هذه الروايات ، وما احتوت عليه من الأخبـــار والأشعار والقصص ، فإنها على حد زعم المتشككين مظهر للوقائع الحقيقية ، تدل عليها وتصورها ، وتعطينا صورة لروح الشعب فى ذلك الوقت . وسنرى فيما بعد . كيف لعبت هذه العوامل دورها فى البعد بالروايات وأحــاديث البطولة من الــواقع التــاريخى إلى التــاريخ الأسطورى ، الذى نسجه الخيال الشعبي .

٢ — قصص الفرسان فى الفتوح

روى القصاص أحاديث البطولة فى الشعب ، الذى كان يتطلب أن يرى فيها إعجازاً وإغراباً يبرران المعجزة التى تحققت له . وكان يحب أن يرى نفسه فى فرسانه الذين حققوا هذه المعجزة . وأفلح القصاص فى نسج هذه الصورة التى بعدت مع الخيال — فى بعض جوانبها — عن الواقع الحقيقى إلى الأسطورة الخيالية ، وصورت له الفرسان المسلمين فى صورة عجيبة وفذة وهى صورة ترضى أحاسيسه بالاعتزاز وتتملق إعجابه بتاريخه .

ومن هذه القصص ، ما روى فى أخبار القواد والأمراء والفرسان الذين برزوا ببلائهم ، واتخذت أفعالهم الفذة نواة صيغت حولها هذه الصور الأسطورية .

تتبعت هذه الأخبار : اجتياح خالد بن الوليد للعراق فى السنة الأولى ، وإخضاعه لها ، وإجرائه أنهار الدم فى أليّس وفم فرات بادقلى ، وافتضاضه الحيرة والأنبار وعين التمر ، وإنقاذه عياض بن غنم ، وفتح دومة ، واعتسافه الصحراء إلى مكة ليؤدى فريضة الحج وعودته إلى الحيرة قبل أن يعود جيشه إليها . ثم اعتسافه الصحراء إلى الشام فى خمسة أيام ، سلك فيها طريقاً غامضاً ، لا يزال موضوع حدس وتخمين لعلماء الجغرافية العسكرية إلى اليوم .

وقد فعلت هذه الروايات فعل السحر فى الناس . فتابعوا خالداً فى الشام فإذا هو بطل اليرموك ، وهو الذى تسور ، دمشق وإذا هو أحد أركان المسلمين فيها بعد فتح دمشق ، وفى القضاء على الفتن فى شمالى الشام .

ولا شك أن هذه الروايات هى التى عزلت خالداً ، كما يبدو فى كتاب الخليفة إلى الأمصار ، واعترافه بأنه لم يعزله عن خيانة وتقصير ، وإنما لأن الناس قد فتنوا به ، فخاف أن يوكلوا إليه الأمر ، وأحب أن يعلموا أن الله هو الصانع . وأن تمثل عمر بقول الشاعر :

صنعت فلم يصنع كصنعك صانع وما يصنع الأقوام فالله صانع (1)

وقد مر بنا كيف كانت حياة عمرو بن معديكرب أقرب ما تكون إلى الأسطورة ، من ترداد لقصص بطولاته وأفاعيله فى القتال ، ومنازلة الأقران وشجعان العرب ، واستهانته بكل صعب . وما كان من امتداد عمره حتى ينيف على المائة ، والرغبة فى جعله ممن شهدوا صفين ، ليكون أطول عمرا . كل هذا كان بدافع الرغبة الشعبية فى النزوع بهذه السير والذكريات إلى الأساطير المعجزة ، لتكون من دواعى فخر الشعب وزهوه ، وإرضاء منازع الفروسية الكامنة فيه . وتأكيد المثل العليا فى الشجاعة والنجدة .

ويظهر ذلك جلياً فى التضارب الذى تحفل به الروايات التى تعلل قصائده ، لربطها بأخبار فروسيته وشجاعته . ومن هذا القبيل أيضا . ما يذكر فى أخبار أبى محجن الثقفى ، وما يروى فى خروجه للجهاد من روايات متضاربة . فهو حد فى الخمر ، ونفاه الخليفة مرة . ثم مرة أخرى يشبب بامرأة من الأنصار . وتلعب الروايات دوراً كبيراً فى تفسير خروج الشاعر إلى القادسية والتحاقه بسعد ، لتفسير حبسه فى القادسية عن القتال ، ثم انطلاقته البطولية وتحقيقه النصر للمسلمين ، بعد أن يبكى أغلاله ويظهر ما يجيش فى صدره من ضيق لقعوده عن القتال .

وتذهب الروايات مذاهب بعيدة فى تصوير بلائه وقصفه للأعداء ،

---

(1) الطبرى / جـ ٥ / ٢٥٢٨

حتى ليظنه المسلمون الخضر يمتطى البلقاء ، ويظنه الآخرون ملكاً يحارب إلى جانبهم ، ويتعجب سعد إذ ترك أبا محجن حبيساً ، ولولا أنه حبسه بيده لظن أنه هو (١) .

وواضح فيما سلف أن أبا محجن خرج للجهاد قبل القادسية ، وأنه شهد الجسر ، وأنه إنما حبس لشغبه على سعد . ولكن الروايات تمضى تستكمل جوانب شخصية الفارس فتصوره عابثاً لاهياً ، مستهيناً بكل شيء ، يجادل الخليفة فى الخمر جدالاً فكها ، ويرثيها بشعر روى لأكثر من شاعر (٢) .

ومثل أبي محجن وما نسج عنه نسجت قصص كثيرة فى مقتل يزدجرد ورستم ومهران وتنازعت الروايات شرف قتلهم ، فتفرق دمهم بين عدد كبير من القرسان ، أمثال : عمرو بن معديكرب ، وطليحة بن خويلد وقرط بن جماح ، وزهير بن عبد شمس ، وعمرو بن شأس ، وهلال بن علّفه . وقال كل من هؤلاء شعراً يفخر فيه بقتل أحد هؤلاء القادة العظام .

ومن مصر أتت روايات تتحدث عن بطولات عمرو بن العاص ودهائه ، وقدومه إلى مصر فى الجاهلية مرتين ، ومشاهده فى الإسكندرية ، وما كان من التنبؤ له بفتح مصر ، فى قصة وقوع الكرة بكمه فى أحد أعياد القبط (٣) . مما يدل على تدخل روح العامة فى الاستشراف والتوقع والتمهيد لفتح مصر على يده . وغير ذلك من القصص التى تكشف عن المثل العربية فى النجدة والوفاء ، من مثل : قصة اليمامة التى باضت فوق فسطاطه ، عندما عن له الرحيل إلى الاسكندرية . وأمر جنده بأن ينتظروا حتى تنقف اليمامة ويطير فراخها (٤) .

كما يروى فى فتوح أفريقية ، ما كان من قتل ابن الزبير لجرجير فى ثلاثين فارساً فقط . إذ اكتشف منه ثغرة دل عليها عبد الله بن سعد فانتدب معه الفرسان حتى أجهز عليه عبد الله ورفع رأسه فى رمحه (٥) .

---

(١) الأغانى / ٢١ / ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ — (٢) الأغانى / ٢١ / ١٤٢

(٣) المقريزى جـ ١ / ١٥٨ — (٤) الولاة والقضاة / ص ٩

(٥) أغانى دار الكتب / ٦ / ٢٦٦ - ٢٦٧

وتجرى كل هذه الروايات فى تفصيل دقيق ، وسرد معجب ، كأثر من آثار الرواية والقصص ، يتخللها بعض الشعر الذى ينسب إلى هؤلاء الفرسان .

٣ — أشعار مجهولة القائل

ويذهب بعض الباحثين مذهب الشك فى الأشعار التى لا تنسب لقائل معين ، فهى فى رأيهم ، نحلت نحلاً بفعل عوامل مختلفة . منها السياسة ، والخصومات العصبية ، وما كان من فعل القصاص .

وفى رأينا أن هـــذه الأشعار لا يمكن أن تكون قـــد تعرضت للنحل فكثرتها لا تهدف إلى الإشادة بعصبية معينة كذلك الشعر الذى انطلق على ألسنة الشعراء المغمورين وغيرهم ، ممن لم يكن له كلف أو شهرة بالشعر . وبعضها الآخر الذى يشيد بعصبيات معينةلا يمكن أن يكون منحولاً ، فإنه يتغنى بعصبيات شهدت الفتوح وأبلت فيها . بل إن هذه القبائل ذاتها كانت أكثر أحياء العرب بلاء فى المواقع الفاصلة فى الفتوح ، ونحن لا نستطيع أن نرفضها لهذا السبب . أو نقف منها موقف التشكك ، فهى تعبر عن إحساس شعبى داخل هذه العصبيات بالمعركة وخطورتها ، وهناك أشعار أخرى صدرت عن هؤلاء المغمورين . الذين لم يعن الرواة بتدوين أسمائهم . لضعف شأنهم فى الشعر ، ولأنهم كانوا من عامة الجند وإن شكلوا كثرته .

ومن اللون الأول ما ترويه بعض الروايات : من أن الجن قد سارت بأنباء القادسية فأتت ناساً من الإنس فسبقت أخبار الإنس إليهم . وبدت امرأة ليلاً على جبل بصنعاء لا يدرى من هى تقول :

حيتك عنـــا عكرم ابنة خالد	وما خير زاد بالقليـــل المصرّد
وحيتك عنى الشمس عند طلوعها	وحياك عنى كل ناج مفـــــرد
وحيتك عـــنى عصبة نخعيـــة	حسـان الوجـــوه آمنوا بمحمد
أقاموا لكسرى يضربون جنـــوده	بكل رقيـــق الشفرتين مهند

إذا ثوب الداعى أناخوا بكلكل من الموت مسودٌ الغياطل مجرد (١)

وكذلك سمع من تغنى بمثل هذه الأبيات فى اليمامة فقال :

وجدنا الأكثرين بنى تميم غداة الروع أصبرهم رجالا
همُ ساروا بأرعن مكفهر إلى لجب فزرتهم رعالا
بحور للأكاسر من رجال كأسد الغاب تحسبهم جبالا
تركن لهم بقادس عز فخر وبالخيفين أياماً طوالا
مقطعة أكفهم وسوق بمردى حيث قابلت الرجالا (٢)

وواضح أن الأبيات الأولى تشيد بفعال نخع بالفرس وتصفها بأنها عصبة مؤمنة بمحمد ، حسان الوجوه ضربوا كسرى بسيوفهم وأذاقوه نكالاً . بينما تعدت الأبيات الأخرى حد الفخر إلى التفاخر بتميم على سائر الأحياء ، فهم الأكثرون ، وهم أصبر القوم رجالا . وإن أشادت بتميم وبفعالها فى الفرس نفس الإشادة .

وقد جعلنا هذا نظن أن المقطوعة الثانية كانت رداً على المقطوعة الأولى ولا غرابة أن يكون بعض النخعيين قد أشادوا بنخع فرد عليهم بنو تميم يغلبون صنيعهم ، ويتفاخرون على أحياء العرب عامة .

ولكن الغرابة فى نسبة هذه الأبيات إلى متغنين من الجن . والأغرب من ذلك ما تقرره الرواية من أنه قد سمع بمثل هذا فى كافة بلاد العرب (٣) .

ونسبة الشعر إلى الجن فى هذه الرواية ليست أول مرة من نوعها ؛ إذ أن العرب — وبخاصة — الأعراب والرواة قد هموا بعد الإسلام بتسمية الشياطين الذين كانوا يلهمون الشعراء قبل النبوة وبعدها ؛ وشجعهم على هذا ما فى القرآن من آيات تنبئ بأن الجن قد استمعوا للنبى وهو يقرأ القرآن فلانت قلوبهم . وآمنوا بالله ورسوله ، وعادوا فأنذروا قومهم ودعوهم إلى دينه ، وأنهم كانوا يصعدون فى السماء يسترقون السمع فرجموا بالشهب ، وانقطعت أخبار السماء عن أهل الأرض . ولهذا راح الرواة والقصاص

---

(١) الطبرى / ٥ / ٢٣٦٤
(٢) المرجع نفسه
(٣) الطبرى / ٥ / ٢٣٦٦

يستغلون هذه المعانى لخدمة أغراضهم ، فزعموا – من قبل – أن الجن قتلت سعد بن عبادة الأنصارى الذى لم يذعن لقريش ، ولم يؤمن بأحقيتها فى الخلافة دون الأنصار . وزعموا أيضاً أن الجن قالت فى قتله غيلة بأحد أسفاره شعرا . وكذلك انطلقت الجن بشعر فى رثاء عمر بن الخطاب ، ينسبه بعض الرواة إلى الشماخ بن ضرار وأخويه مزرد وجزء (١) . لا غرابة إذن فى نسبة الشعر إلى الجن ، وإنما الذى يستحق النظر وهو ما تؤكده الرواية من أنه قد سمع بمثل هذا الغناء فى كافة بلاد العرب . وهذا – فى حد ذاته – كفيل بأن يلفتنا إلى مدى توقع المسلمين والعرب عامة للنتائج التى يمكن أن تتمخض عنها القادسية ، إذ كان العرب يتوقعونها من العذيب إلى عدن ، وما بين الأبلة وأيلة (٢) ، الأمر الذى يؤكد لنا صدور الأبيات فى أعقاب المعركة ، وأنها لم تنحل على أيدى الرواة ، وإنما أطلقتها القبائل بدافع المفاخرة فيما بينها .

وتظهر الطوابع الشعبية واضحة فى رواية هذه الأبيات على لسان الجن وتغنيها بها وسماع بلاد العرب كلها هذا الغناء ، وتصور أن الجن سارت بأنباء القادسية إلى أهل الجزيرة ، فسبقت إليهم نفراً من الإنس ، مما يكشف عن تصور شعبي متأثر بقواعد معينة ، يخضع لها تفكير العامة عند معظم الشعوب الأولى ، كحكايات المردة ، وأساطير لقمان ، وصقوره ، وغير ذلك من المتوارثات الشعبية ، فضلاً عما بالقرآن من أحاديث الجن . وهذه كلها أشياء مهمة لدراسة الأدب الشعبي ، عن طريق محاولة التعرف على نفسية الشعب وثقافته فى الآونة التى وضع فيها الشعر فى هذا الاتجاه .

وقريب من أمر هاتين المقطوعتين أبيات من الرجز قيلت فى طاعون عمواس ، نسبت إلى غلام أعجمى ، تغنى بها خلف رجل عزم على الرحيل فراراً من الطاعون ، فقال له :

يأيها المشعر هما لا تهم   إنك إن تكتب لك الحمى تحم (٣)

---

(١) فى الأدب الجاهلى ١٧٠   (٢) الطبرى / ٥ / ٢٣٦٤

(٣) الطبرى / ج ٥ / ٢٥٢١

وتغنى آخر – خلف غلام هرب من البصرة من الطاعون على حمار . فإذا بمن يحدو به :

لن يعجزوا الله على حمار ولا على ذى غرة مطار
قد يصبح الموت أمام السارى [1]

ونعجب كثيراً أن يكون الحادى أعجمياً ، ونرجح : أن ذلك من فعل الرواة والقصاصين ، الذين أرادوا الإغراب فى كل شىء ،حتى لينطقوا الأعاجم بهذه الآراء القدرية التى شاعت بين المسلمين .

أما اللون الآخر من الشعر الذى لا ينسب إلى قائل معين : فهو شعر المغمورين ، الذين لم يعن الرواة بتدوين أسمائهم لضعف شأنهم فى الشعر ، وكونهم من عامة الجند،وهو شعر كثير،ومعظمه فى تصوير بلاء المسلمين ، مثل قول الشاعر :

صبحنا بالكتائب جمع بكر وحياً من قضاعة غير ميل
أبحنا دارهم والخيل تردى بكل سميدع سامى التليل [2]

أو تصوير قوة المعارك ، كما يبدو فى قول أحد المسلمين :

يارُب مهر حسن مطهم يحمل أثقال الغلام المسلم
ينجو إلى الرحمن من جهنم يوم جلولاء ويوم رستم
ويوم زحف القارس المقدم ويوم لاقى ضيعة مهزم
وخردين الكافرين للفم [3]

أو فى فخر جندى بقائده ، مثل قول أحد جنود المثنى فى سوق الأنبار :

وللمثنى بالعال معركة شاهدها من قبيلة بشر
كتيبة أفزعت بوقعتها كسرى وكاد الإيوان ينفطر
وشجّع المسلمين أن حذروا وفى ضروب التجارب العبر
سهّل نهج السبيل فاقتفروا آثاره والأمور تقتفر [4]

---

(١) نفس المرجع (٢) البلاذرى ٢٤٩
(٣) الطبرى / ٥ / ٢٤٧٢
(٤) البلاذرى / ٢٥٠ ، ياقوت / جـ ٣ /٥٩٣

وكما فخر أحد جنود البراء بن عازب به فى قوله :

قد تعلم الديلم إذ تحـــارب … لمـا أتى فى جيشه ابن عازب
بأن ظـن المشركين كـاذب … فكم قطعنـا فى دجى الغياهب
ومن جبل وعر ومن سباسب [1]

وكذلك يذهب بعض الشعر فى الرثاء، كرثاء هذا الشاعر لعامة شهداء المسلمين عند نقل رفاتهم إلى مشرق بالقادسية إذ قال :

جزى الله أقواما بجنب مشرق … غداة دعا الرحمن من كان داعيـاً
جناناً من الفردوس والمنزل الذى … يحل به م الخير من كان باقياً [2]

ونجد كثرة من الشعر تنصرف فى باب الحنين وشكوى الاغتراب وتروى بعض الروايات أنه كان مما يترنم به ، [3] من مثل قول القائل :

أقمرية الوادى التى خان إلفها … من الدهر أحداث أتت وخطوب
تعالى أطارحك البكاء فإننـا … كلانا بمرو الشاهجان غريب [4]

كما تروى بعض الأراجيز التى — كانت النساء والولائد والأطفال يتغنون بها إبان فتح بيت المقدس ، وما فعله المسلمون بأعدائهم فى الفترة ما بين جمادى ورجب — تقول :

العجب كل العجب بين جمادى ورجب
أمر قضاه قد وجب يخبره من قد شجب
تحت غبار ولجب [5]

ومثل هذه الأرجوزة التى تغنى بها الأطفال والنساء فى الكوفة بعد عزل الوليد بن عقبة . والتى تقول :

ياويلنا قد عـزل الوليـد … وجاءنا مجـوعاً سعيد
ينقص فى الصاع ولا يزيـد … فجوع الإماء والعبيـد [6]

وهكذا — نجد هذا الشعر المجهول قائله يتناول نفس الموضوعات التى

---

(1) ياقوت / جـ ٤ / ٨٨ ، البلاذرى / ٢٢٢ (2) ياقوت / جـ ٤ / ٥٣٩
(3) ياقوت / جـ ٢ / ٥١٠
(4) المرجع نفسه وانظر جـ ٢ / ٢٠٧ جـ٣ / ١٩٩ ، جـ ٤ / ٧٤٧ ، ص ٧٤٨ ، ٧٤٩
(5) الطبرى / جـ ٢ / ص ٢٤١٩ (6) الطبرى / جـ ٥ / ٢٨٥٠

تناولها الشعر المنسوب إلى قائليه ، وإن كان يتميز بمميزات معينة . فهو شعر قليل ، ورجز كثير ، وتكاد تنعدم فيه روح الفردية ، إذ يتغنى الشاعر فيه بلسان الجماعة ، ويعبر عن فعالها جميعاً ، وما تقاسيه فى مجموعها من مشاق القتال ، ولا ينفك عن هذه الميزة إلا فى شعر الحنين والشكوى فحسب .

وكذلك يتميز هذا الشعر بروح إسلامية واضحة ، تشيع فى معانيه وألفاظه ، وفضلاً عن هذا فهو بسيط فى أفكاره القريبة ، التى تكاد تقرب من التقريرية المحضة ، وتكاد ألفاظه تكون نثراً ، فيما عدا شعر الحنين ، فإننا لا نلمس فيه هلهلة النسيج وضعف البناء ، اللذين نجدهما فى بقية هذا الشعر ، مما أدى إلى أن يتسم بالصدق والحرارة الشعورية ، برغم بساطته وسهولته .

وخلاصة القول : أن طوابع شعبية تسم بعض شعر الفتوح ورواياته وروايات البطولة التى نسبت إلى بعض شعرائها ، بفعل اهتمامات أفراد الشعب بهذه الفتوح ، وتغنيهم بانتصاراتها ، ورغبتهم فى تصويرها تصويراً معجباً يرضى نوازع الزهو فيهم . وقد تملق القصاص هذه المنازع بما زادوه فى قصص الفتوح ، وما نسبوه إلى فرسانها المشهورين ، من أفعال تحولت بسيرهم من الواقع إلى ما يكاد يشبه الأساطير ، مما أدى إلى نحل الشعر عليهم ، ونسبته إلى الشعراء وغير الشعراء منهم .

وأشعار أخرى نجدها منسوبة إلى غير قائل ، تعالج كل موضوعات الشعر التى عالجها الشعراء المعرفون وهى أشعار تطبعها طوابع شعبية ، فى تغنيها بروح الجماعة ، وتغنى الناس بها ، وما يبدو من بساطتها وسهولتها ، وقربها من الحديث العادى ، مما يؤكد أنها لشعراء من عامة الجند ، لم يعن الرواة بالتعرض لهم لضعف شأنهم ، وعدم نضج أشعارهم نضجاً يؤهلهم للشهرة ذلك لأن الرجز هو أقرب ألوان الفن القولى إلى السليقة العربية لعفويته وسهولته . وأيضاً فإن هؤلاء الشعراء لم يكن يهمهم أن ينسب الشعر الذى ينظمونه إليهم ، إذ كانوا من عامة الشعب ، وعامة الشعب دائماً لا يهمهم أن ينسب إليهم فضل أو تمجيد . إنما هى مشاعر ينطقون بها فى بعض

اللحظات ، ولا يهم من ينطقون بها أن تنسب إليهم أو أن يشاد بهم من أجلها . ومن أجل ذلك لم تعين نسبتها إلى من نظموها ، إذ كان ذلك لا يعنيهم في شيء.

وذلك شيء عام يلاحظ في الآداب الشعبية أنه لا تتضح فيها النسبة إلى من صنعوها ، وكأنها ليست لأفراد معينين ، إنما هي للشعب كله ، تصور روحه . وتعبر عن شخصيته، وأنها ميراث لجميع أفراده ، لا يختص بها فرد دون فرد . ومن خير ما يصور ذلك الأمثال الشعبية ، فإنها دائما مجهولة القائل . لأنها من عمل الشعب ، وأعمال الشعب لا تسجل تسجيلاً فردياً ، وكأنما يتلاشى فيها الفرد في الجماعة تلاشياً تاماً .

الفصل الرابع

الطوابع الفنية في شعر الفتوح

نستطيع أن نتبين فى وضوح بعد ما عرضنا من شعر الفتح الإسلامى فى الميادين المختلفة عدة طوابع فنية ، تطبع هذا الشعر فى مجموعه ، وتوضح معالمه وقيمته التاريخية وتضعه — من ثم — فى موضعه من تاريخ الأدب العربى وشعر الفتح يكشف فى جلاء عن أثر الإسلام كعقيدة، وكفكرة فى نفسية العربى. وفى حمله على أن يبذل وأن يضحى فى سبيلها بكل ما يملك . من روحه وجهاده ونضاله . كما يظهر فى شعر الجهاد وأرجاز الفرسان . ويصور شعر الفتوح بالتـالى مدى التغيير الهائل الذى أحدثته الفكرة الإسلامية فى الارتقاء بالنوازع الوجدانية والقبليةوالفردية الضيقة الحدود إلى وجدان متوحد من أجل هدف واحد غاية فى السمو . للتكتل فى مواجهة الخطر الخارجى .

وهو يرسم بهذا صورة كاملة للانطلاقة الهائلة الواسعة . التى انتزعت العربى من حيزه الضيق المحدود لتطوف به فى أرجاء ممتدة . لم يكن استشرفها فى يوم من الأيام .

وتأسيساً على هذا فإن صوراً رائعة للفروسية العربية يمكن رسمها فى ذلك الإطار الجديد الذى وضعه الإسلام لتقاليدها . وصوراً رائعة أخرى يمكن استشفافها للإيمان العميق . والتصديق المؤمن بما وعد به المؤمنون المجاهدون ، ولما وضعه هذا الإيمان بتلك النفوس ، من اكتشافها لذواتها ، ومعرفتها بقدرها .ومن ثم راحت تدك بهذا الإيمان معاقل الأكاسرة والأباطرة، سادة الأمس القريب . وتلوى بأعنة ممالكهم إلى الإسلام .

وهـــذه الصورة الرائعة التى يصورها شعر الفتح للنضال الصادق من أجل الفكرة الإسلامية – تستمد ألوانها من المثل الإسلامية السامية ، كالثقة المطلقة بما وعد الله ، والاطمئنان إلى قضائه والتسليم به ، كما يبدو فى شعر الرثاء ، وعلى الأخص فيما استحدثه المسلمون من رثاء للأشلاء واحتسابها .

وما من شك فى أننا نستطيع كذلك أن نعتمد على شعر الفتح ، الذى لم يغادر معركة كبيرة ولا صغيرة إلا صورها كوثيقة تاريخية عاطفية لهذه الحركة الخطيرة فى حياة الدعوة الإسلامية ، والشروع فى بناء حياة مستقرة فى البلدان المفتوحة ، والأمصار الإسلامية .

وبرغم قصر المـــدة التى بسط فيها المسلمون أجنحتهم على هذه المناطق الشاسعة ، فإن الشعر قد أفلح فى إعطائنا بعض الملامح البارزه لهذه المناطق ، كما أنه ألقى إلينا ببعض الضوء على التزاوج الذى أخذ يحدث بين النفوس العربية المنطلقة وتلك الأجواء الغريبة عنهم فى طبيعتها وسبل الحياة فيها ، فإذا بعض النفوس راضية مطمئنة فى مناطق معينة ، وإذا بعضها الآخر لا يقر له قرار فى مناطق أخرى .

وفضلاً عن هـــذا استطاع شعر الفتح أن ينقل إلينا بعض الانعكاسات المتولدة عن الاحتكاك البكر بين هذه النفوس وتلك المناطق ، وما سقط إليهم من التأثيرات الحضارية ، التى اعترضت خبراتهم وثقافاتهم من أثر هذا الاحتكاك .

ورائع جداً هذا الضرب من الشعر . . الذى تغنى فيه المجاهدون الغرباء همومهم فبكوا ، واستبكوا أوطانهم التى فارقوها وخلفوا فيها أحباءهم وأهليهم ، فى رقة وعذوبة وشجن ، لم نعهد له مثيلاً فى الأدب العربى من قبل.

ومن نافلة القول أن نؤكد أن الشعر الذى هاجر فى وجدان المحاربين وعلى ألسنتهم إلى هذه البقاع الجديدة التى رفرفت عليها راية الإسلام ، لم يكن إلا البذرة الأولى التى أثمرت بعد عصر استقرار المجتمعات الإسلامية ، إذ سكن الفاتحون هذه الأمصار وزحفت فى أعقاب الفتوح هجرات غطت الأرض الجديدة ، ووسمت إماجها فى الشعر بنفس السمات التى حددتها الفتوح ، من حيث الكم والكيف .

وليس ثمــة شك فى أن هذا الشعر استطاع أن يصور جوانب من حياة هؤلاء المتوطنين فى الأمصار ، وما اكتنف حياتهم من جراء تطبيق النظم الإدارية الإسلامية ، وما كان يعترى علاقاتهم بأمرائهم وقادتهم وخلفائهم ، من نقد لسياستهم واتهامهم إذا ما انحرفوا ، وعزلهم إذا ما ثبت انحرافهم .

وإن كنا نؤمن بأن حركة الفتح الإسلامى كانت كل شىء فى حياة المسلمين فى هذا الوقت ، وأنهــا كهدف كبير استوعبت كل اهتمامهم وشواغلهم ، فإن الشعر قد صور جوانب هذه الحركة وما رافقها من وقائع وأحداث ، وما صاحبها من تغير مادى ومعنوى . وبهذا يكون شعر الفتح صورة صادقة لحياة المسلمين جميعاً ، فى هذه الفترة الهامة من تاريخهم . ومن ثم فإن هذا الشعر يعتبر بحق جسراً طبيعياً ومنطقياً ، عبر عليه الشعر العربى من عصر إلى عصر . وهو على هــذا التصور حلقة لا يمكن إغفالها أو إغفال أثرها من حلقات الأدب العربى ، أو هى عصر من عصوره كما تعودنا أن نقول .

بل إنه أدق نموذج للنتاج الشعرى الإسلامى . وبناء على ذلك ، يعتبر المجال الطبيعى لاستبانة أثر الإسلام فى الشعر العربى . ولهــذا فنحن نزعم أن تطوراً بفعل هذا الأثر ، وتجديداً بدافع منه قد لحقا بالشعر العربى ، وظهر ذلك فى شعر الفتح . فقد واكب الشعر حياة المسلمين ، وتطور مع أهدافها وغاياتها وسبلها ، وصور أضخم جوانبها ، وجدد أغراضاً وقيما وموضوعات مستحدثة ، وتطور بموضوعات قديمة ، كما اكتسب لنفسه طوابع فنية معينة اتسم بها .

وهذه الطوابع ليست إلا ظلالاً للفكرة الإسلامية ومقتضياتها ، وصدى للوجدان الجماعى للمسلمين ، وانعكاساً للظروف التى عاشها المسلمون فى فترة من أهم فترات حياتهم وتاريخهم .

وعلى هدى هذه المقاييس الفاعلة فى تشكيل شعر الفتح الإسلامى ، يمكننا أن نتبين خصائصه الفنية التى تطبعه فى عمومه .

وأولى هذه الخصائص : أن شعر الفتح شعر ملتزم فلم يكن له إلا أن يكون أثراً للحركة الإسلامية كما أسلفنا . وعلى ذلك فقد خالف عن أن يكون كما كان الشعر الجاهلى أداة لخدمة القبيلة ، أو ألهية يطوى بها الشاعر فى سبيل التسرية والطرب والاستمتاع ، وتحول إلى أن يكون أداة اجتماعية ، تحفظ تماسك الوحدة الإسلامية ، ووسيلة من وسائل صيانة الفكرة الإسلامية وتأييدها .

وبهذا صار للشعر فى الإسلام مفهوم جديد ، يكاد يكون التزاماً بغايات معينة جند الشعر فى خدمتها لا يتجاوزها ولا ينحرف عنها ، بل لا يمكن له أن ينحرف عنها ، فغبة انحرافه لا تهدد كيان المجتمع الإسلامى فحسب ، وإنما تهدد أيضا فكرته وعقيدته وما تدعو إليه فى المحيط العربى ، الذى يعطى الشعر قيمة خاصة ، ويحتفل به أيما احتفال .

وهكذا لم يكن بد لهذه الجماعة الإسلامية من أن تنزع إلى توجيه الشعر هذه الوجهة ، واعتباره أداة اجتماعية ، ملتزمة بخدمة المبادىء والغايات المحددة لها : على ألا تنحرف عنها .

وقد كان مقياس المواطنة الإسلامية فى الحياة العربية الجديدة أن ينهج الفرد مناهج السلوك التى رسمها الإسلام ، وكان مقياس الصحة والسداد فى القول أن يقول الفرد ما يصلح دافعاً للفكرة الإسلامية ومبشراً بها . ومذيعاً لتعاليمها . وكان مقياس الشاعرية المسلمة أن يستثنى صاحبها من الذين يتبعهم الغاوون ، والذين يهيمون بكل واد ويقولون مالا يفعلون .

وبناء على هذا الالتزام كانت أهم الموازين النقدية آنذاك هى الاتفاق مع روح العقيدة وغاياتها ومثلها . ولا زالت نقدات النبى صلى الله عليه وسلم لشعر النابغة الجعدى ، وما ينطوى فيها من استحسانه ودعائه له تؤكد هذه النظرة ، (1) وما كان من اتجاه النابغة بعد هذا إلا أن يقول شعراً دينياً خالصاً يحاكى به آيات القرآن . وكذلك كان إحسانه إلى حسان وإعجابه

(1) ابن قتيبة / جـ ١ / ص ٢٤٨

لعمرك ما أضاع بنو أبينا ولكن حافظوا فيمن يطيع
أطاعوا ربهم وعصاه قوم أضاعوا أمره فيمن يضيع(1)

وليس يعني وجود ضمير الجماعة في قصائد الجهاد اختفاء ملامح الفرد الشخصية في هذا الشعر ، وإنما الحقيقة . أن الفرد كان يصدر في بعض هذا الشعر عن ذات نفسه مع اعتبار هذه الذات جزءاً من الجماعة التي تمثل ضميرها فصدر عنها في صدوره عن ذاته ، واشتق معانيه من وحيها ، وهو حينئذ : إنما يفخر بنفسه من حيث هو فرد منها ، ليعود عليها كل ما يذكر عن نفسه . فهو لا يذكر شيئاً ليبين تفرده به دون الجماعة ، وإنما يعلن : أنه صورة ومثل على جميع أفرادها .

فهذا عبد الله بن عتبان الذي افتتح جي من أعمال أصبهان يفتخر بنفسه في بيت واحد ، ثم إذا به يرتد إلى الوجدان الجماعي ، ليفخر بجماعة المسلمين وبلائهم فيقول :

من مبلغ الأحياء عني فإنني نزلت على جي وفيها تفاقم
حجزناهم حتى سروا ثم انتزوا فصدهم عنا القنا والصوارم
وجاد لها الفاذوسقان بنفسه وقد دهدهت بين الصفوف الجماجم

ثم لا يلبث أن ينزع إلى تصوير ما أذاقه بيده لكبير القوم فيقول :

فشاورته حتى إذا ما علوته تفادى وقد صارت إليه الخزائم

ويعود إلى الوجدان الكبير فيقول :

وعادت لقوحاً أصبهان بأسرها يدر لنا منها القرى والدراهم

ثم ينزع إلى الحديث عن نفسه كمسئول عن هيئة الجماعة في تقبل جزية المهزومين فيقول :

وإني على عمد قبلت جزاءهم غداة تفادوا والعجاج فواقم

ويرجع إلى الحديث عن جماعة المسلمين التي استحقت النصر كلها وزكا جهادها ، فيقول :

---
(1) الطبري جـ ٥ / ٢٥٤١

ليزكو لنا عند الحروب جهادنا إذا انتطحت فى المازمين الهمامِ[1]

وهذا سراقة بن عمرو الذى أرسله أبو موسى الأشعرى لفتح باب الأبواب يفخر بنفسه ، ثم لا يلبث أن يطلق الفخر فى مجموع المسلمين ، فيقول :

ومن يك سائلا عنى فإنى بأرض لا يواتيها القرار
بباب الترك ذى الأبواب دار لها فى كل ناحية مغار
نذود جموعهم عما حوينا ونقتلهم إذا باح السرار
سددنا كل فرج كان فيها مكاثرة إذا سطع الغبار
وألحمنا الجبال جبال قبج وجاوز دورهم منا ديار
وبادرنا العدو بكل فج نناهبهم وقد طار الشرار
على خيل تعادى كل يوم عتاداً ليس يتبعها المهار[2]

وليس أدل على ما نحن بصدده من قول المثنى بن حارثة ، وهو يرى أفناء العروب وأحياءها جميعاً جنوداً غير متمايزين فى جنده ، وكأنهم أبناء أم واحدة ، هى الوغى :

صبحنا بالخنافس جمع بكر وحياً من قضاعة غير ميل
بفتيان الوغى من كل حى تبارى فى الحوادث كل جيل[3]

وهكذا خفت صوت القبليات ، فلا نعود نسمع بتميم أو مذحج إلا لماماً . وأخذت تعبيرات جديدة تظهر فى الدلالة على الفاتحين ، فهم فتيان الوغى ، فى قول المثنى . وهم جند السلم ، فى قول القعقاع :

فما فتئت جنود السلم حتى رأينا القوم كالغنم السوام[4]

وهم الفتيان الكماة فى قول عاصم بن عمرو :

صبحناهم بكل فتى كمى وأجرد سابح من خيل عاد[5]

---

(١) الاصابة جـ ٦ ص ٢٦٢
(٢) ياقوت / جـ ١ ص ٤٣٧
(٣) ياقوت / جـ ٢ ص ٤٧٣
(٤) ياقوت جـ ٣ / ٨٦٤
(٥) الطبرى / جـ ٤ ص ٢١٧٤

وهم رجال هاجروا نحو ربهم . في قول عاصم أيضاً :

لعمري وما عمري على بهين ... لقد صبحت بالخزي أهل النمارق
بأيدي رجال هاجروا نحو ربهم ... يجوسونهم ما بين درتا وبارق[1]

وهم الأنصار في قول أبي محجن الثقفي يوم الجسر وهم الفتية أيضاً :

مررت على الأنصار وسط رحالهم ... فقلت ألا هل منكم اليوم قافل
إلى فتية بالطف نيلت سراتهم ... وغودر أفراس لهم ورواحل[2]

وهم جموع المسلمين في قول عياض بن غنم :

من مبلغ الأقوام أن جموعنا ... حوت الجزيرة يوم ذات زحام[3]

وهم جند الله ، كما يقول زياد بن حنظلة :

وإذ أرطبون الروم يحمي بلاده ... يحاوره قرم هناك يساجله
فلما رأى الفاروق إزمان فتحها ... سما بجنود الله كيما يصاوله[4]

وصدر الشعر فضلا عن روح الجماعة بوحي من المثل الإسلامية التي طبقت في الفتوح والأمصار المفتوحة ، وترى في هذا الصدد أمثلة كثيرة .

فنتيجة لتطبيق المساواة التي دعا إليها الإسلام لم يعد فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى . فنجد المسلمين في فتح جند يسابور يهبون أحد العبيد بها — وكان قد أسلم من قبل — شرفاً لم يمنحوه لغيره من عظماء المدينة ، فأجار مكنف هذا مواطنيه من سفك دمائهم . وكتب اسمه أماناً ثم قبله المسلمون .

فقال عاصم بن عمرو يفتخر هذه الشفاعة وما تدل عليه من معان :

لعمري لقد كانت قرابة مكنف ... قرابة صدق ليس فيها تقاطع
أجارهم من بعد ذل وقلة ... وخوف شديد والبلاد بلاقع
فجاز جوار العبد بعد اختلافنا ... ورد أموراً كان فيها تنازع
إلى الركن والوالي المصيب حكومة ... فقال بحق ليس فيه تخالع[5]

---

(1) ياقوت جـ ٤ / ٥٣٢
(2) أغاني الساسي جـ ٢١ / ١٤١
(3) البلاذري ص ٢٥١ ، ياقوت جـ ٢ / ٧٤
(4) الطبري ١/٥/٢٤١١
(5) ياقوت جـ ٢ / ص ١٣٠

وكذلك اخذت آثار الديمقراطية الإسلامية تظهر فى الشعر ، عندما يناقش عبد الرحمن بن حنبل الخليفة حساب فىء المسلمين ، ويتهمه بتبديده ، وتوزيعه بين أهله وخاصته ، فيقول :

وأحلف بالله جهد اليمين ... ما ترك الله أمراً سدى
ولكن خلقت لنا فتنة ... لكى نبتلى بك أو نبتلى
دعوت الطريد فأدنيته ... خلافاً لما سنه المصطفى
ووليت قرباك أمر العباد ... خلافاً لسنة من قد مضى
وأعطيت مروان خمس الغنيمة ... آثرته وحميت الحمى
ومالا أتاك به الأشعرى ... من الفىء أعطيته من دنا
فإن الأمينين قد بينا ... منار الطريق عليه الهدى
فما أخذا درهماً غيلة ... ولا قسما درهماً فى هوى (١)

وكذلك أخذت شكوى المسلمين من العمال والأمراء تنظم شعراً إلى الخليفة ، كأبيات يزيد بن الصّعق إلى عمر بن الخطاب ، يغريه فيها ببعض الولاة ، الذين استغلوا مناصبهم ونهبوا أموال المسلمين ، ويطلب منه أن يجردهم منها ، أو يشاطرهم فيها ، فيقول :

أبلغ أمير المؤمنين رسالة ... فأنت أمين الله فى النهى والأمر
وأنت أمين الله فينا ومن يكن ... أميناً لرب العرش يسلم له صدرى
فلا تدعن أهل الرساتيق والقرى ... يسيغون مال الله فى الأدم والوفر
فأرسل إلى الحجاج فاعرف حسابه ... وأرسل إلى جزء وأرسل إلى بشر
ولا تنسين النافعين كلاهما ... ولا ابن غلاب من سراة بنى نصر
وما عاصم منها بصفر عناية ... وذاك الذى فى السوق مولى بنى بدر
وأرسل إلى النعمان فاعرف حسابه ... وصهر بنى غزوان إنى لذو خبر
وشبلا فسله المال وابن محرش ... فقد كان فى أهل الرساتيق ذا ذكر
فقاسمهم — نفسى فداؤك — إنهم ... سيرضون إن قاسمتهم عنك بالشطر

(١) الاستيعاب ٤١٠ ، الأغانى جـ ٦ / ٢٦٨

ولا تدعونّ للشهادة إنى أغيب ولكنى أرى عجب الدهر
نثوب إذا آبوا ونغزو إذا غزوا فأنى لهم وفر ولسنا ذوى وفر (١)

وراح بعض الشعراء يقارنون بين الأمراء فيهم والصحابة الراشدين ، ويوازنون بين عدلهم وحسن سياستهم للأمة وما يجدون من أمرائهم فى الأمصار من مخالفة عن سننهم كما يظهر فى قول النابغة الجعدى لأبى موسى الأشعرى والى البصرة :

فإن يكن ابن عفان أميناً فلم يبعث بك البرّ الأمينا
فيا قبر النبى وصاحبيه ألا يا غوثنا لو تسمعونا
ألا صلىّ إلهكم عليكم ولا صلىّ على الأمراء فينا (٢)

وظهر فى شعر الفتوح أيضاً بعض الآثار الناتجة عن تطبيق الحدود الإسلامية على المنحرفين فى الأمصار ، ومن أمثلة ذلك : أن نقب بعض شباب الكوفة جدار ابن الحيسمان الخزاعى وقتلوه ، فكتب عثمان بقتلهم ، وفى هذا يقول عاصم بن عمرو مشيداً باتباعه محكم الفرقان فى عقابهم :

إن ابن عفان الذى جربتم فطم اللصوص بمحكم الفرقان
مازال يعمل بالكتاب مهيمناً فى كل عنق منهمُ وبنان(٣)

ومن هذه الآثار أيضاً : ماقاله ضابئ بن الحارث البرجمى ، الذى سجن بالكوفة بأمر عثمان بن عفان ؛ فقد استعار من قوم من الأنصار كلباً من كلاب الصيد يدعى « فرحان » ، وحبس الكلب عن أصحابه ورفض إعادته إليهم ، فكاثروه وانتزعوه منه ، فهجاهم بقوله :

تجشم دونى وفد فرحان خطة تضل لها الوجناء وهى حسير
فباتوا سباعاً ناعمين كأنما حباهم ببيت المرزبان أمير

(١) البلاذرى ص ٣٨٤ ، الاصابة جـ ٢ ص ٩٦ ، جـ ٦ ص ٣٦١ .

(٢) الاغانى (ساسى) جـ ٤ ص ١٣٧ (٣) الطبرى جـ ٥ ص ٢٨٤١

فكلبكم لاتتركوا فهو أمكم   فإن عقوق الأمهات كبير[1]

وأثر فيهم هذا الهجاء المقذع ، فاستعدوا عليه عثمان ، الذى كتب إلى الوليد بن عقبة بحبسه واستثقل ضابئ الحبس وتنبأ بموته فى السجن وتحقق ظنه ، حيث قال :

هممت ولم أفعل وكدت وليتنى   فعلت ووليت البكاء حلائله
وقائلة قد مات فى السجن ضابئ   ألا من لخصم لم يجد من يجادله
وقائلة لا يبعد الله ضابئاً   فنعم الفتى تخلو به وتحاوله[2]

وكان كعب بن ذى الحبكة النهد فى الكوفة يعالج بالسحر والشعوذة وبلغ عثمان ذلك ، فأرسل إلى الوليد أن يتبين أمره ، فإن كان حقيقة ضربه موجعاً ، ثم غربه إلى دنباوند من أعمال الرى ، ففعل الوليد ، فقال فى تغريبه :

لعمرى لئن أطردتنى ما إلى الذى   طمعت به من سقطتى لسبيل
رجوت رجوعى يا ابن أروى ورجعتى   إلى الحق دهراً غال حلمك غول
وإن اغترابى فى البلاد وجفوتى   وشتمىّ فى ذات الإله قليل
وإن دعائى كل يوم وليلة   على بدنبا وندكم لطويل[3]

وكان هذا الشاعر من رءوس الفتنة فى قتل عثمان .

٢ ــ أحاسيس ومشاعر دينية

لعل أقرب تسمية للمسلمين فى شعر الفتح كله ما أسماهم به زياد بن حنظلة من أنهم رجال الله ، فهذه التسمية أكثر انطباقاً عليهم وعلى الحقيقة . إذ أنهم أدركوا هذا تمام الإدراك يوم أن اتخذوا هذه العقيدة ديناً ، ويوم توحدت كلمتهم على هذا الدين الذى بث فيهم أحاسيس ومشاعر سامية . وأبدلهم من بعد ضعف قوة ، وجعلهم يشعرون بأنهم دائماً منتصرون ماداموا جنداً فى سبيل إعلاء كلمته . وقد تغلغل فى مكان الاعتقاد منهم صدق الداعى

(١) الطبرى جـ ٥ ص ٣٠٢٣   (٢) الطبرى جـ ٥ / ص ٣٠٢٤
(٣) ياقوت جـ ٢ / ٦٠٩ ، الطبرى جـ ٥ / ٣٠٢٢

الذى دعاهم إلى سعادة الدنيا والآخرة . فتأكد لهم أن الآخرة خير وأبقى ، ما دام الله قد اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيله فيقتلون ويقتلون . وأن الذين يقتلون فى سبيل الله ليسوا أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم .

واستقر فى موضع اليقين منهم : أن الله عز وجل منزل نصره عليهم ، إذا صدقت منهم النيات فى لقاء عدوهم ، فيفوز المقتول منهم بسعادة الآخرة ، ويحرز الباقى سعادة الدنيا . ولهذا كان شعارهم دائماً قوله تعالى (قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا) .

ولهـــذا فإن الفاتحين المؤمنين لم يحرصوا على الحياة حرصهم على الفوز بالجنة ، ولم يجزعوا من الموت ، فإن كل شىء قدر تقديراً « فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » .

وقد تجلت هذه المعانى فى الشعر الذى صدر عن الفاتحين منطلقهم إلى الجهاد ، يردون فيه على ذويهم الذين تمسكوا بهم وناشدوهم البقاء ، واستعدوا الخليفة أن يردهم إذ لا عائل لهم سواهم ، فكانوا يجيبون بأن الله قد دعاهم من قبل ، وبأنهم استجابوا لداعيه .

وقد ظل هـــذا الإحساس يلازم المجاهدين فى الميدان . فكانت أسمى ملحمة فى تاريخ العقيدة عرفها العالم إلى اليوم ، إذ كان بعض المحاربين يشرون أنفسهم صائمين ويستشهدون ، كما فعل المهاجر بن زياد الحارثى وغيره(1) . فقـــد كانوا لا يرون أمامهم إلا ما وعد الله من الجنة والأجر العظيم ، لا طلبة لهم إلا الموت أو النصر ، ولا غاية بعد هذين من جاه أو ثروة ، وما زالت أبيات عروة ترن فى أسماعنا إذ يقول :

فلا ثروة الدنيـــا نريد اكتسابهـــا ألا إنها عن وفرها قد تجلت

---

(1) البلاذرى ص ٢٧٧

وماذا أرجي من كنوز جمعتها وهذى المنايا شرعاً قد أطلت
وأصبح همي في الجهاد ونيتي فلله نفسي أدبرت وتولت (١)

وهم لا يستشعرون أدنى ضجر أو ضيق بإزاء ما يلقون من مشاق الجهاد ، ومن المنايا التي تحدق بهم من كل جانب ، وإنما هم يحملون هذه المشاق التي ساقتهم إليها عقيدتهم ، ويشكرون الله عز وجل أن هداهم للإيمان ، ويسألونه أن يوفقهم في طاعته . يقول في ذلك عروة بن زيد الخيل :

صبرت لأهل القادسية معلماً ومثلي إذا لم يصبر القرن أصبر
فطاعنتهم بالرمح حتى تبددوا وضاربتهم بالسيف حتى تكركروا
بذلك أوصاني أبي وأبو أبي كذلك أوصاه فلست أقصر
حمدت إلهي إذ هداني لدينه فلله أسعى ما حييت وأشكر (٢)

ورائعة هذه الأهازيج التي كان يلقي بها المجاهدون وهم يلقون أعداء الله ، ويعلنون فيها أنهم لا يبغون إلا الشهادة أو النصر كما جاء ، على ألسنة أبناء الخنساء يوم القادسية ، حينما ألقوا بأنفسهم إلى الموت واحداً إثر الآخر ، وأجمعوا على هذا المعنى في نهاية أراجيزهم ، فقال الأول :

وأنتم بين حياة صالحة أو ميتة تورث غنماً رابحة (٣)

وقال الثاني :

إما لفوز بارد على الكبد أو ميتة تورثكم عز الأبد
في جنة الفردوس والعيش الرغد (٤)

وقال الثالث :

إما لفوز عاجل ومغنم أو لوفاة في سبيل الأكرم (٥)

وبنفس هذه الروح المؤمنة كانوا يواجهون الموت ، فإن أدركهم في عزيز لديهم لم يجزعوا . وما يجدى الجزع ولكل أجل كتاب ، إن الموت حق ، وأمر لابد من نفاذه ضربة لازب . ولا يملكون أمامه إلا الإيمان

---

(١) ، (٢) الأخبار الطوال ص ١٤٨ (٣) ، (٤) الاستيعاب ص ٧٤٥
(٥) الاستيعاب / ٧٤٥

والتسليم . وعلام البكاء وسوف يبكى على الباكين فى يوم قريب ... بمثل هذه المشاعر كانوا يواجهون الموت . كما واجهه أبو ذوئيب بهذا الإيمان العميق فى قوله :

وإذا المنيــة أنشبت أظفـــارهـا ألفيت كل تميمـــة لا تنفـــع
لابد من تلف مقيم فانتظر أرض قومك أم بأخرى المصرع
ولقد أرى أن البكاء سفاهة ولسوف يولع بالبكا من يفجع
وليأتين عليك يوم مــــرة يبكى عليك مقنعاً لا تسمع(١)

ونفس هذه الروح نجدها فى مرثية كثير بن الغريزة ، إذ يقول :

ورب أخ أصاب الموت قبلى بكيت ولو نعيت له بــكانى
فــلا تستبعــدا يومى فإنى سأوشك مرة أن تفقـــدانى(٢)

وكانت تشيع فى رثائهم — إلى جانب نغمة التسليم والإيمان — نغمة رضاء واستبشار واستحسان ، لما قدمه الشهيد باستشهاده ، وما تحمله من تضحيات ، فعليه إذن أن ينام قرير العين ، هنىء البال . يقول القعقاع فى رثاء خالد بن يعمر :

حضّض قومى مضرحىّ بن يعمر فلله قومى حين هزوا العواليا
وما خام عنها يوم سارت جموعنا لأهل قديس يمنعون المواليـا(٣)

وهذا — خليد بن المنذر يدعو لهؤلاء الذين خضبوا بدمائهم الرماح يوم طاووس فيقول :

فلا يبعدن الله قوماً تتابعــوا فقد خضبوا يوم اللقاء العواليا(٤)

وهذا — عبد الله بن سمرة الحرشى — الذى قطع الأرطبون يده يوم فلطاس — لا يشعر بالحسرة والندم على يده ، إلا أنها تمنعه الجهاد ، ولكن ما دام بها بنانتان وجرموز يقيم بها صدر لقناة فلا بأس . وعلام يتحسر عليها وقد قامت بدورها فقطعت أوصال الأرطبون قبل أن يقطعها وفى هذا يقول :

---

(١) ديوان الهذليين / جـ ١ ص ٣
(٢) البلاذرى / ٢٧٩ ، ياقوت جـ ٢ / ١٤٠
(٣) الطبرى / جـ ٥ / ص ٢٣٢٩
(٤) ياقوت / جـ ٢ ص ٩٤

فإن يكن أرطبون الروم قطعها فقد تركت بها أوصاله قطعاً
وإن يكن أرطبون الروم أفسدها فإن فيها بحمد الله منتفعـا
بنانتان وجـرموز أقيم بها صدر القناة إذا ما آنسوا فزعا(١)

ومن المشاعر الإسلامية الخطيرة التي شاع أثرها في الشعر . ما ركزه الإسلام في العرب من إحساس بالقوة ، وما أثمره عمق إيمانهم من اعتداد بأنفسهم ، وتقدير لذواتهم ، واستهانة بقوى الباطل ؛ لإيمانهم بأنهم على حق وفي سبيله .

وقد أبدلهم الإسلام عن إحساسهم بالضعف والهيبة أمام الفرس والروم في الجاهلية إحساساً بالقوة ، وشعروا بأنهم الأعلون ، وأن على أكتافهم تقع مسئولية تبليغ الرسالة ، التي أضحوا قوامين عليها إلى العالمين ، بما في ذلك دولة فارس ودولة الروم .

وبغير هذا الإحساس لم يكن يتسنى للعرب – وهم فل حروب داخلية حصدتهم حصداً ، ولم يكن يمكنهم وهم على ما هم عليه من ضعف العدة وضيق ذات اليد وقلة العدد بالقياس إلى هاتين الدولتين – أن يستبيحوا حماهما أو أن يدوسوا حصونهما ومعاقلهما .

فقد قلب هذا الإحساس – بالثقة والمسئولية – ميزان الموقف رأساً على عقب . فاذا بالحفاة العراة رعاة الإبل وأكلة الحنظل يطبقون من كل جانب على سادة الأمس القريب ، وهم على ما هم عليه من ضخامة الثروة ، والمدنية والعمران ، وانفساح الرقعة ، والبطش والقوة . وإذا بهم يسوقونهم سوقاً إلى حظيرة الإسلام ، ويزلزلون عروشهم ، ويأخذون منهم الجزية عن يد وهم صاغرون ، وإلا حكموا فيهم سيوفاً مؤمنة تصرعهم في كل وقعة .

أجل كان العرب في جميع أطوار حياتهم – بحيال دولتي الفرس والروم – لا يهجس في نفوسهم هاجس بالاستطالة عليهما أو مساماتهم ، وإنما

(١) الاصابة / جـ ٥ ص ٦٠ و ٦٢

كان قصارى من سمت به همته إلى الملك منهم أن يكون تابعاً لها خاضعاً لسيطرتهما ، كما كان المناذرة عمالاً للفرس ، والغساسنة عمالاً للروم .

ولكن : أما وقد جاءهم الإسلام بهذه الأحاسيس ، فبث فيهم تلك المشاعر ، ووحد كلمتهم ، وأمد لهم في الأمل فما النصر إلا من عند الله وإن ينصرهم فلاغالب لهم . فأولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون .

ولو رجعنا إلى أقوال قوادهم ورسلهم إلى كبراء هاتين الدولتين العظيمتين وقوادها لوجدناها تنطق بهذه الآمال وبتلك الثقة ، كما يظهر في قول المغيرة بن شعبة لرستم لمـا خوفه مغبة الأمر إذ قال : « يدخل من قتل منا الجنة ، ومن قتل منكم النار ، ويظهر من بقي منا على من بقي منكم . »(1)

وهذا عبادة بن الصامت وقد خوفه المقوقس قوة الروم وكثرة عددهم على حين أن العرب قلة لا يقدرون عليهم يواجهه في ثقة وإيمان وبسالة بقوله : « يا هذا . . لا تغرن نفسك وأصحابك . أما ما تخوفنا به من جموع الروم وعددهم وكثرتهم ، وأنا لا نقوى عليهم فلعمري . . ما هذا الذي تخوفنا بالذي يكسرنا عما نحن فيه ، وإن كان ما قلتم حقاً فذلك — والله — أرغب ما يكون ، في قتالهم ، وأشد لحرصنا عليهم ؛ لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا قدمنا عليه ، وإن قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا في رضوانه وجنته . وما شيء أقر لأعيننا ولا أحب إلينا من ذلك » .(2) وتدور هذه الروح في كتب خالد بن الوليد وغيره من قواد المسلمين إلى قواد الفرس وعظمائهم . وقد سكب بعض الفاتحين هذه الروح في أشعارهم ، فصوروا أعداء المسلمين وسادتهم بالأمس في صور تدل على هوانهم على المسلمين ، وخذلانهم أمام الحق الأبلج ، فهم أناس لا يدافعون عن فكرة كما يفعلون ، ولا يحامون عن الحقيقة كما يحامون .

والفرس مجوس لا يعرفون الله الذي هدى العرب إلى الإسلام ، وليس

---

(1) الطبري / ٥ / ٢٢٧٩

(2) المقريزي / جـ ٢ / ٢٩٠ ، ابن عبـد الحكم / ٥٩ / ٦٠

لم كتاب يهديهم إلى الحق ، فهم فى معصية الله ، ولكن المسلمين فى طاعته .

يقول الأسود بن سريع التميمى :

أطاعوا ربهم وعصاه قوم أضاعوا أمره فيمن أضاعوا
مجوس لا ينهنها كتاب فلاقوا كبة فيها قبوع (١)

وهذا أوس بن بجير الطائى ، يقرر هذه الحقيقة إذ يقول :

ليت أبا بكر يرى من سيوفنا وما نجتلى من أذرع ورقاب
ألم تر أن الله لا رب غيره يصب على الكفار سوط عذاب(٢)

وقد راح الفاتحون يصورون الفرس فى صور مختلفة ، معبرين بذلك عن استهانتهم بهم واحتقارهم . فهذه قصورهم قد آل ما بقى منها إلى المسلمين ، وخرب منها ما خرب ، حتى عادت كأضراس الكلاب ، كما يقول عاصم بن عمرو فى قصور الحيرة :

حصرنا فى نواحيها قصوراً مشرفة كأضراس الكلاب (٣)

وقد حطهم المسلمون من هذه القصور فزلزلوا عروشهم ، كما يقول القعقاع ابن عمرو :

حططناهم منها وقد كان عرشهم يميل به فعل الجبان المخالف (٤)

وهذه بلادهم المنيعة الحصينة التى كانت حراماً لا يرام بالحشود أصبحت حلالاً للمسلمين مباحاً ، وأصبح تمر النرسيان الذى لم يكن يأكله إلا الأكاسرة طعاماً حلالاً لهم ، كما يقول عامر بن عمرو :

فظلت بلاد النرسيان وتمره مباحاً لمن بين الديار الأضافر
أحنا حمى قوم وكان حماهم حراماً على من رامه بالعساكر (٥)

وها هم المسلمون ، يغلبون ملوك الجزيرة ، فيشلون حركتهم ، ولا يستطيعون معاونة حلفائهم من الروم ، كما قال عياض بن غنم :

---

(١) الطبرى جـ ٥ / ٢٥٤١
(٢) الاصابة جـ ١ / ١١٧
(٣) ياقوت / جـ ٢ / ٣٧٥
(٤) الطبرى جـ ٤ / ٢٠٤٧
(٥) ياقوت / جـ ٤ / ٧٧٤

غابوا الملوك على الجــزيرة فانتهوا عن غزو من يأوى بلاد الشام (١)

وهذه كنوز المرء كسرى ، تلقى فى حجورهم ، كما يقول نافع بن الأسود :

وانتشلنا خــزائن المــرء كسرى يوم ولوا وحــاض منا جريضا (٢)

وهاهم المسلمون يذيقونهم مام يقدروا وما لم يحتسبوا ، فإذا بهم يتنادون بقبول الجزية صاغرين ، كما يقول عبد الله بن بشير بن عامر :

غداة رأوا الخيل العراب مغــيرة تقرب منهم أسلهن الكواحــا

تنادوا إلينا واستجاروا بعهــدها وعادوا كلاباً فى الديار نوابحا (٣)

ويعبر عمرو بن مالك الزهرى عن هذا المعنى فيقول :

فنادوا إلينا عــن بعيد بــأننــا ندين بدين الجزية المتواتــــر (٤)

وهذا الأسود بن قطبة يفخر بأن الفرس قد دفعوا إليه بفدية الأسرى وأنفهم راغم ، فيقول :

ألا أبلغاً عــنى الغريب رســالــة فقد قسمت فينا فيوء الأعاجــم

وردت علينا جزية القــوم بالذى فككنا به عنهم ولاة المعاصم (٥)

وبهذا الإحساس وحده نفى المسلمون فارساً عما أرادت وأبادوها ، وكانت ثابتة الأركان ممتدة السلطان ، كما يقول عمرو بن شأس الأسدى :

نفينــــا فارساً عمــــا أرادت وكانت لا تحاول أن ترام (٦)

ولم تعد فارس عرّين أسود ، وإنما غدت بأيدى المسلمين حظيرة كلاب نابحة ، لا يقيم لها المسلمون وزناً ، كما يقول الراجز :

وإنمــا تلقون عند الصائحــه من آل ساسان الكلاب النابحه (٧)

---

(١) ياقوت / جـ ٢ / ص ٧٤
(٢) الطبرى / ٥ / ٢٤٢٤
(٣) ياقوت / جـ ٢ / ص ٤١٢
(٤) ياقوت / جـ ٢ / ٦٥
(٥) الاصابة / جـ ١ / ١٠٨
(٦) الاستيعاب / ٧٤٥
(٧) الطبرى / ٥ / ٢٣٠١

وهى لا تزال تعوى تحت ضربات المسلمين فى معارك حامية الأوار ، كتلك التى قادها النعمان بن مقرن يوم أربك حيث يقول :

عوت فارس واليوم حام أواره ... بمحفل بين الدكاك أربك (١)

والفرس ليسوا إلا أنعاماً لا حول لهم ولا قوة أمام المسلمين الذين يصرعونهم على الآكام ، كما يقول زهرة بن حوية :

وصرعوا تفرس على الآكام ... كأنهم نعم من الأنعام (٢)

وهم أيضاً أجساد نجسة مجوسية مشركة ، كما ينعتهم نافع بن الأسود فى قوله :

فضضت جموع الفرس ثم أئمتهم ... فتبا لأجساد المجوس النجائس (٣)

وهذا مجد فارس تهدمت أركانه ، ولم يعد هنالك إلا الإماء والثواكل النائحات تبكين وتعولن على المجد الضائع تحت سيوف المنتصرين ، يقول القعقاع بن عمرو :

فنحن الألى فزنا بحلوان بعدما ... أرنت على كسرى الإما والحلائل (٤)

ويقول عمرو بن شأس الأسدى :

وداعية بفارس قد تركنا ... تبكى كلما رأت الهلالا (٥)

وكذلك كان شأن الروم ، إذ انهارت دولتهم ، وأقبلت الشام العريضة بما عليها ومن عليها تلقى بنفسها وبخيراتها إلى المسلمين ، كما يقول زياد بن حنظلة :

وأقبلت الشام العريضة بالذى ... أراد أبو حفص وأزكى وأزيدا
فقسط فيما بينهم كل جزية ... وكل رفاد كان أهنا وأحمدا (٦)

ولما طرد المسلمون أرطبون من أجنادين إلى بيت المقدس شريداً فطموا الروم عن الشام ، كما يقول زياد أيضا :

---

(١) ياقوت / جـ ١ / ١٨٥
(٢) الطبرى / ٥ / ٢٠٤٩
(٣) الطبرى / ٥ / ٢٤٧٢
(٤) ياقوت / جـ ٢ / ٣١٧
(٥) الطبرى / جـ ٥ / ٢٣٠٢
(٦) الطبرى / جـ / ٢٤١١

ونحن تركنا أرطبون مطـــرداً إلى المسجد الأقصى وفيه حسور
فطمنا به لروم العـــريضة بعـــده عن الشام أدنى ما هنالك شطير (١)

وها هي دولة الفرس تبيد ، ويصبح الفرس رعاة الشياه للمسلمين ، وكأن ملكهم كان حلما وليس هذا إلا بما نصر الله به المؤمنين ، وما كانوا ليهتدوا إلا أن هداهم الله . يقول النابغة الجعدي :

يا أيها النـــاس هـــل ترون إلى فارس بادت وجـــدها رغمـــا
أمســـوا عبيداً يرعون شاءكم كأنمـــا كان ملكهـــم حلمـــا
أوسبأ الحـــاضرين مـــأرب إذ يبنون من دون سيله العـــرما (٢)

وها هي دولة الروم تبيد وتصبح فيئاً للمسلمين ، وعيشاً خصيباً لهم ، يقول زياد بن حنظلة :

وألقت إلينا الشام أفلاذ بطنهـــا وعيشاً خصيباً ما تعـــد مآكله
أباح لنا ما بين شرق ومغـــــرب مواريث أعقاب بنتها قـــرامله (٣)

٣ — معان إسلامية خالصة

ولعل أكثر الطوابع الإســـلامية مباشرة وأبرزها ظهوراً فى شعر الفتوح محاولة تمثل بعض المعانى الإسلامية الخالصة ، تمثلاً قريباً من صورتها فى آى الذكر الحكيم ، كما حدث فى شعر النابغة الجعدى ، الذى اتخذ زوال دولة الفرس موضوعاً له ، فصوره معجزة من المعجزات الباهرة ، التى وفق الله المسلمين إليها ، حتى ليجعلنا نعتقد : أنه وضع أمامه آيات بعينها من الكتاب العزيز ، وراح ينظمها نظماً حافظ — خلاله جاهداً — على ألفاظها .

---

(١) ياقوت جـ ١ / ١٣٦
(٢) أســـد الغابة / جـ ٥ / ص ٣ ، (ابن قتيبة) جـ ١ / ص ٢٥٣
(٣) الطبرى / جـ ٥ / ٢٤١١

وهي محاولة طريفة . إذا تتبعنا أبياته لنرى إلى أي مدى تمثل هده المعانى . يقول النابغة :

الحمــــد لله لا شريـــك له ... من لم يقلها فنفسه ظلمـا (1)

وهذا معنى يتردد كثيراً فى القرآن الكريم ، من مثل قوله عز وجل على لسان لقمن وهو يعظ ابنه « يابنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم » (2)

ثم يأخذ فى تعداد الآيات الكونية فيقول :

المـولج الليـل فى النهـار وفى ... الليـل نهـاراً يفـرج الظلما

وكأنه يعنى قوله تعالى : « ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر » (3) .

ثم ينتقل إلى آية أخرى من الآيات الكونية فيقول .

الخـــافض الـرافع السماء عـلى ... الأرض ولم يبن تحتهـا دعمـا

وهذا معنى قوله سبحانه : « خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم» (4) وينتقل إلى معنى آخر فيقول :

الخالق البارئ المصـــور فى الـ ... أرحام ماء حتى يصـير دمـاً

من نطفة قدرهـا مقدرهـا ... يخلق منهـا الأبشـار والنسما

ثم عظـاماً أقامهـا عصـب ... ثمت لحا كسـاه فالتـأما

ثم كسا الـريش والعقائـق أبشـ ... اراً وجلداً تخالـه أدمـا

وهو يقصد بهذه الأبيات . إلى التدليل على أن البعث حق ؛ وكأنه يعنى قوله تعالى :

« يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء »(5) .

---

(1) أسد الغابة جـ ٥ / ص ٣ ... (2) سورة لقمان آية ١٣

(3) سورة لقمان آية ٢٩ ... (4) سورة لقمان آية ١٠

(5) سورة الحج آية ٥.

أو قوله تعالى « لقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون » .(1)

ثم يتحدث عن أنعم الله على الإنسان من كساء يوارى به سوءاته ، مصداق قوله تعالى : « يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوءاتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير »(2) .

ثم يتحدث من بعد ذلك عن قدرته تعالى ، فى اختلاف الخلق ، وأصواتهم ، وألوانهم ، فيقول :

والصوت واللون والمعايش والـ ... أخلاق شتى وفرق الكلما

ذلك المعنى الذى تعبر عنه الآية الكريمة : « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين »(3) .

وهذا كله من أجل أن يدلل على صحة البعث والنشور ليقول :

ثمت لابد أن سيجمعكم ... والله جهراً شهادة قسما
فائتمروا الآن ما بدا لكم ... واعتصموا إن وجدتم عصما
فى هذه الأرض والسماء ولا ... عصمة منه إلا لمن رحما

فهو يعنى : إحاطته سبحانه وتعالى بالخلق ، وكأنه ينظر فى قوله عز وجل — على لسان نوح عليه السلام لابنه حين قال — : « سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء : قال : لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم »(4) .

وينتهى ليذكر الفاتحين بالمعجزة التى أجراها الله على أيديهم ، فى إزالتهم ملك فارس فيقول :

يأيها الناس هل ترون إلى ... فارس بادت وجدها رغما
أمسوا عبيداً يرعون شاءكم ... كأنما كان ملكهم حلما

(1) سورة المؤمنون آية ١٢ — ١٦.
(2) سورة الأعراف آية ٢٦
(3) سورة الروم آية ٢٢
(4) سورة هود آية ٤٣ .

أو سبأ الحاضرين مأرب إذ يبنون من دون سيله العرما (١)

وآية هذا : أن طوابع إسلامية قد طبعت الشعر الإسلامى فى الفتوح من جراء صدوره فى ظروف أثرت فى شكله ، ونزعت به إلى التخفف من المقدمات الغزلية والطللية ، التى لا تتلاءم مع ما يتحمل الفاتحون من مسئوليات سامية وجادة ، وما هم مشتغلون به عما سواه . وقد أتاح هذا للرجز أن يصبح قالباً من قوالب الشعر ، يتحمل موضوعات القصائد .

وكان من أبرز الطوابع التى طبعت المضمون الشعرى صدور الشعر عن روح الجماعة الإسلامية ، وعن وجدانها الجماعى ، الذى استنفد القوميات المحلية والعصبيات القبلية وصاغها صياغة جديدة ، فى إطار جديد . كما صدر الشعر عن المثل الإسلامية الرفيعة ، وعنى بنقلها ، وصور تطبيق النظم الإسلامية فى الأمصار الجديدة .

كذلك طبع الشعر بمثل ما طبعت به النفوس المؤمنة من المشاعر الدينية ، والأحاسيس الروحية السامية ، التى تجلت فى الإيمان العميق بالله ، والحرص على الفوز بما وعد ، والاستسلام لقضائه ، وما بثه الإسلام فى العرب من اعتزاز بأنفسهم تضاءلت أمامه هيبة الدول ، التى تسلطت عليهم بالأمس فأذلوها وسادوها ، بما دفعه الإسلام فيهم من روح جديدة ، أكدت لهم ضرورة هدايتهم العالمين إلى ما هداهم به ربهم .

وقد صطبغ الشعر فى ألوانه وضروبه جميعاً بصبغ إسلامى ، واضح فى معانيه وتعبيراته وألفاظه ، وكان من أبرز هذه الطوابع الإسلامية ما حاوله بعض الشعراء من محاكاة المعانى الإسلامية ، والتعالم الدينية وآيات القرآن الكريم .

(١) أسد الغابة / جـ ٥ / ص ٣ ، ابن قتيبة حـ ١ / ٢٥٣

ألوان الرثاء استجد فى الشعر الذى قيل فى الفتوح . وهو لون طريف لم يعرفه الشعر العربى من قبل ، ذلك أن بعض المجاهدين راحوا يرثون أعضاءهم وأشلاءهم التى فقدوها فى المعارك فى صورة رائعة ، تمتلئ بالشجاعة والبسالة وإظهار الشدة والاحتمال والبأس ، واحتساب هذه الأعضاء والفخر ببذلها فى سبيل الله ، والاستهانة بفقدها أمام ما أفقدت العدو من أرواح وأعضاء . ومن بين هذه الصور الرائعة تلك الصورة التى يصور فيها عبد الله بن سبره الحرشى احتسابه يده عند الله ، مشيداً بما فعلته هذه اليد فى سبيله ، فقد قتلت أرطبون الروم . فى مبارزة فقدت فيها يوم فلطاس فقال :

ويل ام جارٍ غداة الروع فارقنى	أهون على به إذ بان فانقطعا
يمنى يدىّ غدت منى مفارقة	لم أستطع يوم فلطاس لها تبعا
وما ضننت عليها أن أصاحبها	ولقد حرصت على أن نستريح معا
وقائلٍ غاب عن شأنى وقائلة	هلا اجتنبت عدو الله إذ صرعا
وكيف أتركه يسعى بمنصله	نحوى وأعجز عنه بعدما وقعا
ما كان ذلك يوم الروع من خلقى	ولو تقارب منى الموت فاكتنعا
يمشى إلى مستميت مثله بطلٍ	حتى إذا أمكنا سيفيهما قطعا
حاسيته الموت حتى اشتف آخره	فما استكان لما لاقى ولا جزعا
فإن يكن أرطبون الروم قطّعها	فقد تركت بها أوصاله قطعا
وإن يكن أرطبون الروم قطّعها	فإن فيها بحمد الله منتفعا
بنانتين وجرموزاً أقيم بها	صدر القناة إذا ما آنسوا فزعا[1]

فهو يرثى يده ، وكأنها إنسان عزيز فقده وفارقه ، وقد حرص على أن يتبعها ، ولكنه لم يستطع ، لا ضناً بنفسه على الموت ولا جبنا ، كهؤلاء الذين يلومونه على تعرضه للبطل الرومى ، ويتمنون له أن يتجنبه . وهو يسعى بسيفه نحوه ، فهل يعجز بعدما كان من بروزه ويرتد مذعوراً أمامه ؟ وهل يليق

---

(١) الاصابة / جـ ٥ / ص ٦٠ ، ٩٢ ، الطبرى / جـ ٥ / ص ٢٤١٠ .

هذا بيطل مثله ؟ وأمكنا سيفهما ، وراح الشاعر يسقيه كأس الموت حتى آخره ، وثبت البطل ، ولم يجزع حتى صرع قرنه وفقد يده .

ولكن هذه اليد التى قطعت قد قطعت أوصال خصمه ، وإن يكن خصمه قطعها . فإنه لم يفسدها كلها فقد بقيت فيها منافع ، فله بنانتان وجرموز تمكنه من الحفاظ على المسلمين ، حينما يأنسون جزعاً .

وبهذه الصورة الرائعة وأمثالها سجل الشعراء والرجاز رثاءهم لأعضائهم التى فقدوا ، فهذا علباء بن جحش العجلى ، يطعنه فارسى فى بطنه فيبقرها ويخرج أمعاءه . فإذا به ثابت الجنان يدفع بأمعائه إلى بطنه ، وهو يرتجز بكلماته الأخيرة :

أرجـــو بهـــا من ربنـــا ثواباً قد كنت ممن أحســـن الضرابا (1)

وهذا - أخو بنى كاهل ، وقد قطع أحد فرسان العدو رجله ، فراح يحتسبها عند الله ، مستهيناً بها قائلاً :

صبراً عفـــاق إنهـــا الأساوره صبراً ولا تغررك رجل نادره (2)

وهذا - حياض بن قيس القشيرى ، يرثى رجله ، حتى ليعرف بناشد رجله ، فيفخر به سوار بن أوفى فى قوله :

ومنـــا ابن عتّاب وناشد رجله ومنا الذى أدّى إلى الحى حاجبا (3)

وكان حياض هذا : قد ضربه أحد الروم فى اليرموك فقطع رجله ، فقال متوهماً الروم أساورة يخاطب فرسه :

أقـــدم حـــذام إنهـــا الأساورة ولا تهـــولنك رجـــل نادرة
أنا القشـــيرىّ أخو المهاجـــرة أضرب بالسيف رءوس الكافرة (4)

وذكر بعض الشعراء مثل هذا مما فعلوه بالعدو . فهذا - علقمة بن الأرث ،

---

(1) الطبرى جـ ٥ ص ٢٣١٠ . (2) الطبرى / جـ ٥ ص ٢٣٢٩ .
(3) ، (4) الاصابة / جـ ٢ ص ٦٨ .

يتحدث عن الأكفّ والأسوق التى أطاحها المسلمون من الروم فى يوم فحل فيقول :

وكم من قتيل أرهقته سيوفنـــا   كفاحاً وكفّ قد أضيحت وأسوق(١)

وجلى أن هذا اللون يغلب عليه طابع إسلامى بصورة ظاهرة ، فى معانيه وألفاظه وما يشيع فيه من روح الفداء والتضحية والاحتساب ، فى مقابل ما أعده الله للمجاهدين من حسن الثواب .

وخلاصة القول : أن شعر الجهاد فارق الحماسة الجاهلية ، فى التخفف من كل ما حظره الإسلام من الغزل المحسوس، والتغنى باللهو والعبث والشراب ولم يعد تفاخراً بالشجاعة فى الثأر والانتقام والإغارة . وإنما أصبح تفاخراً بالبطولة ، والتفانى فى الجهاد فى سبيل الله ، الذى يظهر فيه إيمان الشاعر بالعقيدة التى يدفع عنهـــا إيماناً عميقاً ، يستشرف فيه الشاعر مغانم أخروية وعده الله بها، ويصدر فيه عن روح الجماعة الإسلامية ، التى كادت تذوب داخلها القبليات والنعرات الجاهلية . كما يصدر فيه عن نفسه كعضو فى هذه الجماعة واضح الشخصية متميزها ، يؤدى واجباً يشعر بقداسته ويؤمن بدواعيه .

وكذلك اختلف شعر الرثاء فى الفتوح عن الرثاء التقليدى ، فيما شاع فيه من آثار التعاليم الدينية ومظاهر الإيمان بالموت ، الاستبشار بالجنة، فضلاً عن هذا اللون الجديد من الرثاء الذى بكى فيه المسلمون أشلاءهم بكاء جديداً ، يظهرون فيه الاستهانة بما فقدوا فى سبيل الله . ويلف الرثاء بلونيه التقليدى والمستحدث إطار إسلامى جلى ، وإشارات واضحة إلى الجنة والثواب والأجر الذى أعده الله للشهداء والمجاهدين .

---

(١) الاصابة / حـ ٥ / ص ١١١ .

٣ — موضوعات جديدة

هذه الموضوعات الجديدة التى عبر عنها شعر الفتح نتيجة طبيعية لحياة الفاتحين فى بيئة جديدة عنهم وبعيدة عن أوطانهم . وأول هذه الموضوعات ما نسميه بشعر الحنين ، ونعنى به ذلك الشعر الذى يعبر عن أشواق الشاعر التى كانت تملأ جوانبه ، وعن المواجع التى كانت تلذع كبده . نتيجة بعده عن وطنه ، عندما يتذكر مرابعه الأولى فيحن إليها ، ويذكر أهله الذين فارقهم ، ويتمنى لقاءهم فيشكو بعده واغترابه عنهم ، كهذا المجاهد الذى يشكو غربته إلى قمرية خالها غريبة مثلة فى مرو الشاهجان فقال :

أقمرية الوادى التى خان إلفها ... من الدهر أحداث أتت وخطوب
تعالى أطارحك البكاء فإننا ... كلانا بمرو الشاهجان غريب[1]

وكما يسكب الشاعر الغريب عواطفه على الطيور ويشكو إليها همومه يفزع إلى طبيعة دياره التى خلفها وراءه ، عندما يعانى من قسوة أجواء هذه المناطق النائية وبردها وثلجها ، فيتحسر على دفء موطنه ، كهذا الشاعر الذى راح يذم جو مرو . ويتمنى جو العراق فى برّه وبحره ، إذ يقول :

وأرى بمرو الشاهجان تنكرت ... أرض تتابع ثلجها المنذور
أسفى على بر العراق وبحره ... إن الفؤاد بشجوه معذور[2]

وإن كان هذا الشاعر يذم برد مرو شوقاً إلى دفء العراق ، فإن شاعراً آخر من الفاتحين يضيق بقيظ بعض المناطق البعيدة الأخرى عن وطنه ، ويتنسم برد رياح نجد ، وطيب مناخه ، ضائقاً بغربته بين أناس ليسوا من قومه ولا من عشيرته ولا من لسانه ، فيقول :

أتبكى على نجد وريّا ولن ترى ... بعينيك ريّا ما حييت ولا نجدا
ولا مشرفاً ما عشت أقفار وجرة ... ولا واطئاً من تربهن ثرىً جعدا

---

(١) ياقوت / جـ ٢ / ص ٥١٠ . (٢) نفس المرجع .

ولا واجداً ريح الخزامى تسوقها رياح الصبا تعلو دكادك أو وهدا
تبدّلت من ريّا وجارات بيتها قرى نبطيات يسميننى مردّا
ألا أيها البرق الذى بات يرتقى ويجلو دجى الظلماء ذكرتنى نجدا
ألم تر ان الليل يقصر طولـــه بنجد وتزداد الرياح به بردا؟(١)

وأخذ الشعور بالغربة على الفاتحين يتصور صوراً مختلفة . فنجد يقصر الليل فيه وتزداد رياحه برداً ، ولكنه فى غربته يزداد طولاً وقيظاً .

وهذا ورد بن الورد فى رامهرمُز يحن إلى حبيبته ودياره فى بنى كعب ، فيصور فؤاده مصعداً مع المصعدين إلى أرض الوطن ، ولا يجد خيراً فى الدنيا إذا لم يزر فيها حبيبه فيقول :

أمغـــترباً أصبحت فى رامهرمز ألا كل كعبىّ هنـــاك غريب
إذا راح ركب مصعدون فقلبه مع المصعدين الرائحين جنيب
وإن القليب الفرد من أيمن الحمى إلىّ وإن لم آته لحبيـــــب
ولا خير فى الدنيا إذا لم تزرها حبيباً ولم يطرب إليك حبيب(٢)

وراح بعض الشعراء يبكون حظهم الذى ألقى بهم إلى هذه المناطق النائية ، حتى ليضيقون بالقتال والحرب فيها ، ويصرحون بهذا فى شعرهم، كما فعل هذا الجندى الذى يقول :

تبـــدلت من نجـــد وممن يحله محله جنـــد ما الأعاريب والجند ؟
وأصبحت فى أرض الجنود وقد أرى زمانى بأرض لا يقال لها بند(٣)

ويستبد الحنين بالشاعر فينظر ناحية نجد ، برغم أنه لا يرى شيئاً ، ولكنه ينظر حنيناً إليها وإلى خيامها التى يقصر عنها الطرف وبرغم ألا نفع فى نظره فلا يزال ينظر ، ثم تجرى عبراته تتحدر هكذا كل يوم . وهكذا لا يستريح قلبه ، فإما مجاهد فى غزاة ، أو ناء يتذكر يقول :

أكرر طرفى نحـــو نجـــد وإننى برغمى وإن لم يدرك الطرف أنظر
حنينـــاً إلى أرض كأن ترابهـــا إذا أمطرت عود ومسك وعنبر

(١) ياقوت ج ٤ / ص ٩٠٦ .
(٢) ياقوت ج ٢ / ٧٣٨ .
(٣) ياقوت / ج ٤ / ص ٧٤٩ .

بلاد كأن الأقحوان بروضــه ونور الأقاحى وشى برد محبر
أحن إلى أرض الحجــاز وحاجتى خيام بنجد دونها الطرف يقصر
وما نظرى من نحو نجـــد بنافع أجل لا ، ولكنى إلى ذاك أنظر
أفى كل يوم نظرة ثم عــبرة لعينك مجــرى مائها يتحــدر
متى يســتريح القلب إما مجاوز بحرب وإما نازح يتــذكر[1]

وفى مثل هذه الظروف القاسية الموحشة يجد الشاعر المجاهد الغريب نفسه بحاجة إلى أن يهرب إلى الطبيعة يبثها آلامه وأحزانه ، ولا يزال الشعر الذى قيل فى نخلة القادسية يصور لنا عاطفة الإنسان المأزوم نحو الطبيعة ولجوءه إليها ، وبخاصة لو استشعر إلى جانب مشاعر الاغتراب والوحشة قلقاً يتهدد حياته ، أو عندما يهاجمه الإحساس بدنو أجله .

كان ذلك يوم عمّاس ، وقد قتل من المسلمين ألفان وخمسمائة ، وكان عدد الجرحى كبيراً ، وأخذ المسلمون فى دفن القتلى بمشرق ، ودفعــوا بالجرحى إلى عناية النساء ، وكان بين موقع المعركة مما يلى القادسية وبين حصن العذيب نخلة وحيدة ، ليس حولها شيء من الزرع ، وكان المسلمون إذا حملوا الجريح مرّوا به عليها ، فإذا كان فيه تمييز نظر إليها طويلا ، ثم قال لحامله : أرحنى تحت ظل هذه النخلة ، فيرتاح تحتها برهة ، يترنم فيها ببيت من الشعر يتمنّى فيه السلامة لها ، وكأنه يخاطب نفسه فيها ، إذلم يجد أهله واحباءه حوله يقولون له هذه الكلمة فيخففون بها بعض مابه من ألم . ويذكر وحدة النخلة ، وكأنه يعبر بذلك عن غربته ، مثل هذه النخلة التى لا يجاورها نخل فيقول :

ألا فاســلمى يا نخلة بين قادس وبين العذيب لا يجاورك النخل

فإذا بجريح آخر يقول :

ألا يا اسلمى يا نخلة بين جــرعة يجاورك الحمّان دونك والرغــل

فإذا بثالث من تيم الله يدعى ربعياً يقول :

---

(1) ياقوت / جـ٤ / ٧٤٧ .

أيا نخلة الجرعاء يا جرعة العـدا   سقتك الغوادي والغيوث الهواطل

وحمل إليها الأعور بن قطبة جريحاً – فيمن حمل – فقال :

أيا نخلة الركبان لازلتِ فانضري   ولا زال في أكناف جرعائك النخل

فرد عوف بن مالك التيمي :

أيا نخلة دون العذيب بتلعـة   سقيت الغوادي المدجنات من النخل(1)

وموضوع الحنين على هذه الصورة باب رائع من أبواب الشعر الإسلامي ؛ ذلك أنه يلتف في نطاق وجداني رفيق ، تنسكب فيه أعمق المشاعر العاطفية في تدفق وحرارة وصدق .

ونحن لا نعرف لهذا الشعر شبهاً يقابله في شعر الجاهلية على كثرة ما كان من ظعنهـم ورحيلهم إلا ما كان يعرف من بكاء الأطلال . وفي اعتقادنا : أن وجود هذا الضرب من الشعر في الفتوح يعلل اختفاء المقدمات من هذا الشعر ، إلى جانب ما أسلفناه من أسباب في تعليل هذه الظاهرة . وربما يعلل وجود هذا اللون أيضاً : ما أخذ يشيع بعد استقرار المجتمع الإسلامي وبسط سلطانه على الأمصار المفتوحة من غزل رقيق عذري ، متطور عن هذا اللون من شعر الحنين الحزين الشجي .

وللتدليل على ما نذهب إليه بصدد حلول قصائد الحنين هذه محل المقدمة الطللية ، الذي استوعب هذا اللون كل ما كان ينسكب فيها من عواطف . نرى أنه لاضير في أن تكون هذه الأبيات مطلعاً لإحدى القصائد التقليدية وهي أبيات لأحد الفاتحين النازحين يقول فيها :

خليلي هل بالشـام عين حزينة   تبكي على نجـد لعـلى أعينها

وهل بائع نفساً بنفس أو الأسى   إليها فأخـلاها بذاك حنينهـا

وأسلمنهـا الباكون إلا حمامة   مطوقة قـد بان عنها قرينهـا

تجاوبها أخـرى على خـيزرانة   يكاد يدنيهـا من الأرض لينها

نظرت بعيني مؤنسين فلم أكد   أرى من سهيل نظرة أستبينها

(1) المسعودي / مروج الذهب / جـ ٢ ص ٢٠٩ ، الطبري جـ ٥ / ٢٣١٧ و ٢٣١٨ .

فكذبت نفسي ثم راجعت فطره   فهيج لى شوقاً لنجد يقينها[1]

فهل هناك فرق بين هذه الأبيات وأية مقدمة طللية ؟ وهل هناك فرق بينها وبين ما نراه بعد عند العذريين من آلام الشوق والتبريح ؟

وفى الوقت الذى نجد فيه الرجز يقاسم الشعر فى الموضوعات القديمة المتطورة كشعر الجهاد والرثاء نجده لا يستطيع أن يشاركه فى شعر الحنين ، إذ هو اللون الوحيد من ألوان الشعر فى الفتوح ، الذى لم يكن للرجز فيه نصيب من التعبير . وربما يرجع هذا إلى أن معانى الحنين لا يمكن نظمها إلا فى ظروف وجدانية خاصة ، ولحظات غنائية حالمة ومتأنية ، مما يخالف طبيعة الرجز ، الذى غلبت عليه طبيعة الاندفاع والانفعال العنيف اللاهب ، نتيجة لقيامه بدور التحميس والحث فى ظروف القتال .

وحظيت المشاهد الغريبة التى عاينها المسلمون لأول عهدهم بها فى مناطق الفتح النائية . وبخاصة فى الجناح الشرقى لفارس بغير قليل من عناية الشعراء الذين راحوا يصورون انطباعاتهم بهذه المشاهد وانعكاساتها على أنفسهم . وقد حظيت طبيعة هذه البلدان التى تختلف عن طبيعة بلاد العرب باهتمام للشعراء بها وتصويرهم ، والتعبير عن إعجابهم بها أو الضيق منها ، وبخاصة أحوال الجو وبرده . الذى عانى منه المسلمون فى حصارهم بعض المناطق فى مكران وما ماثلها . كما يبدو فى قول الحكم التغلبي للذى افتتحها ، إذ يقول :

لقد شبع الأرامل غير فخر   بفىء جاءهم من مكران

أتاهم بعد مسغبة وجهد   وقد صفر الشتاء من الدخان[2].

وهذا أحد الفاتحين يضيق ببرودة الجو فى مرو ، ويعجب لتنكر الأرض التى تتابع ثجها ، ويشفق على أهلها الذين يقضون الشتاء مقرورين ، دائماً محتمين بأثواب يدسون أيديهم فيها لشدة البرد . كأنهم أسرى فيقول :

وأرى بمرو الشاهجان تنكرت   أرض تتابع ثلجها المذرور

إذ لا ترى ذا برة مشهورة   إلا تخال كأنه مقرور

---

(1) ياقوت جـ ٤ / ص ٧٤٨   (٢) ياقوت / جـ ٤ ص ٦١٢

كلتا يديه لا تزايل ثوبه كل الشتاء كأنه مأسور (١)

وفي نفس الوقت عبر بعض الفاتحين عن إعجابهم بطبيعة البلدان التي افتتحوها ، وتغنوا بجمالها إلى أهليهم في شبه الجزيرة ، كما يبدو في شعر أبي بجيد الأسود بن قطبة التي يتغنى فيها بريف الري ، فيقول :

رضينا بريف الري والري بلدة لها زينة في عيشها المتواتر
لها نشز في كل آخر ليلة تذكر أعراس الملوك الأكابر (٢)

وهذا – سواد بن قحطبة – يتغنى بجمال الطبيعة في جرجان ، فيقول :

ألا أبلغ أسيداً إن عرضت بأننا بجرجان في خضر الرياض النواضر (٣)

ولعل أشد هذه المشاهد لفتاً للعرب في أول نزولهم بلاد الفرس الفيلة ، التي لاقوا منها شدة في بعض معاركهم مع الديلم ، وبخاصة يوم بابل ، ويوم الجسر ، وفي القادسية ، وقد دار ذكرها في شعر عدد من شعراء المسلمين ذكرها ربيعة بن مقروم الضبي ، وفخر برؤيتها وشهود معاركها ، فقال :

ودخلت أبنية الملوك عليهم ولشر قول المرء ما لم يفعل
وشهدت معركة الفيول وحولها أبناء فارس بيضها كالأعبل
متسربلي حلق الحديد . . كأنهم جرب مقارفة عنية مهمل (٤)

وأشار عبدة بن الطبيب إليها في لاميته فقال :

حلت خويلة في دار مجاورة أهل المدينة فيها الديك والفيل (٥)

وصور الشعر ما كان يحدث لخيول المسلمين من اضطراب بسبب الفيول ، حتى كاد المسلمون أن يخسروا المعركة يوم بابل ، كما خسروها يوم الجسر . وفي القادسية : فعلت الفيلة فعلها في الخيل ، حتى يقول أبو محجن الثقفي :

وما رمت حتى خرقوا بسلاحهم إهابي وجادت بالدماء الأباجل

---

(١) ياقوت / جـ ٤ ص ٥١٠ (٢) ياقوت جـ ٢ / ص ٨٦٥

(٣) ياقوت / جـ ٢ / ص ٨٦٥ (٤) الحيوان / جـ ٧ / ٢٦٣ والمفضليات ص ٢٦٨ والأغاني جـ ١٩ / ص ٩٣ الخزانة جـ ٣ ص ٥٦٦

(٥) المفضليات ٢٦٨ والأغاني جـ ١٨ ص١٦٣ والإصابة / جـ ٥ / ص ١٠١

وحتى رأيت مهسرتى مزوئرة لدى الفيل يدمى نحرها والشواكل[1]

وظل هذا حال الفيلة وفعلها بالمسلمين حتى عرفوا مقاتلها . وكان من الذين قطعوا مشافر الفيلة : القعقاع بن عمرو ، الذى قطع مشفر الفيل الأعظم يوم القادسية ، وفقأ عينه برمحه وقال :

فإن كنت قاتلت العدو فللته وإنى لألقى فى الحروب الدواهيا

فيولاً أراها كالبيوت مغيرة أسمّل أعياناً لها ومآقيا[2]

وأشاد سعد بن أبى وقاص ببلاء الذين تعرضوا للفيلة من المسلمين فأراحوا إخوانهم منها بعد أن قتلت فى بنى أسد خمسمائة ، فقال يشيد ببطولة القعقاع ، وحمال الوالبى :

فقد لقيت خيولهم خيولاً وقد وقع الفوارس فى الضرابْ

وقد دلفت بعرصتهم فيول كأن زهاءها إبل جراب

فلولا جمع قعقاع بن عمرو وحمال للجّوا فى الكذاب

هم منعوا جموعكم بطعن وضرب مثل تفتيق الإهاب

ولولا ذاك ألفيتم رعاعاً تشل جموعكم مثل الذباب[3]

وكما ضاق المسلمون بالفيلة ضاقوا بما لم يألفوه ، من الحشرات والأوبئة التى تعرضوا لإيذائها فى هذه البيئات ، فشكوا منها ، كما يبدو فى هذا الشعر الذى يشكو فيه صاحبه من الذباب الذى يؤذى ناقته ويردها عن الماء فى كربلاء عند التقاء كتيبة خالد بجند عياض حيث يقول :

لقد حبست فى كربلاء مطيتى وفى العين حتى عاد غثاً سمينها

إذا رحلت من مبرك رجعت له لعمرو أبيها إننى لا أهينها

ويمنعها من ماء كل شريعة رفاق من الذبان زرق عيونها[4]

ولا ريب فى أن الشعر الذى صور طاعون عمواس وأثره قد نجح فى رسم صورة مؤثرة للمأساة التى أودت بكثير من المسلمين ، الذين اجتمع عليهم

---

(1) الأغانى / جـ ٢٥ / ص [illegible]   (3) الطبرى / جـ ٥ / ص ٢٣٣٧

(2) الطبرى / جـ ٥ / ص ٢٣٥٨ و ٢٣٦٤   (4) الطبرى / جـ ٤ / ص ٢٠٥٩

الطعن والطاعون في وقت واحد . يقول المهاجر بن خالد بن الوليد وقد فقد أربعين من بني عمومته في هذا الطاعون :

أفنى بني ريطة فرسانهم عشرون لم يقصص لهم شارب
ومن بني أعمامهم مثلهم لمثل هذا يعجب العاجب
طعن وطاعون منايا هم ذلك ما خط لنا الكاتب(١)

وفي نفس المعنى يقول عبد الله بن سبره الحرشي :

إن أقبل الطعن فالطاعون يرصدني كيف التقاء على طعن وطاعون(٢)

وكان ركوب البحر حدثاً كبيراً سجله الشعراء وأشادوا به ، وأكدوا في شعرهم أن الله قد ذلله لهم وبشروا بما أعده الله لمن يعبر في طاعته . يقول عفيف بن المنذر التيمي وقد غزا مع العلاء بن الحضرمي فارس من البحرين في وقعة طاووس :

ألم تر أن الله ذلل بحره وأنزل بالكفار إحدى الجلائل
دعونا الذي شق البحار فجاءنا بأعظم من فلق انبحار الأوائل(٣)

وأخذ المسلمون يعرفون بعض ألوان المآكل والمشارب الفارسية ويذكرونها في شعرهم . إذ أن أبا عبيد بن مسعود الثقفي — شهيد الجسر — بعد أن هزم الفرس في السقاطية بكسكر نزل بقرى باروسما ، حيث خف إليه الفرس يصالحونه ، وصنع له « فروخ » و « فرنداذ » من رؤساء الدهاقين طعاماً قدموه له ، ولكنه رفض أن يطعمه دون جنده ، فأخبروه أنهم يطعمونه في نفس الوقت فأكل ، ولما عاد إلى جنده سألهم ماذا كان طعامهم ؟ فأخبروه بما جاءهم ، فدعاهم ليعرفوا ألوان الطعام التي قدمت إليه . من قرو ونجم وجوزل وشواء وخردل ، فقال عاصم بن عمرو التميمي :

إن تلك ذا قرو ونجم وجوزل فعند ابن فروخ شواء وخردل
وقرو رقاق كالصحائف طويت على مزرع فيها بقول وقوزل(٤)

---

(١) الاصابة جـ ٦ ص ٢٠٦

(٢) الاصابة جـ ٥ / ص ١٠٩

(٣) الاصابة جـ ٥ ص ٦٠

(٤) الطبري جـ ٤ / ٢١٧٢

وكان المسلمون يرون أموال الفرس تنصب فى حجورهم : من غنائم وأسلاب وجزية تؤدى إليهم ، فيذكرون ذلك فى عزة وفخر . فبعد المدائن : حاز المسلمون خزائن كسرى ودروعه وأسيافه . فقال أبو بجيد نافع بن الأسود :

فانتثلنا خزائن المرء كسرى ... يوم ولّوا وحاض منا جريضا (١)

وهذا — سيل بن عدى يفخر بصيرورة خرج الجزيرة إلى المسلمين بعد وقعة الرقة ، فيقول :

وصار الخرج ضاحية إلينا ... بأكناف الجزيرة عن نقالى (٢)

وهذا — عمرو بن مالك الزهرى ينادى إليه الفرس بقبول الجزية ، بعد ماذاقوا مرارة القتال فى قرقيسيا :

فنادوا إلينا من بعيد بأننا ... ندين بدين الجزية المتواتر (٣)

ودارت مثل هذه المعانى فى شعر عرب الحيرة ، الذين استكثروا على المسلمين أن يسكنوا منازل المناذرة ، وأن يمتلكوا الخورنق والسدير ، وأن تؤدى إليهم الجزية ، بعد ماكانت تؤدى إلى كسرى ، حتى قال عمرو بن عبد المسيح ابن بقيلة أحد زعماء الحيرة :

أبعد المنذرين أرى سواماً ... تروح بالخورنق والسدير
وبعد فوارس النعمان أرعى ... قلوصاً بين مرة والحفير
فصرنا بعد هلك أبى قبيس ... كجرب المعز فى اليوم المطير
نؤدى الخرج بعد خراج كسرى ... وخرج من قريظة والنضير (٤)

وكانت ملابس الجند الفارسيين وشكتهم يثيران فى نفوس المسلمين بعض الدهشة . فذكروها فى شعرهم ، من مثل قول ربيعة بن مقروم :

متسربلى حلق الحديد كأنهم ... جرب مقارفة عنية مهمل (٥)

---

(١) الطبرى / جـ ٥ ص ٢٤٦٦
(٢) ياقوت جـ ٤ / ص ٦٥
(٣) ياقوت / جـ ٢ ص ٨٠٢
(٤) ياقوت / جـ ٢ ص ٤٩٢
(٥) المفضليات ٢٦٨ .

كما أخذت بعض الكلمات الفارسية تسقط إلى المسلمين فيعجبون لها ، كما حدث لهذا الذي يقول :

تبدلت من ليلى وجارات بيتها ... قرى نبطيات يسمينى مسردا[1] .

كذلك كانت كنائس الروم وبيعهم رما فيها من زخرف ونقوش تلفت أنظارهم كما لفتت نظر حارثة بن النمر وقد شهد اليرموك فقال :

لله باليرموك قوم طحطحوا ... أصحاب عاتى الروم بالأقدام
فتعطلت منهم كنائس زخرفت ... بالشاه ذات فسافس ورخام[2]

وأثرت هذه الأجواء الجديدة فى بعض العرب وفتنت نفراً منهم ، فانحرفوا عن الصواب ، وعكفوا على الخمر ، وشهود مجالس الطرب والغناء واللهو ، يغنيهم الدهاقين والمسمعات الأجنبيات ، كما يصور ذلك النعمان بن عدى بن نظلة الذى ولى أعمال دست ميسان لعمر بن الخطاب فجرفته حياة اللهو بقوله :

ألا هل أتى الحسناء ان حليلها ... بميسان يسقى من زجاج وحنتم
إذا شئت غنتنى دهاقين قرية ... وصناجة تجثو على حرف منسم
فإن كنت ندمانى فبالأكبر اسقنى ... ولا تسقنى بالأصغر المتثلم
لعل أمير المؤمنين يسوءه ... تنادمنا بالجوسق المتهدم[3]

وبلغ الأمر عمر فقال : « وأيم الله .. قد ساءنى ذلك » .. وكتب إليه فعزله[4] .

وعندما بلغ عمر أن بعض الجند فى الشام قد انصرفوا إلى الخمر كتب بأن يطبخ كل عصير بها حتى يذهب ثلثاه . فأخذ خلان الخمر يرثونها ، ضائقين بهذا الأمر الصارم ، كقوز ذى الكلاع الذى شهد اليرموك ، وكان السبب المباشر فى هذا الأمر :

---

(1) ياقوت جـ ٤ ص ٦٠٦ ... (2) الاصابة جـ ٢ ص ٥٦

(3) الاصـــــابة جـ ٦ ص ٢٤٣ ، ياقوت جـ ٤ / ٧١٤

(4) الاصابة جـ ٦ ص ٢٤٣

ألم تر أن الدهر يعثر بالفتى   وليس على صرف المنون بقادر
صبرت ولم أجزع وقد مات إخوتى   ولست على الصهباء يوما بصابر
رماها أمير المؤمنين بحتفها   فخلانها يبكون حول المعاصر
فلا تجلدوهم واجلدوها فإنها   هى العيش للباقى ومن فى المعاصر(١)

وأسهم الرجز بنصيب فى تصوير هذه الألوان الجديدة فى الشعر ، وإن كان ضئيلا ، ولكنه يعبر عن هؤلاء الشعراء الذين اتخذوه سبيلا إلى التعبير . ورأينا أن نغمات الرجز لا تصلح لحمل مشاعر الحنين ، التى تفترق أوتارها فى رقتها وحزنها عن أوتاره فى عنفوانها ودويها إلا أنه صور انطباع الشعراء وتأثرهم ببعض المشاهد الغريبة فى البيئات الجديدة كما صورها الشعر .

وكان الفيل : أكثر هذه المشاهد لفتاً للرجاز ، فذكروه فى أرجازهم ووصفوه . وهـذا أحدهم يصفه لنا وصفاً دقيقاً ، حتى لكأننا نراه أمامنا فيقول :

أجرد أعى الجسم منه أضخم   يجر أرحاء ثقالا تحطم
ما تحتها من قرضها وتهشم   وحنك حين يمد أفقم
ومشفر حين يمد سرطم   يرده فى الجوف حين يطعم
لو كان عندى سبب أو سلم   نجيت نفسى جاهداً لا أظلم(٢)

وهذا آخر يصفه فيشبه آذانه بالمناديل فيقول :

من يركب الفيل فهذا الفيل.   إن الذى يركبه محمول
على تهاويل لها تهويل   كالطود إلا أنه يجول
وأذنه كأنها منديل(٣)

وسجل الرجز ما حدث عام الطاعون ، والحرج الذى عاناه المسلمون فى النزوح إلى الأماكن الموبوءة أو الخروج منها ، وما شاع بين الناس آنذاك من استسلام لقضاء الله ، فإنما يفر من فر من قضاء الله إلى قضاء الله ، وحاول

---

(١) الإصابة جـ ٢ ص ١٨٣ ، جـ ٧ص ٧٩
(٢) الحيوان / جـ ٧ ص ١٧٢   (٣) نفس المرجع

بعض الناس الفرار منه خوفاً وفزعاً ، فأهاب بهم البعض أن يذعنوا للقضاء . فيروى : أن رجلا خرج على حمار فاراً من الطاعون ، فإذا بمن يحدو به يقول :

لن يعجزوا الله على حمار ولا على ذى غرة مطار
قد يصبح الموت أمام السارى[1]

وأزمع رجل آخر الخروج فراراً من الطاعون أيضاً فتردد بعد أن هم ، وحدا به حاد يقول :

يأيها المشعر هماً لا تهم إنك إن تكتب لك الحمى تحم[2]

وكذلك عبر الرجز عن ركوب المسلمين الماء . فهذا مالك بن عامر أول كتيبة عاصم بن عمرو التى عبرت دجلة إلى المدائن يستحث الناس على العبور ، ويذكرهم بما أعد لهم من أجر وثواب ، ونصر وعدهم الله به ، وخسران لأعدائهم فيقول :

امضوا فإن البحر بحر مأمور والأول القاطع منكم مأجور
قد خاب كسرى وأبوه سابور ما تصنعون والحديث مأثور[3]

وهكذا استخدم الفاتحون الذين أنطقتهم الفتوح بالشعر الرجز فى التعبير عن الأغراض المختلفة التى يستخدم فيها القصيد ، فوصفوا فيه البطولات ، وأشادوا بجهادهم ، واستخدموه فى الرثاء ، ووصف المشاهد ، وما إلى ذلك من الألوان ، التى لم يطرقها الرجز من قبل ، وكانت وقفاً على القصيد . ويرى الدارس : أن هذه لم تكن إلا مقدمة لاستخدامه فيما بعد ، كقالب جديد ، لا يقتصر على ألوانه الضيقة التى عرفت بها فى الجاهلية ، فى الحرب ،

---

(١) الطبرى جـ ٥ ص ٢٥٢٠
(٢) الطبرى جـ ٥ ص ٢٥٢١
(٣) اسد الغابة / جـ ٤ ص ٢٨٢

والحدام ، والمفاخرة[1] . فيصبح عند العجاج والأغلب العجلي وأبي النجم قالباً موازياً للشعر ، يحتفلون به ويطورونه تطويراً . فضلا عن دوره الكبير الذي ظل يؤديه في التعبئة الروحية والمعنوية للجند في أثناء القتال .

وهكذا يدهش من يطالع شعر الفتوح في هـــذه الألوان الجديدة ، عندما تطالعه تلك الآثار السريعة للاحتكاك الحضاري في الميادين والأمصار المفتوحة ، التي تركت ميسمها على الشعر ، بعد أن أثرت في قائليه أثراً سريعاً وموقوتاً ، ولكنه ملحوظ ، برغم الفترة القصيرة التي استغرقها هذا الاحتكاك .

---

(١) الأغاني (الساسي) جـ ١٨ / ص ١٦٤

الفصل الثانى

الطوابع الإسلامية في شعر الفتوح

١ — صدور الشعر عن روح الإسلام

ليس ثمة شك يقتضى التدليل والبرهان على أن الإسلام قد خلق قيماً جديدة فى حياة العرب . وأن هذه القيم قد امتد أثرها إلى كافة مجالات الحياة العربية ومظاهرها ، بما فى ذلك الشعر الذى طبع بطوابع إسلامية جلية فى شكله ومضمونه .

فقد أدت ظروف الفتح المادية والنفسية إلى إحداث تغيير فى شكل الشعر الذى صدر فى الفتوح . فاختفت المقدمات الغزلية والطللية ، وانكمشت القصائد فصارت مقطعات قصيرة ، فضاقت من ثم عن استيعاب أكثر من غرض واحد من أغراض الشعر ، لتكون متفقة مع قصر النفس الشعرى، بسبب اهتمامات القتال ، ولتطير على ألسنة الشعراء العاديين الذين راحوا يودعون الأبيات المصيرة من القصيد والرجز مشاعرهم ، ويتخذونها أداة سريعة للتعبير عن ذوات أنفسهم ، وحمل ما بنفوسهم من أحاسيس .

ولعل الطوابع الإسلامية التى طبعت المضمون فى هـذا الشعر أوضح الطوابع التى تعرض للتأثر بها وأعمقها على الإطلاق . فلو تصفح الدارس شعر الجهاد وهو يمثل كثرة شعر الفتوح لوجده فى مجموعه

يذهب فى الفخر ، والإشادة ببلاء المسلمين ، وتصوير نكايتهم بالعدو كمجموع متحد الوجدان . ولذا يسم الشعر فى كثرته استخدام ضمير الجماعة بشكل ملحوظ .

وهذه الجماعة بطبيعة الحال ليست القبيلة أو العشيرة ، وإنما هى جماعة المسلمين الكبيرة ، التى استوعبت كل العلاقات العصبية والقبلية ، القائمة على وشائج القربى والدم والنسب ، فنسختها فى إطار وجدانى قومى وفكرى ، يقوم على أواصر الإنسانية والأخوة والعقيدة والمساواة ، وراح الشعراء يصدرون عنه .

ونحن بطبيعة الحال لا نعدم أن نجد شعراء يتغنون بقبائلهم ، غير أن ذلك لم يحدث إلا نادراً ، عندما يتصادف أن يجتمع نفر كبير من قبيلة بعينها فى ميدان معركة واحدة ، كما حدث لجمع بنى أسد ، الذين استشهد منهم عدد كبير فى مقتلة الفيل يوم القادسية ، وأخذ بعض شعرائهم يصورون ما قاموا به من افتداء ، ويشيدون بما أبدوا من ضروب البسالة والتضحية ، ويفخرون بقومهم ، ولكنهم يفخرون بإسلامهم ، وبطاعتهم لربهم وبذلهم فى سبيله ؛ كما فى مقطوعة نافع بن الأسود التميمى ، التى يقول فيها عن قومه :

هم أهل عز ثبت وأرومة ... وهم من معد فى الذرا والغلاصم
وهم يضمنون المال للجار ماثوى ... وهم يطعمون الدهر ضربة لازم

ثم يقول :

ولما أتى الإسلام كانوا أئمة ... وبادوا معداً كلها بالجرائم
إلى هجرة كانت سناء ورفعة ... لباقيهم فيهم وخير مراغم
فجاءت بهم فى الكتائب نصرة ... فكانوا حماة الناس عند العظائم
فصفوا لأهل الشرك ثم تكبكبوا ... وطاروا عليهم بالسيوف الصوارم(1)

ويظهر ذلك بوضوح فى قول الأسود بن سريع التميمى فى الفخر ببنى أبيه إذ يقول يوم الأهواز :

---

(1) الإصابة / جـ ٦ ص ٢٦٢

ورفض أن يتركه للمثنى[1] . وفى الشام : أبلى القعقاع فى كل المعارك التى شهدها بلاء حسناً . وكان على كردوس من كراديس القلب ، يفعل أفاعيله بالروم حتى انتصر المسلمون[2] . وشهد مع خالد فتح دمشق ، وتربص معه عند أسوارها ، وقد اتخذ حبالاً كهيئة السلالم ، وعبرا مع نفر من شجعان المسلمين الخندق عائمين على القرب ، وأثبتا حبالها فى السور وتسلقا ، ثم انحدرا ، والمسلمون من خلفهما يتبعونها ، حتى فتحوا باب دمشق وتدفق إليها المسلمون . ثم شهد وقعة فحل حتى فتحت ، وكان له فيها بلاء مذكور .

وبعد الفتح : سيّره أبو عبيدة على مقدمة هاشم إلى العراق . وبينما كان المسلمون والفرس مشغولين – بدفن قتلاهم صباح يوم أغواث – كان القعقاع يسرع السير فى ألف من جند هاشم على مقربة من القادسية ، وأعمل حيلته ليشد مقدمه عزائم المحاربين فى هذه الموقعة الخطيرة فقسم رجاله الألف إلى عشر فرق ، وعهد إليهم ألا تسير فرقة حتى تكون الفرقة التى سبقتها على مدى البصر ، وسار على رأس الفرقة الأولى ، وبلغ سعداً قبل استئناف القتال فبشر المسلمين بالمدد ، وانطلق يتقدم الصفوف يستفتح القتال ، قائلا للمسلمين اصنعوا كما أصنع ، ونادى « من يبارز » ؟ فخرج له من يقول : أنا بهمن جاذويه ، فإذا بالقعقاع يصيح : يالثارات أبى عبيد وسليط وأصحاب يوم الجسر ، وانقض عليه فأورده حتفه ، فتنشط الناس وفعلوا كفعله ، وكان كلما رأى فرقة من فرقه تتقدم كبّر فكبّر المسلمون ، وهجموا ، وهم يرون فعاله بالفرس وتدفق الجند فحملوا ، والقعقاع يصيح : باشروهم بالسيوف فإنما يحصد الناس بها .

واتصل القتال إلى منتصف الليل ، حتى لم يعد أحد من الفريقين يرى الآخر ، والقعقاع يزاحف الفرس حتى زاحفهم ثلاثين زحفاً ، وقتل فى كل زحف فارساً[3] حتى استحق فى آخر هذا اليوم فرساً من عدة أفراس وسيوف أرسلها الخليفة لتقسم فى أهل النجدة والبلاء . وقد قام هو وبنو عمه بحيلة

(1) الطبرى / ج ٤ / ص ٢٠٩٣ . (2) الاصابة / ج ٥ / ص ٢٤٤ .
(3) الاصابة / ج ٥ / ٢٤٤ .

بارعة ، إذ برقعوا إبلا وجللوها ، منتهزين غياب الفيلة فى ذلك اليوم — لتقطع وضنها يوم أرماث — وكان للإبل فى هذا اليوم بلاء كبلاء الفيلة فى اليوم السابق .

ونام المسلمون والفرس ليلتهم ، بينما أخذ القعقاع يسرب جنده طوال الليل إلى المكان الذى قدموا منه ، على أن يقدموا بالطريقة ذاتها . فإن أدركهم هاشم وجاء بمن معه فذاك ، وإلا جددوا للناس رجاء فى المدد ، فزادهم هذا الرجاء إقداماً .

ووقف الفارس الذكى عند الفجر فى المؤخرة يتطلع ناحية الصحراء ، فلما بدأت خيله تقبل كبّر ، كبّر الناس ، وتبعهم جند هاشم يتلاحقون دراكاً ، ونشب القتال وفعلت الفيلة فعلها ، ورأى سعد بأسها ، وخشى أن تتكرر مقتلة بنى أسد ، فأرسل إلى القعقاع وعاصم أخيه ، وطلب إليهما أن يكفياه الفيل الأبيض — وكان بإزائهما — فترجل القعقاع وأخوه ووضعا رمحيهما فى عينى الفيل ، الذى تراجع من الألم ، فطرح سائسه وولى مشفره ، فضربه القعقاع بسيفه فاختلت صفوف الفرس ، وحمى وطيس القتال . ولما كبّر طليحة بأسفل المخاضة ارتاع أهل فارس ، وظنوا جيوش المسلمين قد غدرت بهم ، وظن المسلمون أن الفرس فتكوا برجالهم . وأغار عمرو بن معديكرب على جماعة من الفرس ، فتقدموا زاحفين ، وسقط صديق القعقاع « خالد بن يعمر التميمى » مجندلاً فى دمائه ، وكان صادق الحملة على الأعداء ، فإذا به ينقلب وحشاً ضارياً ، يطيح برءوس الفرس بسيفه من غير أن يستأذن سعداً الذى راح يقول : «اللهم اغفرها له وانصره ، فقد أذنت له وإن لم يستأذنى»[1] . ولحقت بالقعقاع القبائل ، فحملت خلفه ، وظلت أصوات الفرسان عالية حتى تقدم الليل فخفتت . وسيطرت قعقعة السلاح على الأسماع ، بات الجيشان يقتتلان أعنف قتال وأقساه . والحرب تدور حول القعقاع وهو يرتجز ويسير فى الناس قائلا : إن الدائرة بعد ساعة لمن بدأ القوم ،

---

(1) الطبرى / جـ ٥ / ص ٢٣٣٢ .

فاصبروا ساعة واحملوا ، فان النصر مع الصبر . حتى كان النصر ، فتابع المنهزمين فى جنده يأسرون من نجا من القتل .

وها هو فى جند سعد ، وقد وقف نهر دجلة يحول بينهم وبين المدائن ، وهم ينظرون إلى تدافع مياهه ، ويأتى ببعض الفرسان يسألهم : كيف العبور ؟ فدلوه على مخاضة فى النهر تخاض إلى صلب الوادى ، لكنه خشى عادية التيار على جنده ، فلما أتاه النبأ بأن يزدجرد حمل خزائنه إلى حلوان جمع الجند ، وراح يدعوهم إلى العبور ، وانتدب حامية تحمى الجند من ذوى البأس ، وكان أول من انتدب عاصم بن عمرو ومعه ستون نفراً ، وهو يصرخ فيهم : « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلا » واقتحم النهر وزملاؤه معه . فلما رأى القعقاع الفرسان يتقدمون فى سبحهم مدّ بصره فرأى الفرس يتهيئون للقائهم فسرعان ما انتدب ستمائة دفع بهم إلى النهر ، والفرس مذهولون يقولون : إنكم لا تقاتلون إنسا وبعد أن دخل المسلمون المدينة طارد القعقاع ابن عمرو فارسياً فقتله وأخذ منه عيبتين ، فيهما أسياف وأدراع لكسرى ، وهرقل ، ولخاقان الترك ، وملوك آخرين[1] .

ثم ها هو بعد ذلك : يعينه الخليفة عمر باسمه على مقدمة هاشم بن عتبة ليأتى جلولاء ، وقد تحصن الفرس بها مستميتين فى الدفاع عنها ، فحاصرها المسلمون ثمانين يوماً ، والأمداد تأتى إليهم من المدائن ، وتأتى إلى الفرس من جلولاء ، وكان الفرس يخرجون ليزاحفوا المسلمين متى شاءوا ثم يعودون إلى حصونهم منهزمين . وأيقن الفرس أنهم سائرون إلى الهزيمة لو استمر الأمر هكذا ، ورأوا أن يباغتوا المسـلمين . وذات يوم باغتوهم صباحاً بأهوال الرماح حتى نفد النشاب من الفريقين ، وصلى المسلمون الظهر إيماء ، ووقف القعقاع يخطب فى جنده : أهالكم ما رأيتم أيها المسلمون ؟ قالوا : نعم : إنا كالون وهم مريحون . قال القائد الذى لا يعرف إلا النصر : بل إنا حاملون عليهم ومجدّون فى طلبهم حتى يحكم الله بيننا ، فاحملوا عليهم حملة

---

(١) الاصابة / جـ ٥ / ص ٢٤٥ .

رجل واحد حتى تخالطهم . وحمل فحمل المسلمون . ورأى القعقاع الناس يتحاجزون لإقبال الليل فنادى — وقد دبر فى نفسه أمراً — « أين أيها المسلمون . هذا أميركم على باب خندقهم فأقبلوا عليه ، فحملوا على الخندق ، وهم يظنون هاشماً بالخندق ، فاقتتلوا قتالا أشبه بليلة الهرير ، فلما انتهوا إلى باب الخندق لم يجدوا إلا القعقاع (١) ، ورأوا الفرس ينهزمون أمامهم ، ويحول الخندق بينهم وبين الارتداد إلى المدينة ، فأخذهم المسلمون حتى قتل منهم مائة ألف ، وفرّ من بقى إلى حلوان . فأتبعهم القعقاع فأدرك مهران فقتله ، وفر الفيرزان إلى حلوان ينهب الأرض ، ليخبر يزدجرد بهزيمة جلولاء ، وانتهى إلى الري . وقدم القعقاع حلوان ، حيث خرج إليه حماتها فقاتلوه قتالاً عنيفاً ، ثم انهزموا أمامه (٢) . ولما فكر عمر فى بناء محلة للمسلمين الذين لم يتلائموا مع وخومة المدائن ، استقدم سعد عبد الله بن المعتم والقعقاع بن عمرو وأمرهما بارتياد المكان الصالح لمقام العرب (٣) .

ثم ها هو كرة أخرى بالشام ، يرسل به سعد بن أبي وقاص على رأس أربعة آلاف كأمر الخليفة عونا لأبي عبيدة ، عندما حصرته الثورة فى حمص ، إبان حملة قسطنطين ، فانطلق فى فرسانه يغذّون السير من الكوفة إلى حمص . وفى نفس الوقت كان عياض وعبد الله بن عتبان والوليد بن عقبة وسهيل بن عدى يغزون القبائل التى سارت من الجزيرة تريد لقاء الروم حلفائهم ، وأسقط فى أيدى الروم ، وأخذهم المسلمون من جيش أبي عبيدة قبل وصول القعقاع بثلاثة أيام .

ثم نراه يقوم بدور كبير يوم نهاوند ، إذ تحصن الفرس فى حصن

---

(١) الطبرى / جـ ٥ / ص ٢٤٥٦ .

(٢) ياقوت / جـ ٢ / ص ٣١٧ .

(٣) الطبرى /١/٥/٢٤٨٤ ، ٢٤٨٥ .

لهم وجعلوا يترقبون . وطال حصار المسلمين حتى عظم الضيق ، فعقد النعمان ابن مقرن مؤتمراً قرر أن يبعث المسلمون خيلا تحدق بالأعداء فترميهم ، لينشبوا القتال ويثيروا الفرس للخروج : فإذا استثيروا وخرجوا تقهقرت خيل المسلمين استطراداً ، حتى يطمعوا الفرس فى هزيمتهم . فيرتد المسلمون فيحصرونهم ويأخذونهم على وجوهم . وضعت الخطة . ولكن من الفارس الباسل الذى ينفذها بنجاح ، دون أن يكون تقهقره مؤدياً إلى الهزيمة فعلاً لا افتعالاً ؟ هناك القائد وأخواه ، وحذيفة ، وعمرو بن معديكرب ، وطليحة . . وغيرهم ، ولكن النعمان ينتدب القعقاع ليذهب إلى ظاهر المدينة لينفذ خطته .

وأطاع الجندى الباسل ، فتقدم فرمى المدينة بالنبل . وأظهر العزم على اقتحام الأسوار ، وأبدى من ضروب البأس ما جعل الفرس ينهضون إليه ليصدوا هجومه . وأثار المسلمون حماسة عدوهم — بقتلهم كل من يبرز إليهم — فخرجوا ، ورأوا جند القعقاع قلة فاغتبطوا واجتازوا الأسوار والجند يقاتلون المسلمين ، وثبت لهم القعقاع زمناً حتى لا تنكشف حيلته ، ثم تظاهر بالهزيمة وولى بجنده ، مدبراً أمامهم . فتابع القعقاع فراره ليبعد بهم عن المدينة ، وعن مدى النبل . ورأى القعقاع الفرس يتابعونه ومعهم حسك الحديد ينقلونه أمامهم ، ليضمنوا الحماية من كرة المسلمين فأمعن فى الفرار ، وأمعن الفرس فى تعقبهم ، وقد تيقنوا من هزيمة المسلمين ، فتركوا حسك الحديد وراءهم ، وأسرعوا يطلبون المسلمين . وهنا انحاز القعقاع إلى جند النعمان وثبت فى مواجهتهم ، وتراجع الفرس يتفكرون فى المكيدة . واستحث الأمراء قائدهم أن يأمر بالهجوم . ولكنه انتظر وحبس جنده عن الفرس ، ولم ينجد القعقاع ، فأقبل الفرس برمونهم حتى أفشوا فيهم الجراحات ، وشكا الناس بعضهم إلى بعض ، والنعمان يصبرهم منتظراً الزوال ومهب الرياح ، كما كان يفعل صلى الله عليه وسلم ، وسار النعمان يحمل رايته يحض الجند ويحمسهم ، ثم كبّر وحمل ، فتبعه المسلمون ينقضون كالعقبان . واشتد

القتال ، ولم يكن يسمع إلا صيحات الأبطال ووقع الحديد على الحديد . واستحرت الحرب فانهمرت الدماء ، وأخذت الدواب تنزلق . وبينما النعمان على جواده استجاب الله دعاءه وأناله الشهادة ، تزلق جواده فى الدماء فصرعه وجاءه نعيم أخوه فسجاه بثوبه ، وأخذ اللواء فدفعه إلى حذيفة ، ولكن حذيفة أقامه مقام أخيه ، وأمره بإخفاء الخبر . وأقبل الليل والمسلمون يدفعون عدوهم أمامهم ، حتى أصاب الفرس الإعياء فتراجعوا منهزمين ، فإذا بالحسك فى انتظارهم مكانه يوقف تراجعهم ، فأرادوا الانحراف ، فإذا أمامهم خندق عميق ، أعماهم الخوف عنـــه وستره الظلام فهووا فيه بخيولهم ، وهلك فيه ثمانون ألفاً ، غير ثلاثين ألفاً لاقوا حتفهم فى المعركة وفوق الحسك .

وفر الفيرزان فيمن فر يطلب النجاة ، فتبعه القعقاع وأدركه عند ثنية همذان ، وكانت بعض الدواب تحمل عسلاً فى هذه الثنية فسدت على القائد الهارب سبيله ، فترجل يريد النجاة فى الجبل ، فتبعه القعقاع وقتله ، ويمم شطر همذان ، حيث صالحه أميرها[1] .

وبعد فتح الفتوح لا نعود نسمع شيئاً عن هذا البطل فى الفتوح ، إلا أن ابن الأثير يذكر : أنه سكن الكوفة ، ثم كان مع على بن أبى طالب ، فشهد معه الجمل وغيرها من حروبه . وقام بينه وبين طلحة والزبير بسفارة وكلمهما كلاماً كاد يقرب به الناس إلى الصلح[2] .

هذا هو بلاء القعقاع بن عمرو فارس الفتوح الإسلامية ، فتى من فتيان الله ، باع حياته خالصة له ، وجاهد فى الله حق جهاده ، واستمات فى نصرة دينه فى تفان مخلص ، ومهارة فائقة ، وذكاء نادر ، وفدائية مؤمنة لا يعوقها شاغل خاص ، ولا يعترضها قصد إلا إعلاء كلمة الله وحمل رسالته إلى أصقاع العالم ، فلا غرو إذا دعوناه بفارس الفتح ، ولا غرو إذا

---

(1) الطـــبرى / جـ ٥ / ص ٢٦٢٦ ، ياقوت / جـ ٤ / ص ٨٢٧ .

(2) أسد الغابة / جـ ٤ / ص ٢٠٧ .

ما دعوناه بشاعر الفتح إذ استوى نضجه فى أتونه . ونمت شاعريته فى ظلاله ، فصور أحداثه تصويراً دقيقاً فى شعره ، فكان شعره مرآة للأحداث التى صنعها بسيفه .

٣ — القعقاع شاعر الفتوح

وكما لا تذكر الروايات شيئاً عن حياته فى الجاهلية ، فإنها لا تذكر شيئاً عن شعره أو ما يفيد معرفة به قبل الإسلام ، فمجموع شعره إسلامى ، أو بعبارة أدق : ليس له شعر إلا فى الفتوح التى أنطقته بالشعر . وقد أسهم هذا إلى جانب وضوح حيـاته وبلائه فى الفتوح فى تواتر شعره وازدياد الثقة بصحته جميعاً ، إذ يقترن شـعره بحياته خطوة بخطوة ، ويتفق مع الأحداث التاريخية اتفاقاً تاماً .

وعلى هذا فشعره يمكن أن يعد وثيقة تاريخية بالغة القيمة ، فهو مرآة لأحداث الفتوح التى عاشها الشاعر الفارس وعاصرها ، حيث تنعكس عليه جميع جوانبها ، من تحركات وتحولات وقتال ونصر واستشهاد ، ولم يحدث أن تحركت كتيبة من مكان إلى مكان ، أو تحولت من ميدان إلى ميدان ، ولا من معركة إلى معركة إلا وسجل شعره ذلك ، حتى لتختلف الروايات التاريخية فى أمر الفتوح الأولى فى الشام . وشهود كتيبة خالد هذه الفتوح ، فإذا بشعره يسجل الوقائع التى حدثت فى الشام مرتبة ترتيباً زمنياً — مبتدئاً — بسقوط خالد على بنى غسان فى ديارهم ، منتقلاً إلى بصرى ، حيث التقى بسائر جند المسلمين — ومنتهياً إلى اليرموك ، فقال :

بدأنا بجمـع الصفّرين فلم ندع ... لغسّان أنفاً فوق تلك المنـاخر
وجئنا إلى بصرى وبصرى مقيمـة ... فألقت إلينـا بالحشا والمعـاذر
فضضنا بها أبوابها ثم قابلت ... بنا العيس فى اليرموك جمع العشائر(١)

---

(١) ياقوت / جـ ٤ / ص ١٠١٥ .

ولم يترك معركة اشترك فيها إلا وصورها فى شعره ، مشيداً ببطولته وبطولة المسلمين ، فعل ذلك فى الحفير ، وفى الولجة ، وفى الثنى ، وفى الحيرة . وفى الحصيد . وفى الخنافس والمصيخ ، وعند اليرموك ، ودمشق ، وفحل . وفى القادسية ، والمدائن ، وجلولاء ، وحلوان ، وأخيراً فى نهاوند .

ويكاد يكون القعقاع لهذا أكثر شعراء الفتوح شعراً وأغزرهم إنتاجاً ، فله فى كل موقعة من هذه المواقع مقطوعة أو أكثر .

وينصرف شعره كله فى الإشادة ببلائه وبلاء قومه ، والإشادة ببطولات الفرسان من أصدقائه ، ورثائهم ، وتصوير قسوة المقاومة التى يلقونها من الفرس وعرب القبائل والروم ، والحوادث التى تقع فى أثناء المعارك ، فضلاً عن أرجازه التى كانت تهيب بالمسلمين أن يتقدموا للقاء أعدائهم . فهو يفخر بفعاله يوم نهاوند ، حينما تعقب ركب الفيرزان وقتله عند ثنية العسل ، ويذكر هتكه لبيوت الفرس ، ومباغتتهم فى قراهم فيقول :

جذعت على الماهات فى ألف فارس ... بكل فتى من صلب فارس خادر
هتكت بيوت الفرس يوم لقيتها ... وما كل من يلقى الحروب بثائر
حبست ركاب الفيرزان وجمعه ... على فتر من جرينا غير فاتر
هدمت بها الماهات والدرب بغتة ... إلى غاية أخرى الليالى الغوابر (١)

ويتناول هذه الوقعة فى مقطوعة أخرى : يصور فيها متابعته للفيرزان ، وما كان من سقوط الفرس فى خندق نهاوند ، المسمى واى خرد ، فيقول مفتخراً بصنيعه :

ويوم نهاوند شهدت فلم أحم ... وقد أحسنت فيه جميع القبائل
عشية ولى الفيرزان موايلا ... إلى جبل آب حذار القواصل
فأدركه منا أخو الهيج والندى ... فقطره عند ازدحام العوامل
وأشلاؤهم فى واى خرد مقيمة ... تنوبهم عبس الذئاب العواسل (٢)

وقد تناول هذه المعركة كرة أخرى ، مفتخراً بقومه الذين أبلوا معه فيها بلاء

(١) ياقوت / ج ٤ / ص ٤٠٥ .   (٢) ياقوت ج ٤ / ص ٨٩٦ .

حسناً ، وكأنه يدفع عنهم اتهاماً بالتقصير ، ويعدد معالم بالفرس يوم نهاوند فيقول :

رمى الله من ذم العشيرة سادراً بداهية تبيض منها المقادم
فدع عنك لومى لا تلمنى فإننى أحوط حريمى والعدو الموائم
فنحن وردنا فى نهاوند موردا صدرنا به والجمع حران داحم
ونحن حبسنا فى نهاوند خيلنا لشر ليال أنتجت للأعاجم
فنحن لهم بيناً ونصل سجلها غداة نهاوند لإحدى الفطائم
ملأنا شعاباً فى نهاوند منهم رجالا وخيلا أضرمت بالضرائم
وراكضهن الفيرزان على الصفا فلم ينجه منها انفساح المخارم
ألا أبلغ أسيداً حيث سارت وعمت بما لقيت منا جموع الزمازم
غداة هووا فى واى خرد فأصبحوا تعودهم شهب النسور القشاعم
قتلناهم حتى ملأنا شعابهم وقد أنعم اللهب الذى بالصرائم(١)

ويصف أسلحة المسلمين فى هذه الواقعة التى أثار المسلمون فيها الفرس بالرمى ، ثم لجئوا إلى السيوف عندما خرجوا إليهم ، فيقول مشيداً بالمسلمين :

هم هدموا الماهات بعد اعتدالها بصحن نهاوند التى قد أمرّت
بكل قناة لدنة برمية إذا كرهت لم تنثنى واستمرّت
وأبيض من ماء الحديد مهند وصفراء من تبع إذا هى رنت(٢)

وفى ليلة الهرير : رأى القعقاع صديقه العزيز خالد بن يعمر التميمى يدافع الفرس ويبلى بلاء الأبطال ، فأشاد بصنيعه ، وقال فى ذلك :

حضض قومى مضرحىّ بن يعمر فلله قومى حين هزوا العواليا
وما خام عنها يوم سارت جموعنا لأهل قديس يمنعون المواليا(٣)

ولكن صديقه لا يلبث أن يسقط مجندلا ، فينطلق القعقاع وكأنه « آشيل » يرى صديقه « باتروكلوس » صريعاً ، فيحس الفرس بسيفه مزاحفاً ، دون

---

(١) ياقوت / جـ ٤ / ص ٨٢٧ ، ٨٦٦ . (٢) ياقوت / جـ ٤ / ص ٤٠٥ .
(٣) الطبرى / جـ ٥ / ص ٢٣٢٦ .

أن يأذن له سعد ، ويقول ـ معبراً عن أحاسيسه فى هذه اللحظة ، وما انطوى عليه صدره من غيظ ورغبة فى الثأر :

سقى الله يا خوصاء قبر ابن يعمر إذا ارتحل الغار لم يتزحل
سقى الله أرضاً حلها قبر خالد ذهاب غواد مدجنات تجلجل
فأقسمت لا ينفك سيفى يحسهم فإن زحل الأقوام لم أتزحل[1]

والقعقاع الفارس الذى يشيد ببلائه فى شعره لا يجد غضاضة فى الشهادة بقدرة أعدائه ، وبلائهم فى الدفاع عن أرضهم ، فيصور شجاعتهم وحمايتهم لبلادهم فيقول فيما كان من دفاع العرب الذين حشدهم الفرس بين الولجة وكثرتهم من بكر بن وائل :

... ولم أر قوماً مثل قوم رأيتهم على ولجات البر أحمى وأنجبا
وأقتل للرواس فى كل مجمع إذا ضعضع الدهر الجموع وكبكبا[2]

وعندما يجتمع الفرس والروم على ملاقاة المسلمين بالفراض ، يصور القعقاع التقاء هذا الحلف وإبادة المسلمين لهم حتى صرعوا كالأغنام ، قال :

لقينا بالفراض جموع روم وفرس غمها طول السلام
أبدنا جمعهم لما التقينا وبيتنا بجمع بنى رزام
فما فتئت جنود السلم حتى رأينا القوم كالغنم السوام[3]

وفى يوم أغواث : قدم رسول من الخليفة بأربعة جياد وأربعة سيوف ، لتقسم فى أهل النجدة والبلاء ، فاستحق القعقاع جواداً لما قدم فى هذا اليوم فيذكر هذه المكافأة ويشيد ببطولته :

لم تعرف الخيل العراب سواءنا عشية أغواث بجنب القوادس
عشية رحنا بالرماح كأنها على القوم ألوان الطيور الرسارس[4]

وخلف القعقاع بعض أراجيز كان يهدر بها عند لقاء الفرس فى القادسية

---

(١) الطبرى / جـ ٥ / ص ٢٢٣٠ .
(٢) ياقوت / جـ ٤ / ص ٩٣٩ .
(٣) ياقوت / جـ ٣ / ٨٩٤ .
(٤) ياقوت / جـ ١ / ص ٣٢١ .

والروم في اليرموك ، ففي يوم اليرموك : كان على أحد كراديس القلب ، يفعل بالروم الأفاعيل ، ويجندل أبطالهم ، وهو يرتجز بقوله :

يا ليتني ألقاك في الطراد   قبل اعترام الجحفل الوراد
وأنت في حلبتها الوراد[1]

وفي القادسية — في زحوفه الثلاثين يوم أغواث — كان يرتجز في كل زحف يحمل فيه ، من مثل قوله :

أزعجهم عمداً بها إزعاجاً   أطعن طعناً صائباً ثجاجاً
أرجو به من جنة أفواجاً[2]

وكانت آخر حملاته في هذا اليوم تلك التي قتل فيها يزرجمهر ، فأنشد وهو يسقيه كأس حتفه :

حبوته جياشة بالنفس   هدارة مثل شعاع الشمس
في يوم أغواث فليل الفرس   أنخس بالقوم أشد النخس
حتى تفيض معشري ونفسي[3]

وكان رجزه بشيراً بالنصر ، عندما تناهى صوته إلى سعد ، وهو يقول :

نحن قتلنا معشراً وزائداً   أربعة وخمسة وواحدا
نحسب فوق اللبد الأساودا   حتى إذا ماتوا دعوت جاهدا
الله ربي واحترزت عامدا[4]

وهكذا - نرى شعر القعقاع يمتد فيشمل جميع أغراض الشعر في هذا المقام ، ويصور جوانب الحياة المختلفة في الفتوح الإسلامية تصويراً دقيقاً ، يجعل الاعتماد على شعره أمراً ضرورياً لكل من يعنى بدراسة الفتوح ، ورسم صورة كاملة لجميع أقطارها .

وكذلك كان رجزه أحد العوامل المثيرة في إقدامه وإقدام جنده في هذه الحملات العديدة التي صممها وقادها في اليرموك والقادسية .

---

(١) الطبرى / جـ ٤ / ص ٢٠٩٧ . (٢) الطبرى / جـ ٥ / ص ٢٣١١ .
(٣) مروج الذهب / جـ ٢ / ص ٢٠٦ . (٤) الطبرى جـ ٥ / ص ٢٣٣٣ .

ويكاد يكون شعره استغرق كل موضوعات الشعر التى خاض فيها شعر الفتح جميعه ، اللهم إلا شعر الحنين ، فلسنا نعرف له فى هذا الموضوع شيئاً ، وإن كنا نرجح أن سبّب هذا وجود جموع كبيرة من أبناء عمومته معه فى حرب العراق ، ووجود زوجته النخعية معه كذلك[1] . ويخلو شعره أيضاً من أية دلالات على حياته الخاصة أو عواطفه الشخصية فى غير موضوعات الفتوح ، وكأنما طرح الشاعر كل ما يمت إلى حياته الشخصية وراء ظهره ، حينما استقبل حياة الطّعان والجلاد . فإذا بنا لانجد فى شعره شيئاً يكشف لنا عن كنه شخصيته ، إلا بما يميزها من الشجاعة والفروسية والفدائية المؤمنة ، وتنعكس كل هذه الصفات فى افتخاره بنفسه وعشيرته وبجماعة المسلمين .

وهو فى هذا يشارك شعراء الفتوح جميعاً ، إذ لم يعد لهم فى حياتهم ما يعبرون عنه فى شعرهم إلا ما هو ماثل أمام أعينهم ، وما تمتلىء به وجداناتهم من أحداث وانفعالات .

وشعره كما هو واضح شعر بسيط لا غموض فيه ولا تعمل ولا زخرفة ، فكل قصد هذا الشعر أن ينفّس عما فى وجدان صاحبه تنفيساً بسيطاً ، كاستجابة حرة وطليقة للعوامل النفسية التى تتلبس به .

ومن هنا نجد شعره متدفقاً ، دون قسر فى التعبير ، أو تعسف فى التصوير ، أو جفوة فى أفكاره ، أو زخرف فى ألفـــاظه ، ولهذا فهو شعر صادق لا تكلف فيه ، حار لا زيف فيه ، وهو — أولاً وآخراً — صورة نفسية لذات صاحبه وأفكاره ، فضلاً عن كونه سجلاً حافلا للفتوح التى أسهم فيها ، وتاريخاً أدبياً لفروسيته .

---

(1) الطبرى / جـ ٥ / ص ٢٣٥٤ .

الباب الثالث

مقوّمات شِعْر الفتوح وطوابعه

الفصل الأول

شعر الفتوح

أنواعه وموضوعاته

١ — قصيد ورجز

نحن أحوج ما نكون هنا إلى أن نتذكر ما قدمنا من وصف لتحركات الجيوش ، وعنف المقاومة وأهوال القتال ، وما كان يشغل المحاربين من التحول الدائم والحركة الدائبة ، وما كان يملأ نفوسهم من مشاعر الأمل والخوف والقلق والغبطة ، وغير ذلك من إحساسهم بالوطن والاغتراب ، وما يمكن أن يتعرضوا له أمام عدو باطش ، فى أرض بعيدة عن أرضهم وعن ذويهم .

حقاً كانت فكرة الجهاد تجذبهم بألقها ، وتدفعهم إلى استرخاص أرواحهم فى سبيلها ، مؤمنين بنصر الله وبما وعدوا من الجنة وحسن المآب ، ولكن العواطف الإنسانية المختلفة لابد أن تثير فيهم هذه المشاعر ، فى مثل هذا الموقف الرهيب .

ومهما كانت مشاغل الفاتحين واهتماماتهم عظيمة وضخمة ، فإنها لابد أن تضيق عن استنفاد مثل هذه المشاعر ، ولابد أيضاً لهذه المشاعر أن تجد منفذاً تتسرب خلاله طاقاتها ، فيفرج عن الفاتحين بعض ما تزخر به جنباتهم ، ويعبرون فيه عن هذه العواطف وتلك المشاعر .

وقد استنفد التعبير الشعرى كل هذه الطاقات النفسية واستوعبها ، إذ انطلق الشعر على كل لسان ، وقدمت الفتوح بانتشارها وتمددها لهؤلاء الفاتحين مادة هذا الشعر فى أحداثها ، وما تثيره من أحاسيس فى هذه البيئات الجديدة ، وما عانوا فيها من ابتعاد عن بيئتهم .

وقام الشعر بهذه المهمة خير قيام ، وإن طبع بطوابع أملتها عليه الظروف القاسية للمعارك وتلاحقها وعنفها ، فاتسم بخصائص معينة فى شكله ومضمونه.

ومن اليسير أن نتتبع أنواع هذه المنظومات ، وأن نجمعها فى نوعين كبيرين من حيث الشكل الفنى ، وهما : القصيد والرجز . فمع أن الرجز ليس إلا وزناً من أوزان الشعر ، وليس له قالب مستقل بذاته ، إلا أننا نميل إلى جعله نوعاً مستقلاً من أنواع التعبير ، لمخالفته للشعر فى شكله العام . وفى اقتصاره على أبواب معينة وموضوعات بذاتها ، فضلاً عن تميزه بدور كبير فى ظروف القتال ، لم يتسن للشعر ، فى التحميس ورفع روح المحاربين . إلى جانب أن الرجز لسهولته وقربه من السليقة العربية كان سبيل الشعراء المغمورين ، الذين أنطقتهم الفتوح ، وهم كثرة كثيرة . بينما كان شعر القصيد سبيل الممتازين من الشعراء ، وإن كان لم يحتفظ بخصائص الشعر العربى التقليدية ، فأضحى مقطعات قصيرة قليلة عدد الأبيات .

وفى الحقيقة : إن شعراء الفتوح جميعاً قد خضعوا خضوعاً متماثلاً للطوابع التى ضبعت بها الفتوح شعرهم جميعاً ، ففضلاً عن تركز اهتماماتهم ونوازعهم فى المسئولية الضخمة التى يحملونها فإن ظروف القتال وقسوة الحياة تحت ظلال السيوف لم تكن لتعينهم على التنفس الغنائى الهادى ، والتعبير الوجدانى المنساب ، فى قصائد متأنية مديدة النفس .

ولهذا كان تنفسهم سريعاً لاهثاً ومتلاحقاً ، وخاطفاً ومحدوداً فى مضمونه وفى شكله بطبيعة الحال ، فاتخذ القريض شكل المقطعات القصيرة . واستتبع هذا الإطاحة بمقدمات القصائد التى تعتبر من أهم تقاليد الشعر العربى .

الموروثة عن العصر الجاهلي ، والتي ظلت تحكم الشعر ردحاً من الزمان ، ولم تفلح الثورات الأدبية في الإطاحة بها بعد ذلك .

ومهما كان رأى الباحثين في هذه المقدمات الطالية والغزلية من أنها ترتفع بالشاعر إلى بيئة شعرية رفيعة يخرج فيها عن أطوار الحياة الواقعية المادية إلى عواطف الحنين والشوق مما يعده للغناء[1] فإن الشاعر كان يجد فيها بلا ريب متنفساً للحديث عن ذاته ، وإشباعاً لمنازعه الفردية ، قبل أن يشغل بغرضه الذي كان ينصرف دائماً إلى الفناء في وجدان القبيلة بحكم وضعه الاجتماعي .

والأمر مختلف في الفتوح ، فليس هناك ما يدعو إلى أن يختلق الشاعر في مقدمات قصيده ، مايكون مسرباً لفرديته ، إذ ليس هناك حرج في أن يشيد الشاعر بذاته ، ويعبر عن فرديته داخل إطار الجماعة الإسلامية تعبيراً حراً ، دون التجاء إلى المقدمات التي لابد أن تشغله في مثل هذه الظروف المضطربة السريعة الأحداث عن التعبير المباشر .

وكما تخفف شعر الفتح من المقدمة الغزلية والطللية تخفف بالضرورة من النظام التقليدي للقصيدة الذي ساد في الشعر العربي . وأوصى نقدته باتباعه والتمسك به قروناً . هذا النظام الذي يوجب تعدد الأغراض في القصيدة الواحدة ، فتبدأ بذكر الأطلال ، ثم ينتقل الشاعر منه إلى النسيب فوصف رحلته وما يعترضه فيها ، ويصف ناقته التي تقله . ويشبهها بما يشاء من الحيوان ، حتى يصل إلى غرضه من المدح أو غيره .

وذهب بعض نقاد العرب مذهباً متعسفاً في تعليل حسن هذا النظام والدعوة إليه من ثم والتوصية بالتمسك به والمحافظة عليه ، فني رأيهم : أن مقصد القصيد إنما ابتدأ بذكر الديار والدمن والآثار ، فبكى وشكا .

---

(1) حديث الاربعاء / جـ ١ / ص ٣٢ .

وخاطب الربع والدمن والآثار . ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها . إذ كانت نازلة العمد فى الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر . لانتقالهم من ماء إلى ماء . وانتجاعهم الكلأ . وتتبعهم الغيث حيث كان . ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد وألم الفراق ، وفرط الشوق والصبابة . ليميل نحوه القلوب . ويصرف إليه الوجوه ، ويستدعى به إصغاء السامع إليه . لأن التشبيب قريب من النفوس ، لائط بالقلوب ، لما قد جعل الله فى تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء فليس أحد يخلو من أن يكون متعلقا منه بسبب ، او ضارباً فيه بسهم ، حلال أو حرام . فإذا علم أنه استوثق من الإصغاء إليه والاستماع عقب بإيجاب الحقوق ، فرحل فى شعره ، وشكا النصب ، والسهر ، وسرى الليل ، وحر الهجير ، وإنضاء الراحلة والبعير . فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء وذمامة التأميل ، وقرر عنده ما ناله من المكاره فى السير بدأ فى المدح ، فبعثه على المكافأة ، وهزه للسماح ، وفضّله على الأشباه ، وصغّر فى قدره الجزيل ...(١)

ومن ثم : يلزم هؤلاء النقاد الشعراء بأن يسلكوا تلك الأساليب لا يتعدونها . وأن يعدلوا بين أقسامها ، ولكن أنّى للشاعر المحارب فى أى زمان ومكان أن يصنع هذا ، وأن يزيف مشاعره بهذه الصورة المعقدة ، وهى على طرف لسانه يريد أن يلقى بها تلقائياً وبطريق مباشر ، دون أن يجعل بينه وبين غرضه الملح هذه الحواجز المتدرجة ، وتلك المراحل المتسلسلة.

إن الشاعر المجاهد ليريد – قبل أن يشعر أنه يريد – أن ينفض ما بنفسه ابتداء دون تقيد بتقاليد أو تمسك بنظم فى التعبير ، إلا ما يفرضه طبيعة الإحساس النفسى ، والحالة الشعورية التى تتقمصه .

ولهذا فلن نجد بين شعر الفتح كله قصيدة واحدة تزيد أبياتها عن عشرة أبيات . ولن نجد قصيدة تشتمل على أكثر من غرض واحد إلا فيما

---

(١) الشعر والشعراء / جـ ١ / ص ٢١ .

ندر ؛ فكل مقطوعة نستقل بموضوع واحد . يعبر عنه الشاعر هذا التعبير المتدفع السريع .

وأدى هذا إلى جانب انطلاق الشعر على ألسنة الكثيرين من الفاتحين العاديين إلى أن يكثر الرجز ، وأن ينفك عن وظيفته التى كانت له فى الجاهلية كأداة للتحميس ، وشحذ القوى وإلى أن يشارك القصيد فى التعبير عن بعض موضوعاته التى تخرج عما ألفه الرجز فى الجاهلية ، من الحرب والمفاخرة والحداء فكاد يكون قسيم الشعر القصائدى، وإن ظل فى شكله ومضمونه لاينم عن إعداد أو عناية ، نتيجة قربه من السليقة الفطرية للعرب ، وارتجاله فى المواطن المختلفة ، وإن ظلت له نفس المهمة فى التحميس . وسوف نرى أنه لم يقصر عن خوض الموضوعات التى خاضها الشعر إلا فى القليل الذى لا يتفق وإيقاعه العنيف.

٢ — موضوعات قديمة متطورة

تغنى الشعر كما تغنى الرجز بموضوعات بعضها قديم تداوله الشعر العربى على اختلاف عصوره كالحماسة والرثاء ، وبعضها الآخر جديد ، لم يعهده الشعر العربى قبل الفتوح . فشعر الجهاد وإن جال فى تصوير ظروف الفتح الجديدة فإننا لانستطيع أن نعده باباً جديداً من أبواب الشعر، وكذلك الرثاء ، إذ أن لهما جذوراً فى الشعر العربى ثابتة ، وغاية الأمر أن هذه الظروف الجديدة قد كست هذين اللونين من الشعر صبغاً جديداً ، فتطورا قليلاً ، وإن دلا على تأثرات جديدة فإن أصلهما واضح جلى فى الشعر العربى. ونعنى بشعر الجهاد : ذلك الشعر الذى يهدف إلى الإشادة بما كان من إقدام الجند أو الكتيبة أو الشاعر ، أو صديق له أو زميل ، أو قائده أو عدوه . وعن كل هذه الطرق يعبر الشاعر عن قسوة المعارك ، وضراوة القتال ، وشدة اللقاء ، وما كان يحدث فى أثناء المعارك من إقدام أو إحجام ، وما قد تنتهى إليه من نصر أو هزيمة ، وما يكون بعد ذلك من فخر أو تصميم على

الثأر والانتقام : بينما قد يكون تصوير المعارك وما تشتمل عليه طريقاً إلى الإشادة بالنفس أو بالغير ، وهكذا .

وهذا الموضوع هو أكثر موضوعات الشعر التى بين أيدينا تردداً واتساعاً ، ومن أمثلة هذا الشعر الذى يشيد ببلاء الجماعة الإسلامية وبسالتها وإيقاعها بالعدو قول خليد بن المنذر فى يوم طاووس :

بطاووس ناهبنا الملوك وخيلنا … عشية شهراك علون الرواسيا
أطاحت جموع الفرس من رأس حالق … تراه كموّار السحاب مناغيا
فلا يبعدن الله قوماً تتابعوا … فقد خضبوا يوم اللقاء العواليا(١)

وقد يجعل الشاعر تصوير المعركة سبيلاً إلى تصوير بلائه والإشادة بنفسه ، كقول نعيم بن مقرن ، قائد المسلمين فى وقعة واج روذ بهمذان ، التى تصدى فيها « لموتا » قائد الفرس ونكل به تنكيلاً — قال :

ولما أتانى أن « موتا » ورهطه … بنى باسل جرّوا جنود الأعاجم
نهضت إليهم بالجنود مسامياً … لأمنع منهم ذمتى بالقواصم
فجئنا إليهم بالحديد كأننا … جبال تراءى من فروع الغلاصم
فلما لقيناهم بها مستفيضة … وقد جعلوا يسمون فعل المساهم
صدمناهم فى واج روذ بجمعنا … غداة رميناهم بإحدى العظائم
فما صبروا فى حومة الموت ساعة … لحد الرماح والسيوف الصوارم
كأنهم عند انبثاث جموعهم … جدار تشظى لبنه للهوادم
أصبنا بها « موتا » ومن لف جمعه … وفيها نهاب قسمة غير عاتم
تبعناهم حتى أووا فى شعابهم … نقتّلهم قتل الكلاب الجواحم
كأنهم فى واج روذ وجوّه … ضئين أصابتها فروج المخارم(٢)

وقد يشيد الشاعر بنفسه مباشرة ، فيصور شجاعته وبأسه وفعاله بالعدو وتفريجه كرب المسلمين كما فعل عروة بن زيد الخيل الطائى ، فقال فى معركة نهاوند :

---

(١) يوقوت / ج ٢ / ص ٦٩٤ . (٢) ياقوت / ج ٢ / ص ٨٧٢ – ٨٧٣

ألا طرقت رحلي وقد نام صحبتي ... بإيوان شيرين المزخرف خلتي
ولو شهدت يومي جلولاء حربنا ... ويوم نهاوند المهول استهلت
إذن لرأت ضرب امرئ غير خامل ... مجيد بطعن الرمح أروع مصلت
ولما دعوا يا عروة بن مهلهل ... ضربت جموع الفرس حتى تولت
دفعت عليهم رحلتي وفوارسي ... وجردت سيفي فيهم ثم آلتي
وكم من عدو أشوس متمرد ... عليه بخيلي في الهياج أظلت
وكم كربة فرجتها وكريهة ... شددت لها أزري إلى أن تجلت
وقد أضحت الدنيا لديَّ ذميمة ... وسليت عنها النفس حتى تسلت
وأصبح همي في الجهاد ونيتي ... فلله نفسي أدبرت وتولت
فلا ثروة الدنيا نريد اكتسابها ... ألا إنها عن وفرها قد تجلت
وماذا أرجي من كنوز جمعتها ... وهذي المنايا شرعاً قد أظلت(1)

وقد يعمد الشاعر إلى وصف بلاء قائده ومقدرته وبراعته في سياسة جنده وفتكه بأعدائه ، كقول أحد المسلمين في جيش المثنى ، إذ يقول — في يوم سوق الأنبار :

وللمثنى بالعال معركة ... شاهدها من قبيلة بشر
كتيبة أفزعت بوقعتها ... كسرى وكاد الإيوان ينفطر
وشجع المسلمين إذ حذروا ... وفي ضروب التجارب العبر
سهل نهج السبيل فاقتفروا ... آثاره والأمور تقتفر(2)

وقد يعمد الشاعر إلى تصوير قوة الأعداء وثباتهم . ليتخذ ذلك سبيلاً إلى الفخر بنفسه وبكتيبته ، مثل قول عاصم بن عمرو يوم المقر :

ألم ترنا غداة المقر فينا ... بأنهار ومسكنها جهارا
لقينا من بني الأحرار فيها ... فوارس ما يريدون الفرارا
قتلناهم بها ثم انكفأنا ... إلى فم الفرات بما استجارا(3)

---

(1) الاخبار الطوال / ١٣٨ . (٢) البلاذري / ٢٥٠ ، ياقوت جـ ٣ ص ٥٩٢ .
(٣) يوقوت جـ ٤ / ٦٠٥ .

هذه نماذج لشعر الجهاد ، وهى فى مجموعها لا تخرج عن فنى الفخر والمدح الجاهليين . فالشاعر إذا أشاد بنفسه أو بقبيلته أو بكتيبته فإنما يفخر بها ، شأنه فى ذلك شأن أى شاعر جاهلى . وإذا أشاد بقائده أو زميله فإنما هو يمدحه ، كأى شاعر جاهلى . ولكن – برغم هذا – هناك فرق كبير .

فشعر الجهاد برغم كونه فخراً إلا أنه يكتسى هذا الصبغ الإسلامى ، الذى يتجلى فى بروز فكرة الجهاد ، التى وهبها الشاعر بلاءه وكفاحه . وهو حينما يعلن أنه قد أصبح همه فى الجهاد يفترق عن الشاعر الجاهلى ، الذى كان يفخر بالثأر والانتقام للقبيلة .

وشاعر الجهاد وإن ظل شعره يتسم بسمات الفخر فهو فخر يختلف عن الفخر الجاهلى ؛ إذ يصور فيه الشاعر إيمانه بقضية الجهاد ذاتها ، كما رأينا لدى عروة بن زيد الخيل الذى يفخر بتفريج كرب المسلمين وكشف الأهوال عنهم ، ويعلن فى نفس اللحظة : أنه ارتضى الجهاد سبيلا ، دون أن يكون له رغبة فى زينة الدنيا وزخرفها ، فقد باع كل شىء فيها بثواب الله ، برغم ما تدفعه الدنيا إليه وإلى غيره من المجاهدين من كنوزها ، فلا يغريهم كل هذا ، لأنهم فى سبيل الله وحده . وما قيمة الدنيا والمنايا فاغرة أفواهها محدقة بهم من كل جانب ..

وشىء آخر يختلف فيه شعر الجهاد عن الفخر الجاهلى ، الذى أساسه القبلية والعصبية ، فإن شعر الجهاد يقوم أساساً على الوجدان الجماعى لجماعة المسلمين ، فى حين يشحب الفخر القبلى فى شعر الفتوح شحوباً واضحاً .

وقد شغل الرجز بموضوعه القديم ، إذ كان له دور كبير فى القيام مقام الموسيقا العسكرية فى الجيوش الحديثة ، من التحميس والتعبئة الروحية للجند . فهذا عمرو بن العاص فى اليرموك يرى بعض المسلمين من لخم وجذام ينحرفون عندما ضغط جرجه فى انضمامه إلى المسلمين مفاجأة فيدعوهم عمرو إلى مواصلة الجلاد ، ويهددهم تهديداً عاطفياً رائعاً فى هذين البيتين ، حيث يقول :

القوم لخم وجذام فى الحرب ونحن والروم نموج ونضطرب
فإن تعودوا بعدها لا نصطحب بل نعصب الفرار بالضرب الكلب(١)

وقد عبر الرجز فى هذا المقام عن الانفعالات السريعة المتدفقة فى نفوس الأبطال ، وكان حافزاً لهم على الإقدام والاستمرار فى النضال والفداء .

فهذا أحد عشرة إخوة من بنى كاهل من أسد يشيد بضرابه وطعانه يوم القادسية ، وقد سبقه إلى الشهادة إخوته فيقول :

أنا ابن حرب ومعى مخراق
أضربهم بصارم رقراق
أذكره الموت « أبو إسحق »
وجاشت النفس على التراقى (٢)

وهذا أحد جند المسلمين ، يرى القائد الفارسى خرزاد يفر أمام المسلمين فيقول مفتخراً بهم :-

وآل منا الفارس الحذرة حين لقيناه دوين المنظرة
بكل قباء لحوق مضمرة يمثلها يهزم جمع الكفرة (٣)

وهذا طليحة بن خويلد ، يضرب الجالينوس فيقد مغفره ، فيقول :

أنا ضربت الجالينوس ضربه حين جهاد الخيل وسط الكبه(٤)

وهذه امرأة رجل يدعى حنبص بن الأحوص ، ترى فعال زوجها ، فتتمنى أن يكون قومها جميعاً مثله فتقول :

يا ليت قومى كلهم حنابصة (٥)

وهذا رجل فى جيش البراء بن عازب ، فى غزاة قزوين ، يمجد بطولة قائده وكتيبته ، وما لاقت من صنوف العنت والمشاق فيقول :-

قد تعلم الديلم إذ تحارب لما أتى فى جيشه ابن عازب

---

(١) ابن عساكر / جـ ١ / ص ١٧٤ .
(٢) الطبرى : جـ ٥ / ٢٢٢٨ .
(٣) البلاذرى / ٢٥٠ .
(٤) البلاذرى / ٢٦٠ .
(٥) الاصابة / جـ ٢ / ص ٩٥ .

بأن ظـــن المشركين كـــاذب فكم قطعنا فى دجى الغيـــاهب
من جبل وعر ومن ســباسب(١)

هكذا ينطبع رجز الجهاد بنفس الطابع الذى رأيناه لشعر الجهاد . فيختلف عن الرجز الجاهلى ، الذى كان يقوم على إثارة النعرات والتحميس للثأر والانتقام . فإذا هو أداة لتعبئة الروح المعنوية للمجاهدين فى سبيل الله تعبئة روحية . فهذا الفارس تبلغ روحه الحلقوم فى سبيل الله . وهذا يفخر بكتيبته التى يهزم بمثلهـــا جمع الكفرة . وآخر يعلن أن ظن المشركين كاذب إذ جاءهم المسلمون كأقدارهم .

والموضوع الثانى من الموضوعات القديمة فى شعر الفتح — هو الرثاء ، وهو غرض مستقل من أغراض شعر الفتح مقصود لذاته ، وهو كشعر الجهاد تمجيد لبطولة الذين استشهدوا . وإشادة بفعالهم ، ومواقفهم ، والبكاء عليهم ، وافتدائهم ، وتعداد مآثرهم . وهو وإن كان يتفق مع الرثاء الجاهلى فيما يشيع فيه من الحزن والأسى ،ومايغلب عليه من استشعار الأسف والجزع على الفقيد ، فإنه يختلف عنه فيما يمتلئ به من روح التسليم بالقضاء ، والامتثال لإرادة الله وحسن تقبلها ، وتمثل ما أعده الله للشهداء من جزاء عظيم ، كهذا الاستسلام الذى يبدو فى رثاء أبى عامر بن غيلان لولده ، الذى خرج غازياً وأدركه طاعون عمواس ، إذ يترجم الآية الكريمة (كل من عليها فان) فى قوله :

عينى تجـــود بدمعهـــا الهتّان سحاً وتبكى فارس الفرســـان
لو أستطيع جعلت منى عامراً تحت الضلوع وكل حى فان(٢)

وكهذا التسليم الذى يشيع فى رثاء أبى الحباب — ذريح بن الحارث — لولده الذى استشهد فى قتال الفرس ، فيشبهه بالشهاب الذى خمد ، ويشيد ببلائه فى القتال . وانعدام نظيره فى الفرسان إلى يوم الدين ، لكنه يعود إلى اليقين بأن لكل أجل كتاب فيقول :

(١) البلاذرى / ٣٢٢
(٢) الاصابة جـ ٣ / ١٤ .

أبغى الحباب فى الجهـاد ولا أرى ... له شبهاً ما دام لله ساجـد
وكان الحبـاب كالشهاب حياته ... وكل شهاب لا محالة خامـد (١)

ويتجلى هذا التسليم بقضاء الله فى صورة رائعة فى قصيدة أبى ذؤيب الهذلى ، الذى فقد بنيه الخمسة فى طاعون بمصر ، إذ يبكيهم بكاء مراً ، مظهراً أسفه البالغ على فقدهم ، ويذكر حمايته لهم ودفاعه عنهم ، ولكنه لم يجد شيئاً أمام مناياهم التى حمت ، فيقول :

أمن المنـون وريبه تتوجـع ... والدهر ليس بمعتب من يجزع
أودى بنى وأعقبـونى حسـرة ... بعد الرقاد وعـبرة لا تقلـع
فغبرت بعـدهم بعيش ناصب ... وإخال أنى لاحـق مستتبـع
ولقد حرصت بأن أدافـع عنهم ... فإذا المنيـة أقبلت لا تدفـع
وإذا المنيـة أنشبت أظفـارها ... ألفيت كل تميمـة لا تنفـع
لابد من تلف مقـيم فانتظـر ... فبأرض قومك أم بأخـرى المصرع
ولقـد أرى أن البكاء سفـاهة ... ولسوف يولع بالبكا من يفجع
ولتـأتين عليك يوم مـــرة ... يبـكى عليك مقنعاً لا تسمع
وتجـلدى للشامتين أريهـــم ... أنى لريب الدهر لا أتضعضع (٢)

فمدافعة المنون عبث ، والجزع أمام صروف الدهر لا قيمة له ، وعلام يجزع وهو لاحق بهم لا محالة ، فليس أحد بخالد ، وقد حاول الدفاع عنهم وضاعت جهوده سدى ، فالمنايا لا تدفع ، ولكل إنسان مصرع لا يعلم زمانه ولا مكانه والبكاء سفاهة ، إذ لا قيمة له ، والباكى سوف يبكى عليه يوماً ما :

وفضلاً عن هذه الروح الإسلامية نجد اعتزازاً كبيراً بما أعده الله للشهداء من ثواب وأجر ، كما فى قول من رثى شهداء المسلمين الذين دفنوا فى القادسية بمشرق ، إذ قال :

---

(١) الاصابة / جـ ٢ / ص ١٨١ .   (٢) ديوان الهذليين / جـ ٦ / ص ١ ، الاستيعاب / ص ٦٦٦ ، ياقوت / جـ ٤ / ص ٥٣٨ .

جزى الله أقواماً بجنب مشرّق غداة دعا الرحمن من كان داعياً
جناناً من الفردوس والمنزل الذى يحل به م الخير من كان باقيا (١)

ولعلنا لانجد فى الشعر العربى قصائد كثيرة تشبه القصيدة الرائعة التى رثى بها كثير بن الغريزة النهشلى الذى كان بجيش الأقرع بن حابس التميمى شهداء جوزجان والطالقان ، ورثى بها نفسه رثاء رائعاً ، يذكرنا بقصيدة مالك بن الريب فى فتح خراسان ، وهى تجرى على هذا النمط :

سقى مزن السحاب إذ استقلت مصارع فتية بالجوزجان
إلى القصرين من رستاق خوط أقادهم هناك الأقرعان
وما بى أن أكون جزعت إلاّ حنين القلب للبرق اليمانى
ومحبور برؤيتنا يرجى الـ ـلقاء ولن أراه ولن يرانى
ورب أخٍ أصاب الموت قلبى بكيت ولو نعيت له بكانى
دعانى دعوة والخيل تردى فما أدرى باسمى أم كنانى
فكان إجابتى إياه أنى عطفت عليه خوّار العنان
وأى فتى إذا ما متّ تدعو يطرّف عنك غاشية السّنان
فإن أهلك فلم أك ذا صدوفٍ عن الأقران فى الحرب العوان
ولم أدلج لأطرق عرس جارى ولم أجعل على قومى لسانى
ولكنى إذا ما هايجونى منيع الجار مرتفع البنان
ويكرهنى إذا استبسلت قرنى وأقضى واحداً ما قد قضانى
فلا تستبعدا يومى فإنى سأوشك مرة أن تفقدانى
ويدركنى الذى لابد منه وإن أشفقت من خوف الجنان
وتبكينى نوائح معولات تركن بدار معترك الزمان
حبائس بالعراق منهنهات سواجى الطرف كالبقر الهجان
أعاذلتىّ من لوم : دعانى وللرشد المبيّن فاهديانى
وعاذلتىّ صوتكما قريب ونفعكما بعيد الخير ... وان

(١) ياقوت . جـ ٤ / ص ٥٣٩ .

فردا المـــوت عنى إن آتانى   ولا وأيكما لا تفعـــلان[1]

فالشاعر جزع على هؤلاء الشهداء ، الذين لاقوا مصارعهم فى هذه البلاد النائية ، وزاد فى جزعه أيضاً أنه يحن وقد رأى ما رأى إلى موطنه وإلى من خلفهن فى العراق ، وهو يشعر بأنه لن يلقاهن ، ويتضاعف حنينه وفزعه عندما يقابل بين ما حدث لهؤلاء الفتيان وما يمكن أن يحدث له هو الآخر ، فليس هناك فرق بين أن ينعى إليه أخ أو أن ينعى هو إليه . وماذا يمكن أن يفيده الجزع وقد قام بواجبه على أتم وجه ، وأدى ما استطاع ، وقدم كل ما يملك لهذا الأخ الذى استنجد به فى المعركة فى بسالة لا نظير لها ، فلا ضير إذا هلك ، فهو شجاع لا يجبن عن ملاقاة الأقران ، عفيف لم يمتد طرفه إلى عرس جاره ، ولم يؤذ أحداً من قومه ، وهو منيع الجار ، لايقبل الضيم ، وإذا أهيج يكرهه خصمه إذا لاقاه لصلابته وفتكه ، وهو الآن يشعر بدنو أجله ، ويحس أنه عما قريب مفتقد ، فسوف يدركه الموت الذى لا مفر منه ، ولن يشفع له حبه الحياة ، وآنذاك سوف تعول نائحات ساجيات الطرف عليه فى العراق .

ألم يأن لعاذلتيه أن تكفا عن لومه ؟ وأن تهدياه إلى الطريق القويم إن استطاعتا ؟ وأن تردا عنه الموت لو تأتى لهما ؟ ولكن هذا محال .

وبهذا الاستبطان والتأمل الذاتى فلسف الشاعر موقفه من الموت ، وجعل من رثاء شهداء الطالقان موضوعاً إنسانياً كبيراً . وإن شاع فى نهاية هذه الفلسفة نفس الروح الإسلامية ، فى التسليم بالقدر والاستسلام للقضاء . وشاعت نفس هذه المعانى فى الرجز ، فطبعته طوابع إسلامية :كالإيمان بأحقية الموت ، والثقة بالله ، والتسليم بقضائه .

فهذا أخو بنى كاهل يرثى نفسه وينعيها إلى أخيه . ويدعوه إلى أن يصبر فى لقاء عدوه ، وكأنه يستخلفه مكانه ، فيقول :

---

(1) أغانى دار الكتب / جـ ١١ / ص ٢٧٨ — ٢٧٩ .

وجاشـت النفس على الـتراق   صبراً عفـاق إنه الفـراق (١)

وهذا ــ الأعور بن قطبة : يستشعر شعورين متضاربين من الغبطة والحزن فى لحظة واحدة يوم أغواث ، فقد قتل أخوه قائداً من قواد الفرس، ولكن هذا القائد طعنه قبل أن يسقط ، فهو فرح لأن أخاه أبلى هذ البلاء ، ولكنه حزين لفقد أخيه البطل فيقول :

لم أر يوماً كان أحـلى وأمر   من يوم أغواث إذ افترّ الثغـر
من غير ضحك كان أسـوى وأبر (٢)

وهكذا نجد هذين الموضوعين القديمين يتطوران فى شعر الفتح ، إذ يتطور الفخر القبلى الذى يقوم على التفاخر بالأحساب والعصبيات والنعرات إلى شعر يفخر فيه المجاهد ببلائه وبطولته فى سبيل فكرة الجهاد من أجـل العقيدة التى يؤمن بها ، ويتعدى ذلك إلى استشعار الشاعر وجداناً جماعياً لجماعة المسلمين يصدر عنه فى شعره ، سواء تغنى به أو تغنى بفرديته كعضو فى إطاره ، ويشيع فى هذا الموضوع كثير من معانى الفداء والإيمان بنصر الله للمؤمنين على أعدائهم الكافرين ، كما يشيع فيه إخلاص للفكرة ، ورفض لكل شىء فى الدنيا يشغل عنها . وقد قاسم الرجز الشعر هذه المعانى أيضاً ، وتطور شعر الرثاء الجاهلى هو الآخر ، من إشادة بالفقيد وكرمه وشرفه والجزع عليه إلى الإيمان بالموت ووجوبه والتسليم به ، والصبر على قضاء الله ، واستشعار ما أعد للمجاهدين والشهداء فى سبيله من الأجر والثواب ، فضلاً عن الإشادة ببطولة الشهيد ، وما قدم فى سبيل الله من تضحيات ، وشارك الرجز فى هذه المعانى ذاتها ، وإن كان ذلك فى صورة ضيقة ، إذ أن نصوص الرجز فى الرثاء قليلة جداً .

وإلى جانب هذين الموضوعين التقليديين استجدت موضوعات أخرى حملها شعر الفتوح ، وآثرنا أن نفردها وحدها ، لأنها كانت نتيجة لاحتكاك الفاتحين ببيئات جديدة . وقبل أن نعرض لها نرى أن نعرض للون جديد من

(١) الطبرى / جـ ٥ / ص ٢٣٢٨ .   (٢) مروج الذهب / جـ ٢ / ص ٢٠٦ .

، لا ريب فى أن ولاة أمور المسلمين قد عرفوا عنه هذا ، فظلوا على تألفه واصطناعه ، وإن كانت ثقتهم به غير متينة ، لأنهم أيقنوا فيه أنه ربما لا يخلص فى نصرة الدين ، ولكنه لا يفرط فى الإخلاص لنفسه ولاسمه ، مهما كان ضعف إيمانه .

ولهـذا نرى ابن الخطاب رضى الله عنه يكتب إلى النعمان بن مقرن فى نهاوند : بأن يستشيره فى كل أمور الحرب على ألا يوليه عملا(١) . ونراه فى القادسية وسعد يقسم الفىء فيصل عطاء الفارس ستة آلاف يقبضها عمرو ، ثم يزيده سعد فى أهل البلاء خمسمائة ، ولكنه لا يقنع ، إذ تبقى بعد ذلك شىء كثير ، رأى سعد أن يرسل به إلى المدينة ليسأل الخليفة عما يفعل به ، فيرد عمر : « بأن رد على المسلمين الخمس ، وأعط من لحق بك ولم يشهد الواقعة » ونفذ سعد أمر عمر ، فبقى لديه ما اضطره أن يبعث إلى عمر يسأله عما يفعل به ، فأمر عمر : بأن يوزع فى حملة القرآن . كل هذا وعمرو يتململ . وبينا سعد ينفذ أمر الخليفة إذ أتاه عمرو طامعاً فى أن يكون له حظ مع حملة القرآن . وسأله سعد : ما معك من كتاب الله تعالى ؟ فحك عمرو رأسه ثم أجاب بعد لحظات : إنى أسلمت باليمن ثم غزوت ، فشغلت عن حفظ القرآن ، عند ذلك أبى سعد أن يجعل له من مال الحفاظ نصيباً ، فإذا عمرو يقول :

إذا قتلنا ولا يبكى لنـــا أحد قالت قريش : ألا تلك المقـــادير
نعطى السوية من طعن له نفـــذ ولا سوية إذ تعطى الدنانير(٢)

وكتب سعد بهذا إلى عمر ، فكتب عمر إليه : بأن يعطيه على بلائه ، فأعطاه ألفى درهم .

وكان عمر بن الخطاب يثق بقدرته الحربية ثقة كبيرة ، ويتجلى ذلك فى المقابلة التى تمت بينهما ، حين أرسله إليه سعد بن أبى وقاص عقب القادسية وراح عمر يسأله عن أحوال المجاهدين ، وعن سعد فى جنده فقال عمرو : هو لهم كالأب . . أعرابى فى نمرته ، أسد فى تامورته ، نبطى فى حبوته ،

(١) ذيل الأمالى جـ ١ / ص ٢٤٠ (٢) الأغانى / جـ ١٤ / ص ٣٦ .

يقسم بالسوية ، ويعدل فى القضية ، وينفر من السرية ، وينقل إلينا حقنا كما تنقل الذرة ، وكان سعد قد كتب إلى الخليفة يثنى على عمرو ويذكر بلاءه فقال عمر : « لشدّ ما تقرضتما الثناء » ثم أخذ يسأله عن الحرب : فقال عمرو : مرة المذاق إذا قلصت عن ساق ، من صبر فيها عرف ، ومن ضعف فيها تلف ، وهى كما يقول الشاعر :

الحـــرب أول ما تكون فتيـــة ... تسعى بزينتها لـــكل جهـــول
حتى إذا استعرت وشب ضرامها ... عادت عجوزاً غير ذات خليـــل
شمطاء جـــزّت رأسها وتنكرت ... مـــكروهة للشم والتقبيـــــل

فعاد عمر يسأله عن السلاح فقال عمرو : « الرمح أخوك وربما خانك ، والنبل منايا تخطئ وتصيب ، والترس هو المجن ، وعليه تدور الدوائر ، والدرع مشغلة للفارس ، متعبة للراجل ، وإنها لحصن حصين . ثم سأله عن السيف فقال : « ثم قارعتك أمك عن الثكل » . فقال عمر : « بل أمك قارعتك » فقال عمرو : « الحمى أضرعتنى » (١) . وخرج عمرو والخليفة يعلوه بالدرة ، ثم ما لبث أن قال عند منصرفه فى الطريق :

أتوعـــدنى كأنك ذو رعين ... بأنعم عيشـــة أو ذو نـــواس
فكم قد كان قبلك من مليك ... عظيم ظاهر الجبروت قاس
فأصبح أهله بادوا ، وأمسى ... ينقـــل من أناس فى أناس
فلا يغررك ملكك كل ملك ... يصير مذلـــة بعـــد اشماس(٢)

وتكشف الأبيات عن جاهلية فى نفسه . وتفيض الروايات بذكر بلاء عمرو وتفانيه فى الفتوح ، مما يثبت بعد نظر أبى بكر يوم وهبه حياته ، فكان عند حسن ظنه ، فأبلى فى كل وقعة شهدها بلاء حسناً ، شهد اليرموك . وقيل عنه يومها : إنه كان أشرف رجل برز ، ذلك أنه خرج إليه علج فقتله ، ثم آخر فقتله ، وهكذا . . وانهزم الروم ولم يتوقف ، وتبعهم حتى ألفى جمعاً عظيماً

(١) ابن قتيبة / جـ ١ / ص ٣٣٣ — ٣٣٤ ، البلاذرى / ص ٢٨٧ — ٢٨٨ .
(٢) مروج الذهب / جـ ٢ / ص ٢١٧ .

منهم . ولكن الرواسب الجاهلية تبرز فى سلوكه عندما ينصرف إلى خباء له فينزل ثم يدعو بالجفان ، ويدعو من حوله ، والناس يتساءلون عنه فيقال لهم : إنه عمرو بن معديكرب فارس اليمن[1] وبرغم أن عينه أصيبت يوم اليرموك فإن ذلك لم يثنه عن مواصلة الجهاد[2] .

وتحول عمرو إلى العراق ، فشهد مع أبى عبيد بن مسعود الثقفى وقعة الجسر[3] ، ثم شهد مع سعد بن أبى وقاص القادسية . وبالطبع لابد أن يكون قد شهد مع المثنى المعارك التى كانت بين الجسر والقادسية ، وإن كنا لا نجد له أخباراً فيها ولا شعراً . وكتب عمر إلى سعد بالقادسية بأن يصدر عن مشورة عمرو فى الحرب[4] ، وعدّه عمر بمقام ألف رجل[5] ، وأخذ عمرو يباشر المعركة ، ويمر بين صفوف المسلمين ، يحمسهم ويدفعهم بنداءاته : « كونوا أسوداً أشداء ، فإن الفارس إذا ألقى رمحه تيس » . . « ألزموا خراطيم الفيلة السيوف ، فإنها ليس لها مقتل إلا خراطيمها » وكاد أن يقتل أكثر من مرة ، إذ أصابته فجأة فى سية قوسه نشابة ، فحمل على من رماه فطعنه ودق صلبه ، ونزل إليه فأخذ سلبه[6] .

ويروى : أنه حمل فى هذا اليوم وحده ، وجعل يضرب الفرس حتى لحق به المسلمون ، وقد أحدق به الأعداء وهو يضرب فيهم بسيفه ، فنحوهم عنه[7] . كما يذكر : أنه كانت له طريقة بارعة وعجيبة فى قتال الفرس . إذ يقاتل فارساً ثم يقتحم عن فرسه فيربط مقوده فى حقوه ، فيقاتل آخر ، وهكذا كان يفعل بالعدو الأفاعيل[8] . وأنه شد فى نفر من المسلمين يضربون خراطيم الفيلة حتى بلغوا رستم فضرب فيله فجذم عرقوبيه فسقط ، وسقط رستم ، وحمل على فرس ، وقتل بين نفر من الفرسان تنازعوا دمه ، وقال عمرو فى ذلك ينسب هذا العمل إلى نفسه :

---

(1) الاصابة / جـ ٥ / ص ١٩ .
(2) نفس المرجع .
(3) الاستيعاب / ص ٣٥٢ .
(4) أسد الغابة / جـ ٤ / ص ١٣٤ .
(5) الاصابة / جـ ٥ / ص ١٩ .
(6) نفس المرجع .
(7) نفس المرجع .
(8) الأغانى / جـ ١٤ / ص ٢٨ .

ألم بسلمى قبل أن تظعنا إن لنا من حبها ديدنا
قد علمت سلمى وجاراتها ما قطر الفارس إلا أنا
شككت بالرمح حيازيمه والخيل تعدو زيماً بيننا[1]
وعجيب أن يفعل عمرو هذه الأفاعيل ، وهو طاعن فى السن ، حتى إنه يروى تجاوزه المائة فى القادسية ، وما كان من ضخامة جثته ، فكان آخر قومه فى عبور نهر القادسية ، وفرسه تئن من ثقله[2] .

وتروى بعض الروايات أنه قد استشهد بالقادسية . أو مات عطشاً بها[3] ، ولكن هذه الرواية لا تتفق وما يذكر متواتراً عن بلائه فى نهاوند ، وما كان من استشارته فى المؤتمر الذى عقده النعمان بن مقرن للتدبر فى إخراج الفرس من حصونهم ، بناء على أمر الخليفة ،الذى أرسل إلى النعمان « بأن فى جندك عمرو بن معديكرب ، وطليحة بن خويلد ، فأحضرهما ، وشاورهما فى أمر الحرب » . ويذكر أن كان له رأى صائب فى الخطة التى قررت ، وعندما قتل النعمان ، وتولى حذيفة تراجع المسلمون ، ولكن عمراً ظل يقاتل فى أهل النجدات من المسلمين ، إلى أن جاءه كمى القوم فاعتنقه عمرو وقتله ، وأصيب بجراحة أثبتته ، وفتح الله على المسلمين ، فأخذ عمرو ينشد شعراً ، يفخر فيه ببلائه وهو يحتضر ، ودهمه الفالج أثناء ذلك فمات به ، عند قرية تدعى « روذة » من قرى نهاوند ، فرثاه أحد المسلمين بقوله :
لقد غادر الركبان حين تحملوا « بروذة » شخصاً لا جباناً ولا غمراً
فقل لزبيد بل لمذحج كلها رزئتم أبا ثور قريع الوغى عمراً
فإن تجزعوا لا يغن ذلك عنكموا ولكن سلوا الرحمن يعقبكم صبراً[4]
وتذكر بعض الروايات : أن شاعرنا عمّر بعد نهاوند حتى شهد صفين ، ومات فى عهد معاوية . ولكن هذه الرواية تبدو مدفوعة إلى المغالاة فى امتداد

---

(1) الأغانى / جـ ١٤ / ص ٢٩ . (2) الأغانى / جـ ١٤ / ص ٢٨ .
(3) أسد الغابة جـ ٤ / ص ١٣٤ ، الاستيعاب / ص ٣٥٢ .
(4) الأغانى / جـ ١٤ ص ٣١ .

عمره ، ولو صح أنه شهد القادسية وهو ابن مائة وعشر — كما يروى أبو عبيدة فإنه يكون قد مات وعمره قرن ونصف ، والصحيح الذى يمكن أن يتفق وكثرة الروايات الموثوق بها أنه مات مفلوجاً بروذة كما تقدم(١) .

٢ — شعره فى الجاهلية

لسنا نعرف على وجه اليقين أو الظن وقت انتى بدأ فيه عمرو الشعر ، فإن شعره لا يدلنا على شىء من هذا ، والروايات التى تروى عنه لا تتعرض لهذا الجانب ، وكأنما وجد - هكذا - شاعراً .

وليس لعمرو ديوان يجمع أشعاره مرتبة ، أو مؤرخه بمناسباتها ، أو غير مرتبة ومؤرخة . وإنما نستطيع أن نعرف على وجه التقريب حداً فاصلاً بين شعره فى الجاهلية وشعره فى الإسلام ، وإن قابلتنا فى سبيل ذلك مشكلات ، سببها : أن حياته قد ضخمت ، بفعل الروايات التى كادت تجعل منه بطلاً من أبطال الأساطير ، بما حشد فيها من جوانب البطولة ، وتصوير ما أوتى من قوة خارقة ، وما جبل عليه من عبث . وسبب — آخر — هو : تشابه حياته فى الجاهلية بحياته فى الإسلام ، بما طبع عليه من حب شديد لنفسه واتخاذه منهاجاً خاصاً لحياته ، غير متقيد فيه بشىء من تعاليم الإسلام .

وأول ما يطالعنا فى شعر عمرو لأول وهلة : قلة مجموع هذا الشعر ، وحتمى أن يكون قد ضاع منه الكثير ، فكونه زبيدياً من أهل اليمن لا يبرر قلة شعره على هذه الصورة رغم ما يبدو فى طبعه من ثراء وخصب .

ومن شعره المشهور : عينيته التى مطلعها :

أمن ريحانة الداعى السميع يؤرقنى وأصحابى هجوع

وهى من الشعر الذى غنى به وزيد فيه ، لما فيها من عاطفة جياشة ، وإن

---

(١) اسد الغابة / جـ ٤ / ١٣٤ ، الاصابة / جـ ٥ / ٢٠ ، ابن قتيبة / جـ ١ ص ٣٣٤ ، الاغانى جـ ١٤ / ٣١ ، ذيل الامالى / جـ ١ / ١٤٤ .

كانت حزينة تبلغ فى حزنها حد اليأس . وتطبعك لأول وهلة بصدق الشاعر مع نفسه وعواطفه ، وتصريحه بحرج موقفه ، دون مغالطة أو تزييف أو تلفيق للأعذار ، فهو يصور الأزمة فى وجدانه على حقيقتها ، ويدلى بأسفه الذى يهيب به ويؤرقه وقد هجع الناس ، وأخته سبية استحلت ، وهو لا يملك لها نجاة ، فحولها فرسان أشداء ، ويبلغ اليأس بنفسه مداه : فيلقى بخلاصة تجربته فى حكمة بالغة ، وكأنه قد أراح نفسه من أزمتها :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع[1]

وهذا الصدق الشعورى الذى يتجلى فى هذه الأبيات يعيننا على تفهم شعره فى مواطن أخرى ، يكون فيها صادقاً مع نفسه ، حتى ولو كان مفتخراً معتزاً بقوته ، ونعجب من هذا الصدق الشعورى وقد عرفنا عمراً يغالى فى حديثه عن نفسه ، ويكذب فى ذلك متفاخراً ، ولكننا نجده فى شعره صادقاً فى وصف مشاعره .

قال فى أبى المرادى — وكان ادعى مساندته فى غزاة ، وطالبه بنصيبه ، وتهدده بالقتل :

أعاذل شكتى بدنى ورمحى وكل مقلص سلس القياد
أعاذل إنما أفنى شبابى وأقرح عاتقى ثقل الزناد
تمنانى ليلقانى - أبىّ وددت وأينما منى مرادى
ولو لاقيتنى ومعى سلاحى تكشف شحم قلبك عن سواد
أريد حباءه ويريد قتلى عذيرك من خليلك من مراد
تمنانى وسابغتى دلاص كأن قتيرها حلق الجراد
وسيفى كان من عهد ابن صد تخيره الفتى من قوم عاد
ورمحى العنبرىّ تخال فيه سناناً مثل مقباس الزناد
وعجلزة يزل اللبد عنها أمرّ سراتها حلق الجياد
إذا ضربت سمعت لها أزيزاً كوقع القطر فى الأدم الجلاد

(1) الأغانى جـ ١٤ / ص ٣١ .

إذاً لوجدت خالك غير نكس ولا متعلماً قبل الوجاد
يقلب للأمور شرنبثات بأظفار مغارزها حداد[1]

فكل سلاحه بدن ورمح وفرس عظيمة مطواع ، وقد أفنى شبابه على هذه الصورة ، حتى قرّح الزناد كاهله ، وقد تمناه أبى ليقتله ، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه ، ولو لاقاه نعجز عن مواجهته ، حتى يأكل الحقد قلبه ، وينكشف شحمه عما به من الحقد ، وهو لم يصنع شيئاً يستوجب هذا الوعيد ، وإنما أراد أن يمن عليه ، فهل يكون جزاؤه التهديد بالقتل وهل تدبر أبى أمره وعرف من هو الذى يتوعده ويتهدده إنه فارس ذو درع حصينة واسعة براقة ملساء ، تشبه مسامرها حلق الجراد ، وسيف عريق ورمح عنبرية ذات أسنة نارية ، وفرس قوية مدربة ، ولو قابله أبى لما وجده دنيئا ، ولا ساقطاً ولا ضعيفاً ، وإنما هو قوى قادر ماهر ، لا يعبأ بالملمات . وتروى هـذه الأبيات على أنه قالها لأخته ، التى عيرته لإبطائه فى الثأر لأخيه عبد الله ، ولكن الأبيات نفسها لا توحى بهذا . بدليل قوله :

إذاً لوجدت بخالك غير نكس ولا متعلماً قبل الوجاد
ويبقى بعد حلم القوم حلمى ويفنى قبل زاد القوم زادى
فمن ذا عاذرى من ذى سفاه يرود بنفسه منى المرادى[2]

ويتمتع كل شعره الجاهلى بصفة الصدق الممتزج بحرارة التعبير المتدفق البعيد عن المغالاة ، ويذهب كله بلا استثناء فى الاعتزاز بمهارته الحربية ، والفخر بشجاعته ، ووصف تأهبه للحرب .

وتحيط بشعره غالباً مشكلات فى دوافع القصيد ومناسبته . فتروى روايات مختلفة فى ظروف كل قصيدة . فمثلا تروى له قصيدة فى التوائه لقاء النبى صلى الله عليه وسلم ، ومخالفة قيس بن مكشوح المرادى عن رأيه حيث يقول :

أمرتك يوم ذى صنعاء أمراً بينا رشده

(1) الأغانى / جـ ١٤ / ص ٣٢ . (2) الاصابة / جـ ٥ / ١٠١ .

أمرتك باتقاء الله تأتيه وتتعده
فكنت كذى الحمير غرة من إيره وتده[1]

وجاء فى رواية أخرى : أنه قال هذه القصيدة لولده ، وأن عمراً قد عرض نفسه ذات مرة على امرأة من كندة فأخبرته : أنها زوجة . ووصفت له زوجها فتابعها ، حتى لقى زوجها فقتله ، واقترن بها ، وطلب إليها أن تسمى ابنها منه الخزر . ولما شب الخزر راح يتعرف إلى أبيه ، ودفعه قوم من صنعاء إلى أن يحارب أباه ، فسار إليه فى جمع منهم وشد على أبيه ، لكنه قتله وقال :

تمناى ليقتلنى وأنت لذاك معتمده
فلو لاقيتنى فرسى وفوق سراته أسده
إذاً للقيت شثن البراثن نابياً كيده
ظلوم الشرك فيما أعلقت أظفاره ويده
يلوث القرن إذا لاقاه يوماً ثم يضطهده
يزيف كما يزيف الفحل فوق شئونه زبده
ويذبب عن مشافره البعوض ممنعاً بلده
ولو أبصرت ما جمعت فوق الورد تزهده
رأيت مخاضة زغفا وتركاً مبهماً سرده
وصمصاماً بكفى لا يذوق الماء من يرده
شمائل جده وكذاك أشبه والداً ولده
أمرتك ثم ذى صنعا أمراً بينا رشده
فعال الخير تأتيه فتفعله وتتعده
فكنت كذى الحمير غره من عيره وتده
ولو أبصرت والبصر المبين قل من يجده
إذاً لعلمت أن أباك ليث فوقه لبده[2]

(١) الأغانى / ١٤ / ٢٥ .

(٢) ذيل الأمالى / جـ ١ / ص ١٥١ .

وواضح : أن القصيدة لا علاقة لها بإسلامه ، فهي جاهلية ، وتتحدث عن هذا الموقف الذي وقفه منه ولده ، وواضح أيضاً أن قوله : « فعال الخير » أنسب للسياق عن الرواية التي يقول فيها : « اتقاء الله » ، فإن عمراً أبعد إنسان عن هذا القول . وهو يشير : إلى أن الحديث موجه إلى ابنه في غير موضع في الأبيات ، حينما يقول : إن شمائله هي شمائل جد ابنه ، وهكذا ، أشبه والداً ولده . وعندما يقول له في نهاية القصيدة : إذاً لعلمت أن أباك . . .

وهذا الخلط بين شعره الجاهلي والإسلامي منه نجد له أمثلة كثيرة في شعره ، ولكن أهم هـــذه القصائد ما يختلط من شعره الجاهلي بشعره في الفتوح خاصة .

إذ يروى : أن نونيته المطولة صدرت عنه في الفتوح ، ويصف فيها بلاءه في القادسية ونهاوند ، والقصيدة تجرى على هذا النمط :

لمن الديار بروضـــة الســلاّن ... فالرقمتين فجـــانب الصمّـــان
لعبت بها هوج الرياح وبدّلت ... بعد الأنيس مكانس الثـــيران
فكأنّ ما أبقين من آياتهـــــا ... رقم ينمق بالأكف يمـــــانى
د لعمرة إذ تريك مفلّجـــا ... عذب المذاقة واضح الألوان
خصراً يشبه ورده وبيـــاضه ... بالثلج أو بنـــور القحـــوان
وكأن طعم مـــدامة جبليـــــة ... بالمسك والكافور والريحـــان
والشهد شيب بماء ورد بارد ... منها على المتنفّس الوهنـــان
وأغر مصقولاً وعينيّ جؤذر ... ومقـــلداً كتقـــلد الأدمـــان
سنت عليه قلائداً منظـــومة ... بالشـــذر والياقوت والمرجان

القصيدة تبدأ بذلك التقليد الجاهلي من بكاء الأطلال . ذلك التقليد الذي لا نجده في واحدة من قصائد الفتوح على الإطلاق ، ثم يثني الشاعر بالغزل بمن تدعى « عمرة » غزلاً حسياً محضاً ، يتحدث فيه عن طعم مذاقها ، ويشبه بمذاق الخمر على المسك والكافور والريحان . أو الشهد ، وينتقل من فمها إلى عينيها ، إلى جيدها .

وينتقل الشاعر بعد ذلك إلى ما كان من أيام الحرب فى الجاهلية ذات يوم بين كندة وزبيد فيقول :

ولقد تعارفت الضباب وجعفر ... وبنو أبى بكر بنو الهصّان
سيبا على القعدات تخفق فوقهم ... رايات أبيض كالفنيق هجان
والأشعث الكندى حين سما لنا ... من حضرموت مجنب الذكران
قاد الجياد على وجاها شذباً ... قب البطون نواحل الأبدان
حتى إذا أسرى وأوّب دوننا ... من حضرموت إلى قضيب يمان
أضحى وقد كانت عليه بلادنا ... محفوفة كحضيرة البستان
فدعا فسوّمها وأيقن أنه ... لا شك يوم تسالف وطعان
لما رأى الجمع المصبح خيله ... مبثوثة ككواسر العقبان
فزعوا إلى الحصن المذاكى عندهم ... وسط البيوت يردن فى الأرسان
خيل مربطة على أعلافها ... يقفين دون الحى بالألبان
وسعت نساؤهم بكل مفاضة ... جدلاء سابغة وبالأبدان
فقذفنهن على كهول سادة ... وعلى شرامخة من الشبان
حتى إذا خفت الدعاء وصدعت ... قتلى كمنقعر من الغلان
نشدوا البقية وافتدوا من وقعنا ... بالركض فى الأدغال والقيعان
واستسلموا بعد القتال وإنما ... يترقبون ترقب الحملان
فأصيب فى تسعين من أشرافهم ... أسرى مصفدة إلى الأذقان
فشتا وقاظ رئيس كندة عندنا ... فى غير منقصة وغير هوان[1]

فهذه مقدرة مذهلة فى الوصف القصصى ، والسرد البارع ، وفى صورة حركية ، ترسم التفصيلات الدقيقة فى براعة تأخذ بالألباب ، وتجعلنا نعتبره نواة صالحة للشعر الملحمى ، الذى لم يتطور على مر العصور .

فقد بدأ بتصوير هذا التحالف بين الأعداء واتفاقهم ، وكيف استقلوا تخفق فوق رءوسهم الرايات ، وقد تجنب رئيسهم العلن ، وسار متخفياً .

---

(1) ذيل الأمالى / جـ 1 ص 145 .

حتى أنهكوا جيادهم من طول السرى والتأويب ، من حضرموت إلى ديار الشاعر التى أحاطت بهم من كل جانب .

وهنا يدرك رئيس الكندة أن اليوم ظلم ؛ فيبث خيله فى كل مكان ، ويفتح أهل الحى أعينهم على هذا المشهد ، فيهرعون إلى جيادهم المتأهبة دائماً ، يعينهم نساؤهم فى اتخاذ أهبتهم ، ويهبن بهن أن يتولوا أمر هؤلاء المغيرين ، وينشب القتال ، فتفعل السيوف فعلها ، إلى أن يخفت صوت الفرسان ، وتتكشف المعركة عن قتلى كثيرين ، غير من فر وافتدى نفسه بالركض بين الأدغال ، وغير من أسر من الأشراف الذين بلغ عددهم التسعين ، صفدوا حتى أذقانهم بالسلاسل ، وعلى رأسهم رئيسهم الذى قضى الصيف والشتاء أسيراً فى ديار الشاعر ، وإن لاقى من التكريم والإعزاز ما يشهد برفعة شأنهم .

وبعد ذلك نجد أبياتاً عن القادسية وبلاء الشاعر وقومه فيها ، تقول :

والقادسية حين زاحم رستم كنا الحماة بهن كالأشطان
الضاربين بكل أبيض مخذم والطاعنين مجامع الأضغان
ومضى ربيع بالجنود مشرقاً ينوى الجهاد وطاعة الرحمن
حتى استباح قرى السواد وفارس والسهل والأجبال من مكران(١)

ولسنا نعرف بحق من هو ربيع الذى يشير إليه ، فليس بين قواد المسلمين الذين استباحوا قرى السواد وفارس ومكران من يدعى بهذا الاسم ، ولكننا نفضل رواية أخرى للبيتين الأخيرين ، على هذا النمط الذى يقول :

قوم هم ضربوا الجبابر إذ بغوا بالمشرفية من بنى ساسان
حتى استبيح قرى السواد وفارس والسهل والأجبال من مكران (٢)

وعلى كلتا الروايتين يلاحظ الدارس مغايرة هذه الأبيات التى تتحدث عن القادسية فى صياغتها للقصيدة كلها ، وعدم التساوق فى المعنى ، فالقصيدة وحدة موضوعية قائمة بذاتها ، منتهية بحكم صياغتها الفنية عندما انتهت إليه

(١) ذيل الأمالى / جـ ١ / ص ١٤٥ .

(٢) ياقوت / جـ ٤ / ص ٩١٤ .

من تصوير المعركة وانتهائها بأسر أشرافها ، ورئيسها الذى قاظ وشتا عندهم . ولا تحتمل هذه الأبيات التقريرية الأخيرة بحال .

ويقينا فالقصيدة بالصورة التى تروى بها مشتملة على هـذه الأبيات ، قد صنعت فى عصرين مختلفين ، فى الجاهلية والإسلام بمعنى : أن الأبيات الأخيرة أضيفت فيما بعد الفتوح بفعل الرواة ، شأنها فى ذلك شأن قصيدة ربيعة بن مقروم ، وقصيدة عبدة بن الطبيب ، ومن قبلهما حسان بن ثابت فى قصيدته الهمزية ، التى تحدث فيها عن فتح مكة وذكر فيها الخمر .

وقصيدة عمرو جلى فيها طابعها الجاهلى ، فى أسلوبها ، ورصانتها ، وقوة تماسكها ، وتصويرها الدقيق ، وسردها المتأنى ، الذى يدل على روية وفسحة فى الوقت أتيحت للشاعر ، مما لا يتيسر لتلك الأبيات الأخيرة فى القادسية ، والتى يظهر فى تقريريتها وقصرها أنها صنعت فى ظروف قلقة ، هى ظروف الفتوح .

وهكذا نستطيع أن نعـدد الخصائص الفنية لشعره الجاهلى ، وهى تنحصر فى نزوع الشاعر إلى الصدق الشعورى الدافق مع نفسه دون ما مبالغة ، وفى قدرته القصصية الفائقة ، ودقته فى التصوير ، واقتداره على رسم الصور الحركية بمهارة ، كل ذلك فى أسلوب قوى جزل ، تحوطه عاطفة جياشة ، وإن كان بعيداً عن التعلق بالصور الخيالية ، ميالاً إلى استعمال الصور المحسوسة للتعبير عن أفكاره وعواطفه .

وموضوعات شعره الجاهلى لا تخرج فى مجموعها عن الافتخار ببطولته وتصويره استعداده للحرب ، ووصف بلائه فيها ووصف وأيام زبيد فى الجاهلية .

٣ — شعره فى الفتوح

وشعر عمرو فى الفتوح قليل جداً ، لا يتجاوز عدة مقطعات قصيرة ، وهذه ظاهرة عامة ينضوى تحتها شعر الشعراء القدامى ، الذين اشتركوا فى

الفتوح جميعها ، فى قلة ما خلفوا من آثار فى شعر الفتح ، وينضوى تحتها شعر الفتح كله فى قلة عدد الأبيات التى تحتويها المقطوعة .

والمطالع الدارس قصيدة واحدة فى شعر الفتح طال نفسها أو تعددت أغراضها — كقصائد الجاهلية — فلا ظروف القتال من جانب ، ولا نفسية المقاتل من جانب آخر تتيحان امتداد نفس الشاعر ، فتحولت القصائد من ثم إلى مقطعات لاهثة ، يصب فيها الشاعر عواطف اللحظة ومشاعرها فى سرعة خاطفة ، كتلك التى صب فيها عمرو خبر قتله لرستم فى ثلاثة أبيات ، اشتملت على : تزويد صاحبه بإقراء سلمى صاحبته تحيته ، وأن يذكره عندها ، ويذكر حبه لها ، وأن ينقل إليها خبر قتله رستم وقصر هذا الشرف عليه وحده دون غيره . ثم يصف الطريقة التى فتك بها بهذا القائد . كل هذا فى تلك الأبيات القليلة التى تقول :

ألمم بسلمى قبل أن تظعنا   إن لنا من حبها ديدنا
قد علمت سلمى وجاراتها   ما قطر الفارس إلا أنا
شككت بالرمح حيازيمه   والخيل تعدو زيما بيننا (١)

ولا ريب فى أن القارئ لهذه الأبيات يستشعر حرارة الشاعر وصدقه ، هذه الخاصية التى انتقلت معه من شعره الجاهلى إلى شعره الإسلامى .

ولم يقتصر ذلك على الشعر فحسب ، وإنما نجد صدقه هذا وحرارة تعبيره فى أبيات الرجز المفردة . وكان علج فى القادسية قد رماه بنشابة وقعت بين كتفيه فلم تنفذ من درعه الحصينة ، فأخذ به يعتنقه ، فسقطا معاً على الأرض ، وقتله عمرو وسلبه ، ثم أخذ يعمل سيفه فى الفرس ، فى حرارة تشبه حرارته فى تعبيره ، عندما رأى الأعداء يتساقطون تحت وقع ضرباته ، فصاح مغتبطاً :

أنا أبو ثور وسيفى ذو النون   أضربهم ضرب غلام مجنون
يا آل زبيد إنهم يموتون (٢)

(١) الأغانى / جـ ١٤ / ص ٢٨ .   (٢) الأغانى / جـ ١٤ ص ٢٨ .

ويبلغ صدقه فى عواطفه حد الصراحة الساخرة التى واجه بها سعد بن أبى وقاص لما رفض أن يجعل له نصيباً بين حملة القرآن فقال له معرضاً بما بين القحطانية وقريش ، متهماً قائده بمحاباة القرشيين ، إذ قال له :

إذا قتلنا ولا يبكى لنا أحد   قالت قريش ألا تلك المقادير
نعطى السوية من طعن له نفذ   ولا سوية إذ تعطى الدنانير(١)

وغير هذه الأبيات القليلة ، وما أشرنا إليه من أبياته فى القادسية ، التى أضيفت إلى تونيته لا نعرف له شعراً فى الفتوح ، برغم شهوده المعارك المهمة فى تاريخها ، فقد شهد اليرموك والجسر ، ولكننا لا نجد له شعراً فيهما ، وكذلك لا نجد له شعراً فى نهاوند .

ويلاحظ الدارس : أن عمراً وغيره من الشعراء القدامى كانوا أبعد الشعراء الذين اشتركوا فى الفتوح عن التأثر بأية خصائص إسلامية فى شعرهم ، إذا ما قارنا شعرهم بشعر غيرهم من الشعراء الذين أنطقتهم الفتوح ، فتغنوا بالمثل الإسلامية ، وكان شعرهم معرضاً للخصائص التى اكتسبها الشعر من الإسلام .

وهكذا يمكننا القول : بأن شعر عمرو لم يكتسب خصائص إسلامية من واقع الحياة التى عاشها فى الفتوح ، وبرغم ضياع شعره فيما نعتقد فإنه جلى أن شعره الإسلامى فى الفتوح لو كان وجد بتمامه لما افترق فى شىء عن شعره الجاهلى ، وإنما هو استبدل بأيام زبيد أياماً إسلامية ، عبر فيها بنفس التعبير الذى كان يعبر به عن غزوات قومه فى الجاهلية . ولم يتأثر شعره بالإسلام ولا بالفتوحات ، كما لم تتأثر حياته ذاتها إلا بهذه التأثيرات العامة ، التى تعرض لها كل شعر الفتوح ، من انكماش القصيد ، وسرعته ، وتدفقه فى إيجاز وحرارة ، فضلاً عن صدقه الشعورى ، وحرارة تعبيره ، التى لازمت شعره فى الفتوح .

---

(١) الأغانى / جـ ١٤ ص [illegible] .

الفصل الثالث

القعقاع بن عمرو التميمي

١ — حياته وخروجه للجهاد

هو خير نموذج لهؤلاء الشعراء الذين أنطقتهم الفتوح بالشعر . وإنه لمن النادر أن نصادف شاعراً مثله ، له نفس خصائصه أو خصائص قريبة منها .

كانت حياته كلها هجرة فى سبيل الله ورسوله وفى طاعتهما ، ويضعه بعض المصنفين فى آخر طبقة المخضرمين من الفرسان الشجعان[1] . لكننا لا نعرف شيئاً واضحاً عن جاهليته يفيد معرفة بشأنه وبماضيه ، إذ تخلو جميع المصادر من أية إشارة إلى شيء من هذا القبيل . فلا نعرف له من ثم أدنى اهتمام بشيء قبل الإسلام ، وليس له ماض ينميه ولا اسم يعتز به ، ويعيش على الإخلاص له ، ولا شيء ثمت إلا إسلامه وإيمانه القوى بعقيدته الراسخة ، حتى ليخيل للدارس أن حياته لم تبدأ إلا بالإسلام .

وهكذا نجد جميع المصادر تخلو من الإشارة العابرة إلى مولده ونشأته ، وإنما تبتدئ جميعها من نقطة واحدة ، هى إسلامه ؛ ذلك أنه الحقيقة الكبيرة البارزة والفاعلة فى حياته كلها .

---

(١) المستطرف / جـ ١ / ص ١٧٩ .

فقد أسلم القعقاع ، وكانت له صحبة(١) ، وشهد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان الذى نقل إلى المسلمين آنذاك نبأ اجتماع الأنصار على استخلاف سعد بن عبادة(٢) . وظاهر من هذه الروايات : أن القعقاع قد نشأ فى حجر النبي وكنف صحابته، فتى من فتيان المسلمين ، الذين آمنوا بربهم وزادهم ربهم هدى ، فتأدبوا بآداب الإسلام ، وتعلموا فى مدرسة الرسول ، ورسخ اعتقادهم بما أعده الله للمؤمنين المجاهدين من عباده ، فازدادوا بأساً ، وامتلئوا شجاعة ، فباعوا أنفسهم فى سبيل الله وفى طاعته ، هكذا تعلموا فى مدرسة الوحى « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثختموهم فشدوا الوثاق ، فإما منًّا بعد وإما فداءً حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض ، والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم ، يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم »(٣) .

راح الفتى المؤمن فى هذا الجو يكتسب صفات الفارس الإسلامى ، ويسأله رسول الله ذات يوم : «ماذا أعددت للجهاد يا قعقاع؟» فيجيب : «طاعة الله ورسوله والخيل» . فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم : «تلك الغاية » (٤) فهذا جوابه للنبي لا يخرج عما تعلمه فى مدرسة الوحى « يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم ، ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ومساكن طيبة فى جنات عدن ؛ ذلك الفوز العظيم وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب »(٥) ، ولهذا حظى الفتى المؤمن بحب الصدر الأول من الصحابة ، فكان لأبى بكر فيه ثقة بالغة ورأى حسن ، حتى ليقول عنه : « لصوت

---

(١) الاصابة / جـ ٥ / ص ٢٤٤ .
(٢) الاصابة / جـ ٥ / ص ٢٤٤ .
(٣) سورة محمد آيات ٤ ـ ٦ .
(٤) الاصابة / جـ ٥ / ص ٢٤٤ .
(٥) سورة الصف آيات ١٠ ـ ١٢ .

القعقاع فى الجيش خير من ألف رجل »[1] . وقد أرسله أبو بكر على رأس حملة لتأديب علقمة بن علاثة بن عرف بن الأحوص ، الذى كان ارتد فى حياة الرسول وخرج على رأس كلاب وحلفائها ، بعد فتح الطائف حتى لحق بالشام ، فلما قبض الرسول أقبل مسرعاً حتى عسكر فى بنى كعب مقدماً رجلاً ومؤخراً أخرى ، وبلغ ذلك أبا بكر فبعث القعقاع وقال له : « سر حتى تغير على علقمة لعلك تأخذه لى أو تقتله ، فاصنع ما عندك » . وكان الفتى عند حسن ظن الخليفة . فإنه ما لبث حتى أغار على الماء الذى عليه علقمة ، فاستبى نساءه وبناته وامرأته ، وقدم بسبيه وبعلقمة أسيراً على خليفة رسول الله[2] .

وأخذت ثقة أبى بكر تزداد به وتعظم . وعندما استمده خالد بن الوليد عند منصرفه إلى العراق أمده به ، فقيل له : أتمد رجلا انفض عنه جنده برجل ؟ فأجاب أبو بكر : « لا يهزم جيش فيه مثل القعقاع » [3] .

وقد أيدت الحوادث ثقة أبى بكر . فلم يهزم جيش كان فيه القعقاع خلال الفتوح فى العراق والشام . فقد كان صمام أمن المسلمين فى كل معركة اشترك فيها ، وإن لم يكن قائدها ؛ إذ يكون المسلمون أقرب ما يكونون إلى الهزيمة فإذا به يلوح فى الأزمات فيبدل هزيمتهم نصراً مؤزراً ، مثله مثل السهم الأخير فى الجعبة ، وقد صدق حين قال عن نفسه فى هذا المعنى :

يدعون قعقـاعاً لكل كريهة   فيجيب قعقاع دعاء الهـاتف[4]

٢ — القعقاع فارس الفتوح

رافق القعقاع خالد بن الوليد فى فتح العراق ، إلى أن فصل معه إلى الشام ثم كان على مقدمة هاشم بن عتبة بن أبى وقاص ، الذى قاد جيش العراق

---

(١) الاصابة / جـ ٥ / ص ٢٤٤ ، أسد الغابة / جـ ٤ / ٢٠٧ .

(٢) الاغانى (الساسى) جـ ١٥ / ص٥٥ — ٥٦ .

(٣) الاصابة / جـ ٥ / ٢٤٤ .   (٤) الاصابة / جـ ٥ / ٢٤٥ .

وعاد به إلى القادسية . وغزا بعد ذلك مع سعد بن أبي وقاص . والنعمان بن مقرن في نهاوند . ولا نسمع عنه شيئاً بعد هذا في الفتوح .

وقد أبلى القعقاع بلاء رائعاً في المعارك التي اشترك فيها ، ويكاد بلاؤه يصور ملحمة رائعة ، تضعه في زمرة الفاتحين المعدودين في تاريخ الحروب قاطبة ، وأكاد أتصوره فتى قوياً ليس بضخم الجثة ، بل أميل إلى النحول . عيناه واسعتان تبرقان بذكاء حاد ، عريض الجبهة ، كثيف الحاجبين ، يرتسم على وجهه ما يعبر عن القسوة والصرامة ، مقطب الجبين ، مفكراً مطرقاً في أغلب أوقاته ، يتبع قائده المظفر خالد بن الوليد ، ويتابعه ويتأثر به ، حتى ليكتسب منه صفات : الجرأة ، والمبادرة ، وكثيراً من خدع الحرب. وفي أول التقاء بين خالد والفرس — بقيادة هرمز عند الحفير — يفقد خالد حكمته أمام تحدى القائد الفارسي له ، عندما دعاه للنزال فيرمي إليه بنفسه ، وبينما هما يختلفان ضربتين احتضنه خالد يريد قتله ، فإذا بأهل فارس يغتنمونها فيشدون يريدون قتل خالد وإنقاذ قائدهم من بين يديه فإذا بظل القائد «القعقاع» يخرج من بين الصفوف فيحمل عليهم حملة عنيفة مفاجئة ، ويهزمهم هزيمة نكراء[1] .

واشترك القعقاع مع خالد في فتح الحيرة ، ولما فصل خالد إلى الأنبار في طريقه إلى دومة الجندل لم يجد بين أمرائه أحداً خيراً من القعقاع ، فخلّفه على الحيرة ولم يكد خالد يرتحل حتى ثار العراق وكذلك فعل أهل الحيرة ظانين أن الحظ واتاهم ، وسرعان ما راح القعقاع يدافع بني تغلب — الموتورين لمقتل عقة — وبعث بالأنباء إلى خالد ، فطار من دومة إلى الحيرة . حيث خلّف عليها عياضاً ، وأطلق القعقاع إلى الحصيد . وقد أمده من روحه بقوة على قوته ، ولم يثبت له العجم ، فقتل قائدهم ، وفر جيشهم . وفر الفالّة إلى الخنافس ، فتابعهم ، ففروا . وفي المصيخ : تواعد خالد والقعقاع وأبو ليلى بن فدكي حيث ملئوا الفضاء بجثث القتلى .

وعندما أمر أبو بكر خالداً بالتوجه إلى الشام ضن خالد بالقعقاع ،

---

(1) البلاذري / ٢٤٢ .

من ريحانة الداعي السميع   يؤرقني وأصحابي هجوع
سباها الصمّة الجشمىّ غصباً   كأن بياض غرتها صديع
وحالت دونها فرسان قيس   تكشف عن سواعدها الدروع
إذا لم تستطع شيئاً فدعه   وجاوزه إلى ما تستطيع(١)

ويذكر : أن ربيعة بن مكدوم ، أحد فرسان العرب المشهورين طعن عمراً ذات مرة فألقاه عن فرسه وأخذها ، ثم لقيه مرة أخرى فضربه ، فوقعت الضربة فى قربوس فرسه فقطعته ، حتى عض السيف بجسد الفرس ، فلم يكن من عمرو إلا أن سالمه وتركه وانصرف(٢) . فلا عجب إذا رأينا هذا الفارس المقدام يتحدث عن فراره ونجاته ، حذر الموت تعقلا منه ، وإيثاراً للسلام ، فيقول :

ولقد أجمع رجلىّ بها   حذر الموت وإنى لفرور
ولقد أعطفها كارهة   حين للنفس عن الموت هرير
كل ذلك منى خلق   ولكلّ أنا فى الروع جدير(٣)

ويفسر هذا التعقل الذى صار لعمرو تسامحه وميله للمسالمة ، وإيثاره للخير ، فقد قتل أخوه عبد الله فآثر أن تدفع إليه ديته ، ولكن أخته اعترضت وقالت فى ذلك شعراً تعيره فيه ، وتعرض به :

فإن أنتم لم تثأروا بأخيكم   فمشوا بآذان النعام المصلّم
ودع عنك عمراً إن عمراً مسالم   وهل بطن عمرو غير شبر لمطعم(٤)

وهذه المسالمة ليست من قبيل الجبن فى طبيعة عمرو بالذات ، وإنما هى نتيجة لرزانة حكيمة وتعقل ، وبسبب من هذا التعقل وذلك الذكاء حث عمرو ابن أخته قيس بن مكشوح المرادى على أن ينطلق معه ليريا أمر محمد ، حينما انتهى إليهما ، ولما عصاه قيس ركب هو فى وفد من زبيد ، وانطلقوا إلى المدينة بعد أن قال فى مخالفة قيس شعراً يلومه فيه :

---

(١) الأغانى / ١٤ / ص ٣١ .   (٢) نفس المرجع .
(٣) ابن قتيبة / جـ ١ / ص ٣٣٤ .   (٤) نفس المرجع .

وكان لقاؤه للنبي صلى الله عليه وسلم سنة تسع للهجرة أعلى رجح الأقوال(١) ، ثم ما نلبث حتى نسمع بارتداده ومتابعته للأسود العنسي ، وبقوله في هجاء فروة بن مسيك المرادى ، الذى كان على صدقات مراد :

وجـــدنا ملك فـــروة شر ملك ... حمار ساف منخـــره بقـــذر
وإنك لو رأيت أبا عمـــير ... ملأت يديك من غـــدر وختر(٢)

ونسمع بعد ذلك بأن أبا بكر رضى الله عنه عقـــد لواء للمهاجربن أمية المخزومى ، لقتال جنود العنسي ، ولقتال عمرو بن معديكرب ، وقيس بن مكشوح المرادى ، ورجالها . وبدافع من الطمع انضم للأسود العنسي ، فلما قتل لم تهدأ ثورة أنصاره ، بل جعل فرسانهم يجوبون البلاد فيما بين نجران وصنعاء ، لايأوون إلى أحد ، ولا يأوى إليهم أحد . وانتهز عمرو الفرصة ، فحاول اقتناص السلطان من طريق الثورة ، ما دام قد فشل فى ذلك بالانضمام إلى العنسي .

وعندما استعان فيروز بأبى بكر على قيس بن يغوث وعزز أبو بكر مكانته راح قيس وعمرو يعيثان فى البلاد فساداً . ولكنهما لم يلبثا أن تخاصما وتهاجيا . وأدركهما مجيء المهاجر ، وأيقن أهل اليمن جميعاً أن ثورتهم مقضى عليها لا محالة ، فانتهز عمرو الفرصة كدأبه ، وأراد أن ينجو بنفسه فهاجم حليفه ، الذى كان متفقاً معه على لقاء المهاجر ، وأخذه إليه أسيراً ، وعند ذلك قبض المهاجر عليهما معاً ، وبعث بهما إلى أبى بكر ليرى فيهما رأيه ، بعد أن أخذ سيفه المسمى بالصمصامة ، وأوثقه .

ونظر الصدّيق إلى عمرو وقال له : « أما تخزى أنك كل يوم مهزوم أو مأسور ، لو نصرت هذا الدين لرفعك الله ؟ » فقال عمرو « لاجـــرم لأفعلن ، ولن أعود » . فأخلى أبو بكر سبيله ورده إلى عشيرته ، ليعود بعد ذلك إلى المدينة حيث يسيره الخليفة إلى الشام(٣) .

---

(١) الاستيعاب / ص ٣٥١ .
(٢) الاغانى (الساسى) جـ ١٤ ص ٢٦ .
(٣) أسد الغابة / جـ ٤ / ص ١٣٣ .

وقد ميزت هذه الخلة الانتهازية فى طباع عمرو أخلاقه جميعها ، فإذا هو نفعى ونهّاز ، وترتب على ذلك رقة دينه التى لازمته طول حياته ، فلم يكن له من دينه ما ينهاه عن المحرمات فى الإسلام . ويروى عنه فى هذا الصدد أن صديقه عيينة بن حصن نزل عليه زائراً فى محلة زبيد ، بعد بناء الكوفة ، وكان عيينة نديم شرابه فى الجاهلية ، فوقف ينادى ببابه « أى أبا ثور .. اخرج إلينا » فخرج إليه مؤتزراً مرحباً بقوله : « أنعم صباحاً أبا مالك » ، فقال عيينة : « أو ليس قد أبدلنا الله تعالى بهذا .. السلام عليكم ؟ » فقال عمرو : « دعنا مما لا نعرف ، انزل فإن عندى كبشاً سياحاً .. » فنزل ، وعمد عمرو إلى الكبش فذبحه ، وألقاه فى قدر وطبخه ، حتى إذا نضج جاء بجفنة عظيمة ، فثرد فيها ، وأكفأ القدر عليها ، فقعدا فأكلاه .. ثم قال لضيفه : «أتشرب اللبن ،أم ما كنا نتنادم عليه فى الجاهلية ؟ » قال عيينة : « أو ليس قد حرمها الله عز وجل علينا فى الإسلام ؟ » قال عمرو : « أنت أكبر سناً أم أنا ؟ » قال : «أنت» ، قال : « فأنت أقدم إسلاماً أم أنا ؟ » قال : « أنت»، قال : « فإنى قد قرأت ما بين دفتى المصحف فما وجدت لها تحريماً ، إلا أنه قال : فهل أنتم منتهون ؟ فقلنا : لا ، فسكت وسكتنا ». فقال عيينة : « أنت أكبر سناً وأقدم إسلاماً » ، فجلسا يتناشدان ويشربان ، ويتذاكران أيام الجاهلية حتى أمسيا ، فلما أراد عيينة الانصراف قال عمرو : « لئن انصرف أبو مالك بغير عطاء إنها لوصمة عار» ، فأمر بناقة عظيمة له ، وبأربعة آلاف درهم ، ورفض عيينة المال ، وأخذ الناقة وانصرف عليها ينشد :

جـــزيت أبا ثور جزاء كرامة ... فنعم الفتى المـــزدار والمتضيف
قريت فأكرمت القرى وأفدتنا ... تحية علم لم تكن قط تعـــرف
وقلت : حلال أن ندير مـــدامة ... كلون انعقاق البرق والليل مسدف
وقـــدمت فيها حجـــة عربيـــة ... ترد إلى الإنصاف من ليس بنصف
وأنت لنا ــ والله ذى العرش ــ قدوة ... إذا صـــدنا عن شربها المتـــكلف

يقول أبو ثور : أحــل حرامهــا وقول أبي ثور أسد وأعرف[1]

وهكذا — يؤكد : أن الإسلام لم يتعمق روحه ، كما لم يعن هو بتعمقه ، فظل على الخمر والتنادم عليها بذكر أيام الجاهلية وما يعرف ويألف من كلماتها ، في الوقت الذي يرفض فيه تحية الإسلام التي لا يألفها . ثم هو ينتحل على الدين فتوى يحلل بها حراماً بغير تحرج متظرفاً ، وكأنما يخدع نفسه .

وربما تساءل عن السبب الذي من أجله أبقى عليه المهاجر فلم يقتله ، وهو أحد رءوس الفتنة في ثورة اليمن وارتداد أهله ، وعن السبب الذي من أجله أبقى عليه الصديق كذلك . فلا ريب في أن المهاجر خشي ما قد يترتب عليه قتله لعمرو ، وهو يعرف مكانته في قومه . ولا ريب أيضاً في أن أبا بكر رأى بثاقب رأيه ما يمكن أن يحققه عمرو إذا ما كان سيفاً من سيوف الإسلام ، وتجلى ذلك في معاتبته ، ودعوته الصريحة إلى نصرة دين الله .

وبرغم أن عمراً أبلى في نصرة هذا الدين بلاء رائعاً ، فقد ظل رقيق الدين طوال حياته ، لا يرجع عن اتباع هواه ، ولا يرتدع ، فظل يعاقر الخمر ، ولكن ذلك لم يكن ليسلبه قدره في الانتصار للدين ، حتى ليقول عنه سعد بن أبي وقاص — لما وقع في حد الخمر ذات مرة — : « لقد كان له يوم القادسية موطن عظيم الفناء شــديد النكاية للعدو » فقيل لسعد : فقيس بن مكشوح فقال : « هذا أبذل لنفسه من قيس »[2] .

ولم يكن عمرو شديد النكاية بالعدو لقوة إيمانه بالإسلام ، ولا لاعتقاده بوجوب الذب عنه ، واكتساب أرض جديدة له ، ولدعوة العالمين إليه . وإنما كان قوى الإيمان بنفسه فحسب ، مخلصاً لماضيه وحده ، ولبطولاته السابقة ، فهو حينما يبذل نفسه لا يبذلها من أجل العقيدة أو الفكرة ، وإنما من أجل مجده الشخصي ، ومن أجل اسمه الذي لا يزال يتضوأ بمغامراته في الجاهلية ، فإذا به يعتز بهذا الماضي اعتزازاً بعيداً ، يصور ذلك قوله :

وليس يعاب المرء من جبن يومه إذا عرفت عنه الشجاعة بالأمس

(1) الأغاني / جـ ١٤ / ص ٢٩ . (2) الأغاني / جـ ١٤ ص ٣١ .

فأكلوا ونهضوا ولم يتم عمرو ، فأقعده مع تكملة عشرة ، حتى تم له الأكل مع ثلاثين ، ثم قام فقال : « يا أمير المؤمنين إنه كانت لى مآكل فى الجاهلية منعنى منها الإسلام ، وقد صررت فى بطنى صرتين وتركت بينهما هواء فسده » ، قال عمر : « يا عمرو عليك حجارة من حجارة الحرة فسده به[1] » . وكانت له أخلاق البدوى فى شجاعته ونجدته ، مع غير قليل من الإسراف فى تصوير بطولته إلى درجة الكذب ، وتروى فى ذلك قصة طريفة وهى : أنه كان يذهب مع الأشراف إلى الكوفة يتناشدون الأشعار ، ويتذاكرون أيام الناس كعادتهم ، وقف مرة إلى جانب خالد بن الصقعب النهدى ، وأقبل عليه يحدثه ويقول : أغرت على بنى نهد ، فخرجوا إلى مسترعفين بخالد بن الصقعب وهو يتقدمهم ، فطعنته طعنة فوقع ، وضربته بالصمصامة حتى فاضت روحه ، فقال له الرجل : يا أبا ثور « أنا مقتولك الذى تحدث » ، فقال عمرو : « اللهم غفراً ، إنما أنت محدث فاستمع إنما نتحدث بمثل هذا وأشباهه لنرهب هذه المعدية ! »[2] .

وهكذا تحاول الروايات دائماً أن تصور عمراً كاذباً ، والحقيقة : أنه ليس كذلك على طول الخط ، وإنما كان يكذب فقط حينما يتفاخر ، فيغالى فى وصف شجاعته وجرأته . وقد سئل فى ذلك خلف الأحمر فقال : كان عمرو يكذب باللسان ويصدق بالفعال[3] .

ويبدو أنه بعد ما تخلص من لقب المائق تخلص من بعض غروره وتهوره أيضاً ، فقد بدأ بذلك حياة جديدة . ويروى : أن الصمة بن بكر أغار على قومه فاستاق إبلهم ، وسبى – فيمن سبى – أخت عمرو . وكانت تدعى ريحانه ، فتبعه عمرو ، ومعه أخوه عبد الله ، وفى الطريق رجع عبد الله وتبعه عمرو وحده يناشده أن يخلى عن أخته فلم يستجب له ، ولما يئس رجع وهى تناديه بأعلى صوتها يا عمرو ، وهو يقول وصوتها يرن فى أذنه

---

(1) الاغانى / جـ ١٤ / ص ٣١ . (2) نفس المرجع .
(3) نفس المرجع .

فى ذلك : « لو سرت بظعينة وحدى على مياه معد كلها ما خفت أن أغلب عليها ، مالم يلقنى حرّاها أو عبداها ؛ فأما الحرّان : فعامر بن الطفيل وعتيبة بن الحارث بن شهاب ، وأما العبدان : فأسود بنى عبس يعنى عنتره والسليك بن السلكة وكلهم قد لقيت فعامر سريع الطعن على الصوت ، وعتيبة أول الخيل إذا غارت ، وآخرها إذا آبت ، وعنترة : قليل الكبوة شديد الحلب ، والسليك بعيد الغارة[1] . »

وقد تحدث عنه فرسان العرب حديثاً شبيهاً بحديثه عنهم ، فطالما سئل ماذا تقول فى العباس بن مرداس ؟ قال : أقول فيه ما قال فىّ :

إذا مات عمرو قلت للخيل أوطئوا زبيداً فقد أودى بنجدتها عمرو[2]

وقد هيأت له خلائقـــه الجسمانية إلى جانب ما يتمتع به من شجاعة وجرأة وحب للمغامرة أن يكون الفارس الذى لايفضـــل عليه فارس من العرب[3] ، ذلك أنه كان ذا قوة خارقة وضعته بين الأبطال الأسطوريين، فرويت عنه فى ذلك روايات طريفة ، تدل على شدته وضخامته ونهمه ، من مثل ما يروى : من أن رجلا جاءه وهو واقف على فرس له بالكناسة بعد أن جاوز المـــائة فقال الرجل فى نفسه : لأنظرن ما بقى من قوة أبى ثور ، وأدخل يده بين ساقيه وبين السرج ؛ وفطن عمرو فضمهما عليه وحرك فرسه ، فجعل الرجل يعدو مع الفرس ، وهو لا يقدر أن ينتزع يده ، حتى إذا بلغ منه ، قال عمرو : يا ابن أخى ، مالك ؟ قال : يدى تحت ساقك . فخلى عنه وقال له : ياابن أخى : إن فى عمرك لبقية[4] .

وكان عمر بن الخطاب إذا رآه يقول : الحمد لله الذى خلقنا وخلق عمراً ، تعجباً من عظم خلقه(٥) . وتروى له حادثة مع عمر تدل على أن نهمه لم يفارقه فى شيخوخته ، إذ انطلق مرة إلى المدينة وجاء عمر فى مسألة ، فإذا به يغدى الناس ، وقد جفن لعشرة عشرة ، فأقعده عمر مع عشرة

---

(١) الأغانى / جـ ١٤ ص ٣٧ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) الاصابة / جـ ٥ / ص ٢ .
(٤) الأغانى / جـ ١٤ ص ٣٠ .
(٥) الأغانى / جـ ١٤ صـ ٢٧ .

إلى الشراب والنهم ، فلم يتوسم فيه أبوه خيراً ، وأطلق عليه : لقب المائق ، أي الأحمق الذى لا رجاء فيه ، فكان أن عرف بمائق بنى زبيد (١) .

وتعرض عمرو فى شبابه لتجربة صعبة ، صقلته وعجمت عوده ، وحققت أخيراً ذاته ، فرسخت مكانته فى قومه، وهى تجربة شبيهة بالتجربة التى صهر خلالها أسود بنى عبس وامرؤ القيس .

فقد حدث أن شنت قبيلة خثعم غارة على بنى زبيد ، فأخذ أبوه يجمع قومه استعداداً لصدها ، وجاء عمرو إلى أخته فقال : « أشبعينى فإن غداً الكتيبة » ، وجاء أبوه فأخبرته ابنته بما كان من عمرو ، فكأنما استكثر عليه أبوه اهتمامه بالكتيبة فى غده ، واستعداده لها ، فقال : هذا المائق يقول ذلك سليه ما يشبعه فقال : فرق من ذرة ، وعنز رباعية ، وكان الفرق يومئذ ثلاثة آصاع . فصنع له ذلك ، فأتى عليه جميعه ثم نام .

وفى الصباح أتتهم خثعم مغيرة ، واشتد القتال بين القبيلتين ، واستيقظ عمرو من نومه فنظر فرأى لواء أبيه مرفوعاً ، فركن إلى النوم ، وبعد فترة رفع رأسه ثانية فإذا بلواء أبيه قد نزل ، فهم مندفعاً يريد المعركه . وفى الطريق لقى أباه منهزماً ، فقال له : انزل عن فرسك فاليوم ظلم ، فقال له أبوه : إليك يا مائق ، ولكن جمعاً من العشيرة نصحوا معد يكرب بأن يخلى بينه وبين طلبته ، فإن قتل كفى مؤنته ، وإذ ظهر كان شرفاً له ، فألقى أبوه إليه سلاحه ، فركب وظل يرمى خثعماً بنفسه حتى خرج من بين أظهرهم ثم كر عليهم ، وفعل ذلك مراراً ، فحملت زبيد ، وهزمت خثعم ، واستحق عمرو يومئذ أن يلقب بفارس زبيد (٢) . ويصبح عمرو وكأنما اشترى نفسه وكرامته بهذه التجربة التى غيرت وضعه فى قومه ، وجعلتـــه فارسهم بلا منازع .

وأخذت أخباره تذيع ، ووقائعه ومغامراته تترى بعد ذلك ، حتى أصبح معلوماً أنه لا يخشى أحداً من أبطال العرب وفرسانهم ، وكان يقول

---

(١) الأغانى جـ ١٤ ص ٢٤ .　　(٢) الأغانى جـ ١٤ ص ٢٤ ، ٢٥ .

الفصل الثانى

عمرو بن معديكرب الزبيدى

١ ـ حياته وإسلامه وخروجه للجهاد

هو فارس زبيد ، وشاعرها قبل الإسلام وبعده . ويكنى : أبا ثور ، واسمه : عمرو بن معديكرب الزبيدى ، وينتهى نسبه إلى زبيد . فهو قحطانى الأصل ، ويدعوه أبو عبيدة : فارس اليمن ، ويقدمه على زيد الخيل ، فى الشدة والبأس[١] . وهو ابن خالة الزبرقان بن بدر ، وخال قيس بن مكشوح المرادى ، الشاعر الفارس[٢] .

ويبدو أن أباه كان سيداً وجيهاً فى قومه ، ومن ذوى الرياسة والزعامة فيهم ، وكان معروفاً بالنجدة والفروسية ، وأمه امرأة من جرم ، من قضاعة ، من بنى الحارث بن كعب ، وكانت قد ارتحلت مع قومها إلى بنى زبيد ، هرباً من ثأر لبنى الحارث[٣] .

ونشأ عمرو فى حجرها نشأة لاهية عابثة ، واشتهر فى صباه بالانصراف

(١) الأغانى (الساسى) جـ ١٤ ص ٢٤ .

(٢) المرجع السابق وابن قتيبة جـ ١ ص ٣٣٢ .

(٣) الخزانة جـ ٣ ص ٤٢٢ .

عظام ، لم نكن نتوقع إطلاقاً أن يعبروا عن أنفسهم هذا التعبير الفنى ، من مثل خالد بن الوليد ، وعياض بن غنم ، والمثنى بن حارثة ، وجرير بن عبد الله ، وطليحة بن خويلد ، والربيل بن عمرو ، وسعد بن أبي وقاص ، والنعمان بن مقرن وأخيه نعيم ، والأحنف بن قيس ، وهاشم بن عتبة ، وزهرة بن حوية ، والحكم بن عمرو التغلبي ، وسلمى بن القين ، والبراء بن عازب ، وعبد الله بن عبد الله بن عتبان ، وأبو ليلى بن فدكى ، وغيرهم ، وهم جميعاً قواد ، أو أمراء للجند ، أو أصحاب أمداد وألوية . فما أن يتوجه أحدهم على رأس لواء لفتح بلدة أو كورة حتى تجيش بنفسه مشاعر الفداء والتضحية ، وما أن تسقط فى يده حتى يستشعر مشاعر النصر والغبطة ، فنطلق الشعر على لسانه فى تعبير تلقائى بسيط ، ولكنه يكشف عن ذاته وما يعتلج فيها من أحاسيس .

وهكذا يخيل للدارس أن الفاتحين جميعاً قد استحالوا شعراء ، حتى لم يبق أحد منهم لم يسهم فى تصوير الفتوح الإسلامية . وسوف نرى نموذجين لشاعرين من شعراء الفتح ، أحدهما شاعر قديم والآخر شاعر مغمور ، خلقت منه الفتوح شاعراً ناضجاً ، حتى ليستحق أن يلقب بشاعر الفتح الإسلامى .

وواضح أن هذه الأبيات لجندى من جنود القادسية ، يفضل فيها جرير بن عبد الله البجلى على سعد بن أبى وقاص ، ويشيد بالمثنى ، وكأنه يزرى بسعد. وتروى هذه الأبيات لبشر بن ربيعة الخثعمى ، صاحب جبانة بشر بالكوفة ، وصديق عمرو بن معديكرب (١) .

ولكن صاحب الإصابة ينسب بعض هذه الأبيات إلى آخر يدعى : بشر بن ربيعة بن أبى رُهم الجهمى (٢) ، ويروى البيت الأول منها لشاعر يدعى : بشر بن ربيعة بن منارة الخثعمى (٣) ، على حين ينسبها صاحب فتوح البلدان إلى بشر بن ربيعة الخثعمى ، مضيفاً إليها عدة أبيات ، فى مطلعها تقول :

ألمّ خيال من أميمة موهناً ... وقد جعلت أولى النجوم تغور
ونحن بصحراء العذيب ودارها ... حجازية إن المحل شطير
ولا غرو إلا جوبها البيد فى الدجى ... ومن دوننا رعن أشم وقور (٤)

ويضيف إليها ياقوت — بعد البيتين الأولين هذا البيت :

فزارت غريباً نازحاً جل ماله ... جواد ومفتوق الغرار طرير (٥)

كذلك يلاحظ الدارس : أن جل هؤلاء الشعراء من النزاريين ، وليس بينهم إلا فيما ندر عرب من أهل اليمن ، وأنهم جند العراق وما وراء العراق فى الغالب الأعم ، وهذا أمر متوقع ، فنحن نعرف للنزاريين طبعاً شعرياً واستعداداً مهيئاً للشعر لا يتيسر لعرب الجنوب ، مما جعل الشعر يتدفع على ألسنتهم كاستجابة تلقائية لما يحسون ويشعرون .

وهناك شيء يلفت الدارس لفتاً ، فإن بعض هؤلاء الذين انطلق الشعر على ألسنتهم ولم يكن لهم به عهد أو كلف أمراء مشهورون ، وقواد

---

(١) نفس المرجع .
(٢) نفس المرجع .
(٣) الاصابة / جـ ١ / ١٧٧ .
(٤) البلاذرى ص ٢٦٢ .
(٥) ياقوت / جـ ٤ ص ٢ .

من هؤلاء العادين من الجند، كقال أحد المسلمين ، أو قال أحدهم ، أو ارتجز راجز ، وهكذا .

ولحسن الحظ حفظت لنا الروايات أسماء بعض هؤلاء ، من مثل : أبي أحيحة القرشي ، وبشر بن فريخ الثعلبي ، وعصام بن المقشعر ، وبشر ابن ربيعة ، والأشعث بن عبد الحجر بن سراقة ، وجندب بن عمار ، وعلباء ابن جحش العجلي ، والأعرف بن العلم العقيلي ، وغيرهم كثيرون . ولعل في أبناء الخنساء الأربعة ، وما جاش على ألسنتهم من رجز دافىء في القادسية خير مثال لهؤلاء . وكذلك هؤلاء المحاربون الجرحى الذين اجتمعوا حول نخلة القادسية يناجونها وقد رقت مشاعرهم وهفت نفوسهم إلى أهليهم وديارهم شعراً بسيطاً معبراً ، وإن ضاعت أسماء بعضهم ، فيروى البيت الأول لبجير (كذا) ، والآخر لرجل من تميم ، والثالث لغيلان ، أخي بني ضبة ، وهكذا .

وقد أدت ظروف القتال وتشابه ظروفهم وكثرتهم إلى انطماس شخصياتهم فيما يروى لهم من شعر ، واختلاط نسبة المقطعات بينهم :

فمثلاً يروي صاحب الأغاني مقطوعة رائعة ، تفخر ببلاء صاحبها يوم القادسية على هذا النمط :

أنخت بباب القادسيـــة ناقتي	وسعد بن وقاص عليّ أميـــر
وسعد أمير شره دون خـــيره	وخير أمير بالعراق جـــرير
وعند أمير المؤمنين نوافـــل	وعنـــد المثنى فضـــة وحرير
تذكر هداك الله وقـــع سيوفنا	بباب قديس ، والمكرّ عسير
عشية ودّ القوم لو أن بعضهم	يعار جناحيْ طائر فيطـــير
إذا ما فرغنا من قراع كتيبة	دلفنا لأخرى كالجبال تســـير
ترى القوم فيها أجمعين كأنهم	جمال بأحمـــال لهن زفـــير (١)

(١) أغاني (ساسي) جـ ١٤ ص ٣٥ .

وأن يحافظ على ذواتهم من الانطماس والضياع ، هذه المحافظة التي توفرت لشخصيات الشعراء القدامى .

وبرغم هذا فإن دور هؤلاء الشعراء فى شعر الفتوح هو الدور الرئيسى فكثرة الشعر الذى يروى فى الفتوح ينسب إليهم . وقد عبروا عن ذواتهم ، ومشاعرهم ، وأحاسيسهم فى المواقف المختلفة التى مرت بهم تعبيراً بسيطاً ، أصيلاً ، حاراً وصادقاً ، ويلاحظ الدارس : أن شعرهم مقطعات صغيرة متماسكة ، تعبر عن موقف واحد ، شأن شعر الفتوح كله ، وتعتبر برغم قصرها هذا أكثر كمالاً وتماسكاً من غيرها من شعر الفتوح .

والقسم الثانى من هؤلاء الشعراء يشكلون ظاهرة مهمة جديرة بإنعام النظر ، وهم أولئك الشعراء الذين لم يكونوا فى الأصل يرتبطون بالشعر فى قليل أو كثير ، ذلك أنهم لم يكونوا ينظمون الشعر أو يعنون به ولكنهم حملوا السلاح وخاضوا المعارك ، فإذا بنفوسهم تفيض بالبيت أو بالبيتين أو بالمقطوعة القصيرة تسرية وتنفيساً وحثاً لنفوسهم وتحميساً . وهؤلاء يمثلون السواد الأعظم من الفاتحين ، وشعرهم ليس إلا استجابة حرة وطليقة لتجاربهم وتأثرهم بمواقفهم النفسية الحافلة بالمشاعر والعواطف . ولذا يغلب عليه الرجز العفوى الحار ، الذى يصدر عنهم وهم يستقبلون خصومهم ، وكأنهم يدقون طبول الحرب مشجعين لأنفسهم ، أو وهم يتنادون ، كل ينادى قبيلته أو جماعته .

وأكثر هؤلاء الفاتحين المعبرين عن أنفسهم من الجند العاديين ، الذين لم يكن متوقعاً منهم أن يعبروا بالشعر عن أنفسهم ، ولكنهم أمام روعة الأحداث ، والتهاب المشاعر ، وجيشان العاطفة لم يملكوا أن يصمتوا ، ففاض الشعر على ألسنتهم صادراً من وجدانهم فى عفوية حارة وصادقة ، وقد جنت على هؤلاء الشعراء وعلى شعرهم شخصيتهم المنكورة . فاختلط بينهم شعر كثير . ولم ينسب إلى أصحابه قدر كبير منه ، فإذا نحن أمام عبارات تتردد لا تحمل دلالة على الشاعر ، وإن كانت تجعلنا نشعر أنه شعر شاعر

٣ ـ شعراء أنطقتهم الفتوح

أذكت الفتوح الإسلامية جذوة الشعر العربية ، التي خبت حيناً ، وقد وجدت وقوداً غذاها فذكت ، وانطلق الشعر على ألسنة المحجمين من الشعراء المتحرجين ، فقد فتحت لهم الفتوح أبواباً كثيراً يدلفون خلالهـا من قواقعهم ، إلى حيث يمارسون التعبير عن ذواتهم ، في ظلال فكرة الجهاد التي اجتذبهم لألاؤها فاندفعوا إلى الميادين ، حيث وضعوا فروسيتهم وشاعريتهم في خدمة الفكرة الإسلامية .

ولم يقتصر الأمر على هؤلاء ، فإن شعراء آخرين بدأوا يظهرون على مسرح الشعر ، وإن كانت أدوارهم لا تسمو إلى أدوار الشعراء القدامى مع أن شعرهم أكثر فاعلية في أداء مهمة الشعر في المعركة ، ويدهش الباحث أمام كثرة الشعراء من هذا القبيل ، حتى ليخيل إليه أن الفاتحين جميعاً قد استحالوا شعراء في الفتوح ، خاصة في الميدان الشرقي .

وهؤلاء الشعراء الذين أنطقتهم الفتوح نقسمون في تصورنا قسمين ؛ أولهما : طائفة من الشعراء المغمورين ، الذين لم يذع لهم شعر فيما قبـل اشتراكهم في المعارك ، ولم يذع ذكرهم أيضاً قبل ذلك . وقد وجد هذا القبيل فرصته في الفتوح ، إذ سارت بشعره الركبان ، وتحل اسمه في ذاكرة العرب . وظهرت أسماء جديدة طالعتنا في كتب التاريخ والمغازي لا بريق لها ولا ألفة لدينا ، كالأسود بن قطبة التميمي ، والقعقاع بن عمرو ، وأخيه عاصم ، وحسان بن المنذر بن ضرار الضبي ، والأعور العبدي الشني ، ونافع بن الأسود بن قطبة التيمي ، وضرار بن الخطاب ، وعمرو بن مالك الزهري ، وكثير بن الغريزة النهشلي ، وغيرهم .

كان هؤلاء شعراء قليلي الحظ من الشهرة والذيوع ، ولم يكن لهم في ماضيهم الفني رصيد يمكن لشخصياتهم الأدبية أن تبقى في الميدان نامية الجوانب

والذى نراه أن سعداً قد حبس الشاعر فى حقيقة الأمر لسبب خفى وإن كان احتج بشعره فى الخمر ليدينه به . فأما هذا السبب فهو شغب أبى محجن مع غيره من وجوه القوم قبل بدء القتال فى القادسية ، ونسبتهم سعداً إلى الجبن ، عندما قعد عن قيادة المعركة بسبب ما ألم به من المرض . ومما يؤكد هذا : اقتران حبس الشاعر بقصته مع سلمى زوجة سعد وأرملة المثنى ، فى نفس الليلة التى نسبت فيها سلمى هى الأخرى قعود زوجها إلى الجبن ، وما كان من ندائها « وامثيناه ولا مثنى للخيل اليوم » فلطمها سعد وأغضبها ، فقالت : أجبناً وغيرة ؟ وباتت مغاضبة له ليلة أرماث وفيها أطلقت أبا محجن ثم قصت خبره معها على سعد بعد أن صالحها .[1] والطبرى يصرح فى روايه له بأن سعداً حبس أبا محجن وسواه لأنهم اختلفوا عليه وشغبوا .[2]

أما ما يذكر عن حدّه فى القادسية وشعره الذى يصر فيه على الخمر فقد رأينا أنه نتيجة لما أحاط بقصة أبى محجن من التأثيرات الشعبية ، والتزيد فى أخباره كما سنرى فيما بعد .

ولنا أن نلاحظ على شعر هؤلاء الشعراء القدامى فى الفتوح برغم قلة ما وصل إلينا منه قلة التأثيرات الإسلامية ، كما يتضح فيما عرضنا له من شعرهم ، وما سنعرض له لدى دراستنا لنموذج منهم وهو : عمرو بن معديكرب الزبيدى . على حين نجد بعض الشعراء القدامى قد امتلأ شعرهم بهذه التأثيرات مثل النابغة الجعدى ، وعروة بن زيد الخيل ، وقد ادخرنا الحديث عنها إلى حين ، عندما نعرض للطوابع الإسلامية فى شعر الفتوح .

وفضلا عن هؤلاء وأولئك نجد بعض الشعراء القدامى الذين اشتركوا فى الفتح لم يخلفوا لنا شيئاً من شعرهم فى هذا السبيل ، مثل الحطيئة والشماخ .

---

(١) الأغانى / جـ ٢١ / ص ١٤٠ .

(٢) الطبرى جـ ٥ / ص ٢٢٨٨ ، ابن سلام ٢٢٦ .

وتروى فى الخزانة أبيات لم ترد فى ديوانه عن بلائه فى القتال ، تقول :

لما رأينا خيلا محجلة ... وقوم بغى فى جحفل لجب
طرنا إليهم بكل سلهبة ... وكل صاف - الأديم كالذهب
وكل عراصية مثقفة ... فيها سنان كشعلة اللهب
وكل عضب فى متنة أثر ... ومشرفى كالملح ذى شطب
وكل فضفاضة مضاعفة ... من نسج داود غير مؤتشب
لما التقينا مات الظلام ودا ... ر الموت دور الرحى على القطب
فكلنا يستكيض صاحبه ... عن نفسه ، والنفوس فى كرب
إن حملوا لم نرم مواضعنا ... وإن حملنا جثوا على الركب [1]

وهى أبيات فريدة فى وصف أسلحة المسلمين ، وتصوير بلائهم ، لا نجد لها شبيها فى كل ما لدينا من شعر الفتوح .

كما تروى له أبيات قالها فى محبسه لزوج سعد، عندما سألته : فيم حبسه سعد فأجاب والله ما حبسنى فى حرام أكلته ولا شربته ، ولكنى كنت صاحب شراب فى الجاهلية ، وأنا امرؤشاعر يدب الشعر على لسانى . فينفثه أحيانا ، ولأنى قلت :

إذا مت فادفنى إلى أصل كرمة ... تروى عظامى بعد موتى عروقها
ولا تدفننى بالفلاة فإننى ... أخاف إذا مامت ألا أذوقها
ليروى بخمر الحص لحمى فإننى ... أسير لها من بعد ما قد أسوقها [2]

وهذه رواية نميل إليها ، وإن كنا نلاحظ عليها شيئاً ، فغير معقول أن يعاقر أبو محجن الخمر فى ميدان القتال ، كما ذهبت إلى ذلك بعض الروايات ، كما أنه لا يمكن أن نتصور أن يحبس سعد شاعراً لأبيات قالها ، وإن كنا نعتقد أن أبا محجن صادق فيما قاله لزوج سعد ، من ممارسته للخمر فى الجاهلية وإقلاعه عنها فيما بعد ذلك .

---

(١) الخزانة / حـ ١ / ٥٥٦ .
(٢) الأغانى جـ ٢١ ص ١٤٠ .

وتغزل فيها فاستعدى زوجها عليه الخليفة ، فنفاه ، وهرب من حارسه ليحق بسعد[1] .

ولكننا لا نقبل هذه الروايات جميعاً ، في خروجه ، وكيفية التحاقه بسعد ؛ فمن المؤكد أنه شهد معارك قبل القادسية ، وروى له فيها شعر ، كالذي أوردناه في يوم الجسر ، وكان قد شهد هذه الواقعة مع بني أبيه من ثقيف ، في جند أبي عبيد الثقفي[2] .

ومهما تختلف الروايات في أمر خروجه للغزو فإنها تتفق في مجموعها على رواية حبسه بالقادسية ، واستعطافه زوج سعد أن تطلقه ، حتى يشترك في القتال بشعر يكشف عن ولوعه بالحرب وبلائه فيها ؛ كما تتفق جميعها على أفاعيله العجيبة يوم أرماث . حتى ليدخل عمله في إطار الأسطورة .

ويروى أنه لما عاد من القتال ليضع رجليه في القيد كما تعهد لزوج سعد قابلته امرأة في الطريق فظنته لعجلته فاراً منهزماً ، فأنشأت تقول : —

من فارس كره الطعان يعيرني رمحاً إذا نزلوا بمرج الصفر

فأجابها أبو محجن :

إن الكرام على الجياد مبيتهم فدعي الرماح لأهلها وتعطري[3]

ولما عاد ورجع إلى محبسه أنشأ يقول :

لقـــد علمت ثقيف غير فخر بأنا نحـــن أكـــرمهم سيوفـــاً
وأكثرهم دروعاً ســـــابغات وأصبرهم إذا كرهوا الوقـــوفا
وأنا رفـــدهم في كل يـــوم فإن جحـــدوا فسل بهم عريفاً
وليلة قادس لم يشعروا بي ولم أكره لمخرجي الزحـــوفا
فإن أحبس فقـــد عرفوا بـــلائي وأن أطلق أجرعهم حتوفاً[4]

(١) الأغاني / جـ ١٣٨/٢١ .

(٢) الأغاني / ٢١ / ١٤١ والخزانة / جـ ٣ ٥٥٠ وابن قتيبة / جـ ١ / ص ٢٨٧ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) الأغاني / جـ ٢١ ص ١٤٠ .

المخوفة ، وإعانتهم لذى الغرم ، ومنعهم الجار ، ورفعهم لذكرهم فى كل محفل ، وبنذخم عن سعة ، ويشيد بخطباء قومه الفصحاء ، وسعة حماهم ، وقيامهم بحمولة المقل .

وهكذ تبدو واضحة جاهلية هذه القصيدة التى تذخر بالمدلولات الجاهلية ، من الغزل الحسى ، إلى وصف الفرس ، والإشادة بجسارة الشاعر إلى سرد مغامراته الليلية فى علب الليل ، إلى الفخر القبلى الصرف بالكرم والشرف والسؤدد ، بينما تبدو الأبيات التى أفردتها بعض الروايات بين هذه المدلولات الجاهلية — غريبة وقلقة فى موطنها ، مما يؤكد ما ذهبنا إليه ، من أن هذه القصيدة قد صنعت هى الأخرى فى عهدين مختلفين ، ومزجتهما الروايات بهذه الصورة ، وخلافاً لهذه الأبيات التى تتحدث عن معركة الفيول ، والتى نرجح أنها قيلت فى القادسية ، (1) لا نعرف لربيعة بن مقروم الضبى شعرا فى الفتوح .

ومن الشعراء القدامى الذين شهدوا الفتوح : أبو محجن الثقفى ، ذلك الفارس المعدود فى أولى البأس والنجدة ، (2) وصاحب البلاء يوم أرماث بالقادسية . وتذكر الروايات خلافاً كبيراً فى خروجه إلى الغزو ، فيذهب بعضها إلى أنه حُدَّ فى الخمر مراراً ، ولم ينته فنفاه عمر بن الخطاب إلى جزيرة فى البحر ، وأرسل معه حرساً تمكن من الخلاص منه ، ثم التحق بسعد بن أبى وقاص فى القادسية . (3) بينما تذهب بعض الروايات إلى أنه خرج غازياً مع سعد لحرب الأعاجم ، فكان يؤتى به شارباً ، فحبسه سعد فى القادسية(4) ، كما تروى أخبار أخرى فى سبب نفيه مختلفة عن هذه الأسباب ، التى أوردنا من أنه هوى امرأة يقال لها «شموس» واحتال فى النظر إليها

(1) الحيوان / جـ 1 / ص ٣٤٧ .
(2) أخباره وشعره فى الأغانى (ساسى) جـ ١٣٧/٢١ ، ابن قتيبة / جـ ١ ص ٣٨٧ ، الخزانة / جـ ٣ / ٥٥٠ والاصابة / جـ ٧ / ١٧٠ .
(3) الأغانى / جـ ٢١ ص ١٣٨ .
(4) الأغانى جـ ٢١ / ١٤٠ .

متسربلى حلــق الحديد كأنهم   جرب مقارفة عنيــة مهمل (١)

وهذه الأبيات هى التى يمكن أن تكون قد قيلت فى الفتوح ، ويبدو من إفرادها برواية مختلفه عن القصيدة لاختلاف مدلولاتها عن بقية القصيدة أن القصيدة جاهلية فيما عدا هذه الأبيات ، فهو ينزلق بعد ذلك إلى الحديث عن مغامراته اللاهية من أجل الشراب والعبث ، فهو عتيق فى هذا اللهو ، يفتن صديقه الزميت حتى ليجعله يضرب بعذل العذال عرض الحائط فيتبعه ، ويعصاهم ويطيع لذته . وصديقه شريف الحسب ، يذهب إليه الشاعر فينبهه فى الصباح أو قبل أن ينبلج الصباح ليأتيا حانوتاً من حوانيت الخمارين ، حيث يصطبحان فيه معتقة لم يقتل عنفوانها الماء ، ولا يزالان يسقطان على هذه الحوانيت حتى تفرغ حاجتها إلى اللذة . وعندما ينتشى الشاعر تهاجمه الذكريات فيتحسر على سنوات عمره المائة ، التى أضاعها سنة إثر سنة ، والدهر يبلى كل جدة مبذل . فيقول :ـ

وأخى محافظة عصى عذالــه   وأطاع لذته معم مخــــــول
هش يراح إلى الندى نبهته   والصبح ساطع لونه لم ينجل
فأتيت حانوتــاً به فصبحتــه   من عاتق بمزاجها لم تقتــل
صهباء إلياسية أغلى بهـــا   يسر كريم الخيم غير مبخل
ومعرس عرض الرداء عرسته   من بعد آخر مثله فى المنزل
ولقد أصبت من المعيشة لينها   وأصابنى منه الزمان بكلكل
فإذا وذاك كأنه ما لم يكن   إلا تذكرة لمن لم يجهــل
ولقد أتت مائة على أعدها   [حولا فحولا إن بلاها مبتلى
فإذا الشباب كمبذل أنضيتــه   والدهر يبلى كل جدة مبذل(٢)

ويخوض بعد ذلك فى فخر قبلى صرف بكرم قومه وقراهم الضيف ، وتأدية المعروف فى غير تنحل ، وشجاعتهم وحلولهم الثغور

(١) الحيــوان / جـ ٧ / ص ٢٦٣ ، المفضليات / ص ٢٦٨ .
(٢) الخزانة / جـ ٢ / ٥٦٦ .

فى السن ، وغزا الشيب لمته ، وانحنى ظهره ، وأضحى يدب دبيباً كمن يخاتل صيداً عن نفسه ، فيتذكر ما كان يصبى الغوانى من صباه وميعته . فيقول : —

بل إن ترى شمطاء تفرع لمتى وحنا قناتى وارتقى فى مسحل
ودلفت من كبر كأنى خاتلٌ قنصاً ومن يدبب لصيد يختل
فلقد أرى حسن القناة قويمها كالنصل أخلصه جلاء الصيقل
أزمان إذ أنا والجديد إلى بلى تصبى الغوانى ميعتى وتنقلى (١)

ويدلف من ثم إلى الفخر بمهارته وبراعته فى القتال ، وشهوده الحرب ، وطراد الخيل بفرس سليم أوظفة القوائم هيكل ، سباق لأوابد الجياد ، يجرى منه الحميم ، ويهوى بصاحبه هوى الصقر ، وينتقل إلى الحديث عن جسارته هو ، فهو مقدام ، لا يكاد يسمع دعوة للنزال حتى يكون أول نازل ، وهو جمّاع للمال ، ودخّال لأبنيه الملوك ، وهو لا يغالى فى هذا القول ، فشر ما قاله المرء مالم يفعله ، وهو أريب بارع يجيد خدع النزال ، فقد يكون خصمه حنقاً ، يغلى صدره بعداوته ، فاذا به يحاوره ويداوره حتى يتبين منه غرة فيكويه على نواظره . يقول :—

ودعوا نزال فكنت أول نازل وعلام أركبه إذا لم أنزل
ولقد جمعت المال من جمع امرىء ورفعت نفسى عن لئيم المأكل
ودخلت أبنيه الملوك عليهم ولشر قول المرء ما لم يفعل
ولرب ذى حنق علىّ كأنما تغلى عداوة صدره كالمرجل
أرجيته عنى فأبصر قصده وكويته فوق النواظر من عل(٢)

وتروى هذه الأبيات الأخيرة مضافاً إليها أبيات أخرى فى بعض الروايات . تقول :

ودخلت أبنيه الملوك عليهم ولشر قول المرء ما لم يفعل
وشهدت معركة الفيول وحولها أبناء فارس بيضها كالاعبل

(١) الخزانه جـ ٣ / ص ٥٦٥ ، ٥٦٦ ، الاغانى جـ ١٩ / ٩٣ .
(٢) المرجع نفسه

وعدا تلك الأبيات التى تتحدث عن خولة ورحيلها إلى الكوفة ، وحرب الفرس ، وابتغاء فواضل الله لا نعرف لعبدة شعراً فى الفتح .

واشترك فى الفتوح من الشعراء القدامى، ربيعة بن مقروم الضبى(١)، من شعراء مضر المعدودين ، وهو مخضرم ، أدرك الجاهلية والإسلام، وعمر طويلا فى الإسلام . (٢) وتذكر الروايات أنه شهد القادسية وجلولاء(٣) ، كما تذكر أنه كان سجيناً لدى كسرى المشقر قبل الإسلام . (٤) كما يذكر ابن حجر صاحب الإصابة أن له شعرا فى القادسية (٥) .

وكل مايروى له من شعر فى الفتوح : لاميته المطولة ، التى يتحدث فيها عن معركة الفيول . ونرانا مضطرين إلى أن نقارن بين هذه القصيدة ولامية عبدة بن الطبيب التى أشرنا إليها . ذلك أن ظروفهما تكاد تكون واحدة ، وهى تسير على هذا النمط :

شماء واضحة العوارض طفـــلة	كالبدر من خلل السحاب المجتلى
وكأنما ريح القرنفـــل نشرهـــا	أو حنوة خلطت خزامى حـــومل
وكأن فاها بعد ما طرق الـــكرى	كأس تصفق بالرحيق السلسل
لو أنها عرضت لأشمط راهب	فى رأس مشرفة الذرا متبتـــل
جأر ساعات النيـــام لربـــه	حتى تخدد خمـــه مستعمـــل
لصبا لبهجتها وحسن حديثهـــا	ولهم من ناموسه يتنزل (٦)

وبعد هذه المقدمة الغزلية — يبدو الشاعر وكأن غزله ساقه إلى تذكر ما كان فى صباه ، فيقارن بين ماضيه وحاضره، وتصيبه الحسرة إذ طعن

(١) أخباره وشعره فى الأغانى (ساسى) ج ٩٠/١٩ والخزانة جـ ٣ ص ٥٦٤ والشعر والشعراء ٢٧٩/١ والاصـــابة جـ ٢٢٠/٢ والمفضليات ٢٦٨ و ٣٥٥ والحيوان جـ ١ ص ٣٤٧ ، جـ ٤٢٧/٦ ، جـ ٢٦٣/٧ .

(٢) الأغانى (ساسى) جـ ١٩ ص ٩٠ .

(٣) ابن قتيبة جـ٢٧٩/١ والخزانة جـ ٣/ص ٥٦٤ .

(٤) الأغانى جـ ٩٠/١٩ والاصابة / جـ ٢ / ص ٢٢٠ .

(٥) الاصابة / جـ ٢ / ص ٢٢٠

(٦) الخزانة / جـ ٣ / ص ٥٦٥ ، ٥٦٦ ، الاغانى ساس جـ ٩٠/١٩ .

هل أمام الدارس إلا أن يقف محيراً أمام هذه القصيدة الرائعة ؟

وعلام الحيرة ؟ إن تلك الأبيات التى أشرنا اليها قد قيلت فى الفتح ، وما عداها لا يمكن أن يكون من شعر الفتح ، أو من الشعر الإسلامى ألبتة والقصيدة إذن جزءان واضحان ومختلفان فى مدلولها وصياغتهما، أحدهما إسلامى، والآخر جاهلى . وليس ببعيد أن يكون أحد الرواة قد مزجهما فى قصيدة واحدة على هذا الشكل الذى نراها عليه ، وروتها به الروايات .

والذى يجعلنا نميل إلى هذا الرأى مانراه من شبه فى الصياغة الفنية لهذه الأبيات الإسلامية فى القصيدة ، وفى قصيدته الإسلامية التى يوصى فيها ابنه ويقول فى ختامها :

ولقد علمت بأن قصرى حفرة غبراء يحملنى إليها شرجع
فبكى بناتى شجوهن وزوجتى والأقربون إلى ثم تصدّعوا
وتركت فى غبراء يكره وردها تسفى على الريح حين أودّع
فإذا مضيت إلى سبيلى فابعثوا رجلا له قلب حديد أصمع
إن الحوادث يخترمن وإنما عمر الفتى فى أهله مستودع
يسعى ويجمع جاهداً مستهتراً جداً وليس بآكل ما يجمع
حتى إذا وافى الحمام لوقته ولكل جنب لا محالة مصرع
نبذوا إليه بالسلام فلم يجب أحداً وصم عن الدعاء الأسمع(1)

فهذه سهولة إسلامية ، ومعان تحمل ظلال الأفكار الإسلامية ، شبيهة بحديثه عن العيش فى أبيات لاميته . فنفس الروح الحكيمة جلية فى الموضعين هذين ، ولا يمكن أن يكون هو الذى يتحدث عن اللهو والشراب والطرب فى الإسلام . وهو الذى يقول فى نصيحة بنيه :

أوصيكم بتقى الإله فإنه يعطى الرغائب من يشاء ويمنع
وببر والدكم وطاعة أمره إن الأبر من البنين الأطوع (2)

(1) المفضليات / ٣٠١ ، ٣٠٢ .

(2) المفضليات / ٢٩٧ .

ثم قالوا حد الظهيرة ، وبعد ذلك رفعوا أرديتهم . وصاروا يعدّون اللحوم للطعام ما بين ورد وأشقر ، وفار باللحم للقوم المراجيل ، وأكلوا ثم مسحوا أيديهم فى مناديل من أعراف خيولهم الجرد المسومة . ويستغرق هذا المشهد سبعة أبيات . يتحدث فى آخرها عن الخيول ، ثم يعود كرة أخرى إلى وصف العيس التى ارتحلوا عليها .

ويعود بعد ذلك إلى حديث يذكرنا بالأبيات التى أسلفنا ، ذلك أنها تنصرف فيما انصرفت فيه تلك الأبيات من تصوير الجهاد ، وهى كذلك رقيقة فى لغتها حيث يقول :

نرجو فواضل رب سيبه حسن ... وكل خير لديه فهو مقبول
رب حبانا بأموال مخولة ... وكل شيء حباه الله تخويل
والمرء ساع لأمر ليس يدركه ... والعيش شح وإشفاق وتأميل (١)

ثم انصرف عبدة بن الطبيب إلى وصف جرأته ومغامراته التى أفزع بها الوحوش فى هدأتها ، وطروقه القفار والأهوال بجواده المتكامل الخلقة ، الذى تميزه سيقانه القوية السريعة المقتدرة . واستغرق هذا المشهد تسعة أبيات راح يصف بعدها طروقه لحوانيت الخمارين ، مع صياح الديك ، ومعه رفيق ضليل مثله أعداه بلذته وخرقه ، جاد إذا حز به الأمر ، مخالط للهو واللذات . وفى هذا الحانوت بسطت لهم الفرش المزينة بالتصاوير الرائعة للدجاج والأسد ، فى جو رائع . حيث ترسل ذبالة ضوئها فترى الزق معداً ، وآثار العراك باقية ، والأكواب موضوعة ، والأباريق مصفوفة ، والريحان مجهزاً ، وأكواباً مترعة ، والزبد طاف فوقها ، والشواء يسعى به متمنطق عجول ، حيث أعد الخوان فوقه التوابل ، واصطبح الشاعر بما شاء من طيب الراح ،وتابع الشرب صرفاً وممزوجة على الريحان ، وعلى شعر مذهّب لآنسة جيداء ، صوتها ترتيل ، تغدو على الشرب وتروح ، فتلهيهم تارة وتارة أخرى يحاصرونها ، ويلقون عليها بودهم وسراويلهم إعجاباً .

---

(١) المفضليات / ٢٨٦ .

وللأحبـــة أيام تذكرهـــا   وللنوى قبل يوم البين تأويـــل
إن التى ضربت بيتاً مهـــاجـــرة   بكوفة الجند . غالت ودها غول[1]

وإلى هذا الحد لا موجب للحيرة ، فالشاعر يتحدث عن صاحبته التى هجرته — أو هجرها — ونزحت إلى الكوفة ، حيث جاورت المدائن التى فيها الديوك والفيول وحيث المسلمون يقارعون فوارس الفرس . وقد عاوده حبه القديم كأنه مس الحمى فى مبتدئها ومنتهاها . وصاحبته هذه التى استوطنت الكوفة لا تشعر به، فقد نسيت هواه، وكأنما غالته غول . . إلى هنا لا موجب للحيرة.

ثم ينتقل الشاعر من بعد إلى وصف ناقته ورحلته بعـــد أن تخلص فرمى نفسه بالضلال ، إذا سمح للصبابة أن تشغله عن عمله ، واستغرق وصفه لناقته سته عشر بيتاً، وصفها فيها بعظم الخلقة والسرعة والقوة ، فى لغة جاهلية نحتت نحتاً ، وتعرض فى أثناء ذلك إلى وصف ما صادفه فى الرحلة من القطا ، ثم عاد إلى وصف الناقة ، فشبهها بثور وحشى ، ووصفه بأنه بعيد ما بين القرنين محجل مكحول العين . ووصف القانص الذى يترصده وزوجه تنتظره وقد نام فى حجرها صغير كالقرد ، وهذا القانص يغرى كلابه الضارية المدربة ، ثم يصور المعركة التى نشبت بين الثور والكلاب تصويراً رائعاً برغم ما يكتنف ذلك من صعوبة اللغة وتقعرها . ووصف بعد ذلك خروج الحيوان متأثراً من المعركة ، يستقبل الريح كأنه السيف المسلول ، ويصور إعياءه بعد أن صرع الكلاب طعنا فى صدورها فأنهك ، لكنه يستشعر الظفر والانتصار فيجرى ، وآثار المعركة بادية عليه ، ودماء ضحاياه تلوث وجهه ، وقد تدلى لسانه عن شمال شدقه ، ويجرى فيثير جريه النقع ، ولكنه يبرك ثانية حتى يكل فرجه من ارتطامه بالحصى . وقد استغرق الشاعر فى وصف هذه المعركة عشرين بيتاً ، انتقل بعدها إلى وصف منهل دل عليه رفاقه فى الرحلة ، وكان الماء قد نفد فوردوا ، وقد ران عليهم النعاس من الإجهاد .

---

(1) المفضليات ٢٦٨/٢٧٠ .

ابن حارثة قتال هرمز . وله فى ذلك آثار مشهورة[1] وأنه شهد الواقعة التى كانت عقب القادسية ،[2] كما يروى أنه كان فى جيش النعمان بن مقرن ، وأنه شهد معه حرب الفرس فى المدائن ،[3] ثم لا نجد من هذه الآثار المشهورة إلا قصيدة واحدة ، وإن كانت طويلة جداً ، إذ تبلغ نيفا وثمانين بيتاً ، تتنازعها هذه الروايات جميعاً بين أن تكون قد قيلت فى وقعة بابل — التى كانت بين المثنى وهرمز على مبعدة خمسين ميلا من المدائن [4] أو أن تكون قد قيلت فى وقعة المدائن ذاتها ، أو فى نهاوند ، حينما غزا مع النعمان بن مقرن . وقد توهم صاحب الإصابه أنها المدائن ، متابعة فى ذلك لصاحب الأغانى .

ونحن نميل إلى أن تكون هذه القصيدة قد قيلت فى وقعة نهاوند ، التى وقعت بعد تمصير الكوفة التى يشير إليها الشاعر .

ويجد الباحث نفسة متحيراً أمام هذه القصيدة الرائعة ، ولا ترجع حيرته إلى روعتها وإلى امتداد نفسها فى مثل هذه الظروف القلقة فحسب ، وإنما للحيرة أسباب أخرى .

فجميع الروايات متفقة على أن هذه القصيدة من قصائد الفتح الإسلامى وأنها قيلت فى إحدى الوقائع التى شهدها الشاعر ضد الفرس ، والقصيدة تشير إلى ذلك فى بعض أجزائها ، من مثل قول عبدة فى مطلعها : —

هل حبل خولة بعد الهجر موصول	أم أنت عنها بعيد الدار مشغول ؟
حلت خويلة فى دار مجـــاورة	أهل المدائن فيهـــا الديك والفيل
يقارعون رءوس العجـــم ضاحية	منهم فوارس لا عزل ولا ميـــل
فخامر القلب من ترجيع ذكرتهـــا	رس" لطيف ورهن منك مكبـــول
رس" كرس" أخى الحمى إذا غبرت	يوماً تأوبـــه منهـــا عقابيـــل

(١) ابن قتيبة جـ ٢ ص ٧٠٥ . (٢) المفضليات ٢٦٨ .

(٣) جـ ١٨/ص ١٦٣ الاصابة /جـ ٥ / ص ١٠١ .

(٤) راجع صحيفة ٢٩ من هذا البحث .

وقد شارك فى الفتوح عدد كبير من الشعراء القدامى من أمثال عمرو بن معد يكرب الزبيدى ، وعبدة بن الطبيب ، وأبى محجن الثقفى ، وربيعة بن مقروم الضبى ، وأبى ذؤيب الهذلى ، وعمرو بن شأس الأسدى ، وقيس بن مكشوح المرادى ، وعروة بن زيد الخيل الطائى والنابغة الجعدى ،والشماخ . والحطيئة .

وليس شك فى أن شعر هذه الطبقة من شعراء الفتح يختلف عن شعر غيرهم من الشعراء ، فهو شعر ناضج برغم الظروف التى شهدت مولده ، وهو يمتاز عن بقية شعر الفتح بامتداد نفسه نسبياً ، كما يظهر فيه بوضوح غلبة الفخر الفردى على الفخر بجماعة المسلمين ، وكأن الشاعر الناضج يحس بنفسه إحساساً أقوى من إحساس غيره من الشعراء المغمورين ، بل أقوى من إحساسه بالمثل الدينية فى أكثر الأحيان .

كما أن شعرهم يتميز بميزة خاصة وهى أن فرصة الظن فى انتحاله نادرة ، إذ هناك ما يخشاه المنتحل لو عزا انتحاله إلى شاعر شهير ، فإنه بذلك يضع نفسه موضع الشبهة إذا ما تكلف الدارسون بإعادة الأمور إلى نصابها بالتحليل والتدقيق ، ومقارنة المنتحل بشعره المعروف له .

وقد يعجب الدارس حينما يجد هذه الطبقة الممتازة من الشعراء على كثرة عددها لم تخلف فى شعر الفتوح آثاراً تتناسب معها فى الكم والكيف . حتى إننا إذا أردنا أن نتخذ أحدهم مثالا للشعراء القدامى الذين أسهموا فى الفتوح لم نجد أحداً منهم جديراً بالدراسة ، لقلة ما خلف فى ظروف الفتح . ولسنا نستطيع أن نعزو قلة شعرهم إلى ضياعه ، لما سبق أن قررناه من أن شهرتهم قد حفظت شعرهم من الضياع ، فوصل إلينا كاملا ، كما وصلت إلينا أخبارهم بتفاصيلها الدقيقة .

فهذا عبدة بن الطبيب (١) تذكر الروايات عنه أنه شهد مع المثنى

---

(١) اخباره فى الاغانى ساسى جـ ١٨/ ص١٦٣ والشعر والشعراء جـ ٢ ص ٧٠٥ ، الاصابة جـ ٥ ص ١٠١ ، المفضليات ص٢٦٨ .

هذه القيم دفعة واحدة ، فخفت صوته إلى حين احتى كانت الفتوح الإسلامية فأذكت جذوة الشعر العربية ، وأطلقت ألسنة الشعراء ، وأودت بكل حرج ، ووضعت أمامهم مواقف يمارسون فيها ألوان الشعر التي قيدها الإسلام ، وفتحت أمامهم آفاقاً واسعة ، وتجارب حافلة بألوان من العواطف الجياشة والمشاعر الملتهبة .

٢ ـ شعراء قدماء

خفت صوت الشعر ، ولكنه لم يصمت تماماً ، فقد كان هناك شعراء استجابوا لدعوة الإسلام سراعاً ، واستبدلوا بمفاهيم الشعر الجاهلية مفاهيم إسلامية جديدة ، واستطاعوا أن يتقيدوا بمهمة الشعر التي حددتها المثل الإسلامية ، وأن يكتسبوا لأنفسهم أسلوباً أفادوه من التأثر بالقرآن الكريم ، كما فعل أولئك الذين جندوا للتصدى لشعراء قريش . بينما ظلت طائفة منهم لم تسعفهم سلائقهم الشعرية بما طبعت عليه من الإلف للتقاليد الجاهلية المتأصلة بعيدة عن التأثر بهذه المثل ، ومن ثم لم يتمكنوا من أن يستبدلوا بها غيرها فكان أن سكتوا عن قول الشعر ، حتى كادت ينابيعه أن تغيض في وجدانهم .

وكان هناك بطبيعة الحال طائفة أخرى ، اختلط فيها الماضى بالحاضر ، فزجت بين ما كانت فيه وما أقبلت عليه . وقد وجد هذان النوعان فى الفتوح الإسلامية منطلقاً لهم ومتنفساً ، فشارك عدد كبير منهم فيها ، واحتفظت لنا الروايات بأخبارهم وأشعارهم ، دون أن تؤثر فى ذلك ظروف الفتح التي طمست صورة الشعراء المغمورين ، الذين لم يكن لهم شهرة بالشعر من قبل .

أما هؤلاء الذين نضجوا وذاع صيتهم وشهرتهم قبل الفتوح فلا نجدهم قد تأثروا بذلك إلا قليلا ، فشعرهم وإن كان أبياتاً مفردة أو مقطعات مبتسرة يتلقفه الرواة والإخباريون والمهتمون بالشعر ، متأثرين فى ذلك بما لهؤلاء الشعراء من ماض فنى ، دون نظر منهم إلى قيمة الشعر ذاته ، التى اكتسبها من الظروف التى صدر خلالها .

تتبعها كتائب إلى العراق وخراسان والشام ومصر وأفريقية فيصيبون توفيقاً أى توفيق يغرى غيرهم ، فيتدفقون سيلا مندفعاً فى تيار الفتح ، وأضحت جزيرة العرب مخزناً كبيراً للرجال ، يذخر حيناً ، ويخلو فى أكثر الأحيان . والمجاهدون يتعرضون لمشقات الاستنفار والتجييش ، وأهوال القتال وعنف المعارك ، ومع ذلك فان الغايات الشريفة التى استشرفوها لم تقض على منازع الفن الشعرى فى نفوسهم :

حقاً لم تكن حياة العسكر تسمح لهم بالفترات التى يخلدون فيها إلى أنفسهم ، ويخلون إلى ذواتهم ساعة أو بعض ساعة ، يصبون فيها عواطفهم ومشاعرهم فى أبيات تقصر أو تطول ، وحقاً كانت ظروف القتال لا تكاد تترك لهم لحظة هادئة ، فهم بين أن يكونوا مدافعين أو مهاجمين ، يتحولون من ميدان إلى ميدان ، ويتركون معركة ليستقبلوا معركة . ولكنهم — على الرغم من كل هذه القسوة والقلق والتوزع — نفوس تشعر وتحس ، وتأمل وتحذر ، وتنتصر وتهزم ، فتفرح أو تشقى ، وهذه المشاعر لابد أن تجد متنفساً لها ، وتلك الطاقات النفسية لابد أن تجد مسرباً ينفس عنها ، ويحمل مواجدها وأشواقها .

وهذه البيئات الجديدة التى لم يألفوها ألا تثيرهم ؟ وهذه المناطق النائية ألا تذكرهم بأهليهم وأحبائهم وديارهم ؟ وهذه المشاهد الغريبة ألا تؤثر فيهم ؟ ومتى شغلت الحرب العربى عن الشعر ؟ ألم يقترن الشعر بالحرب عند العرب على طول الأزمان والحقب ؟ ألم يجعلوا للقتال والنزاع لحنا معيناً يوقعون عليه ضرباتهم ، ويضعونه موضع الموسيقا فى الجيوش الحديثة .

لم يفارق الشعر العرب لحظة واحدة فى الفتوح . ذلك أنه كان أداة للتحميس والدفع والاستنفار ، ينطلق المجاهدون على إيقاعه الهادر إلى النصر والشهادة .

وآية هذا أن الإسلام أراد أن يغير مظاهر الحياة العربية جميعها ، ومنها الشعر . فحدد له قيما ومهمة تتفق وتعاليمه ، ولم يستطع الشعر أن يواكب

يفاخر الشاعر ببلائه ، وينهى به إلى امرأته أو صاحبته ، ويهجو الكفرة أعداءه ، ويقذع فى هجائهم دون تحرج أوضير .

فكما كانت الفتوح متنفساً للعرب المفطورين على الفروسية والنجدة والشجاعة فطرحوا فيها ما كان من بأس فيما بينهم ، كذلك كانت الفتوح متنفساً للعرب المفطورين على الشعر والفصاحة طرحوا فيها كل ما كان محظوراً عليهم فى مواقف أخرى .

ولا شك فى أن ارتباط الفتوح بفكرة الجهاد التى تمثلت بلورة نوارنية تخطف قلوب المؤمنين ، كان له أثر كبير فى ترسيب المثل الإسلامية فى نفوس المجاهدين من الشعراء ، فانطلقت ألسنتهم بما رأينا من الشعر الذى واكب عمليات الفتوح خطوة خطوة .

وجدير بالذكر أن الشاعر المسلم فى الفتوح قد مارس ألوان الشعر التى كانت محظورة عليه قبل الفتح فى ظلال فكرة جديدة ، لم تكن القبلية بحال من الأحوال ، وانما كانت فكرة الجماعة الإسلامية الكبيرة ، فوقف منها موقف المدافع ، وانبرى يشيد بانتصارها على أعدائها : وحلت من وجدانه محل القبيلة الصغيرة ، التى كان يغنى فيها وفى الذود عنها . وأصبح يتغنى بعواطف الجماعة الإسلامية وبوجدانها . بعد أن كان يغنى عواطف القبيلة الضيقة ، وصارت له شخصية فردية ذات أبعاد وحدود وملامح بارزة داخل الجماعة الكبيرة ، بعد أن كان خيطاً رفيعاً فى نسيج القبيلة العريض .

وقد شغلت الفتوح الإسلامية المسلمين عن كل شىء فى حياتهم إلا الفروسية والشعر . ولا نكون مغالين إذا قلنا : إن الفتوح لم تقم إلا بهذين المظهرين من مظاهر الحياة العربية . فكانت الفروسية سبباً فى نجاح الفتح ، وكان الشعر نتيجة للفتوح .

وألقت الفتوح بهذا عبئاً جسيما على عواتق المجاهدين ، استهلكت جهودهم ، وشغلت حياتهم فلم تتسم لحظة بالهدوء أو بالاستقرار ، وشغلوا بالانسياح فى الأرض — بعد أن ضاقت بلادهم بهم إيمانهم — يتدفقون كتائب

فى سبيلها . أما قبل الفتوح فإن الفخر ليس إلا انحرافاً عن حدود المهمة التى نيطت بالشعر إلى إثارة النعرات والعصبيات التى كان يجب أن تختفى ويعفى على آثارها .

لا ضير فى أن يشعر الفرد المسلم بما لقبيلته من مجد مؤثل فى موطن بذلها فى سبيل العقيدة ، كما فعل نافع بن الأسود بن قطبة فى الفخر ببلاء تميم فى مقتلة أسد بالقادسية :ـ

وقال القضاة من معــد وغيرها ... تميمك أكفاء الملوك الأعــاظم
هم أهــل عز ثابت ... وأرومة ... وهم من معد فى الذرا والغــلاصم
وهم يضمنون المال للجار ما ثوى ... وهم يطعمون الدهر ضربــة لازم
لذلك كان الله شرّف فـــر ... ســانها فى الزمان الأول المتقادم
وحين أتى الإسلام كانوا أئمة ... وبادوا معــداً كلها بالجــرائم
إلى هجرة كانت سناء ورفعــة ... لبــاقيهم فيهم وخــير مراغم
فجاءت بهم فى الـكتائب نصرة ... فكانوا حماة الناس عنــد العظائم
فصفّوا لأهل الشرك ثم تكبكبوا ... وطاروا عليهم بالسيوف الصوارم
لدى غــدوة حتى تولوا تسوقهم ... سيوف تميم كالليوث الضراغم (١)

وهل كان بإمكان شاعر أن يقول مثل هذا القول فى المسجد ــ مثلاً ــ وعمر بن الخطاب يمسك بأذن حسان بن ثابت ليعنفه على ما قال من شعر ، شبهه بأنه رغاء كرغاء البعير (٢) .

فالأمر فى رأينا لا يخرج عما كان من موقف الفروسية العربية من الإسلام ، فقد وجدت فرصتها فى الفتوح بعد أن ضاقت بها الحياة الإسلامية فنهت عن أن يقاتل المسلم أخاه ، فإن فعل فقد قاتل تحت راية عميّة ، وإن قتل قتل قتلة جاهلية . كذلك كان الشعر ، ووجد فرصته فى الفتوح ، حيث

---

(١) الاصابة / جـ ٦ / ص ٢٦٢ .

(٢) اغاني دار الكتب / جـ ٤ / ص ١٤٤ .

وحفظه عناية بالقرآن فائقة ، وإدماناً فى النظر المعجز فيه ، وهـذا لبيد يستعيض عن الشعر بسورة البقرة ، وهذا على بن أبى طالب ينصح لأبى الفرزدق بأن يحفّظه القرآن ، وكأنما يصرفه عن الشعر صرفاً (١) .

وهكذا استقر فى أذهان المسلمين أن أساليب القرآن تستطيع أن تسع منازعهم النفسية العميقة ، وأن توحى بكثير من ألوان البيان المماثل ، فوجدوا فى القرآن بديلاً فنياً غلب الشعرَ على منزلته ، حتى لقد صار شاعر الرسول ينشد فى المسجد فلا يجد من يستمع إليه ، ويضطر الزبير أن يهيب بهم ليستمعوا له (٢) .. فقد كان الناس عن ذلك فى شغل بالقرآن الذى استأثر بهم لأن فيه ما يهيج العصبيات والحزازات التى قضى عليها الإسلام .

شغل المسلمون إذن عن الشعر . ففيم الخلاف مع ابن سلام الذى قرر : أن الإسلام شغل العرب عن الشعر ؟ إن الخلاف ليس فى هذا القول ، وإنما فيما يقرره من أن شغل العرب كان بالجهاد وبغزو فارس والروم .

فإن الحقيقة كما قررناها أن شغل المسلمين عن الشعر لم يكن إلا نتيجة لمحاولة الإسلام تغيير مفاهيم الشعر ليتفق وتعاليمه ومثله ، وأن الشعر عجز عن أن يقدم للناس ما وجدوه فى القرآن فخفت صوته ، وإن لم تغض منابعه .

ثم كانت الفتوح الإسلامية التى أذكت جذوة الشعر العربية وأطلقت الألسن من عقالها ، وكأنما كان الشعر ىرئة التى تنفس خلالها ما اختزن فى النفوس العربية خلال هذه الفترة ، فقد فتحت الفتوح أمام الشعر مجالات واسعة ، ووضعت أمام الشعراء مواقف شبيهة بالمواقف التى ألفوها وألفها الشعر فى الجاهلية ، وإن اختلف الهدف بين المواقف اختلافاً شاسعاً ، إلا أنها قد أزالت حرج الشعراء ، وفتحت أمامهم أبواباً كان طرقها محظوراً فى ظلال الفكرة الإسلامية ، فلا بأس على الشاعر إذا ما أشاد ببلائه وفخر بقومه ما داموا جميعاً يذودون عن العقيدة ، ويبذلون الأرواح رخيصة

(١) الأغانى (ساسى) جـ ١٩ / ص ٩ . (٢) العمدة جـ : / ص ١٠ .

المدنية التى أفاءتها الحياة الجديدة فى المدينة ؛ إذ لم تستطع تحذيرات عمر ومحاربته لاتجاه الترف فى البناء أن تحول دون تطورها ؛ إلى أن تكون مدينة تامة لها ما للمدن من مرافق الحياة والعمران الذى عرف عن العرب من أهل الجنوب(١) .

وقد ظل عرب اليمن غالبين على من سواهم فى مصر زمناً طويلاً ، حتى إن عبد العزيز بن مروان قال لأبيه حين ولاه مصر : «كيف المقام ببلد ليس فيه أحد من بنى أبى ؟ »(٢) .

وكان نتيجة هذا أننا لا نكاد نجد صدى لأحداث الفتح الإسلامى لمصر فى الشعر ، بل لا نكاد نجد شعراً فى الحقيقة ، وكل ما هنالك أبيات قليلة لبعض الهذليين ، لا تكاد تصور جانباً من جوانب الفتوح ، ولا تكاد تكشف عن شىء من مشاعر الفاتحين ؛ فبينما لم يفلح الشعر فى الشام فى إعطائنا صورة كاملة للفتوح كاد لا يوجد فى مصر شعر يعطينا شيئاً ولو يسيراً عن ظروف الفتح .

٢ — الشعر فى الشام

كان لكثرة القبائل اليمنية فى جند الشام أثر كبير فى قلة المحصول الشعرى، الذى تخلف عن الفتوح الإسلامية هناك ؛ فإن الشعر الذى بين أيدينا قليل جداً ، حتى إنه ليقصر عن تصوير حوادث الفتح وسيرها وما دار فيها ، ولا يفلح فى إعطائنا صورة كاملة أو قريبة من الأصل للمحاربين فى بلائهم ومشاعرهم وأحاسيسهم بالمعارك التى خاضوها ، وكل ما نجده أبيات قليلة يقولها المجاهد فى أعقاب المعركة ، أو بيت أو بيتان يرتجزهما الراجز فى أثناء بروزه للقتال ، وفى حملته على العدو ، أو الفخر بنفسه ، فى موقف معين ، أو رثاء صديق ، أو رثاء عضو من أعضائه .

---

(١) ابن عبد الحكم ص ٩٢ .

(٢) الكندى/الولاة ص ٤٧ .

ويبدو أن قصر المدة التي استغرقها فتح الشام ، وعدم انفساح المنطقة لتوغل المسلمين إلى مدى أوسع كانا من أسباب اختفاء شعر الحنين والتشوق ، والشعر الذي يصور الشئون الخاصة بالجند ، من أمثال ما رأينا في شعر الميدان الشرقي . ومهما كان مدى الافتراق بين الميدانين فلنحاول التعرف على الكيفية التي استطاع بها المحاربون في هذا الميدان تصوير حوادث الفتح وظروفه بالقدر الذي اتيح لهم أن يصوروها .

وقد تقدم أن أبا بكر اهتاج للشام ، فعقد لواء حربها لأربعة من مشاهير قواد المسلمين . وعين لكل منهم مهمته ، فكانت مهمة أبي عبيدة فتح حمص والجابية ، وكانت مهمة ابن العاص فتح فلسطين ، بينما كانت وجهة يزيد بن أبي سفيان دمشق ، ووجهة شرحبيل بن حسنة الأردن[1] ، وبعد هذا تختلف الروايات فيما كان من أمر هذه الجيوش ، وهل خاضت بعض المعارك وهي موزعـــة ، أو ابتدأت معاركها مجتمعة ؟ وفي الحقيقة أننا لانجد في كتب التاريخ ما يقنع بصحة ترتيب وقائع الفتح في الفترة الأولى من فتح الشام إقناعاً منطقياً ... فعدا معارك خالد بن سعيد ، والوليد بن عقبة مع باهان ، وقبائل العرب الضاربة في تخوم الشام لا نسمع بشيء إلا بوصول كتيبة خالد بن الوليد ، وما يقرره أحد المجاهدين في كتيبته من تسلسل المعارك التي خاضها على نحو ما أشرنا إلى ذلك سابقاً .

وكان خالد بن الوليد قد فوز من قراقر ، إلى سوى ، إلى أرك ، وأتى تدمر ، ثم القريتين . ثم أتى حوارين ، وقصم ، ظافراً حتى أغار على بني غسان في مرج راهط يوم فصحهم[2] ، ثم سار حتى نزل قناة بصرى ، فتقابل مع جند أبي عبيدة وشرحبيل ويزيد ورابطوا عليها ، حتى صالحت بصرى على الجزية[3] . ويعدّ اعتساف خالد الصحراء بهذه الطريقة الفذة عملاً معجزاً

---

(١) الطبري/ج ٤/٢٠٩٠ .

(٢) مرج راهط هي بصرى أذكى شام الطبري ج ٤ ص ٢١٠٨ .

(٣) الطبري ج ٤/٢١٢٥ .

فى اختصار الطريق والتزود بالماء[1] . مما تغنى به الرجاز ، من أمثال أبى أحيحة القرشي ، الذى قال فى خالد :

لله در خالـد أنى اهتـدى والعـين منه قد تغشاها القذى
معصوبة كأنها ملئت ثـرى فهـو يرى بقلبـه ما لا يرى
قلب حفيظ وفؤاد قد وعى[2]

وقال أحد الرجاز فى نفس المعنى — متغنياً ببراعة دليله رافع الطائى — :

لله در رافـع أنى اهتـدى فـوز من قراقر إلى سـوى
خمساً إذا ما سارها الجبس بكى ما سارها من قبله أنس يرى[3]

واجتمعت جيوش المسلمين فى اليرموك ، واستطاع خالد فى يوم إمارته أن يدور خلف جيش الروم فحصرهم ، ثم شن هجوماً عنيفاً عليهم وعلى حلفائهم الغساسنة ، فتهافت معظمهم قتلى فى النهر ، وكان خالد قد قسم الجيش إلى كراديس ، جعل عليها فرسان المسلمين كالقعقاع وعكرمة ، واستفتح القعقاع يرتجز ، وقد برز للنزال قائلاً :

يا ليتنى ألقـاك فى الطـراد قبل اعـترام الجحفل الوراد
وأنت فى حلبتك الوراد[4]

وتبعه عكرمة قائلا :

قـد علمت بهكنـة الجـوارى أنى على مكـرمة أحـامى[5]

وتظهر أهمية موقعة اليرموك فى أنها فتحت الطريق إلى أجزاء الشام كلها ، وقررت مصيرها ، وتبدو هذه الأهمية فى كثرة الشعر والرجز الذى صورها ، فقد استنفدت كل الشعر الذى تركته لنا الفتوح فى الشام تقريباً . وأكثر فيها الرجاز بصورة خاصة ، فأشادوا ببلائهم ، وبما قدموا فداء لعقيدتهم . فهذا حياض بن قيس القشـيرى يخاطب فرسه ، وينشد رجله التى قطعها الروم فى اليرموك فيقول :

---

(1) لطبرى/جـ ٢١٠٨/٤ .
(2) الاصابة/جـ ٧/ص ٤ .
(3) ياقوت/جـ ٣/ص ١٧٢ .
(4) الطبرى/جـ ٤/ص ٢٠٩٦ .
(5) الطبرى جـ ٤/ص ٢٠٩٦ .

أقــدم حــذام إنها الأســاورة ولا تغــرنّك رجــل نادرة
أنا القشيرى أخــو المهــاجرة أضرب بالسيف رءوس الكافرة[1]

ثم يشد على أعدائه فيَقتل من الروم عدداً كبيراً ، حتى استحق أن يفخر ببلائه آحد بنى أبيه فقال :

ومنا ابن عتّاب وناشد رجـله ومنا الذى أدى إلى الحى حاجبا[2]

وهذا القعقاع بن عمرو — يفاخر ببلائه ونجدته يوم اليرموك ، وإجابته الداعى فى كل ملمة يقول :

يدعــون قعقاعاً لــكل كريهة فيجيب قعقــاع دعاء الهاتف[3]

وبينما تكثر أبيات الرجز فى هذه الوقعة لا تكاد القصائد أو المقطوعات يكون لها وجود . اللهم إلا مقطوعة واحدة قليلة عدد الأبيات للقعقاع بن عمرو . يصور فيها تهافت الروم فى الواقوصة ،ويشيد بكتيبة خالد ، التى أبلت فى الشام بلاءها فى العراق . . قال :

ألم ترنا على اليرموك فــزنا كما فــزنا بأيام العــراق
قتلنا الروم حتى ما تســاوى على اليرموك مفــروق الوراق
فخضنا جمعهم لمــا استحالوا على الواقوصة التبر الرقــاق
غــداة تهافتوا فيها فصــاروا إلى أم تعضل بالــــذواق[4]

ويتجه المسلمون إلى فحل فيحاصرونها ، ويتركون جنداً لمناوشة الروم ، بينما تتجه كثرة الجيش إلى دمشق ، وقد فتحها الله عليهم بعد اشتباك مع الروم فى مرج الصفر وحصار طويل للمدينة ، ففتحت أبوابها للمسلمين صلحاً من جانب ، وحرباً من جانب آخر . وكان عبد الرحمن بن أبى سرح — أحد جند يزيد بن أبى سفيان — يتوقع تسليم المدينة والجند رابضون على أبوابها ، فقال يصف انتظار الجند بباب توماء مع أبن ابى سفيان — :

---

(١) الاصابة/ج ٢ ص ٦٨ وقد توهم الشاعر فدعى الروم أساوره .
(٢) المرجع نفسه . (٣) الاصابة/ج ٥ ص ٢٤٤ .
(٤) ياقوت/ج ٤/ص ٨٩٢ .

ألا أبلغ أبا سفيان عنـــا بأننا   على أحسن حال كان جيش يكونها
وأنا على باب لتوماء نرتمى   وقد حان من باب لتوماء حينها[1]

وبعد أن فتحت دمشق عاد المسلمون إلى فحل ، حيث التقوا بثمانين ألفاً من الروم وانتصروا عليهم انتصاراً مبيناً ، صوره القعقاع بن عمرو فى قوله :

وغـــداة فحل قد رأونى معلما   والخيل تنحط والبـــلا أطوار
مازالت الخيل العراب تدوسهم   فى حوم فحل والهبا مـــوّار
حتى رمين سراتهم عن أسرهم   فى روعة ما بعدها استمـــرار[2]

ووصف علقمة بن الأرث العبسى تنكيل المسلمين بالروم فقال :

ونحن قفلنـــا كل واف بآلـــه   من الروم معروف النجاد منطق
ونحن طلقنـــا بالرماح نســـاءهم   وأبنـــا إلى أزواجنا لم تطلّق
وكم من قتيـــل أرهقته سيوفنا   كفاحاً وكف قد أطيحت وأسوق[3]

ووجه أبو عبيدة بعد فحل جنود العراق ، وعليهم هاشم بن عتبة والقعقاع بن عمرو كأمر أبى بكر كما وجـــه بالأعور السلمى إلى ضربه فحاصرها حتى فتحها الله عليه ، وفى ذلك يقول الربيع بن مطرف بن بلخ التيمى أحـــد جنود الأعور :

وإنا لحلالون بالثغـــر نحتـــوى   ولسنا كمن هر الحروب من الرعب
منعنـــاهم ماء البحـــيرة بعد ما   سما جمعهم فاستهولوه من الرهب[4]

واتجه أبو عبيدة بعد ذلك مع خالد بن الوليد إلى الشمال ، حيث التقوا بجيشين للروم ، عليهما توذر البطريق وشنس ، وحان الليل بين المسلمين والروم ، وبيّت الفريقان فى انتظار الصبح ، وعند الفجر نظر خالد فلم ير توذر ولا جنده ، فأيقن أنه يريد دمشق ، فطار فى أثره ، وكان يزيد بن أبى سفيان قد علم بمقدمه فخرج إليه أمام دمشق ، وجاءه خالد من خلفه ، فحصر بين المسلمين حتى قضوا عليه وعلى جنده .

وعاد خالد ليجد أبا عبيده قد قضى هو الآخر على شنس ، وفى ذلك

(1) ياقوت/جـ ١/ص ٤٤٣ .   (2) ياقوت/جـ ٣/ص ٨٥٣ .
(3) الاصابة/جـ ٥/ص ١١١ .   (4) الاصابة/جـ ٢/ص ٢١٩ .

تروى أبيات من الرجز تصور صنع المسلمين بتوذر وشنس ، وتنسب إلى خالد بن الوليد تقول :

نحن قتلنا توذراً وشوذرا وقبله ما قد قتلنا حيدرا
نحن أزرنا الغيضة الأكيدرا(١)

وانطلق المسلمون بقيادة أبى عبيدة شمالى الشام فحاصروا حمص شتاء كاملاً ، ظن الروم أن البرد سيهلكهم فيه ، لكنهم تراجعوا إلى الصلح ، وتوالت الفتوح ، ودخل المسلمون قنسرين وحلب وأنطاكية حصن المسيحية الحصين ودانت لهم الجزيرة ، وصالحت الرها ونصيبين وأرمينية (٢) .

وعجيب ألا يكون لهذه الفتوح صدى فى الشعر برغم تعددها ، وطول المدة التى استغرقتها وبرغم الفرص المتاحة فى الحصار وفراغ الجند، وربما يرجع السبب فى ذلك إلى آن معظم هذه البلاد قد فتح صلحاً .

وتقدم المسلمون فى جنوب الشام ففتحوا أجنادين بعد معركه عنيفة ، قتل فيها ثمانون ألفاً من الروم ، وفر الأرطبون قائدهم إلى بيت المقدس ، وصور زياد بن حنظله فراره فقال :

ونحن تركنا أرطبون مطرّداً إلى المسجد الأقصى وفيه حسور
عشية أجنادين لما تتابعوا وقامت عليهم بالعراء نسور
عطفنا له تحت العجاج بطعنة لها نشج ينأى الشهيق غزير
فطمنا به الروم العريضة بعده عن الشام أدنى ما هناك شطير
تولت جميع الروم تتبع إثره تكاد من الذعر الشديد تطير
وغودر صرعى فى المكرّ كثيرة وعاد إليه الفلّ وهو حسير (٣)

وعجيب أيضاً أن يخلو شعر الفتح من تصوير غبطة المسلمين التى لا حدود لها بتسليم بيت المقدس ، وما لذلك التسليم من معان ودلالات بالغة القيمة فى انتصار الإسلام وسيطرته على معقل المسيحية ومهبطها ، ولما لقيه

---

(١) الطبرى/جـ ٥/ص ٢٣٩٠ .
(٢) الطبرى/جـ ٥/٢٥٠٧ .
(٣) ياقوت/جـ ١/ص ١٣٦ .

المسلمون فى حصارها من صنوف القسوة واستماتة الروم وعصف المجانيق، وكل ما نجده بيات قليلة ، تصور مبارزة حدثت بين أرطبون وأحد جند المسلمين يدعى عبد الله بن سبره ، فبينما عبد الله يقتله قطع أرطبون أصابع يده بضربة من سيفه ، فقال عبد الله :

فإن يكن أرطبون الروم أفسدها ... فإن فيها بحمد الله منتفعا
بنانتان وجرموز أقيم به ... صدر القناة إذا ما آنسوا فزعا
وإن يكن أرطبون الروم قطعها ... فقد تركت بها أوصاله قطعا[1]

وسقطت الشام العريضة فى أيدى المسلمين ، وألقت إليهم بخيرات أرضها ، وبعيش خصيب لا يعد مآكله، كما عبر عن ذلك زياد بن حنظلة حيث قال يتذكر فتح الشام فى عام الرمادة على ما يبدو :

تذكرت حرب الروم لما تطاولت ... وإذ نحن فى عام كثير نزائله
وإذ نحن فى أرض الحجاز وبيننا ... مسيرة شهر بينهن بلابله
وإذ أرطبون الروم يحمي بلاده ... يحاوره قرم هناك يساجله
فلما رأى الفاروق أزمان فتحها ... سما بجنود الله كيما يصاوله
فلما أحسوه وخافوا صواله ... أتوه وقالوا : أنت ممن نواصله
وألقت إليه الشام أفلاذ بطنها ... وعيشاً خصيباً ما تعد مآكله
أباح لنا ما بين شرق ومغرب ... مواريث أعقاب بنتها قرامله
وكم مثقل لم يضطلع باحتماله ... تحمل عبئاً حين شالت شوائله[2]

ولكن الروم لم ييئسوا ، فاستمالوا القبائل العربية فى شمال الشام ، وأخرجت حملة بقيادة قسطنطين بن هرقل ، فألقت مرساها على شاطئ أنطاكية واستولت عليها وانضمت إليها القبائل المتمردة[3] . وثار الشمال على أبى عبيدة الذى ألفى نفسه محصوراً فى حمص ، فراسل الخليفة يستمده . وأزمع عمر أن يسير

(١) الطبرى/جـ ٥/ص ٢٤١٠ • وانظر الاصابة جـ ٥ ص ٦٠ ، ص ٩٢ •
(٢) الطبرى/جـ ٥/ص ٢٤١٠ •
(٣) الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ص ٥٢ •

بنفسه إلى الشام أول الأمر . ثم مالبث أن عدل تحت إلحاح صحابته من أولى الراى ، فسير الأمداد إلى أبى عبيدة . وأفلح المسلمون فى عزل القبائل العربية عن الروم ، حيث طوقها عبد الله بن عبد الله بن عتبان . فقفلت إلى مضاربها مؤثرة السلامة[1] ، حيث صالحت على ما كان من صلحها قبل ذلك . فقال عبد الله يخاطب أحد زعمائهم ويؤمنه فى نصيبين :

ألا من مبلغ عنى بجيرا   فما ببى وبينك من تعادى
فإن تقبل تلاق العدل فينا   فأنسى ما لقيت من الجهاد
وإن تدبر فما لك من نصيب   نصيبين فيلحق بالعباد
وقد ألقت نصيبين إلينا   سواد البطن بالخرج الشداد
لقد لقيت نصيبين الدواهى   بدهم الخيل والجرد الرواد[2]

وكسر المسلمون خطوط المقاومة الرومية بعد عزل القبائل عنها ، فانسحبت الحملة بالهزيمة ، وسجل الشعر اهتياج عمر لأنباء الثورة فى شمالى الشام، وإزماعه السفر إليها فقال زياد بن حنظله :

[illegible] عمر لما أتته رسائل   كأصيد يحمى صرمة الحى أغيدا
وقد عضلت بالشام أرض بأهلها   تريد من الأقوام من كان أنجدا
فلما أتاه ما أتاه أجابهم   بجيش ترى منه الشبائك سجدا
وأقبلت الشام العريضة بالذى   أراد أبو حفص وأزكى وأزيدا
فقسط فيها بينهم كل جزية   وكل رفاد كان أهنا وأحمدا[3]

وسجل الشعر أيضاً ذلك الحدث الجلل الذى ألم بأرض الشام وعاصر ضنك المسلمين فى الحجاز ، وهو طاعون عمواس المروع ، الذى أهلك كثرة من المسلمين تبلغ خمسة وعشرين ألفاً . ووقف بعمر فى الطريق عند سرغ ، بالقرب من تبوك ، فرجع نزولا على رأى الجماعة ، وأعقب رجوعه اشتداد الطاعون وفتكه ، فهلك جماعه من قادة المسلمين ووجوههم . كأبى عبيدة

(١) ابن الأثير/الكامل/جـ ٢ ص ٢٢٤   (٣) ياقوت / جـ ٤ / ص ٧٨٨ ، ٧٨٩ .
(٢) الطبرى/حـ ٥/ص ٢٤١١ .

ومعاذ بن جبل ويزيد بن أبي سفيان والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وغيرهم ، ويروى شعر طريف فى تصوير هذا البلاء وفعله فى المسلمين ، وإخلادهم إلى الإيمان بالقـدر والجبر ، كما عبر عن ذلك أحد المسلمين عندما رأى غلاماً هارباً على حمار فقال :

لن يعجـزوا الله على حمـار ولا على ذى غـرة مطـار
قد يصبح الموت أمام السارى[1]

وشكا بعض المسلمين من اجتماع الطاعون والطعن، كقول عبد الله بن سبرة :

إن أقبل الطعن فالطاعون يرصدنى كيف التقاء على طعن وطاعون[2]

وكذلك سجل الشعر بعض الحوادث العامة فى تاريخ الفتح الإسلامى ، كأمر ابن الخطاب بطبخ الأنبذة حتى يذهب ثلثاها ، حينما بلغه وقوع بعض الجند فى الخمر . وقد روى بعض المؤرخين ارتباط ذلك بما ابتلى به المسلمون من الطاعون ، فقال ذو الكلاع فى رثاء الخمر :

ألم تر أن الدهر يعثر بالفـتى وليس على صرف المنون بقادر
صبرت ولم أجزع وقد مات إخوتى ولست على الصهباء يوماً بصابر
رماها أمـير المؤمنين بحتفهـا فخلانها يبكون حول المعاصر[3]

وهكذا يعطينا الشعر فى الشام صورة باهتة وناقصة لحوادث الفتح ولمشاعر الفاتحين ، ولكنها تبدو أكثر إشراقاً أمام الصورة التى يعطيها لنا الشعر فى فتوح مصر وأفريقيا .

٣ — الشعر فى مصر وأفريقية

كنا قد التمسنا العذر لميدان الشام فى قلة المحصول الشعرى للفتوح ، لأن الفاتحين لم يتخذوا بها مساكن ولم يختطوا فيها خططاً ، وبأن آماد الفتح وأبعاده

---

(١) الطبرى/جـ ٥/ص ٢٥٢١ .
(٢) الاصابة/جـ ٥/ص ٦٠ .
(٣) الاصابة/جـ ٢/ص ١٨٣ .

لم تيسر لهم الانطلاقه الطويلة التي يسرها امتداد الفتح فى آماد الأرض المنفسحة فى خراسان .

فما العذر الذى يمكن أن نتذرع به أمام ندرة المحصول الشعرى للفتوح فى مصر ، وقد اختط العرب خططاً ، وأقاموا بها يحاربون الروم ، ويقضون على فتنهم وغدرهم قرابة ثمانى سنوات ، بينما كانت آماد الفتح ليست ذات حدود فى الانطلاق عبر أفريقيا والسودان انطلاقة واسعة ؟

إن القبائل التى شكلت جند الشام وأمداده هى نفس القبائل التى فتحت مصر واستقرت فيها من بعد الفتح ، وإذا كنا لا حظنا أن قوات من العرب النزاريين قد حاربت فى الشام فترة تحت إمرة خالد بن الوليد ويزيد بن أبى سفيان فتركت آثاراً لها فى شعر الفتوح هى تقريباً كل ما لدينا من هذا الشعر فإننا نلاحظ هنا : هجرة قبائل معينة ، اشتهرت بالشعر ، وأقامت بمصر إقامة دائمة ، وأشهر هذه القبائل : قبيلة هذيل ، وبرغم هذا — فليست لها آثار تدل على اشتراكها فى الفتوح اشتراكاً واضحاً ، وقد هاجرت هذه القبيلة إلى مصر فى أعداد كبيرة ، جعلت بعض المؤرخين المتقدمين يعتقدون أنه لم يعد لها فى الحجاز حى يطرق[1] . وظهرت آثار هذه الهجرات الضخمة فوصفوا إقفار ديارهم ، وخلوها بعد هجرة ذويهم ، كما نجد فى شعر البريق ابن عياض وأبى صخر والحارث بن أسامة[2] .

وعلى الرغم من أن هذه الأشعار وجدت بسبب من الفتوح إلا أنها لا تدل بطبيعة الحال على حوادثها ولا تتعرض لها على الإطلاق .

وهناك قصيدة تروى لأبى العيال الهذلى أحد الذين اشتركوا فى الفتوح بمصر والشام يتحدث فيها عن الحرب والحصار ، ويوجهها إلى معاوية بن أبى سفيان ، وعمرو بن العاص ، وعبد الله بن سعد بن أبى سرح على صورة

---

(١) ابن خلدون/جـ ٢/ص٣١٩ .

(٢) انظر ديوان الهذليين/جـ ٢/ص١٩٩، ٢٠٢ ، جـ ٣/ص ٥٨ .

رسالة . ويذكر أنها كانت على زمن معاوية . ولكننا نعجب لذكر والي مصر فى عهد عمر وعثمان فى هذه القصيدة التى تسير على هذا النحو :

من أبى العيال أبى هذيل فاعرفوا … قولى ولا تتجمجموا ما أرسل
أبلغ معاوية بن صخر آية … يهوى إليه بها البريد المعجل
والمرء عمرا فأته بصحيفة … منى يلوح بها الكتاب المنمل
وإلى ابن سعد إن أؤخره فقد … أزرى بنا فى قسمة إذ يعدل
وإلى أولى الأحلام حيث لقيتهم … حيث البقية والكتاب المنزل
أنا لقينا بعدكم بديارنا … من جانب الأمراج يوماً يسأل
أمراً تضيق به الصدور ودونه … مهج النفوس وليس عنه معدل
فى كل معركة يرى منا فتى … يهوى كعزلاء المزادة يزغل
أو سيد كهل تمور دماؤه … أو جانح فى صدر رمح يسعل
حتى إذا رجب تخلى وانقضى … وجماديان وجاء شهر مقبل
شعبان قدرنا لوفق رحيلهم … سبعاً يعد لها الوفاء فتكمل
وتجردت حرب يكون حلابها … علقاً ويمريها الغوى المبطل
فاستقبلوا طرف الصعيد إقامة … طوراً وطوراً رحلة فتنقل
فترى النبال تعير فى أقطارنا … شمساً كأن نصالهن السنبل
وترى الرماح كأنما هى بيننا … أشطان بئر يوغلون ونوغل(1)

وفى رأينا أن القصيدة كانت فى محاولة الروم استعادة مصر للمرة الثانية ، بحملة منويل الداخلة فى مشروع قسطانز ، لاستعادة الامبراطورية الرومية . لمصر والشام . وهذه الحملة كانت فى عام ٢٥ هـ ، فى الوقت الذى كان فيه معاوية بن أبى سفيان والياً للشام . ويعمل بكل قواه رد طرف الحملة الثانى عن الشام ، إذ كانت حملة مزدوجة ذات شعبتين . وليست هناك حوادث

(١) وقد لاحظ بعض الدارسين : أن القصيدة ليست كاملة . وأن تسلسل الفكرة فيها منعدم . (مصر العربية) (ص ٩٢) وانظر القصيدة فى ديوان الهزليين جـ ٢ ص ٢٥٢ والاصابة جـ ٧ ص ١٤٣ .

تاريخية جمعت بين هؤلاء الذين يتوجه إليهم الشاعر برسالته إلا هذه الحادثة ، فمعاوية أمير الشام يقضى على حملة مانويل فى الشام ، وتمنى أمامه بهزيمة فادحة . وعبد الله بن سعد هو أمير مصر ، وعمرو بن العاص فاتحها ، وأميرها السابق الذى تصدى لهذه الحملة بعد أن أتى به الخليفة وكلفه بها . وقد توغلت حملة مانويل داخل الأراضى المصرية ، وكان عددها كبيراً ، إذ قدمت فى ثلاثمائة سفينة[1] ، وتقــدمت من الإسكندرية التى استسلمت مباشرة إلى حصن بابليون ، ووقفت على أطراف الصــعيد كما يقول أبو العيـــال ونهد عمرو إليها فى نقيوس ، حيث أذاقها الهزيمة ، فعـــادت تتحصن بالإسكندرية وتنصب المجانيق على أسوارها ، فسواها عمرو بالتراب . ودخل المدينة فى الوقت الذى انتهى منه معاوية من القضاء على شق الحملة فى الشام .

والقصيدة فى جملتها ليست إلا استصراخاً للأمراء المعنيين بأمر الدفاع عن مصر والشام لرد العدوان الذى تعرضت له ، وإجلاء المعتدين الذين أقاموا بالبلاد ما يقرب من أربعة أشهر .

وتجمع الروايات التاريخية على أن أبا ذؤيب الهذلى قد خرج إلى مصر يريد الغزو فى أفريقيا مع جيش عبد الله بن سعد بن أبى سرح سنة ٢٦ هـ[2] ، ولكنها تختلف فى أمر بنيه الخمسة ، الذين ذكر أنهم لاقوا حتفهم فى مصر أو فى غيرها ولكن بعض الروايات تؤكد أنهم هلكوا بالطاعون فى مصر[3] . وقد رثاهم أبو ذؤيب بقصيدة من عيون الشعر العربى[4] ، سنتعرض لها فيما بعد .

وقد رأى بعض الدارسين : أن أبا ذؤيب قد يكون قال بمصر قصيدته

(١) ابن عبد الحكم ص ١٥٧ .

(٢) انظر أغانى دار الكتب جـ ٦ ص ٥٦ ، الشعر والشــعراء جـ ٢ ص ٦٣٥ ، وفتوح البلدان ص ٢٢٦ وابن الأثير جـ ٣ ص ٧٠ ، الاصابة جـ ٧ ص ٦٣ .

(٣) الخزانة جـ ١/ص ٢٠٣ .

(٤) ديوان الهذليين/جـ ١/ص ١ – ٢ – الاستيعاب ص ٦٦٥ ، أسد الغابة جـ ٥ /ص ١٩٠ الاصابة/جـ ٧/ص ٦٤ .

التى يذكر فيها بلاء عبد الله بن الزبير فى فتح أفريقية[1] ، وهذا شىء لا تدل عليه القصيدة ولكنها تدل فى وضوح على ظروفها ومناسبتها وتؤيدها الروايات التاريخية التى عرضت لفتح أفريقية كما سنرى .

وهكذا يشعر الدارس لشعر الفتح الإسلامى فى مصر بالأسف ولا يملك إلا أن يتعلل بما يتعلل به غيره من الدارسين . من ضياع شعر القبائل التى نزلت مصر . إذ لا يمكننا أن نتصور أن تحدث هذه الفتوح الخطيرة فى مصر ، وأن تقع الوقائع العنيفة هذه فى بابليون ، وأم دنين، وعين شمس ، والكريون والاسكندرية ولا يكون لها أثر فى الشعر ، بل من العجيب حقاً أن يقتتل المسلمون مع الروم فى الكريون بضعة عشر يوماً متصلة — حتى يصلى عمرو صلاة الخوف — ولا نجد لذلك أثراً إلا فى إشارة نكثير فيما بعد الفتح بسنوات عديدة حينما قال :

ومرت سراعاً عيرها وكأنها دوافع بالكريون ذات قلوع[2]

وتروى بعض الروايات أبياتاً قليلة من الرجز ، منسوبة إلى عمرو بن العاص ، وتذكر أنه قالها فى حصار بابليون ، يصف فيها المنجنيق على هذا النمط :

يوم لهمدان ويوم للصدف
والمنجنيق فى بلى تختلف
وعمرو يرقل إرقال الشيخ الخرف[3]

وتذهب بعض الروايات الأخرى : إلى أنه قالها فى معركة صفين[4] ولكننا لا نستطيع أن نعتقد أن عمراً قال هذه الأبيات . ونحن لا ننكر أن لعمرو شعراً كثيراً روته كتب التاريخ . على عادة الرواة الذين لا يكادون يتركون واحداً من الصحابة من غير أن يرووا له شعراً . والذى يمنعنا من الاعتقاد فى صحه نسبة هذه الأبيات إلى عمرو واضح فى الأبيات نفسها ، فليس عمرو بن العاص باعتداده بنفسه وشموخه واعتزازه هو الذى يقول عن نفسه هذا القول ، ويصف نفسه بهذا الوصف .

---

(١) مصر العربية ص ١٠٤ .
(٢) ياقوت/جـ ٤/ص ٤٧١
(٣) ابن عبد الحكم ١٦٢ .
(٤) وقعة صفين/ص ٤٦٣ .

ولا نجد أثراً لمغامرات المسلمين في بلاد النوبة واستعصائها عليهم في الشعر ، فلم يهتج شاعر مثلا لوصف ماجري من معارك عنيفة ، ذهبت فيها رماح القوم بأحداق المسلمين .

وفي أفريقية التي فتحها عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، والتقى فيها بجرجير في معركة عنيفة ، وأصاب المسلمون فيها غنائم وفيرة لا نجد مايصور هذه الأحداث ، إلا أبياتاً لأبي ذؤيب الهذلي ، يمدح فيها عبد الله بن الزبير الذي اغتنم فرصة قتل فيها جرجير . ويبدأ أبو ذؤيب أبياته بالنسيب وينتقل منه إلى وصف السحاب ، ثم يعود إلى النسيب فيخلطه بمدح ابن الزبير ويشير إلى رحلتهما معاً فيقول :

وصاحب صـــدق كسيد الضرا ء ينهض في الغزو نهضاً نجيحـــا
وشيك الفضول بطئ القفــو ل إلا مشاحاً به أو مشيحـــا
يريع الغـــزاة وما أن يريـــ ـــع مضطمراً طـــرتاه طليحـــا
كسيف المـــرادئ لا ناكـــلا جبـــاناً ولا جيدرياً قبيحـــا
قد أبقى لك الأين من جسمـــه نواشر سيـــد ووجها صبيحـــا
أربت لأربتـــه فانطلقـــــ ـــت أزجي لحب الإياب السنيحا
على طـــرق كنحـــور الركـــا ب تحسب آرامهن الصروحا
بهن نعـــام بنـــاها الرجـــا ل تبقى النقائض فيها السريحا[1]

والأبيات تعطي الصورة لتوثق أواصر الصداقة بين الرجلين ومتابعة الشاعر للفارس في انطلاقته ، وربما تبرر هذه الصداقة ما يروى من تلازمهما حتى ليكون ابن الزبير هو الذي يوسد الشاعر في ضجعته الأخيرة منصرفهما من غزوة أفريقية في بعض الروايات [2] . وقد قال الشاعر المجاهد وهو يستعد لرقلته الأخيرة واصفاً حفرته التي دفن فيها :

---

(١) ديوان الهذليين/ج ١/ص ١٣٥ ـ ١٣٦ ، الأغاني (دار الكتب) ج ٦ ص ٢٦٦ وابن قتيبة/ج ٢/ص ٦٣٥ .

(٢) أسد الغابة ج ٥/ص ١٨٩ ، الاستيعاب، ص ٦٦٦ ، الخزانة/ج ١ ص ٢٠٣ .

مطأطأة لم ينبطـوها وإنهـا ليرضى بها فراطهـا أمّ واحد
قضوا ما قضوا من رّمها ثم أقبلوا إلىّ بطاء المشى غبر الســواعد
فكنت دنوب البئر لما تبسلت وسربلت أكفانى وسدت ساعدى(١)

ولسنا نجد ظلاً ولو باهتاً يصور انسياح الفاتحين فى أفريقية وفتحهم لبرقة وطرابلس وما بينهما وما حولهما كودّان وفزّان ، اللهم إلا ما يتردد فى كتب التاريخ من شكوى المسلمين من اختصاص الخليفة عثمان بن عفان لمروان بن الحكم بخمس الفىء الذى جاء من أفريقية ، فيقول عبد الرحمن بن حنبل فى هذا المعنى :

وأحلف بالله جهـد اليمـين ما ترك الله أمـراً سـدى
ولكن جعلت لنـا فتنـة لـكى نبتلى باك أو نبتـلى
دعـوت الطـريد فأدنيتـه خـلافاً لمـا سنه المصطـفى
ووليت قرباك أمـر العبـاد خـلافاً لسنة ما قـد مضى
وأعطيت مروان خمس الغنيمـ ـمة آثرته وحميت الحمى
ومالا آتاك به الأشعـرى من الفىء أعطيتـه من دنـا
فإن الأمينين قـد بينـا منـار الطريق عليه الهـدى
فما أخـذا درهمـاً غيلـة ولا قسما درهماً فى هـوى(٢)

وجلى أن هذه الأبيات لم يقلها الشاعر فى المعركة ، وإنما قالها فى شبه الجزيرة ، يلوم فيها على الخليفة تفريطه فىء المسلمين ومحاباته أقاربه . وليس هناك أشعار وراء هذه الأبياتَ التى لا تصور من الفتح إلا جانباً فردياً شاحباً من جوانب المعركة . وبذلك لا نجد فى الشعر آثاراً للتجربة الهائلة التى كنا نتوقع أن نرى لها نتائج أدبية خطيرة ، لما كان من عنف المعارك . وقسوة القتال ، واختلاف البيئة وجدبها على الفاتحين . وغنائها بالعناصر الجديرة بالوصف ، والملهمة بالتعبير .

---

(١) الشعر والشعراء جـ ٢ ص ٦٤٠ — ٦٤١ .
(٢) الاستيعاب جـ ١ ص ٤١٠ ، ٤١١ ، أغانى دار الكتب جـ ٦/ ص ٢٦٨ .

ولهذا لا يمكننا أن نعزو انعدام التعبير الشعرى هنا لانعدام المثيرات ، فإن التجربة حافلة بالأحداث المثيرة . و لأحاسيس المختلفة الحقيقة بالتعبير والتصوير .

ولا نملك إزاء ما نجد من تقصير الشعر فى رسم جوانب تجربة الفتوح الإسلامية فى الشام . وندرة الشعر أو انعدامه فى مصر وأفريقية ، إلا أن نقرر ما سبق أن قررناه من أن جل الفاتحين لهذه الميادين كانوا من عرب اليمن ، الذين لم يرزقوا ما رزق العدنانيون من اقتدار على التعبير الشعرى ، وأن ما وجد فى الشام من الشعر لم يكن إلا نتيجة لوجود بعض القبائل العدنانية التى استقرت لفترة ثم رحلت ، وأن ما وجد بمصر لم يكن إلا نتيجة لوجود بعض قبائل عدنان الشهيرة بالشعر . وربما ضاع فى مصر شعر لقبائل أخرى لم تصل إلينا دواوينهم ، كما وصل إلينا ديوان هذيل . ولا شك أن من أهم الأسباب الفاعلة فى قلة الشعر فى مصر والشام أنه لم يدون ، وأن الذين كتبوا عن الفتوح كانوا فى جملتهم من مؤرخى العراق ورواته ، وكذلك كان رواة الشعر . ومن ثم ضاع الشعر الذى نظم فى الفتوح بغربى الدولة . على أنا كما قدمنا نفترض إلى جانب ذلك أن قلته ترجع إلى أن كثرة القبائل المهاجرة هنالك كانت يمنية ، والشعر فى مضر لافى اليمن . ومما يدل على ما نذهب إليه من ذلك أن مسألة مثل فشو اللحن على ألسنة العرب الفصحاء حينما تعرض لها الجاحظ فى البيان والتبيين لم يذكر لنا شيئاً عن مصر ، وإن كان ذكر عرضاً شيئاً عن لحن بعض الخلفاء الأمويين ، ولكنه لم يعرض للشعب العربى فى الشام ومصر ، وفى نفس الوقت نراه يعرض فى تفصيل لفشو اللحن على ألسنة الكوفيين والبصريين ، وما ذلك إلا لأن الرواة كانوا من العراق ، وعنوا بتدوين كل ما يتصل به ، ولم يعنوا بتدوين الظواهر اللغوية فى الغرب .

ومعنى ذلك أن الشام ومصر وشعراءهما حتى فى العصر الأموى لا يأخذون مجالا واسعاً فى الرواية الأدبية أو اللغوية ، فما بالنا بعصر الفتوح ؟

الباب الثانى

شُعَراءُ الفُتُوح

الفصل الأول

شعراء متنوعون

١ ـ الفتوح تذكى جذوة الشعر العربى

قال ابن سلام : « جاء الإسلام فتشاغلت العرب عن الشعر ، تشاغلوا عنه بالجهاد ، وغزو فارس والروم . ولهيت عن الشعر وروايته [1] » .

وهذا القول الذى يجانب الصواب لم يقتصر على ابن سلام وحده ، وإنما تابعه فيه كثير من الدارسين حتى استحال عصر صدر الإسلام لدى بعضهم إلى عصر ركود أدبى ، ولدى بعض المعتدلين منهم إلى عصر هدوء أدبى .

والحقيقة الواضحة أن الإسلام لم يحمل العرب على الانشغال عن الشعر وروايته ، لأنه لم يكن يملك هذا لو أراد ، ولم يكن له أن يريد هذا الأمر مع ما للشعر من سلطان على نفوس العرب . ذلك أنه علم قوم لم يكن لهم علم غيره [2].

وكل ما كان من آثار لمجىء الإسلام على الشعر أنه حاول تغيير مهمته فى الحياة العربية وتزويده بقيم وأهداف جديدة تتفق وطبيعة الفكرة الإسلامية فأخذ يخلع طوابعه الخاصة على الشعر ، ليتحول من ألهية تتلهى بها طبقة معينة من الناس إلى وسيلة نافعة ، تسخر من أجل مجموع المسلمين ، وتكون بمثابة طاقة نفسية تخدم هذه الجماعة ، وتعمل فى سبيل غاياتها ومثلها .

---

(١) طبقات الشعراء / ص ١٠ .

(٢) ابن سلام / ص ١٠ ، العمدة جـ ١ / ص ٩ .

ومن ثم كان على الشعر أن يطرح عنه مفهومه القديم ، وأن يتقيد بقيم معينة ، فرضها الدين الجديد ، وأن يستهدف غاياته الرفيعة إذا أراد أن يكون له وجود في هذه الحياة الجديدة ، وإلا كان من الخير أن يصمت .

ومادامت الحياة العربية بجميع مظاهرها قد تعرضت للتغيير فإن الشعر يصبح فاقداً لكل قيمة ، إذا لم يتجاوب معها فيصورها من كافة أقطارها ، في ظلال القيم الجديدة التي أصابت حياة الناس بالتغيير ، والإسلام فضلا عن كونه رسالة دينية ليس إلا نمطاً من أنماط السلوك وأسلوباً من أساليب التفكير ، ولابد له من ثم أن يترك آثاره على الحياة الفنية .

هكذا كان على الشعر أن يكون قوة ذات أثر في نطاق من حقائق الدين وغاياته ، وإلا كان من الطبيعي أن يجد الناس طلبتهم فيما جاءهم به الدين الجديد من آيات كتابة المعجز ، وأحاديث رسوله وخطبه ، وأكد هذه القيمة التي اكتسبها الشعر أن الإسلام حركة فكرية لها وجهها الأدبي ، بل إن الإعجاز الأدبي كان أكثر جوانبها تألقاً وإغراء للعرب واجتذاباً لهم ، وأن طبيعة العقل العربي وما جاء به الدين الإسلامي من تعاليم لم يفسحا مجالاً ما للون من ألوان الفنون الأخرى ، فلم يكن أمام تلك الطاقات المختزنه في النفس المسلمة إلا أن تجد لها متسرباً في الشعر لا تعدوه ، طالما يتجاوب مع حياتها الجديدة .

وكان للصراع بين الدين الجديد وأعدائه أثر كبير في تأكيد قيمة الشعر العربي وتحديد مهمته في تثبيت بدعائم الفكرة الإسلامية ، ودحض افتراءات أعدائها . فقد انطلق مشركو مكة يغرون شعراءهم بالإسلام وبنبيه ، وكان لذلك أثره في نفس النبي وصحابته المسلمين ، نتيجة إحساسهم بخطر هذا السلاح في تعويق الدعوة والتنفير منها وتشويهها ، وإفساد عمل دعاتها ، وبخاصة بين أولئك الذين لم تستقر في قلوبهم وعقولهم بعد الملامح الجديدة للعقيدة ، وأولئك الذين يعطون لهذا الشعر الذي يصدر عن مكة وعن شعراء من قوم النبي قيمة خاصة .

وكان - وريا - والأمر كذلك - أن يخوض الشعر الإسلامي معركة عنيفة ضد أعداء الإسلام ، خلع عليه فيها نبي الإسلام كل تأييده وحفزه وتشجيعه ، فناب الشعراء وأهاجهم واستحثهم ، وكان ينتشي لمنافحتهم ويدعو لهم[1] ، وهذا كله يعني تقدير النبي صلى الله عليه وسلم لخطر الشعر وقيمته ، لأن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه ، وشعر المسلمين أشد على الكفار من نضح النبل . ويتجلى تقدير النبي للشعر فيما خلعه على الشعراء الذين تقيدوا بالقيم الإسلامية وما حباهم به من عطفه ، كما يتجلى في موقفه من شعراء قريش الذين بلغت قسوتهم في الحملة عليه وعلى الإسلام حد أن توعدهم بالقتل ، وقتل بعضهم فيما بعد[2] .

وكل ما نريد أن نوضحه أن الإسلام لم يقف من الشعر موقفاً عدائياً ولم يحاول أن يحمل العرب على الانشغال عنه ، وإنما كان موقفه منه كموقفه من كل مظاهر الحياة المتخلفة عن الجاهلية ، إذ حاول أن ينفي عنها طوابعها التي لا تتلاءم مع الدعوة الإسلامية ، ثم يدفعها للإنسياق في إتجاهات الحياة الإسلامية ومتطلباتها ، في نطاق من تعاليم الدين الجديد .

فلم يكن من هدف الدين الإسلامي ، ولا من هدف رسوله في شيء أن يحول بين العرب وبين الشعر . وإنما كان الهدف أن يوضع الشعر موضعه ، وأن يخطط له بما يجعله ذا قيمة فاعلة في حياة المسلمين ، لما كان يدركه من عمق الصلة بين حياة العرب وبينه .. وأنه لن يستطيع أن يقصر حياتهم الفنية على ما كان من إعجاز القرآن وترتيله ، ومن ثم - فقد آثر أن يحوله عن وجهته الجاهلية إلى هذا الأفق الجديد ، فحرض الشعراء ، ودعا لهم وأغراهم على السير فيه ، بينما ضرب على أيدي الشعراء الذين ظلوا يعيشون بمفاهيم جاهلية ، يتخذونها وسيلة لمحاربة الإسلام والتنفير منه ، وإثارة الفتن والعصبيات ، وإيذاء النفوس ، وإشاعة البغضاء بين المسلمين .

---

(١) العمدة / جـ ١ ص ١٢ . (٢) العمدة جـ ١ / ص ٧ .

حمل الإسلام حملة شعواء على هؤلاء الشعراء وعلى شعرهم، تجلت في سورة الشعراء ، وفى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، فصورهم فى صورة بشعة ، ولم يستثن منهم إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا ، وهؤلاء هم الذين نافحوا عن الدين ، وذادوا عن العقيدة .

ولم يكن من اليسير أن تتغير مفاهيم الشعر وقيمه بين ليلة وضحاها ، فهذه القيم قد رافقت الشعر أجيالاً طويلة . وليس فى الإمكان طرحها دفعة واحدة واستبدالها بقيم إسلامية تحل محلها ، وإنما احتاج الأمر إلى بعض الوقت الذى تبعد فيه الحياة تدريجياً عن رواسب الماضى ، وتترسب هذه القيم الجديدة فى النفوس رويداً رويداً .

وكان طبيعياً أن يخفت صوت الشعراء وإن لم يصمت ، فقد ظل الشعراء المؤمنون يقومون برسالتهم فى رد سهام المشركين وحماية العقيدة ونصرتها ، إذ كانوا أعمق فهماً لرسالة الإسلام ، وأسرع استجابه لهـــا دون غيرها .

وخفت صوت الشعر أمام المثل الإسلامية الجديدة ، التى تختلف تمام الاختلاف عن المثل الجاهلية التى اعتاد الشعر تصويرها والتحدث عنها ، وفقد الآن حرية التعامل بقيمها وصورها وألوانها وأجوائها ، وفقدت هى — من جانب آخر — طلاوتها ، لأنها لم تعد ذكريات فاعلة عزيزة فى تكوين الفرد والجماعة الجديدة داخل إطارها الجديد ، وإن ظلت جزءاً من ماضيه ، يأنف منه ويزدريه .

ووجد الناس ما ينشدون من هذه المثل الإسلامية فى القرآن الكريم ، وإدمان القراءة فيه وتفهمه ، وازداد صوت الشعر خفوتاً عندما أخذ اهتمام الناس ينتقل من قراءة القرآن وتفهمه ككتاب مقدس للدعوة الإسلامية إلى كتاب أدبى ، يفوق بروعته وبيانه ما ورثوه من تليد الشعر ، ويتجاوز سحره طاقة البشر ويطرح وراءه كل الشعراء المجيدين .

فهذه طائفة من صحابة الرسول تتبدل من عنايتها بالشعر وروايته

مصر جميعها . وأخذوا كذلك فى حفر قناة تراجان ، وما تمضى ثلاث سنوات حتى يحيك قسطنطين بن هرقل مؤامرة تستهدف استنقاذ مصر ، بقيادة (منويل) الخصى الأرمنى ، الذى نزل الإسكندرية فى أسطول بيزنطى كبير ، فاحتل الإسكندرية ونكل بالمسلمين تنكيلا . ويضطر عثمان بن عفان خليفة المسلمين حينذاك إلى أن يصلح الأمر بما صلح به أوله ، فاستدعى عمرو بن العاص ذلك الفاتح الرائد ، ليعين والى مصر عبد الله بن سعد ابن أبى سرح لدرايته بحرب الروم ، بناء على رغبة أهل مصر(١).

وبرغم استماتة الروم فقد أذاقهم عمرو نفس الكأس ، وهزمهم هزيمة منكرة عند نقيوس ، وعاد منويل طائراً إلى الإسكندرية فتحصن بها ، ونصب المجانيق على أسوارها(٢) . ويقف عمرو أمام هذه الأسوار التى دوخته من قبل ، ليقسم أن يسوى التراب بها ، وأن يجعلها كبيت الزانية يؤتى من كل مكان ، واحتال حتى استمال حراس المدينة ، ثم أعمل السيف فى حاميتها وقتل منويل ، وكان ذلك فى السنة الخامسة والعشرين للهجرة(٣).

وعلى الرغم من ذلك فإن الروم لم تيئسهم هزيمتهم ، فقد حاولوا بعد تسع سنوات فى عهد الإمبراطور قسطانز أن يعاودوا هجماتهم البحرية ، وأعدوا لذلك أسطولا جديداً ، غير أن المسلمين كانوا قد ركبوا البحر وحذقوا حروبه ، فأوقعوا بالأسطول البيزنطى ، ولقيت فلوله عاصفة هوجاء أتت عليها ، وهكذا استتب الأمر فى مصر للمسلمين(٤) .

•

خضع للمسلمين إقليم مصر ، من الإسكندرية إلى أسوان ، ورأى عمرو أن تتجه بعض بعوث الجيش إلى الجنوب لتأمين الحدود ، حيث تضرب القبائل فى أرض النوبة ، تلك الأرض التى تشبه أرض شبه الجزيرة ،

---

(١) البلاذرى/ص ٢٢٣ .
(٢) النجوم الزاهرة/ص ٦٥ – ٦٦ .
(٣) المقريزى/حـ ١ ص ١٦٧ .
(٤) بتلر/ص ٤٢٤ .

إذ تغلب عليها الصحراء ، وتربطها بها صلات تجارية دفعت بعض التجار العرب فى الجاهلية إلى التسرب إليها .

ولعل هذا الشبه وهذه الصلات ، وما كان من غلبة المسلمين على مصر ، ومتاخمتهم لأرض النوبة هى التى أغرتهم بهذه البعوث .

ويروى البلاذى ، أن جيش المسلمين بقيادة عقبة بن نافع الفهرى اضطر أن يعود بعد معركة قاسية ، أصابت فيها سهام أهل النوبة أحداق المسلمين ، فقفلوا بالجراحات ، وذهاب الحدق من جودة الرمى ، وسمى أهل النوبة برماة الحدق[1] . وظل القتال ينشب بعد ذلك حتى انتهى إلى الصلح على هدية عدة رءوس منهم يؤدونها إلى المسلمين فى كل سنة ، ويهدى إليهم المسلمون كل سنة طعاماً مسمى ، وكسوة من نحو ذلك[2] . وقد أمضى هذا الصلح عثمان بن عفان ، فى ولاية عبد الله بن سعد بن أبى سرح ،وأقره الولاة والأمراء من بعده نظراً منه للمسلمين وإبقاء عليهم[3].

ويبدو من هذا أن الجنوب قد استعصى ، حتى إن الخليفة يضطر إلى قبول هذا الصلح إبقاء على المسلمين . وهذا يوضح ما كان من صدوف المسلمين عن هذا الميدان ، إذ لم يجدوا ما يغريهم فيه ، فمضوا عنه يجوبون البلاد فى غربى مصر ، ويجهزون على ما تبقى من ولايات بيزنطة فى هذا الصقع من الأرض .

*

كان ضرورياً أن تؤمن حدود مصر الغربية ضد هجمات الروم ، إذا حدثتهم أنفسهم باستردادها . فحدود مصر الغربية تلاصق ولاية ليبيا البيزنطية فى هذا الوقت ، وكانتا تحت الحكم البيزنطى سواء ، وكثيراً ما كان إقليم مريوط يضاف إلى ليبيا تعويضاً عن إقفارها(٤) .

---

(١) الطبرى ١ ، ٥ ، ٢٥٩٣ وسكت عن ذكر القائد .

(٢) نفس المرجع .

(٣) نفس المرجع .

(٤) بتلر ص ١٠ .

فسار عمرو في أواخر سنة ٢١ هـ بعد فتح الإسكندرية في كتيبة من فرسانه حتى وصل إلى برقة ، وهي حد مصر من الغرب ، ولم يلق المسلمون في فتحها كبير كبد ، إذ لم يذهب إليها غير الخيل ، ويغلب أن تكون قد فتحت صلحاً[١] ، ثم بعث عمرو عقبة بن نافع الفهري فافتتح زويلة صلحاً ، وأصبح ما بين برقة وزويلة ملكاً للمسلمين[٢]. وسار عمرو حتى وصل إلى طرابلس ، وحاصرها عدة أسابيع إلى أن استسلمت ، بعد أن كاد الجوع وشدة القتال يهلكان أهلها ، وعاد من ثم إلى برقة ، فكتب إلى أمير المؤمنين عمر (إنا قد بلغنا طرابلس ، وبينها وبين أفريقية (تونس) تسعة أيام ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا في غزوها فعل) . فكتب إليه عمر ينهاه ، ويأمره بالوقوف عند هذا الحد ، فعاد من هناك كارها ، واستخلف عقبة بن نافع الفهري ، الذي صار إليه بعد ذلك فتح المغرب[٣]. وإن كان فتح برقة وطرابلس مؤمناً لحدود مصر ، فإنه كان من ناحية أخرى مقدمة للانسياح في أفريقية . وقد ساعد على هـذا أن هاتين البلدتين كانتا هادئتين ، وكان أهلهما يبعثون بخراجهم إلى والى مصر ، من غير أن يأتيهم حاث أو مستحث ، ولم تدخل بلادهم فتنة[٤] .

وأخذ المسلمون يتوسعون في المناطق الداخلية في برقة وطرابلس ، فاستولوا على فزان وودان ، وتولى الأولى بشر بن أبي أرطاة ، والثانيـة عقبة بن نافع . وكان ذلك في أوائل سنة ٢٣ هـ . وتقدم المسلمون غربي طرابلس إلى سبرت[٥] . ومن ثم أخذ اسم عقبة بن نافع يتلألأ في هـذه المناطق ، وتوالت البعوث الإسلاميـة للاستطلاع . فكان عمرو يرسل الجريدة من الخيل فتصيب الغنائم ثم ترجع[٦] . وكذلك فعل عبد الله بن سعد بن أبي سرح[٧] .

(١) السيوطي جـ ١ ص ٦٣ .

(٢) الطبري ١/٥/٢٦٤٦ والبلاذري ص ٢٢٤ .

(٣) البلاذري ص ٢٣٣ .

(٤) البلاذري ص ٢٢٤ .

(٥) ابن الحكم ص ١٧٢ .

(٦) ابن عبد الحكم ص ١٧٣ .

(٧) ابن عبد الحكم ص ١٧٣ .

وفى عهد عثمان استأذن عبد الله بن سعد بن أبى سرح فى فتح إفريقية سنة ٢٥هـ فأذن الخليفة له بعد المشورة ، وانتدب الناس ، وأمر عليهم الحارث ابن الحكم ، إلى أن يقدموا على عبد الله فيكون له الأمر(١) .

وتقدم عبد الله فى عشرين ألفاً ، حيث دارت معركة عنيفة بين المسلمين بقيادته وجيش جرجير وانتصر المسلمون بعد ما قتل عبد الله بن الزبير جرجير ، واضطر جيشه للهرب ، وتعقبه المسلمون وبثوا سراياهم فى المنطقة ، فعادوا بغنائم كثيرة . ولما رأى ذلك رؤساء أفريقية طلبوا إلى ابن أبى سرح أن يصالحهم على الخروج من بلادهم . وأن يأخذ فى مقابل ذلك أموالا ، فقبل ورجع إلى مصر ، دون أن يولى أحداً عليها ، أو يتخذ قيروانا(٢) مكتفياً بالريادة والاستطلاع ، وما حاز من غنائم ، وربما كان سبب هذا الإجراء وصول أنباء حملة قسطنطين إليه .

ثم لانسمع شيئاً عن هذا الميدان طوال حكم الراشدين ، حيث لعبت الأحداث دورها فى تعطيل الفتح ، وأسهمت الفتنة فى صرف المسلمين عنه . ولكن عندما يجتمع الأمر لمعاوية ، ويتولى مصر معاوية بن حديج يتجه المسلمون من جديد إلى أفريقية ليدخلوها فى إطار الدولة الإسلامية .

---

(١) ابن عبد الحكم ص ١٨٣ .

(٢) ابن عبد الحكم ص ١٨٣ .

الفصل الثانى

الشعر فى الفتوح الشرقية

١ — كثرة الشعر على ألسنة الفاتحين

يكاد شعر الفتوحات الإسلامية كله أن يكون وليد الفتوح الشرقية وحدها ، ذلك أن هذا الشعر كثير كثرة مطلقة إذا ما قورن به شعر الميادين الأخرى . ولهذا يجمل بنا أن نمعن النظر فى ظروف هذه الفتوحات بالذات ، وأن نتعرف إلى هؤلاء الفاتحين الذين هاجروا إلى هذا الميدان من شبه الجزيرة العربية ، علنا نجد تفسيراً لهذه الظاهرة ، مما يعيننا على تفهم شعرهم والظروف التى صدر فيها ، ومحاولة التعرف على الفاتحين فى هذه المناطق ليست أمراً هيناً ولا يسيراً ، لكثرة الجيوش التى اندفعت إلى الفتح متتابعة وكثرة الإمدادات التى لحقت بها ، ولانعدام الأسس التى كانت تصنف بوحيها هذه الجيوش وتلك الإمدادات .

والذى يبدو جلياً للدارس أن الجيوش الإسلامية لم تكن تصنف على أية أسس أو داخل إطار معين ، فكان يحدث أن يبعث الخليفة إلى البلدان والقبائل يستنفرها ويرغبها فى الجهاد ، فتتوافى إليه الجموع من هنا وهناك ، فيصرفها فى الوجهة التى تمليها عليه ظروف الأحداث وطبيعتها . وتذكر بعض الروايات أن أمير المؤمنين كان إذا اجتمع إليه جيش من أهل الإيمان

أمر عليهم رجلا من أهل العلم والعفة (١) ، وبرغم هذا فإنه يمكن للباحث أن يلاحق هذه الجيوش وتلك الإمدادات ملاحقة دقيقة ، حتى يستطيع أن يرسم صورة تقارب الأصل أو تدل عليه . وتلقى على هذه الظاهرة بعض الضوء .

كان أول من مهد للفتح الإسلامى فى العراق المثنى بن حارثة الشيبانى ، الذى انضم إلى العلاء بن الحضرمى فى مقاتلة المرتدين ، على رأس من بقى على الإسلام من أهل هذه النواحى التى تسحل الخليج الفارسى إلى الشمال ، وقد رأينا أنه نزل فى قبائل العرب الذين يقيمون بدلتا النهرين فتحدث معهم وتعاهد ، ولا ريب فى أن هذه القبائل التى تعاهد معها وشكل منها كتيبته كانت من بكر وإياد وتغلب والنمر ولخم سكان هذه المناطق ، فضلا عن قبيلته شيبان التى كانت تنزل البحرين .

وقد صدع خالد بن الوليد بأمر أبى بكر الذى ألقاه إليه وهو باليمامة (٢) عقب فراغه من مسيلمة ، فنهد فى اللواء الذى عقده له أبو بكر لحرب المرتدين فى بنى أسد وبنى تميم ، وهو لواء اختاره خالد بنفسه ، فكان من أمنع الألوية وأقواها ، وكان به خيرة المقاتلة من المهاجرين والأنصار (٣) . وانضم إلى هذا اللواء قوم عدى بن حاتم من طيء ، فقاتلوا طليحة بن خويلد مع المسلمين . كذلك فعل كثرة جديلة : فلحق بالمسلمين منهم ألف راكب (٤) ولقد كثر فى هذا اللواء القتلى من الحفاظ ، فقل عدده وتناقص بعد ذلك ، حينما أمر أبو بكر بتسريح من يرغب فى الرجوع ، وكثرتهم من أهل المدينة ، وبألا يستفتح بمتكاره . وأمد أبو بكر خالداً حين استمده بالقعقاع بن عمرو التميمى ، ولما سأله الناس أتمد رجلا قد انفض عنه جنده برجل واحد !؟ قال : « لا يغلب جيش فيه مثل القعقاع ؛ إن صيحته فى الجيش بألف

---

(١) الطبرى ١/٥/٢٧١٤ .

(٢) الطبرى ١/٤/٢٠٢١ .

(٣) الطبرى ١/٤/٢٠٢٢ .

(٤) هيكل ـ ابوبكر ص ٢١٩ .

رجل »[1] . وبعث إليه مع القعقاع بأن يستنفر من قاتل أهل الردة ، ومن ثبت على الإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستنفر خالد الأمراء الأربعة : حرملة وسلمى والمثنى ومذعور ، واكلفوا فى ثمانية آلاف من ربيعة ومضر ، إلى ألفين كانوا معه ، وقدم بهم على جند المثنى ، ويذكر أنه كان ثمانية آلاف [2] .

أما عياض بن غنم الذى كان عليه أن يأتى العراق من أعلاه ليلتقى مع خالد فى الحيرة [3] فإنا لا نعلم شيئاً عن تكوين جنده ، ولا تفيد الروايات عنه خبراً ، وإن كان المظنون أن كثرته كانت من ربيعة ومضر .

وبطبيعة الحال لم تبق هذه النواة على حالها الأولى ، إذ انضم إليها وانسلخ عنها جند كثيرون ، والتقى خالد بهذا الجيش مع الفرس فى سلسلة من المعارك ، انتصر فيها المسلمون حتى دخل الحيرة ، وهناك وزع عماله وخلف القعقاع على الحيرة والزبرقان ابن بدر على الأنبار [4] ، ثم خرج لإغاثة عياض بدومة الجندل ، وارتد إلى الحيرة بعد أن أدى مناسك الحج ، حيث تلقى كتاباً من أبو بكر يندبه إلى الشام ، وفصل خالد فى نصف الجند[5] ، وحرص على أن يكون معه صحابة الرسول ، حتى أحفظ المثنى الذى خلفه على أمر العراق فيمن كانوا معه من قبل على الأرجح [6] .

وبرغم أن المثنى انتصر بهذا الجيش على الفرس فى بابل إلا أنه وجد نفسه بحاجة إلى الأمداد ، فخلّف بشير بن الخصاصية وانطلق إلى المدينة ، حين كان الخليفة الأول يجهز الجيوش لفتح الشام ، إثر كتاب خالد بن سعيد [7] .

وكان الخليفة مريضاً ، ويبدو أن المدينة كانت تعانى هى الأخرى نقصاً فى الرجال ، فأخذ المثنى يدافع عن وجهة نظره أمام أبى بكر فى أن يؤذن

(1) الاصابه جـ ٥ ص ٢٤٤ . (2) هيكل - ابوبكر/ص ٢١٩ .
(3) الطبرى ١/٤/٢٠٢١ .
(4) الطبرى ١/٤/٢٠٥٨ - ٢٠٦٢ ، ٢٠٦٧ .
(5) الطبرى ١/٤/٢٠٨٩ . (6) الطبرى ١/٤/٢١٢٢ .
(7) الطبرى ١/٤/٢٠٨٢ .

له باستنفار من ظهرت توبته من المرتدين[1] . ولم يمهل القدر الخليفة لينداب الناس مع المثنى ، فلحق بربه بعد أن أوصى عمر بأن يفعل ، وأن يرد كتيبة خالد إلى العراق — إن فتح الله عليهم — فإنهم أهله وأحق به[2] . واستفتح عمر عهده بتنفيذ وصية أبي بكر ، فرفع الحظر عمن عادوا إلى الإسلام من المرتدين ، واستمالهم كي يسارعوا إلى التطهر بجهادهم من حوبة ردتهم . وأخذ عمر يندب الناس أياماً أربعة ، وكان أول من انتدب أبو عبيد بن مسعود الثقفي ، فأمّره عمر على ألف من الأنصار[3] ، وأقبل المتطهرون من كل صوب ، فرمى بهم عمر إلى العراق والشام[4] .

وفى هذه القوات يسير أبو عبيد ليلحق بالمثنى وجنده يخفّان ، حيث يخوضان ضد الفرس معـــارك منتصرة ، حتى كانت معركة الجسر وقتل أبو عبيد ، وأصيب فى أربعة آلاف من جنده بين قتيل وغريق وجريح ، وفر ألفان بينما ترك المثنى فى ثلاثة آلاف[5] انسحب بهم إلى أليس ، وبعث يستمد عمر ، ولم يكتف بهذا ، فبعث فيمن يليه من قبائل العرب ، حيث توافى إليه جمع عظيم من نصارى بنى النمر .

وأخذ عمر يندب الناس ، ويلقى فى ذلك حرجاً وقسوة ، وقد كان وجه فارس من أشد الوجوه عليهم وأكرهه لهم[6] ، وزاده يوم الجسر جهامة وقسوة . وتمكن من استصلاح جرير بن عبد الله البجلى فى قومه ، بعد أن جمعهم من القبائل وأراد بهم الشام[7] ، ورأى الناس ما صنع بنو بجيلة فحذوا حذوهم ، وكان فرّار الجسر فى مقدمتهم ، ثم تابعهم بنو الأزد وعليهم عرفجة بن هرثمة البارقى وبنو كنانة وعليهم غالب بن عبد الله ، وكانوا جميعاً سبعمائة[8] ، ثم تبعهم نفر من الرباب أمر عليهم هلال بن علفة التيمى[9] ، وتحمل قوم كثيرون من مختلف القبائل فى نسائهم وأبنائهم ،

(1) الطبرى ١/٤/٢١٢٠ .
(2) نفس المرجع .
(3) الطبرى ١/٤/٢١٦١ .
(4) الطبرى ١/٤/٢١٦٥ .
(5) الطبرى ١/٤/٢١٨٠ .
(6) الطبرى ١/٤/٢١٥٩ .
(7) الطبرى ١/٤/٢١٨٣ .
(8) الطبرى ١/٤/٢١٨٨ .
(9) نفس المرجع .

منهم ابن المثنى الجشمي فى قوم من بنى سعد ، وعبد الله بن ذى السهمين فى أناس من خثعم ، وربعى بن عامر وابنه شبث فى أناس من بنى حنظلة ، وبقوم من بنى ضبة عليهم ابن الهوبر والمنذر بن حسان ، وبأناس من عبد القيس عليهم قرط بن جماح العبدى[1] ، وبعث إليه بلقيس بن هلال فى أناس من النمر ، وبعبد الله بن كليب بن خالد فى أناس من تغلب[2] وحقق المثنى بهذه الأمداد انتصارات محققة فى البويب . وكتب عمر إلى المثنى — بعد أن ثار السواد — بألا يدع فى ربيعة ولا مضر ولا حلفائهم أحداً من أهل النجدات ولا فارساً إلا جلبه ، فإن جاء طائعاً وإلا حشره[3] . وكتب إلى عماله على الكور والقبائل بألا يدعوا أحداً له سلاح أو فرس أو رأى إلا انتخبوه . فأتته القبائل القريبة من مكة والمدينة ، ووافى المثنى من كان قريباً منه[4] .—

ووقف المثنى فى جنده — بعد أن أجمع الفرس على يزدجرد واستعدوا للثأر — يتوقع الثورة به ، فكاتب عمر بذلك ، فلما وصل إليه الكتاب قال : « والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب ، وخرج المثنى بجنده كأمر عمر ، فتفرقوا فى تخوم العراق ونزلوا بذى قار ، ولم يمهل القدر المثنى ليلقى سعداً ، وإن وجد ابن أبى وقاص وصية تركها له .

وقد جاء سعد من هوازن التى كان على صدقاتها فى ألف فارس[5] ، ويغلب على الظن أنهم كانوا من قيس عيلان ، وعليهم بشر بن عبد الله الهلالى ، وثلاثة آلاف من السراة واليمن ، وكان أهل السراة سبعمائة ، وكان أهل اليمن ألفين وثلاثمائة ، منهم النخع بن عمرو فى جمع من نسائهم وذراريهم يبلغ ألفاً وسبعمائة ، فصل نصفهم إلى الشام[6] . وبينما سعد فى طريقه أمده عمر بألفى يمانى ، وألفى نجدى من غطفان وسائر قيس ، وذلك قبل أن يصل إلى زرود[7] ، فصار جنده ثمانية آلاف إلا قليلا .

---

(١) الطبرى ١/٤/٢١٨٨ ، ٢١٨٩ .
(٢) الطبرى ١/٤/٢١٩٠ .
(٣) الطبرى ١/٤/٢٢١٠ .
(٤) الطبرى ١/٤/٢٢١١ .
(٥) الطبرى ١/٤/٢٢١٦ .
(٦) الطبرى ١/٤/٢٢١٩ .
(٧) الطبرى ١/٤/٢٢٢١ .

وكان جيش المثنى عشرين ألفاً : ثمانية آلاف من ربيعة ، منهم ستة آلاف من بكر بن وائل ، وألفان من سائر ربيعة ، وأربعة آلاف كثرتهم من حلفاء المثنى والذين بقوا معه بعد أن فصل خالد ، وأربعة آلاف كانوا معه من كتيبة أبي عبيد ، وألفان من بجيلة ، وألفان من طيء (١).

وقبل أن يصل سعد إلى شراف لحق به الأشعث بن قيس وطليحة بن خويلد وعمرو بن معديكرب ، كل على رأس قبيلته فى ألف وسبعمائة من أهل اليمن(٢).

وكان عمر قد كتب إلى أبي عبيدة فى الشام بصرف أهل العراق كوصية أبي بكر ، وهم ستة آلاف(٣) . وهكذا يتم الجيش قبل القادسية وفى أثنائها ستة وثلاثين ألفاً أو نحوها .

وعندما استقر سعد وجنوده بعد الانتصارات الضخمة فى المدائن ،وبعد أن جاء فتح جلولاء وحلوان قدمت الوفود على عمر ، فأحس بتغير أبدانهم وألوانهم ، وعرف أن سبب هذا وخومة البلاد وعدم التلاؤم بينهم وبينها ، وما يلقون فيها من الذباب والغبار والوخومة(٤) ؛ فأمر بارتياد الأرض ، بحثاً عن المواقع التى تتناسب مع العرب . فالعرب لا يصلحها من البلدان إلا ما أصلح البعير والشاة (٥) .

وظفر الرواد بموقع الكوفة ، وتم تمصيرها فى المحرم سنة ١٧ هـ وفى نفس العام بنى المسلمون الأبنية فى البصرة ، التى كانوا قد نزلوها من قبل . وكتب سعد إلى عمر لما نزل الكوفة بأنه خير المسلمين بالمدائن ، فمن أعجبه المقام تركه كالمسلحة ، فبقى أقوام من الأفناء أكثرهم بنو عبس(٦) ، وإن كانوا قد انصرفوا بعد ذلك إلى الكوفة وغيرها(٧) .

---

(١) الطبرى ٢٢٢١/٤/١ .
(٢) الطبرى ٢٢٢٢/٤/١ .
(٣) الطبرى ٢٢٢٧/٤/١ .
(٤) الطبرى ٢٤٨١/٥/١ .
(٥) الطبرى ٢٤٨٤/٥/١ .
(٦) الطبرى ٢٤٨٧/٥/١ .
(٧) الطبرى ٢٤١٤/٥/١ .

وخططت الكوفة تخطيطا قائماً على أساس من توزع القبائل ، فتكونت مجموعات من الناس ، يسميها المؤرخون بالأسباع ، فصارت كنانة وحلفاؤها من الأحابيش وجديلة — وهم بنو عمرو بن قيس عيلان — سبعاً ، وصارت قضاعة — ومنها يومئذ غسان بن شبام وبجيلة وخثعم وكندة وحضرموت والأزد — سبعاً . ومذحج وحمير وهمدان وحلفاؤهم سبعا . وتميم وسائر الرباب وهوازن سبعاً . وأسد وغطفان ومحارب والنمر وضبيعة وتغلب سبعاً . وإياد وعك وعبد القيس وأهل هجر والحمراء سبعاً(١) .

وواضح أن هذه الأسباع تنقص سبعاً ، ويظن ماسينيون أنه كان خاصاً بقبيلة بكر من شيبان(٢) ، وما حدث بالبصرة شبيه بما حدث فى الكوفة ، وإن كان قد اتبع فيها نظام الأخماس . وكان لتميم الشأن الأول فى تكوينها . وقد صارت خمساً ، وفيها ضبة والرباب ، بينما صارت عبد القيس خمساً ، وبكر بن وائل خمساً ، والأزد خمساً ، وأهل العالية من قريش وكنانة وقيس عيلان والأنصار وطوائف من قبائل أخرى(٣) . وبرغم أن هذه الأسباع وتلك الأخماس قد تكونت على أساس القبائل فإنها قد شكلت خطوة جديدة فى سبيل بناء مجتمع جديد ، يستشعر إحساساً وجدانياً أكثر شمولا من الإحساس بالقبلية .

حقاً إن الجيوش والإمدادات لم تكن تصنف حين انتدابها على أى أساس قبلى كما رأينا . وإن كان من الممكن تجمع أعداد هائلة من قبيلة واحدة فى جند واحد . والذى يلفت النظر أن إحساساً وجدانياً شاملا قد استحوذ على جميع المنازع القبلية وصهرها فى بوتقة الجهاد فى سبيل الله ، وإن لم يستطع القضاء على هذه المنازع . وإنما حجبها لبعض الوقت فترات تقصر أو تطول ، حتى كان تخطيط هذين المصرين على أساس القبائل ، فإذا

---

(١) الطبرى ١/٥/٢٤٩٥ ، البـــلاذرى ص ٢٧٦ .

(٢) خطط الكوفة ترجمة المصعبى ص ١١ والطبرى جـ ٥/٢٤٩٥ .

(٣) الطبرى ١/٥/٢٣٧٧ .

بأحاسيس جديدة تنشأ بحكم طبيعة الحياة فى المدينة . وبحكم علاقات الجوار والعطاء والخضوع لعوامل واحدة .

فكانت الكوفة والبصرة القاعدتين اللتين صدرت عنهما كل العمليات الحربية بعد استقرار المسلمين بهما . وكان أن استشعر المسلمون فيها شعوراً مزدوجا بأنهم أفراد من قبائل ، وأفراد فى مدينة معاً . وأخذ الإحساس بالمدينة يلف المسلمين بهذا الرباط المدنى ، ويطبع أهل كل مصر بطوابع خاصة . فهناك مغازى الكوفة ، ومغازى البصرة ، وأهل الكوفة ، وأهل البصرة ، وهناك خلافات على تعديل الفتوح فيما بينهم ، وخصومات على الانصياع لقائد من مصر آخر . ويكفى لاستجلاء هذه الأحاسيس ما يروى عن أهل الكوفة من أنهم إذا قاتلوا أهل البصرة انحازت كل قبيلة ناحية ، وقاتلت مثيلتها فى الجانب الآخر ، فيمن الكوفة يقاتلون يمن البصرة ، وربيعة الكوفة تقاتل ربيعة البصرة ، وهكذا[1] .

وقد تسنى للكوفة والبصرة أن تحققا انتصارات كبيرة فى فتوح الجناح الشرقى للعراق وفارس ، وتحديد حـــدود الإمبراطورية الإسلامية فى هذا الميدان .

وجلى أن الفاتحين الذين حققوا هذا العمل الكبير كانت كثرتهم من عرب الشمال ، الذين نعرف لهم شهرة عامة بالشعر ، الشعر الثرى الذى لايتيسر لأقرانهم الفاتحين من أبناء الجنوب ، وقد أدى هذا إلى أن تنصرف كثرة شعر الفتح إلى تصوير أحداث الفتوح الشرقية ، حتى لا يغادر منها شيئاً ، وحتى يكاد يكون سجلا تاريخياً لها ، ووثيقة وجدانية لمشاعر الفاتحين .

ونحن حينما نستعرض تصوير شعر الفتح لأحداث الفتوح الشرقية ، سيخيل إلينا أن كل الفاتحين كانوا شعراء دون استثناء ، إذ أصبح الشعر حظاً شائعاً بينهم جميعاً على تفاوت فى هذا الحظ .

---

(١) الطبرى : ٢٥٣٦/٥/١ .

٢ — الشعر فى العراق

انطلق الشعر على ألسنة الفاتحين فى العراق مع أول ضربة سيف ، وقد أحاط بالمعارك والأحداث إحاطة . بحيث يمكن أن يعد وثيقة تاريخية لها خطرها . وهو من حيث تصويره لحياة المجاهدين ومشاعرهم ، وتصويره لمشاعر المقاومين أيضاً يمكن أن يعد وثيقــة وجدانية رائعة لهذا الحدث الفذ فى تاريخ الإسلام والمسلمين .

واكب الشعر أحداث الفتح منذ أول التقاء ، كان فى الحفير أو كاظمة بين خالد وهرمز ، حيث دارت الدائرة على الفرس . ثم انتصر المسلمون على قارن بن قريانس فى وقعة المذار أو الثنى ، وأكثروا القتل فى جنده ، فتغنى القعقاع بن عمرو التميمى بهذا النصر قائلا :

فنحن وطئنا بالكواظم هرمزاً وبالثنى قرنى قارن بالجوارف[١]

وكذلك يفعل الأسود بن قطبة . فيعير عرب القبائل الذين انضموا للفرس بسبي المسلمين نساءهم وافتضاحهم فيقول :

لعمرو أبى بجير حيث صاروا ومن آداهم يــوم الثـــنىّ
لقد لاقت سراتهم افتضــاحاً وفتنــاً بالنســاء على المطى
آلا ما للرجال فإن جهــلا بكم أن تفعلوا فعل الصبى[٢]

وعندمــا يجتمع العرب الموتورون مع الفرس يوم أليس ، ويرى المسلمون منهم نكالا — حتى يصلى خالد صلاة الخوف — يصور الأسود بن قطبة التميمى هول المعركة ، وبسالة المقاومين فيقول :

لقينــا يوم أُلَّيْس وأمــغى ويوم المقــر آســاد النهــار
فلم أر مثلها فضلات حرب أشد على الحجاجحة الكبار
قتلنــا منهم سبعــين ألفــاً بقيــة حزبهم نخب الإســار

---

(٢) الطبرى ١/٤/ص ٢٠٤٩ . (١) ياقوت جـ ١ ص ٩٣٧ .

سوى من ليس يحصى من قتيل ومن قد غال جولان الغبـار(١)

ويصور عاصم بن عمرو ثبات المقاومين من الفرس يوم العقيق فيقول :

ألم ترنا غداة المقر فينا بأنهار وساكنها جهارا
قتلناهم بها ثم انكفأنا إلى فم الفرات بما استجارا
لقينا من بنى الأحرار فيها فوارس ما يريدون الفرارا(٢)

وعندما وصل المسلمون إلى الحيرة ودخلوا قصورها استخفهم الطرب، فانطلقت أغنيات النصر نشوى ، تفخر ببلائهم الذى استحقوا به الظفر ، يقول القعقاع بن عمرو :

ويوم أحطنا بالقصور تتابعت على الحيرة الروحاء إحدى المصارف
حططناهم منها وقد كان عرشهم يميل به فعل الجبان المخالف
رمينا عليهم بالقبول وقد رأوا غبوق المنايا حول تلك المحارف
صبيحة قالوا : نحن قوم تنزلوا إلى الريف من أرض العريب المقانف

والشاعر هنا يشير إلى ما كان من مجادلة خالد لأهل الحيرة ، فى نقمتهم على بنى عمومتهم من العرب ، وما كان من انتسابهم إلى العرب . والشاعر يكشف هذا اللجاج الذى فسروا به موقفهم ، وأنهم لم يعترفوا بهذا النسب إلا تحت وطأة السيوف .

وهذا عاصم بن عمرو يصف بلوغ المسلمين الحيرة ، وإحاطتهم بقصورها فيقول :

صبحنا الحيرة الروحاء خيلا ورجلا فوق أثباج الركاب
حصرنا فى نواحيها قصوراً مشوّنة كأضراس الكلاب(٤)

ويمضى خالد بالمسلمين إلى الأنبار ، وفى الطريق إليها يتأمل عاصم بن عمرو جموع المسلمين التى حشدها خالد ليأتى بهم من ألبوا عليهم من أهل الأنبار فيقول :

---

(١) ياقوت جـ ١ /ص ٣٦٣ .
(٢) ياقوت/جـ ٤/ص ٦٠٥ .
(٣) الطبرى/جـ ٤/ص ٢٠٤٧ .
(٤) ياقوت/جـ ٢ /ص ٢٧٥ .

جلبنا الخيل والإبل المهارى · إلى الأعراض أعراض السواد
ولم تر مثلنا كرماً ومجداً · ولم تر مثلنا شخاب هاد
شحنّا جانب الملطاط منا · بجمع لا يزول عن البعاد
لزمنا جانب الملطاط حتى · رأينا الزرع يقمع بالحصاد
لنأتى معشراً ألبوا علينا · إلى الأنبار أنبار السواد(١)

وبعد أن ينقذ خالد عياضاً ، ويثأر العرب من بكر بن وائل لمقتل عقة ولهزيمة عين التمر ، يوجه خالد أمراءه إلى الحصيد والخنافس والزميل ليبيتوا العرب على غرة ، ويقتل روزمهر قائد الفرس بيد القعقاع بن عمرو ، الذى يفخر بقتله لحليلته فيقول :

ألا أبلغا أسماء أن حليلها · قضى وطراً من روزمهر الأعاجم
غداة صبحنا فى حصيد جموعهم · بهندية تذرى فراخ الجماجم(٢)

واستطاع أبو ليلى أن يهزم المهبوذان فى الخنافس، فقال يفتخر بصنيعه :

وقالوا ما تريد فقلت : أرمى · جموعاً بالخنافس بالخيول
فدونكم الخيول فألحموها · إلى قوم بأسفل ذى أثول
وفينا بالخنافس باقيات · لمهبوذان فى جنح الأصيل(٣)

وصور الشعر هذا الحلف الغريب من الفرس والروم والعرب ، الذين جمعت بينهم الظروف على المسلمين فى وقعة الفراض ، ونصر الله المسلمين وقطع دابر الحلف بأيديهم ، فقال القعقاع .

لقينا بالفراض جموع روم · وفرس غمها طول السلام
أبدنا جمعهم لما التقينا · وبيتنا بجمع بنى رزام
فما فتئت جنود السلم حتى · رأينا القوم كالغنم السوام(٤)

وفى أول لقاء لجيش أبى عبيد مع الفرس فى النمارق يستحر القتال ، ويستبسل المسلمون حتى ينتصروا على رستم ، ويأسروا قائديه جابان ومردان

---

(١) ياقوت/جـ ٤/ص ٩٣٣ .
(٢) ياقوت/جـ ٢/ص ٢٨٠ .
(٣) ياقوت/جـ ٢/ص ٤٧٣ .
(٤) ياقوت/جـ ٣/ص ٨٩٤ .

شاه ، فيستبيحوا السواد يجوسون خلاله بعدما هاجروا نحو ربهم فأنالهم أكتاف الفرس ، يقول عاصم بن عمرو :

لعمري وما عمري على بهين لقد صبحت بالخزى أهل النمارق
بأيدى رجال هاجروا نحو ربهم يجوسونهم ما بين درتا وبارق
قتلناهم ما بين مرج مسلح وبين الهوا فى من طريق البذارق (١)

ويفزع أهل السواد إلى أبى عبيد يطلبون الصلح ، ويقدمون الهدايا والأطعمة الفارسية وتمر النرسيان ، بعد أن دانت للمسلمين قرى السواد ، واستباحه المسلمون ، يقول عاصم بن عمرو :

ضربنا حماة النرسيان بكسكر غداة لقيناهم ببيض بواتر
وفزنا على الأيام والحرب لاقح بجرد حسان أو ببرد غوابر
وظلت بلاد النرسيان وتمره مباحاً لمن بين الديار الأضافر
أبحنا حمى قوم وكان حماهم حراماً على من رامه بالعساكر (٢)

وفى قس الناطف تحدث كارثة الجسر ، تلك الهزيمة الوحيدة التى لحقت بالمسلمين فى جميع فتوحاتهم ، إذ أخذتهم السيوف والغرق والفرار من كل جانب ، وقد ترامت أنباء الهزيمة فى بلاد العرب ، ورن صداها فى كل قلب . يقول حسان بن ثابت لما بلغته الكارثة بالمدينة :

لقد عظمت فينا الرزيئة إننا جلاد على ريب الحوادث والدهر
على الجسر قتلى لهف نفس عليهم فيا حسرتا ؟ ماذا لقينا من الجسر (٣)

وعلى الرغم من هذا فإننا لا نجد غير أبيات تنسب إلى أبى محجن الثقفى فى وصف المعركة ، ورثاء نفر من شهداء المسلمين ، وطبيعى أن تسكت أصوات الشعراء فى هذه المحنة . يقول أبو محجن :

أنى تسدت نحونا أم يوسف ومن دون مسراها فياف مجاهل
إلى فتية بالطف نيل سراتهم وغودر أفراس لهم ورواحل

---

(١) ياقوت/جـ ٤/ص ٥٣٢ ، ٩٩٥ . (٢) ياقوت جـ ٤/ص ٧٧٤ .
(٣) ياقوت/جـ ٢/ص ٨٢ .

وأضحى أبو جبر خلاء بيوته ... وقد كان يغشاها الضعاف الأرامل
وأضحت بنو عمرو لدى الجسر منهم ... إلى جانب الأبيات جود ونائـــل
وما لمت نفسي فيهم غـــير أنهـــا ... لها أجل لم يأتها وهو عاجـــل
وما رمت حتى مزقوا برماحهم ... إهابي وجادت بالدماء الأباجل
وحتى رأيت مهـــرتى مزوئرة ... لدى الفيل يدمى نحرها والشواكل
مررت على الأنصار وسط رحالهم ... فقلت : ألا هل منكم اليوم قافل
ألا لعـــن الله الذين يســـرهم ... رداى وما يدرون ما الله فاعل(١)

وكانت الفيلة قد فعلت أفاعيلها فى المسلمين فشتتهم .

وكان أن أذن عمر لمن كان ارتد بالالتحاق بجند العراق ليطهروا ، فإذا بهم يتدفقون إلى المثنى ، وإذا بهم يخوضون تحت لوائه معركة الثأر والنصر ، وقد شاع فى نفوسهم إحساس بالاستماته ، والتفانى للتكفير عما اقترفوه ، كما استمات فل الجسر لمسح عار الهزيمة . وكانت معركة البويب معركة لم يشهد المسلمون والفرس أشد منها ، حتى كانت العظام تلوح تلالا من هام الفرس وأوصالهم ، وتحزر بمائة ألف من جثثهم(٢) . وتغنى الشعراء بهذا النصر ، وعقدوا أكاليل الغار للمثنى . يقول الأعور العبدي الشنى :

هاجت لأعور دار الحى أحزانا ... واستبدلت بعد عبد القيس خفـــانا
وقد أرانا بها والشمل مجتمـــع ... إذ بالنخيلة قتلى جنـــد مهرانا
أزمان ســـار المثنى بالخيـــول لهم ... فقتل الزحف من فرس وجيلانا
سما لمهران والجيش الذى معـــه ... حتى أبادهم مثنى ووحدانا(٣)

ووجد أبطال المسلمين فى قتلهم مهران شرفاً تنازعه كثيرون منهم ، وكثر فى ذلك جدالهم . وكان أشهر من تنازع قتله حسان بن المنذر بن ضرار الضبي ، وجرير بن عبد الله البجلى ، ويظهر أن حسان قد طعنه ، ثم ضربه

(١) البلاذرى/ص ٢٥١ . الأغانى (ساسى) /جـ ٢١/ص ١٤١ .
(٢) الطبرى ٢١٩٣/٤/١ — ٢١٩٩ .
(٣) الطبرى/١/٤/٢١٩٣ — ٩٩

جرير بعد ذلك ، ولكن حسان ينكر أن يكون جرير قد شاركه هـذا الشرف فيقول :

ألم ترنى خالت مهران نفسه بأسمر فيه كالخلال طرير
فخر صريعاً والتقانى برجله وبادر فى رأس الهمام جرير
فقال قتيلى والحوادث جمة وكاد جرير للسرور يطير
فقال أبو عمرو : وقتلى قتلته ومثلى قليل والرجال كثير
فأرسل عيناً (أن رعك ناله) وأكرم إن تحلف وأنت أمير (١)

ثم تكون بعد ذلك المعركة الحاسمة فى القادسية ، التى تجهز لها الفرس والعرب بكل ما يطيقون ، وحشد لها عمر أهل الرأى والشجاعة والخطابة والنجدة ، يحضون الناس ويلهبون مشاعرهم . والتقى سعد بجيش هو خلاصة الأمة الإسلامية مع الفرس فى ثلاثة أيام بثلاث ليال ، متصلة الحرب حامية الوطيس ، ولعب الشعر دوره فى المعركة ، فلم يكن القتال يبدأ قبل أن يمر الشعراء بين الصفوف يرغبون الناس ، ويقدحون عزمهم فينشب أهل النجدات القتال ، بينما يشعل الرجاز أوار الحماس ، كما حدث فى أول يوم ، فقد برز غالب بن عبد الله الأسدى يرتجز بدء القتال فقال :

قد علمت واردة المسالح ذات البيان واللسان الواضح
أنى سمام البطل المشايح وفارج الأمر المهم الفادح (٢)

فإذا هرمز أحد ملوك الباب يبرز فيأخذه غالب أسيراً ، وخرج بعده عاصم ابن عمرو التميمى يرتجز قائلا :

قد علمت بيضاء صفراء اللبب مثل اللجين إذ تغشاه الذهب
أنى امرؤ لا من يعينه السبب مثلى على مثلك يغريه العتب (٣)

وظل القتال دائراً يغذيه الرجاز والشعراء بلهيب لا ينفد ، حتى حال الليل

(١) المسعودى/مروج الذهب/جـ ٢ ص ٢٠٣ – ٢٠٤ .
(٢) المسعودى/مروج الذهب/جـ ٢ ص ٢٠٤ .
(٣) مروج الذهب/جـ ٢/ص ٢٠٤ – ٢٠٥

بين الفريقين ، ولقد أبلى فى هذا اليوم عاصم بن عمرو بلاء رائعاً . وهو يقول عن هذا اليوم المسمى بأرماث :

حمينـا يـوم أرمـاث حمـاتا وبعض الناس أولى بالجمـال[1]

يشير إلى ما كان من انتداب سعد لتميم لتدافع عن أسد ، الذين أضرت بهم الفيلة ضرراً بليغاً . وفى صباح اليوم الثانى يوم أغواث ، الذى أغاث فيه القعقاع المسلمين بجند الشام استطاع المسلمون أن يوقعوا بالفرس فى غيبة الفيلة التى قطع وضنها عاصم فى اليوم الأول ، ورفه هذا عن المسلمين ، واستمر القتال إلى منتصف الليل ، وكفة المسلمين أرجح ، وجدد مدد الشام أمل المسلمين ، حينما رأوا القعقاع يصول فى صفوف الفرس ، يقتل من يلقاه ، وكان سعد قد حبس أبا محجن الثقفى ، فلما اشتد القتال وتردد تكبير الناس فى أذنه ثارت حميته ، واستعفى سلمى زوج سعد أن تحل قيده ، وأن تعيره البلقاء فرس سعد ، وأقسم أن يرجع فيضع قدمه فى القيد ، فرفضت رجاءه فقال :

كفى حزناً أن ترتدى الخيل بالقنـا وأترك مشدوداً علـى وثاقيـا
إذا قمت عنانى الحديد وأغلقت مصاريع دونى قد تصم المناديا
وقد كنت ذا مال كثـير وإخـوة فقد تركونى واحداً لا أخا ليـا
ولله عهـد لا أخيس بعهـده لئن فرجت ألا أزور الحوانيا[2]

فلما سمعت سلمى شعره رقت له وأطلقته ، فاقتاد البلقاء ، وركبها وعليه سلاحه ، وانطلق يقصف الأعداء بسيفه قصفاً منكراً ، وسعد يقول : لولا محبس أبى محجن لقلت هذا أبو محجن ، فلما انقضى اليوم رجع فوضع قدميه فى القيد ، وظل القتال إلى الليل ، والمسلمون آملون فى الظفر . يفعلون فى الفرس أفاعيلهم ، حتى ليقال : إن القعقاع قد زاحف الفرس ثلاثة وثلاثين زحفاً ، يقتل فى كل منها فارساً ، وكان آخرها الذى قتل فيه بزرجمهر ، وقال فى قتله :

---

(1) ياقوت ١/ص ٢١١ .
(2) الطبرى ٢٣١٣/٥/١ .

حبوته جياشة بالنفس هدارة مثل شعاع الشمس
فى يوم أغواث فليل الفرس أنخس بالقوم أشد النخس
حتّى تفيض معشرى ونفسى (١)

وفى الصباح الثالث لم يكن القعقاع قد غمض له جفن ، فقد سرب جنده تحت جنح الليل إلى المكان الذى أقبلوا منه ، وأمرهم أن يتقاطروا مائة مائة ، فإذا بهم يفعلون ، يتبعهم هاشم بن عتبة فى بقية جند الشام ، وأخذ يحمل على الأعداء فيهد صفوفهم ، ولكن الفيلة عادت فى هذا اليوم تفعل بالمسلمين كفعلها يوم أرماث وتشتتت خيول المسلمين ، حتى تمكن القعقاع والربيل من عيونها ومشافرها فولت تثب فى النهر ، واشتد القتال واستحر ، وخيم الظلام ، فلم يفصل بين الفريقين ، ولم يكن يسمع غير صليل السيوف وهرير الفرسان . وزاحف القعقاع دون إذن سعد ، وتبعته القبائل تحذو حذوه ، فما جاء الظهر حتى أظهر الله المسلمين ، فهدموا المجنبتين ، وانفرج القلب فانقضوا عليه ، وبلغ أهل النجدة مرادق كسرى وبه رستم فقتله الله . وكان صوت القعقاع وهو يرتجز بشير الظفر :

نحن قتلنا معشراً وزائدا أربعة وخمسة وواحدا
نحسب تحت اللبد الأساودا حتّى إذا ماتوا دعوت جاهدا
الله ربى واحترزت عامدا (٢) .

كانت القادسية المعركة الفاصلة فى الفتوح الشرقية ، ولم ير المسلمون ولا الفرس وقعة أشد منها هولا ؛ فقد فقد المسلمون ثمانية آلاف شهيد . وكان قتلى الفرس ثلاثين ألفاً ، وأبلى أبطال المسلمين فيها بلاء فخروا به ، وسجلوه على الدهر فى شعرهم . وكانت أرجازهم طبولا تدفع بالمسلمين إلى اقتحام الأهوال ، وتدفع بهم إلى أن يكونوا نماذج رفيعة لبقية المجاهدين .

وهذا هو عمرو بن معديكرب الزبيدى يصيح طرباً كأنه غلام مفتون وهو يرى صفوف الفرس تميل تحت وقع ضرباته :

(١) مروج الذهب/ج ٢/ص ٣٠٦ . (٢) الطبرى/١/٥/٢٣٣٢ .

أنا أبو ثور وسيفي ذو النون أضربهم ضرب غلام مجنون
يا آل زيد إنهم يموتون[1]

وقد تخلف عن القادسية كثرة شعر الفتوح الشرقية إذ شهدها نفر من الشعراء المكثرين والمشهورين، وانطلق الشعر على ألسنة الفاتحين، وكأنما هو طقس حتمي من طقوس الحرب والاقتحام، وقد صورت جوانب المعركة تصويراً دقيقا، ووصفت فيه الحواد . المشاعر، وفخر المجاهدون ببلائهم، وأشادوا بما قدموا.

وطريف هذا التنازع الشعرى حول مقتل رستم، الذى اشترك فيه طائفه من كبار الفرسان الشعراء، وتنازعوا فيه دمه، من مثل عمرو بن معد يكرب الزبيدى، وقيس بن مكشوح، وعمرو بن شأس الأسدى، وزهير ابن عبد شمس، وغيرهم من الفرسان أمثال طليحة بن خويلد، وقرط بن جماح العبدى، وضرار بن الأزور الأسدى، وهلال بن علفة التيمى:

يقول قيس بن مكشوح:

جلبت الخيل من صنعاء تردى بكل مذجج كالليث سامى
إلى وادى القرى فديار كلب إلى اليرموك فالبلد الشآمى
وجئن القادسية بعد شهر مسومة دوابرها دوامى
فناهضنا هنالك جمع كسرى وأبناء المرازبة الكرام
فلما أن رأيت الخيل جالت قصدت لموقف الملك الهمام
فأضرب رأسه فهوى صريعاً بسيف أفلّ ولا كهام
وقد أبلى الإله هناك خيراً وفعل الخير عند الله نامى[2]

وهذا زهير بن عبد شمس ينسب هذا الشرف إلى نفسه فيقول:

أنا زهير وابن عبد شمس أرديت بالسيف عظيم الفرس
رستم ذا النخوة والدمقس أطعت ربى وشفيت نفسى[3]

(1) الأغانى (ساسى) جـ ١٤/ص ٢٧ . (٢) البلاذرى/٢٥٩ .
(٣) البلاذرى/٢٦٠ .

وهذا عمرو بن شأس الأسدى يفخر بهذا الصنيع وينسبه إلى قبيلته ، ويطلقه في عمومها :

جلبنا الخيل من أكناف نيق ... إلى كسرى فوافقهتا رعالا
تركن لهم على الأقتام شجوا ... وبالحقوين أياماً طوالا
وداعية بفارس قد تركنا ... تبكي كلما رأت الهلالا
قتلنا رستماً وبنيه قسراً ... تثير الخيل فوقهم الهيالا
وفرّ الهرمزان ولم يحامى ... وكان على قبيلته وبالا
تركنا منهم حيث التقينا ... قياما ما يريدون ارتحالا(١)

وأيا كان من قتل رستم ، فانه يبدو أن المتنازعين جميعاً قد اشتركوا فى قتله أو ساعدوا عليه ، وصور الشعر فى هذه المعركة موقفا دقيقا كاد يودي بوحدة المجاهدين أمام أعدائهم ؛ ذلك أن سعد بن أبي وقاص عاوده أول المعركة مرض كان يتردد عليه ، جعله لا يستطيع أن يركب أو يجلس ، فهو مكب على وجهه ، وفى صدره وسادة يعتمد عليها ، ويشرف على الناس من القصر ، يرمى بالرقاع فيها أمره ونهيه ، وقد نمت هذه الأنباء إلى الفرس فاستبشروا بها ، ثم نمى إليهم : أن المسلمين برموا بسعد وتنذّروا عرضه ، وأن قائلا منهم يقول :

نقاتل حتى أنزل الله نصره ... وسعد بباب القادسية معصم
فأبنا وقد آمت نساء كثيرة ... ونسوة سعد ليس فيهن أيم(٢)

وبلغ سعداً ما تنذر به الناس ، وأن طائفة من وجوه القوم تتهمه وتشغب عليه ، وترميه بالخور وضعف العزم ، فحز ذلك فى نفسه وأثار غضبه ، فأمر بأن يحمل وأشرف على الناس حتى يروا ما به ، ثم شتم من شغب ، وهم بهم وقال : « أما والله لولا أن عدوكم بحضرتكم لجعلتكم نكالا لغيركم ، والله لا يعود أحد بعدها يحبس المسلمين عن عدوهم ، ويشاغلهم وهم بإزائهم ، إلا سننت به سنة يؤخذ بها بعدى »(٣) . وإزاء هذا الحزم أعلن الناس ولاءهم

(١) الطبرى ج ٥/ص ٢٣٠١ .
(٢) الطبرى ٣٣٦١/٥/١ .
(٣) الطبرى ٣٣٦١/٥ .

وطاعتهم . وقال جرير بن عبد الله البجلي : « إني بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن أسمع وأطيع لمن ولاه الله الأمر ، وإن كان عبداً حبشياً » . فسرت هذه الروح في نفوس الجند وسكنت بوادر الفتنة . ويذكر بعض الباحثين أن أبا محجن الثقفي كان فيمن حبسهم سعد في هذا اليوم بسبب تخرصهم[1] . ويروى أن الشاعر المتخرص هو النعمان بن قبيصة ، وأن عبد الله بن سنان الأسدي جاد له بطعنة أخرست صوته إلى الأبد ، وذكر أنه لم يفعل هذا إلا حمية لقريش يقول :

لقد غادر الأقوام ليله أدلجوا ... بقصر العبادى ذا الفعال محدلا
دلفت له تحت العجاج بطعنة ... فأصبح منها في النجيع مرملا
أقول له والرمح في نغض كتفه ... أبا عامر عنك اليمين تحللا
سقيت بها النعمان كأسا روية ... وعاطيته بالرمح سماً مثملا
تركت سباع الجو يعرقن حوله ... وقد كان عنها لابن حية معزلا
كفيت قريشاً إذ تغيب جمعها ... وهدمت للنعمان عزاً مؤثلا[2]

ويبدو في حديث جرير بن عبد الله البجلي — الذي يشبه الاعتذار — أنه كان ينفس على سعد إمارة الجيش ، ولذلك قال قولته التي تلقفها المتخرصون ، وفيها ينسب سعداً إلى الجبن :

أنا جرير كنيتي أبو عمر ... قد نصر الله وسعد في القصر[3]

وقد عرف سعد كيف يرد قالة جرير ، عندما أشاد ببطوله أميرين من أمراء الجيش وببلائهما ، هما القعقاع بن عمرو ، وحمال بن جويه الكناني ، وأظهر استهانته ببجيلة كلها فقال :

وما أرجو بجيلة غير أني ... أؤمل أجرها يوم الحساب
وقد لقيت خيولهم خيولا ... وقد وقع الفوارس في الضراب
فلولا جمع قعقاع بن عمرو ... وحمال للجوا في الكذاب

---

(1) هيكل الفاروق/جـ ١ ص ١٦٧ .
(2) الطبري/جـ ٥/ص ٢٣٥٠ .
(3) الطبري/جـ ٥/٢٣٦١ .

هم منعوا جموعكم بطعن وضرب مثل تفتيق الإهاب
ولولا ذاك ألفيتم رعاعاً تشل جموعكم مثل الذباب[1]

وبرغم هذا الجو المضطرب الملتهب الذى سيطر على المعركة فإن فسحة من الوقت ضئيلة ، ولحظات من خلو البال – فى أوقات الراحة النادرة – كانت تتبدى للمجاهدين كالبريق الخاطف على أطراف الأسنة يختلسونها فيعالجون فيها أموراً خاصة تتعلق بحياتهم الاجتماعية والشخصية . . . ومر أن بعض المحاربين كانوا تحملوا بنسائهم ، وأن أكثرهم استصحاباً لنسائهم يوم القادسية كانوا بجيلة والنخع ، فكان فى النخع سبعمائة امرأة ، وفى بجيلة ألف منهن ، ولم تستطع أهوال الحرب أن توقف مصاهرة أحياء العرب لهاتين القبيلتين فاستوعبوهن ، ولذا سميت النخع وبجيلة بأختان العرب أو بأصهارهم[2]

وكانت « أروى » ابنة عامر الهلالية النخعية قد تقدم لخطبتها ثلاثة من المجاهدين ، هم بكير بن عبد الله الليثى ، وعتبة بن فرقد السلمى ، وسماك ابن خراشة الأنصارى ، وكانت أختها تحت القعقاع بن عمرو ، فاستشارته أيهم جدير بها ؟ فكان جوابه شعراً يقول فيه :

فإن كنت حاولت الدراهم فانكحى سماكاً أخ الأنصار أو ابن فرقد
وإن كنت حاولت الطعان فيممى بكيراً إذا ما الخيل جالت عن الردى
وكلهم فى ذروة المجد نازل فشأنكم إن البيان عن الغد[3]

وفتح المسلمون المدائن الدنيا على شاطئ دجلة الغربى ، وكان عليهم أن يعبروا النهر إلى المدائن القصوى بالشاطئ الشرقى ، واستطاعوا بمعاونة بعض أهل البلاد أن يخوضوا مخاضة فى سرعة أذهلت أهل المدائن ، ففوجئوا بالمسلمين دون أن يروا سفينا .

وكان للرجاز شأن كبير فى تشجيع المجاهدين على عبور دجلة ، إذ وقف نفر منهم على الشاطئ الغربى يدفعونهم ويبشرونهم ويذكرونهم بالجزاء

---

(١) الطبرى/جـ ٥/ص ٢٣٦٢ .
(٢) الطبرى/جـ ٥ ص ٢٣١٣ – ٢٣٦٤ .
(٣) الطبرى/جـ ٥ ص ٢٣٦٤ .

والنوابت ، يقول مالك بن عامر بن هانئ وهو أول من عبر دجلة يومئذ :

امضوا فإن البحر بحر مأمور والأول القاطع منكم مأجور
قد خاب كسرى وأبوه سابور ما تصنعون والحديث مأثور (١)

وكان يزدجرد قد سبق المسلمين وفر إلى حلوان ، وغنم المسلمون أمواله وخزائنه وجواهره ، فكانت غنائمهم فى ذلك اليوم لا تحصى ، مما أسال ألسنة الشعراء فى وصفها ، يقول أبو بجيد — نافع بن الأسود — :

وأسلنا على المدائن خيلا بحرها مثل برهن أريضا
فانتثلنا خزائن المرء كسرى يوم ولوا وحاص منا جريضا (٢)

وطارد المسلمون فى هذا اليوم بغلا كان محملا بجواهر كسرى ومخصصاته من حلى ودروع فألجئوه إلى الماء ، وأخرجه زهرة بن حويه وهو يرتجز قائلا :

أفدا لقومى اليوم أخوالى وأعمامى هم كرهوا بالنهر خذلانى وإسلامى
هم فلجوا بالبغل فى الخصام بكل قطاع شئون الهام
وصرعوا الفرس على الآكام كأنهم نعم من الأنعام (٣)

وبعد فتح المدائن مصرت الكوفة والبصرة ، وصارتا مركزين حربيين ، أنيط بهما فتح الجناح الشرقى فى هذا الميدان ، وصار لكل منهما جند خاص ، وقد أشار إلى ذلك عبدة بن الطبيب فأسماها كوفة الجند فى قوله :

إن التى وضعت بيتا مهاجرة بكوفة الجند قد غالت بها غول (٤)

وكان من أول مجهودات هذين المعسكرين إخضاع الجزيرة التى كانت بمثابة قاعدة حربية لحلفاء الروم من نصارى العرب ، فنفس ذلك عن المجاهدين فى الشام ، وقد أشار إلى هذا عياض بن غنم فقال :

من مبلغ الأقوام أن جموعنا حوت الجزيرة يوم ذات زحام
إن الأعزة والأكارم معشر فضوا الجزيرة عن فراخ الهام

(١) أسد الغابة/جـ ٤/ص ٢٨٢ ·
(٢) الطبرى/جـ ٥/ص ٢٤٣٤ ·
(٣) الطبرى/جـ ٥/ص ٢٤٤٥ ·
(٤) ياقوت/جـ ٤/ص ٣٢٢ ·

جمعوا الجزيرة والغياث فنفسوا عمن بحمص غيابة القدّام
غلبوا الملوك على الجزيرة فانتهوا عن غزو من يأوى بلاد الشام [1]

وبفتح الجزيرة استتب للمسلمين أمر العراق .

٣ ــ الشعر على طول الدروب الى خراسان

وتتابعت فتوح أهل الكوفة وأهل البصرة والجيش الضارب الذى فتح العراق على طول الدروب إلى خراسان ، ووصف الشعراء هذه المناطق البعيدة التى وطئوها لأول مرة، ورأوها تختلف فى جوها وطبيعتها ومظاهر حياتها اختلافاً بيناً عما عهدوا فى جزيرتهم ، وفى مراحل الفتح الأولى فى العراق ، فصوروا إعجابهم تارة وعجبهم تارة أخرى ، وعبروا عن أحاسيسهم بالرضا أو السخط بهذه البلاد ، وهذا نافع بن الأسود يصف إعجابه بريف الرى فيقول :

رضينا بريف الرى والرى بلدة لها زينة من عيشها المتواتر
لها نشز فى كل آخر ليلة تذكر أعراس الملوك الأكابر [2]

هذا بينما يشكو سراقة بن عمرو الذى وكل إليه أبو موسى الأشعرى فتح الدربند حياته المضطربة هناك فيقول :

ومن يك سائلا عنى فإنى بأرض لا يواتيها القرار
بباب الترك ذى الأبواب دار لها فى كل ناحية مغار
نذود جموعهم عما حوينا ونقتلهم إذا باح السرار [3]

وفى فتوح هذه المناطق البعيدة وجد شعر يحن فيه المجاهدون إلى وطنهم ،

---

(١) ياقوت/جـ ٢/ص ٧٤ .
(٢) ياقوت/جـ ٢/ص ٨٩٥ .
(٣) ياقوت/جـ ١/ص ٤٣٧ .

ويتشوقون إلى أهليهم ، ويذمون اغترابهم ووحشة هذه المناطق ، يقول أحد المجاهدين فى الحنين إلى نجد :

أكرر طرفى نحو نجد وإننى ... برغمى وإن لم يدرك الطرف أنظر
حنيناً إلى أرض كأن ترابها ... إذا أمطرت عود ومسك وعنبر
بلاد كأن الأقحوان بروضة ... ونور الأقاحى وشى برد محبر
أحن إلى أرض الحجاز وحاجتى ... خيام بنجد دونها الطرف يقصر
وما نظرى من نحو نجد بنافع ... أجل – لا – ولكنى إلى ذاك أنظر
أفى كل يوم نظرة ثم عبرة ... لعينك مجرى مائها يتحدر
متى يستريح القلب إما مجاوز ... بحرب وإما نازح يتذكر [1]

ويغلب على شعر الحنين هذا فى مجموعه حزن رفيق ولوعة رقيقة .

وفى الوقت الذى كان جند الكوفة والبصرة يفتحون فيه هذه المناطق كان سعد بن أبى وقاص بعد فراغه من المدائن يقضى على الفتن التى أثارها يزدجرد بإمداده للفرس من حلوان ، واستطاع هاشم والقعقاع إحباط هذه الفتن ، والقضاء على تجمعات الفرس فى جلولاء ، ففر جند الفرس عن المدينة . ويصور أحد الرجاز الذين شهدوا جلولاء ضراوة القتال فيها فيقول :

يارب مهر حسن مطهمْ ... يحمل أثقال الغلام المسلمْ
ينجو إلى الرحمن من جهنم ... يوم جلولاء ويوم رستم
ويوم زحف الكوفة المقدم ... ويوم لاقى ضيعة مهزم
شيبن أصداغى فهن هرم ... مثل ثغام البلد المحرم
وخر دين الكافرين للفم [2]

ثم طارد القعقاع فل جلولاء إلى حلوان فاحتلها ، بعد أن فر يزدجرد إلى الرى فقال القعقاع :

فنحن الأولى فزنا بحلوان بعدما ... أرنت على كسرى الإما والحلائل [3]

---

(١) ياقوت/جـ ٤/ص ٧٤٧ .
(٢) الطبرى/جـ ٥/ص ٢٤٧٢ .
(٣) ياقوت/جـ ٢/ص ٣١٧ .

ووجه سعد بضرار بن الخطاب إلى ماسبذان شرقي حلوان ، حيث كان آذين أحد عظماء الفرس قد جمع جوعاً عظيمة من الفرس والعرب ، وخرج بهم إلى السهل ، فقتله ضرار واستولى على الناحية فقال :

ويوم حبسنا قوم آذين جنده وقطرته عند اختلاف العوامل
وزود وآذينا وفهداً وجمعهم غداة الوغى بالمرهفات الصواقل
فجاءوا إلينا بعد غب لقائنا بما سبذان بعد تلك الزلازل (١)

وأرسل سعد عمرو بن مالك إلى هيت وقرقيسيا ، فاضطر أهلها إلى النزول على الجزية ، ويبدو أنهم لم يقروا بها إلا بعد عناد وغدر ، حتى ليذكر عمرو أنهم قتلوهم بعدما دانوا بالجزية فيقول :

ونحن جمعنا جمعهم فى حفيرهم بهيت ولم نحفل لأهل الحفائر
وسرنا على عمد نريد مدينة بقرقيسيا سير الكماة المساعر
فجئناهم فى دارهم بغتة ضحا فطاروا وخلوا أهل تلك المحاجر
فنادوا إلينا من بعيد بأننا ندين بدين الجزية المتواتر
قتلنا ولم نردد عليهم جزاءهم وحطناهم بعد الجزا بالبواتر (٢)

وراح المجاهدون يتتبعون يزدجرد ، الذى كان يمثل للفرس رمز بلادهم السليبة فتتجمع حوله الفلول ، وتثور ثائرة الفتنة من حين لآخر ، وكان قد فر — من جلولاء إلى حلوان ، ومنها إلى الرى ، فقرميسين ، ثم إلى نهاوند — أمام جنود المسلمين حيث راح يحشد الحشود لآخر معركة تستهدف إنقاذ ما يمكن إنقاذه حتى اجتمع فيها مائة وخمسون ألفاً بقيادة الفيرزان (٣) .

وكان اهتمام المسلمين بها عظيما أيضاً ، حتى لقد هم عمر بالخروج إليها بنفسه ، وقد انتصر المسلمون فيها بفضل الخطة البارعة التى وضعها فرسان المسلمين ، ونفذها القعقاع الذى يصور بلاء المسلمين فى قوله :

ونحن حبسنا فى نهاوند خيلنا لشر ليال أنتجت للأعاجم

---

(١) ياقوت جـ ٤ ص ٣٩٣ . (٢) ياقوت جـ ٤ ص ٦٥ .
(٣) الطبرى جـ ٥ ص ٢٦٠٨ .

ملأنا شعابا فى نهاوند منهم   رجالا وخيلا أضرمت بالضرائم
وراكمهن الفيرزان على الصفا   فلم ينجه منها انفساح المخارم [1]

انهت مقاومة الفرس الرسمية بوقعة نهاوند ، التى تعرف بفتح الفتوح ، لأنه لم يكن بعدها حرب خطيرة ، وشغل المسلمون بتعقب يزدجرد حتى يقضوا على الشغب الذى يثيره ، وكان هذا العمل داخلا فى مهمة الأحنف ابن قيس، الذى عقد له لواء خراسان . وكان عمر قد عقد لرؤساء الجند ليفتحوا بلدان الأطراف ، فوجه عثمان بن أبى العاص إلى اصطخر وسار ابن زنيم إلى فساودراخرد ، وسهيل بن عدى إلى كرمان ، وعاصم بن عمرو إلى سجستان ، والحكم التغلبى إلى مكران . وكان يزدجرد قد فر من نهاوند إلى أصفهان ، فتقدم جند الأحنف إليها ، ففر إلى اصطخر ، ولكنه لم يأمن إزاء ألوية المسلمين ، التى كانت تستبرئ الأهواز وخوزستان ، فغادر المنطقة بأسرها إلى المقاطعات العليا من طبرستان ، يلبى دعوة جاءته من مرزبانها [2].

وتقدمت قوات الأحنف تتساقط أمامها مدن خراسان ، فاحتلت الطبسين وهراة، ومرو ونيسابور وتطارد يزدجرد حتى تلجئه إلى الهرب إلى خاقان ــ ملك الترك فى ما وراء النهر [3].

وقد صور الشعر هذه الوثبات الجريئه لجند الأحنف فى خراسان ، فقال ربعى بن عامر أحد جنده البواسل :

ونحن وردنا من هراة مناهلا   رواء من المروين إن كنت جاهلا
وبلخ ونيسابور قد شقيت لنا   وطوس ومرو قد أزرن القنابلا
أنخنا عليها كورة بعد كورة   نفضهم حتى احتوينا المناهلا
فلله عينا من رأى مثلنا معاً   غداة أزرنا الخيل تركاً وكابلا [4]

وأيقن أمراء المقاطعات بانتهاء سلطان يزدجرد فتخلوا عنه . وبعد سلسلة

(١) ياقوت جـ ٤ ص ٨٣٨ .
(٢) بروكلمان/تاريخ الشعوب الاسلامية/ص ١٢٦ .
(٣) ياقوت/جـ ٢ ص ٩٠٠ .   (٤) ياقوت/جـ ٢ ص ٤١١ .

التنقلات التى قام بها قتل فى مرو ، فسقطت أسرة آل سلسان ، وصور أبو بجيد — أحد الفاتحين — هذه النهاية بقوله :

ونحن قتلنا يزدجرد ببعجة … من الرعب إذ ولى الفرار وغارا
غداة لقيناهم بمرو نخالهم … نموراً على تلك الجبال ونارا
قتلناهم فى حربة طحنت بهم … غداة الرزيق إذ أراد جوارا
ضممنا عليهم جانبيهم بصادق … من الطعن ما دام النهار نهاراً
فوالله لولا الله لا شىء غيره … لغادت عليهم بالرزيق بوارا (١)

وكان المسلمون قد بلغوا فى تعقبهم ليزدجرد إلى حدود النهر ، ولم يكن عمر يرى الانسياح فيما وراءه ، كما كان شأنه يوم أراد الاكتفاء بالعراق ، وتمنى لو أن بين السواد والجبل سداً يفصل بين العرب والفرس ، حتى أقنعه الأحنف بتأمين تخوم العراق والسواد (٢) .

وهم اخاهدون بعبور النهر ، ولكن عمر لم ير رأيهم ، فاكتفوا بالانسياح فى سواحل كرمان ، وتقدموا إلى مكران ، ثم حاز الحكم التغلبى كرمان ذاتها ولم يتقدم ، وقال فى ذلك مشيراً إلى أوامر عمر :

غداة أدفع الأوباش دفعاً … إلى السند العريضه والمدانى
فلولا ما نهى عنه أميرى … قطعناه إلى البلد الزوانى (٣)

ويكاد يكون عهد عثمان بن عفان تأكيداً للفتح ، وقضاء على الانتقاض ، فلم يحدث فى هذا الميدان لعهده غير فتح طبرستان ، وعدا ذلك شغل أمراء الجند باستعاده أذربيجان ومناطق فارس وخراسان ، التى قتل أهلها أميرهم عبيد الله بن معمر ، فسير إليهم الخليفة عبد الله بن عامر فاستردها ، وقال أحد جنده أسيد بن المتشمس فى ذلك :

ألا أبلغا عثمان عنى رسالة … لقد لقيت عنا خراسان ناطحا
رميناهم بالخيل من كل جانب … فولوا صراعاً واستعادوا النواكحا

(١) ياقوت/جـ ٢/ص ٧٧٧ .
(٢) الطبرى/جـ ٥/ص ٢٥٦١ .
(٣) الطبرى/جـ ٥/ص ٢٧٠٨ .

غداة رأوا الخيل العراب مغـيرة تقرب منهم أسـدهن الكوالحا
تنادوا إلينا واستجاروا بعهدنا وعادوا كلاباً فى الديار نوابحا (١)

وهكذا رافق الشعر موكب الفاتحين شرقاً خطوة خطوة ، وواكب المد المنطلق إلى غايته طوال الطريق . لم يغادر حادثة إلا سجلها ، ولم يترك وقعة إلا صورها .

وهذا ما يجعل شعر الفتوح الشرقية سجلا هاماً ووثيقة تاريخية ، ومرجعاً وجدانياً بالغ القيمة فى الكشف عن عواطف الفاتحين وظروف حياتهم فى الميدان ، وما كان يضطرب فى أعماقهم من مشاعر وأحاسيس ، صورها الشعر تصويراً واضحاً شاملا .

---

(١) ياقوت/ج ٢/ص ٤١٢ .

الفصل الثالث

الشعر فى فتوح الشام ومصر وأفريقية

١ ـــ قلة الشعر على ألسنة الفاتحين

فى اعتقادنا أن وقفــة كتلك التى وقفناها من تصنيف الجيوش والإمدادات فى فتح العراق وفارس ضرورية هنا لنكشف عن الأسباب الفاعلة التى أدت إلى قلة الشعر على ألسنة الفاتحين فى الشام وفى مصر، وهى كفيلة فى نفس الوقت بالكشف عن طبيعة الاختلاف بين شعر الفتوح فى الميادين المختلفه، وقيمة الإنتاج الشعرى لهذه المناطق فيما بعد عصر الفتوح.

ونحن لا نجد هنا تلك الروايات الواضحة التى وجدنا فى العراق، فى تصنيف الجيوش والأمداد التى فتحته وانطلقت منه إلى فارس وخراسان، وفى الكيفية التى تشكلت بها هذه القوات. وحقاً نحن نجد أنفسنا أمام فيض متدفق من الروايات والقيادات والأسماء، مثل: أبى عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص، وشرحبيل، ويزيد بن أبى سفيان ومعاوية، والوليد ابن عقبه وخالد بن سعيد وعكرمة، وذى الكلاع وغيرهم، ولكننا نجد أيضاً أن خلطاً بيناً قد حدث فى التأريخ لهذه الجيوش والأمداد وزمان انطلاقها، والكيفيه التى تم تشكيلها عليها. وقد تغاضى عنها المؤرخون لسبب أو لآخر.

وربما كان سبب الخلط الذى حدث فى هذه الجيوش وقيادتها راجعاً إلى كثرتها ، وإلى الطريقة التى سار عليها الاستنفار والتجنيد ، واختلافهـا فى موقف عن الآخر ، ويرجع إهمـال الفواصل الزمنيه بينها إلى اختلاف القيادات ، وتعيين بلدان الفتح قبل مسير القوات إلى الشام ، ودوران المعارك كلها فى الشمال والجنوب فى وقت واحد ، إلى جانب تعاون الميادين المختلفة فى تعاور الجيوش واستبدالها ، وفتح بعض المناطق أكثر من مرة .

ولم يكن التغاضى عن تصنيف الجيوش فى روايات المؤرخين راجعاً إلى ذوبان العصبيات القبلية ذوباناً نهائياً ألغيت معه العصبيات ، وإنما يرجع ذلك إلى أن الفاتحين فى هذا الميدان لم يختطوا لهم خطة، ولم يبتنوا محلة أو مدينة فيه كما فعلوا بالعراق ، وكما فعلوا فى مصر بعد ذلك ، فلم يكتب لهم إقامة فيه ، إذ تحولوا عنه إلى مصر .

وقد ساعد على اختلاط تصنيف الجيوش الفاتحة للشام أنها لم تجيش فى كثرتها من المدينة ، وإنما خرجت إلى الميدان من العراق ، ومن أطراف شبه الجزيرة ، حينما استنفر أبو بكر عماله ففصلوا بجند من عمالاتهم .

وبرغم هذا فإننا نستطيع بمعونة الروايات القليلة التى بين أيدينا أن نصنف جند الفتح الإسلامى للشام ومصر فى صورة قريبة من الأصل أو دالة عليه .

كانت الخطوة الأولى فى فتح الشام توجيه خالد بن سعيد بن العاص إلى تيماء ، وكان أبو بكر قد عقد له فى ألوية الردة ، فنهاه عمر بن الخطاب عن تأميره ، وما زال يحرضه على عزله ، حتى جعله أبو بكر ردءاً بتيماء ، على تخوم الشام لا يبرحها ، وأن يدعو القبائل التى حولها للانضمام إليه إلا من ارتد ، وألا يقاتل إلا من قاتله حتى يأتيه أمره . ونفذ خالد أمر الخليفة ، فاجتمعت إليه جموع كثيرة ، جعلت عسكره عظيماً (١) ، وهذه الجموع يمنية بطبيعة الحال ، من القبائل الضاربة فى تخوم الشام ، كقضاعة وكلب

---

(١) الطبرى/جـ ٤ ص ٢٠٨١ .

وجهينة وعذرة . وترامى إلى هرقل نبأ خالد ، وترامى إلى خالد استعداد هرقل . فكتب إلى الخليفة يستفتيه ، ويطلب الإذن بقتال الروم . وكان أبو بكر قد اطمأن إلى انتهاء فتنة الردة وبلوغ خالد بن الوليد إلى الحيرة ورأى أن جموع خالد بن سعيد لا تكفي لمنازلة الروم . فاستشار صحابته ثم عوّل على أن يستنفر أهل اليمن لفتح الشام . ولقيت دعوته إقبالا شديداً خفّ على أثرها وجوه اليمن إلى خيلهم وسلاحهم ، ونهضوا في قومهم ، وساروا إلى المدينة ، وكان منهم ذو الكلاع الحميري . وقيس بن هبيرة المرادي في مذحج ، وجندب بن عمرو الدوسي في الأزد ، وحابس بن سعد الطائي في طيء .

ورافق مقدمهم إلى المدينة كتاب خالد بن سعيد ، وقدوم عكرمة فيمن معه من تهامة وعمان والشحر والبحرين ، فبعث بهم أبو بكر إلى خالد[1] . وقبل أن تصل هذه الأمداد إلى خالد بن سعيد ترامت إليه أنباء تأليب الروم لقبائل من بهراء وكلب وتنوخ ولخم وجذام وغسان ، فكتب إلى أبي بكر كرة أخرى يطلب منازلتهم ، فأمره بنزالهم ، وانتصر خالد على قبائل العرب ، ودخل عامتهم في الإسلام[2] .

وعندما التقى خالد بالروم بقيادة باهان وانتصر عليهم ، تقدم إلى القسطل ، وهزم جيشاً آخر للروم على الشاطئ الشرقي للبحر الميت ، فتجمعت قوات الروم قبالة تيماء في أعداد ضخمة ، فكتب إلى أبي بكر كتابه الثالث يستمده .

وكان أبو بكر بعد أن استقر أهل اليمن منهمكاً في استنفار من حوله من المهاجرين والأنصار وأهل مكة وعماله ، كعمرو بن العاص الذي كان على صدقات عمان ، والوليد بن عقبة وكان على صدقات قضاعة ، وكان أمر أبي بكر لهما أن يستخلفا ويندبا الناس مما يليهما لو اختاروا الجهاد

---

(1) ابن خلدون/جـ ٢ ص ٨٣ .
(2) الطبري/جـ ٤ ص ٢٠٨١ .

فاستجاب إليهما خلق كثير [١] . فأمر الخليفة عمراً على جيش فلسطين ، والوليد على جيش الأردن [٢] .

وما لبث خالد بن سعيد حينا وافاه الوليد بن عقبة وعكرمة وذو الكلاع أن التحم بالروم فى مرج الصفّر ، التى دحر فيها المسلمون ، وانحاز عكرمة بالجند ، وفر خالد [٣] .

وعندما بلغت الهزيمة أبا بكر كان شرحبيل قادماً من العراق ، فاستعمله الخليفة على عمل الوليد ، على أن يفصل بجند خالد بن سعيد ، ودعا أبو بكر بيزيد بن أبى سفيان فأمره على ألف من أهل مكة [٤] . وأردفه بأخيه معاوية ، ليفصل ببقية جيش خالد بن سعيد [٥] .

ثم ندب الخليفة أبا عبيدة بن الجراح ، وجعله على جيش عظيم فصل به إلى الشام . وأخذ أبو بكر يرغب الناس فى الجهاد ، فكانوا يأتون إلى المدينة حيث يوجههم إلى الشام ، فنهم من يسير إلى أبى عبيدة . ومنهم من يصير مع يزيد . . يصير كل إلى من أحب [٦] .

وبعد هذه التعديلات : سمّى أبو بكر كور الشام ، لكل أمير كورته ، فلأبى عبيدة حمص ، وليزيد دمشق ، ولشرحبيل الأردن ، ولعمرو بن العاص فلسطين [٧] .

وبينا تدور معركة فى بصرى – وجيوش المسلمين تتداعى إلى التساند – وصل خالد بن الوليد فى كتيبة العراق ، التى تضم أصحاب رسول الله الذين استأثر بهم دون المثنى ، [٨] ويجتمع فى اليرموك – التى شهدتها كل الجنود الإسلامية – ستة وأربعون ألفاً ، هى كل جند الشام ، وكثرتها الكثيرة من عرب اليمن . فجيش خالد بن سعيد الذى تقسمه القواد : عكرمة وشرحبيل

---

(١) الطبرى/جـ ٤ ص ٢٠٨٣ . (٢) الطبرى/جـ ٤/ص٢٠٨٤ .
(٣) الطبرى/جـ ٤ ص ٢٠٨٤ ، ٢٠٨٥ .
(٤) الطبرى/جـ ٤/ص ٢٠٨٤ ، ابن خلدون (٥) المرجع نفسه .
(٦) الطبرى/جـ ٤/ص ٢١٠٨ . (٧) المرجع نفسه .
(٨) الطبرى/جـ ٤/ص ٢٠٩١ .

ومعاوية — كان يمنياً ، وكذلك جيش الوليد وجيش عمرو بن العاص[1] ، وأمداد عكرمة وذى الكلاع المكونة من الأزد ومذحج وطيء وغيرها من قبائل اليمن ، ... كتيبة خالد بن الوليد التى كان فيها ألف من الأنصار من أهل ... أما جند يزيد بن أبى سفيان فهو ألف من أهل مكة . بينما ... نعلم شيئاً عن جند أبى عبيدة ، وإن كان المظنون أنه من المهاجرين والأنصار .

وعلى الرغم من هذا فإننا لا نجد أثراً ولو ضئيلا لتكتل هذه العصبية فى شعر الفتح الإسلامى فى الشام ، فبذور العصبية التى عانى منها المسلمون فيما بعد فى هذه البلاد ، وسيطرت فيها على مقدارات الحياة إلى نهاية الدولة الإسلامية لا يوجد لها أثناء عملية الفتح ظل ولو شاحب يدل عليها ، ففضلا عن انصهار هذه العصبيات فى بوتقة العمل الموحد فى سبيل الله والعقيدة الواحدة ، وفضلا عن التضامن تحت شعار الوحدة وإنكار الذات والتفانى فى سبيل الهدف الأسمى ، لم تكن هناك فرصة لظهور هذه العصبيات ، إذ انعدم التوازن بينها ، فالكثرة الكثيرة من أهل اليمن . وإذا كنا نعرف أن أهل اليمن ليسوا كأهل نجد والحجاز كلفا بالشعر ومعرفة به واستجابة له ، فربما يفسر لك انعدام هذه الروح العصبية فى الشعر ، وسيزول عجبنا إذا ما عرفنا شعر الفتح الإسلامى فى الشام ليس إلا ما خلفه جند خالد بن الوليد الذين فقوه من العراق ، وفيما عدا شعرهم لا نجد إلا قلة نادرة ، إذا ما قورنت مر الفتح فى العراق وفارس ، وهذا يرجع إلى أنها كانت فى جمهورها يمنية ، ومعنى ذلك : أن القبائل اليمنية التى فتحت الشام جنت على الشعر فى هذه المناطق ، ووسمتها بالإجداب والضحالة ، وجعلتها من بعد مهبطاً للشعراء الوافدين .

---

(۱) يذكر المؤرخون ان جيش عمرو لفتح مصر كان من محاربى الشام ، ويذكر ياقوت جـ/٣ ص ٨٩٣ ان كثرته كانت من عك ، بينما يذكر ابن عبد الحكم ان جميعه من عك ص ٥١ ، او ان ثلثه من غافق ، وكذلك يذكر الكندى ايضا ، الولاة ص ٨ .

وحدث نفس الأمر فى فتح مصر ؛ إذ يجمع المؤرخون على أن الجيش الذى فتح مصر بقيادة ابن العاص كانت كثرته من أهل اليمن ، من علك وغافق[1] ، فضلا عمن دخلوها معه ممن أسلم من عرب الشام قبل اليرموك[2] . وأولاد الأبناء اليمنيين الذين كانوا بصنعاء ، ومسلمة الروم من بنى ينة . وبنى الأزرق ، وبنى روبيل ، ممن عرفوا بالحمراء ، وكانوا قد أسلموا قبل اليرموك[3] . كما انضم إليه عرب سيناء من قضاعة . وبعد أن فصل عن العريش لحق به قوم من بنى راشدة وقوم من لخم . وبهذا يشكل أهل اليمن نواة الجند الإسلامى فى مصر ، وتتتابع الأمداد بعد ذلك . وإذا كان المؤرخون يختلفون حول هذه الأمداد وأعدادها فإنهم لا يذكرون شيئاً عن كيفية تصنيفها .

وبرغم هـذا فإننا لو رجعنا إلى تسمية القبائل فى الخطط التى نزلتها لاتضح لنا أن كثرتها من عرب اليمن[5] ، ونعلم أن هذه القبائل لم تشترك جميعها فى الفتح ، وإنما وفدت كثرتها بعد أن استدعاها ذووها من الفاتحين . وتذكر بعض الروايات أن جموعاً كبيرة من هذيل قد دخلت مصر مع أمداد عمر لعمرو[6] ، وأنها نزلت فى الحمراء الوسطى[7] . وقد تميز دخـول المسلمين إلى مصر بمثل ما تميز به دخولهم إلى العراق ، من تخطيط المـدن وسكناها ، ولم يرتض عمر أن يسكن عمرو وجنده الإسكندرية . حتى لاتتغير طباعهم العسكرية ، وحتى لا يكون بينه وبينهم ماء . إذا أراد أن يركب راحلته حتى يقدم عليهم فعل ، فتحول عمرو إلى الفسطاط[8] .

وقد ساعد اشتراك كثرة الجند فى أصول يمنية واحدة على عدم تشقيق الخصومات ، فشحب لون القبلية ، وبرزت نوازع جديدة . هى نوازع

---

(١) راجع ماسبق فى الصحيفة السابقة . (٢) الانتصار لابن دقماق جـ ٤ ص ٥ .

(٣) ابن عبد الحكم ص ١٢٩ ، المقريزى جـ ١ ص ٢٩٨ .

(٤) ابن عبد الحكم/ص ٥٣ . (٥) صبح الأعشى/جـ ٣ ص ٣١ ، ٣٢ .

(٦) الأغانى/جـ ٢٠/ص ١٦٧ ، الاصابة / جـ ١ ص ١١٧ .

(٧) المقريزى/جـ ١/ص ٢٩٨ . (٨) ابن عبد الحكم ص ٩١ .

واحتاج أبو بكر لفتح الشام وعناه أمره[1] ، فوجه بشرحبيل بن حسنة ، الذى كان قافلا من العراق بأنبــاء النصر ، وأمره بالشام فجمع قوة من جيش ابن سعيد وابن عقبة ، وسار بها إلى عكرمة[2] . ودعا أبو بكر يزيد ابن أبى سفيان ، وأمرّه على جند ، وأردفه بأخيه معاوية ، فسارا وفصلا ببعض جيش ابن سعيد[3] . وندب الخليفة جيشاً عظيماً عليه أبو عبيدة بن الجراح ، وأمرّه على حمص ، وسمى الخليفة لكل قائد مكاناً ، فليزيد بن أبى ســفيان دمشق ، ولشرحبيل الأردن ، ولعمرو بن العاص فلسطين[4] وانطلقت الجيوش فى طريقها إلى الشام . وكان أبو بكر باهتياجه للشام على هذا النحو يعزز انتصارات المسلمين بالعراق ؛ فلو وقف أمر المسلمين عند هزيمة خالد لذهب نصرهم فى العراق بدداً ، ولاقتحم عليهم الروم بلادهم . وظل المسلمون فى مسيرهم حتى نزلوا الشام . وكان عمرو بن العاص معسكراً فى العربة ، وتخطى أبو عبيدة البلقاء إلى الجابية ، بعد أن خضع له عرب مآب . ونزل شرحبيل الأردن ، بينما نزل يزيد البلقاء . وقد اختلفت الروايات ؛ ألقى المسلمون حرباً فى جنوبى فلسطين ، أم تقدموا فيها ولم يواجههم أحد ؟ وتلتقى جيوش المسلمين بجيوش عكرمة ، ليعسكر أبو عبيدة على طريق دمشق ، ويعسكر شرحبيل فى مرتفع بأعلى الغور ، فوق طبرية ونهر الأردن ، ويظل يزيد بالبلقاء مهددا بصرى ، ويبقى عمرو بالعربة[5] . وعندئذ أدرك الروم الذين لم يعبئوا بالمسلمين بعــد ما انهزموا وفر خالد أن الأمر أجل خطراً من أن يستهينوا به . فسير هرقل قوات عظيمة وقفت إزاء جيوش المسلمين ، حتى يشغل كلا منها عن غيرها فيسهل التغلب عليهم . فعسكر جيش بقيادة تذارق أخى هرقــل بإزاء عمرو . ووقف جيش بإمارة الفيقار بن نسطوس بإزاء أبى عبيدة . أما شرحبيل فاستقبل الداراقص على قوة من الروم ، واستقبل جرجه جيش يزيد بن أبى سفيان[6] .

---

(1) الطبرى ١/٤/٢٠٨٢ .
(2) الطبرى ١/٤/٢٠٨٥ .
(3) الطبرى ١/٤/٢٠٨٥ .
(4) الطبرى ١/٤/٢٠٩٠ .
(5) هيكل / الصديق / ص ٢٦٧ .
(6) نفس المرجع ص ٢٦٨ .

هاب المسلمون جيوش الروم حين رأوها يخطئها العد ، ففزعوا بالكتب والرسل إلى عمرو بن العـــاص يلتمسون عنده الرأى ، ورأى عمرو أنهم لا يستطيعون لقاء الروم متفرقين ، فكاتبهم يقول : (إن الرأى الاجتماع ، وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة ، فأما إن تفرقنا لم تقم كل فرقة لمن استقبلها لكثرة عدونا) . وجاءهم كتاب أبى بكر بمثل رأى عمرو ، وفيه : (اجتمعوا عسكراً واحداً ، والقوا زحف المشركين بزحفكم ، فأنتم أعوان الله ، والله ناصر من نصره ...)[1] . واتعد المسلمون اليرموك على طريق دمشق ، واجتمعت قواتهم كلها على شاطئه الأيسر . فلما رأى الروم ذلك جمعوا قواتهم على الشاطئ الأيمن للنهر ، وتولى تذارق (تيودوريك) قيادتها .

ونهر اليرموك ينحـــدر سريعاً بين آكام مختلفة الارتفاع إلى غور الأردن وإلى البحر الميت ، وعلى مرحلة من ملتقى اليرموك بنهر الأردن تقع واقوصة فى منبطح فسيح من الأرض ، تحيط به من ثلاث نواح جبال بالغة الارتفاع . وقد اختار الروم هذا المنبطح معسكراً لهم ، فلما استقروا به تخطى المسلمون النهر إلى ضفته اليمنى ، واختاروا منبطحاً آخر على الطريق المفتوح لجيش الروم . فلم يبق للروم طريق إلا عليهم . وأقام المسلمون برغم هذا لا يقدرون على شىء ، ولا يقدر الروم منهم على شىء شهرين كاملين . ورأى المسلمون ألا بد لهم من مدد يعينهم ، فكتبوا إلى أبى بكر يستمدونه حتى لا يسأم الجند ويضعف إيمانهم بالنصر . وجمع أبو بكر أولى الرأى من صحابة الرسول متعجباً أن يقف المسلمون هـــذا الموقف من الروم على كثرتهم ، وتكشفت الحقيقة : أن العلة فى القيادة ، فالموقف يحتاج إلى قائد جسور وأبو عبيدة رقيق القلب ، وابن العاص على دهائه غير مقدام ، وعكرمة مناور مقـــدام ينقصه دقة التقدير . ثم إن كثرة الأمراء تجعلهم لا يقرون لواحد منهم بالتفوق ، فإذا بأبى بكر يصيب كبد الحقيقة إذ يقول « والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد »[2] .

(١) الطبرى ٢٠٦٠/٤/١ و ٢٠٨٧/٤/١ . (٢) الطبرى ٢١٠٨/٤/١ .

وكتب أبو بكر إلى خالد إثر عودته من الحج : « سر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك ، فإنهم قد شجوا وأشجوا »[1] . وأخذ خالد يتدبر أمره ، فتقاسم الجند مع المثنى كأمر أبى بكر ، ثم اجتاز طريقاً موحشاً بطريقة فذة وفى أيام قليلة ، وتمكن من إصابة بعض الواحات والقبائل فى طريقه ، كما استطاع بمعونة دليله رافع الطائى أن يختصر الطريق ، وأن يقضى على مشكلة الإمدادات وخاصة توفير المساء فيما يشبه المعجزة[2] ، ويدخل عمله فى إطار الأسطورة . وقد تجنب خالد أن يلتقى بالروم حتى يبلغ جيوش المسلمين . وأغار فى طريقه على سوى وتدمر ، وصالح أهل قصم وانحدر إلى أذرعات فأغار على غسان بمرج راهط ، ثم سار حتى نزل على قنــاة بصرى ، وعليهــا أبو عبيدة وشرحبيل ويزيد فتقدمهم خالد واقتحموا بصرى وفتحها الله عليهم ، ثم ساروا جميعاً إلى فلسطين مدداً لعمرو بن العاص ، فعسكر خالد بجنوده إلى جوار زملائه ، واكتمل جمع المسلمين على اليرموك .

وصادف قدوم خالد قدوم باهان ، الذى رأى هرقل أن يعزز به جنده.وكان الموقف بالغاً غاية الدقة، فعدد المسلمين قليل جداً ، بالقياس إلى عدد الروم.وظل الموقف جامدا ثلاثة أسابيع يتدبر المسلمون أمرهم ، وترامى إلى المسلمين أن الروم سينازلونهم فى غدهم ، وتحدث الأمراء فى شأنهم ، ولما آن لخالد أن يتحدث قال : « إن هذا اليوم من أيام الله لا ينبغى فيه الفخر والبغى. أخلصوا لله جهادكم ، وأريدوا الله بعملكم ، فهذا يوم له ما بعده ، ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبئة وأنتم على انتشار »[3] فلما سألوه الرأى ؛ أشار بتعاورهم الإمارة ، وطلب أن يتأمر فى اليوم الأول ، ولم يترددوا .

عبأ خالد الجيش كراديس كل منها ألف رجل ، وجعل على القلب أبا عبيــدة ، وعلى الميمنة عمرو بن العاص وشرحبيل ، وعلى الميسرة يزيد ، وجعــل على كل كردوس فارساً من شجعان المسلمين كالقعقاع وعكرمة ومن إليهما . وعهد إلى أبى سفيان بتحريض المسلمين وتذكيرهم ،

---

(1) الطبرى ٢١١٠/٤/١ .
(2) ياقوت / جـ ٤ ص ١٠١٥ .
(3) الطبرى ٢١٠٨/٤/١ .

فسرت إلى قلوب المسلمين قوة لم يكن لهم بمثلها عهد مذ نزلوا الشام . وتقدم القادة صفوفهم يرتجزون ويخطبون ويتمثلون ، وكلهم ينتظر الأمر بالهجوم بصبر نافذ ، وعزم ثابت على النصر أو الموت .

فلما صدرت الأوامر من باهان بالزحف كان جرجه بجيشه فى الطليعة ، وكان قد تعلم العربية وسمع عن خالد ومال قلبه إليه ، فتلقاه خالد وأفسح له ولعسكره طريقاً ، وظن الروم أن جرجه فى حاجة إلى المدد ، فانقضوا على المسلمين فأزاحوهم . وكان عكرمة على كردوسه أمام فسطاط خالد ، ورأى تسليم جرجه وارتاح له ، فلما رأى صفوف المسلمين تتزاح أمام الروم نادى: من يبايعني على الموت؟ فبايعه أربعمائة من وجوه المسلمين، واندفع بهم يلقون فيلق الروم فى هجمة رجل واحد ، فزلزلوهم كما زلزلهم انضمام جرجه إلى المسلمين ، وأيقن المسلمون بالنصر أو الفناء عندما رد الروم هجومهم بأعنف منه . واندفع خالد والمسلمون وراءه يهوون على عدوهم بسيوفهم فيخطفون أرواحهم خطفاً ، وازداد حماس المسلمين حتى شارك النساء الرجال ، واستمات الروم فى دفع المسلمين ، وتأرجحت المعركة حامية الوطيس ، فلما كانت الشمس فى المغيب بدأت قوات الروم تهن ، وكان نهر اليرموك يدور فى الشمال على شكل نصف دائرة ، بحيث يحتضن جنوبى القوس سهلا له باب واحد من الجنوب ، فدار خالد خلف جيش الروم وحصرهم فتردوا فى هاوية الواقوصة ، وشدد المسلمون الضغط عليهم فتلاحقوا فيها[1] .

قضت معركة اليرموك على كل أمل للروم فى استبقاء الشام فلم يكد هرقل يسمع بهزيمة جيشه حتى جلا عن معسكره بحمص ، وجعلها بينه وبين المسلمين ، وقال قالته المشهورة : (سلام عليك ياسورية سلاماً لا لقاء بعده ونعم البلد للعدو)[2] .

---

(1) الجغرافيا التاريخية / محمد احمدحسونة / ص ٣٢/٣٣ .
(2) الطبرى ٢٣٩٦/٥/٩ .

ويذهب غير قليل من المؤرخين إلى أن معركة اليرموك كانت بعد أجنادين ودمشق ، وأن اليرموك كانت آخر الوقائع . يذهب إلى ذلك الواقدى والبلاذرى والأزدى ، مخالفين الطبرى الذى اخترنا روايته . فالواقوصة التى حدثت المعركة عندها قريبة من بادية الشام ومن تخوم العرب ، وهى أدنى الأرض إلى جيوش المسلمين حين التقائها . ويؤيد رواية الطبرى ما يرويه ياقوت فى هذه الوقعة من أنها حدثت لعهد أبى بكر ، وأن البريد جاء بموته وخلافة عمر ، وبتأمير أبى عبيدة على الشام كله ، وبعزل خالد ، وأخفى الخبر عن المسلمين حتى تم نصرهم . ثم دخل خالد على أبى عبيدة فسلم عليه بالإمارة وأفضى بالخبر(١) . ونحن نميل إلى هذه الرواية ونرفض رواية البلاذرى ومن سايره . وليس لنا إلا أن نحتكم فى ذلك إلى الشعر الذى يؤيد وجهة النظر التى اخترنا بدوره ، يقول القعقاع بن عمرو — وكان ضمن كتيبة خالد — مصوراً مسيرهم إلى اليرموك :

بدأنا بجمع الصفّرين فلم ندع لغسان أنفاً فوق تلك المناخر
صبيحة صاح الحارثان ومن به سوى نفر نجتذهم بالبواتر
وجئنا إلى بصرى وبصرى مقيمة فألقت إلينا بالحشا والمعاذر
فضضنا بها أبوابها ثم قابلت بنا العيس فى اليرموك جمع العشائر(٢)

كتب أبو عبيدة إلى عمر بما تم من نصر المسلمين فى اليرموك ، وأنه خلف بشير بن سعد بن أبى الحميرى عليها ليحمى ظهره ، وخرج إلى مرج الصفّر يتعقب فلول المنهزمين بفحل ، وأنه أتاه الخبر بأن هرقل أمد دمشق بقوات من حمص ، وأنه لايدرى أيبدأ بدمشق أم بفحل من بلاد الأردن ؟ فأجاب عمر بالبدء بدمشق فهى حصن الشام ، على أن يشغلوا أهل فحل فى نفس الوقت . فأرسل أبو عبيدة إلى فحل بقوة كبيرة عليها أبو الأعور السلمى ، وسار هو وخالد بن الوليد فى قوة الجيش الكبرى إلى دمشق ، ورأى الروم الذين لجئوا إلى فحل مقدم المسلمين عليهم ، وكان أثر اليرموك

(١) ياقوت / جـ ٤/ ص ١٠١٥ . (٢) نفس المرجع والصحيفة .

وما أورثه إياهم من فزع لا يزال آخذاً بنفوسهم ، فأطلقوا ماء بحيرة طبرية ونهر الأردن فى الأرض حولهم ، فأوحلت وتعـذر السير فيها ، وغاظ المسلمين ما صنع أعداؤهم فحاصروهم دون تقدم وظلوا على حصارهم . بينما كان أبو عبيدة يتقدم فى كثرة الجيش إلى دمشق ، حيث هجر الناس منازلهم ليحتموا فى حصونها المنيعة برماتها ومنجنيقاتها وخنادقها التى طمتها مياه نهر بردى . وأمر أبو عبيدة جنده فسكنوا الغوطة معسكرين فى كنائسها ، حتى لا تحاصرهم قوة تأتى من حمص ، وبعث بعلقمة بن حكيم ؛ وبمسروق العبسى فعسكرا بين دمشق وفلسطين ، ليمنعا أمداد الروم من الجنوب . وعين لكل من قواده باباً من أبواب دمشق الحصينة فنزل هو بالجابية ، ونزل عمرو بن العاص بباب توماء ، ونزل شرحبيل بباب الفراديس ، ونزل يزيد بالباب الصغير المعروف بباب كيسان ، أما خالد : فنزل بباب دمشق الشرقى. ونصب المسلمون المنجنيق والدبابات حول أسوارها ، لكن حصونها كانت أمنع من أن تفضها عدة العرب ، فردت المدينة كل هجمات المسلمين بسهامهم ونبلهم . وكان نسطاس حاكم المدينة ، وباهان قائدها ينتظران أمـداد هرقل ، فطالت المقاومة ، وأرسل هرقل ماو.ـ به ، ولكن قوات المسلمين تصدت لأمداده . وعلى الرغم من هذا لم تسقط المدينة ، وتمسكت بالمقاومة حتى انصرم الشتاء والعرب لا يريمون . عند ذلك وهنت المقاومة وبدءوا يفكرون فى الصلح . ودخل المسلمون المدينة بعد أن تسورها خالد من الشرق وفتح أبوابها ، بينما دخلها أبو عبيدة من الجابية صلحاً ، وكذلك فعل يزيد من باب توماء .

وكان طبيعياً أن يتجه أبو عبيدة بادئ ذى بدء إلى التفكير فيمن خلف وراءه من جنود المسلمين عند فحل بالأردن ، ولكنه شغل قليلا بتسريح جند خالد إلى العراق كما أوصى أبو بكر ، فسارت كتيبة العراق وعليها هاشم بن عتبة ، وعلى مقدمتها القعقاع ، لتدرك المسلمين فى القادسية كما مر ، وكاد يشغل عن فحل تماماً ، إذ أوعز إليه البعض بفتح حمص ، مدفوعين

بحماسة الظفر ، ومنهزين فرار هرقل منها إلى أنطاكية ، لكنه خالف مشورتهم حتى لا يقطع أحد ساقته ؛ فترك يزيد على دمشق ، وتقدم ومعه خالد وقوات الجيش مجتمعة وبلغ بهم فحل وقد جفت الأرض. وكان أبو بكر قد جعل إمارة الأردن لشرحبيل ، فله القيادة لأن القتال يقع فى إمارته ، فبعث أبا الأعور السلمي إلى طبرية فحاصرها ، وجعل خالداً على مقدمة الجيش ، وأبا عبيدة وعمراً على المجنبتين ، وضرار بن الأزور على الفرسان . وأقاموا قبالة الروم ينتظرون وطال وقوفهم . فخيل إلى سقلار قائد فحل أنه يستطيع أخذ المسلمين على غرة ، فقد أمن المسلمون وأقاموا على غير عدة لطول مقامهم ، وأنهم لذلك ستضطرب صفوفهم لأول وهلة . وخاب ظنه إذ أن المسلمين لم يأمنوا ، وكان شرحبيل يبيت ويصبح على تعبئة ، واستبسل الروم فى قتال مرير ، وطالت المعركة الليل كله ، والنهار الذى يليه إلى الليل ، حتى خارت قوى الروم ووهنوا ، فانهزموا وقتـل قائدهم وأسلمتهم هزيمتهم إلى الوحل ، فلحق بهم المسلمون فركبوهم وخزاً بالرماح ، وقتلوهم شر قتلة ، فأصيب الثمانون ألفاً لم يفلت منهم إلا الشريد[1] .

ثم نهد شرحبيل ومعـه عمرو فحاصر أهل بيسان ولكنهم لم يستمروا فى المقاومة واضطروا إلى التسليم والصلح ، فقد هوت روحهم المعنوية إلى منحدر من الضعف ، بسبب ما أصابهم فى اليرموك وفى دمشق وفى فحل . ثم إن أهل الشام لم تبلغ عداوة المسلمين منهم مبلغاً يعاون الروم على المقاومة ؛ فقد حكمهم الروم ببأس وقوة لا يثيران حماسة لحكمهم أو حرصاً على بقائه .

و[illegible] أهل طبرية ما أصاب بيسان وأهلها ، فطلبوا إلى أبى الأعور أن يصالحوا شرحبيل . واحتذى أهل أذرعات وعمان وجرش ومآب وبصرى مثالهم ، وكذلك أذعنت بلاد الأردن إلى حوران وإلى البادية ورضيت سلطان المسلمين ، الذين أقاموا الجند فى المدن وتركوا لأهلها إدارة شئونها .

---

(1) ياقوت جـ ٣ ص ٨٥٣ .

وسار أبو عبيدة ليفتح حمص ، فلما بلغ دمشق ضم إليه ذا الكلاع وقوته التى كان قد تركها ردءا لدمشق من الشمال . وما أن بلغ إلى الشمال الشرقى من دمشق حتى لقى جيشاً من الروم بعث به هرقل بإمرة توذر ، فوقف قبالته . وإنه لكذلك إذ أقبل شنس الرومى مدداً لتوذر ، فعسكر على حدة . وتداول أبو عبيدة مع خالد ، واستقر رأيهما على أن يلقى خالد توذر ، وأن يلقى أبو عبيدة شنس ، وكان همهما أن يصدا المسلمين عن حمص . وبات كل من القائدين يرتب أمر الحرب وينظم خطته ، ولما تنفس الصبح لم يجد خالد أثراً لتوذر ، فقد انسحب فى جنوده من أول الليل يريد دمشق ، ثقة منه بأن حاميتها لن تطيق مقاومته . وتدبر خالد الأمر ، فلا قيمة للانتصار على شنس إذا ما افتض توذر دمشق . وأسرع خالد فى كتيبة من الفرسان يطارد توذر . وكان توذر قد وصل إلى دمشق ، وبلغ يزيد خبره فخرج يلقاه ، وأنشب القتـــال بعد أن أغلق أبواب المدينة ، وبينا توذر يهاجمه أقبل خالد فأخذ الروم من خلفهم ، وكبر وكبر الذين معــه ، فأيقن المسلمون المدافعون بوصول المدد ، فأخذهم يزيد من أمامهم وخالد من خلفهم وأمعنوا فيهم قتـــلا ، ولم يفلت منهم إلا الشريد . وغنم المسلمون خيلهم وأداة حربهم ومتاعهم . وعاد خالد إلى مرج الروم فوجد أبا عبيدة قد انتصر على شنس وقتله ، ومزق جيشه كل ممزق(1) . وانطلق يلاحق فلوله إلى حمص وحاصر بعلبك ، فلما ترامت هذه الأنباء إلى هرقل ارتحل على أثرها ، وأرسل إلى أهل حمص يعدهم بالمـــدد وأن العرب لن يطيقوا برد حمص ، ولم تطل مقاومة بعلبك أمام أبى عبيـــدة فصالح أهلها ، وتركهم إلى حمص فحاصرها وعلى مقدمته خالد بن الوليد . وامتنع أهل المدينة بحصونها لا يخرجون لقتال المسلمين إلا فى اليوم الشديد برده ، وطال بالمسلمين الحصار ، وطال بأهل حمص انتظار ما وعدهم به هرقل ، وانصرم الشتاء ولم يرحل المسلمون ، فتراجعوا إلى الصلح أخيراً ودخلها المسلمون .

---

(1) الطبرى ٢٥٠٥/٥/١ .

خلّف أبو عبيدة على حمص عبـــادة بن الصامت ومضى نحو حماه ، فتلقاه أهلها مذعنين ، فصالحهم على صلح حمص . وسار إلى اللاذقية حيث حاصرها واضطر أهلها إلى الصلح ، بعــد أن خدعهم عن مدينتهم بحفر حفائر كالأسراب ، ثم أظهر المسلمون رحيلهم فاطمأن أهلها وخرجوا إلى معاشهم ، وعاد المسلمون مع الليل حيث دخلوا المدينة من حفائرهم ، ومنعوا الذين خارجها من الدخول ، فسلم من أقام فى المدينة[1] . وتوجه خالد إلى قنسرين حيث هزم ميناس هزيمة منكرة ، وخرب المدينة بعد استسلامها عقوبة لها ، وأودى بحاضرها وبمن فيها من عرب تنوخ وسليح . وعلى الرغم من أن أبا عبيدة أجابهم إلى الأمان من بعد ، فعادوا بعد أن فروا إلى أنطاكية ، إلا أنهم غدروا بالعرب عندما ساروا إلى حلب ، فوجه إليهم أبو عبيدة قوة حصرتهم وغنمت منهم مئونة للجيش ، وتركت فيهم حامية تكفل إذعانهم وتحمى المؤخرة[2] . وسار أبو عبيدة إلى حلب فحاصرها ، ولم يلبث أهلهـــا أن خارت عزيمتهم برغم مناعة حصونهم فطلبوا الصلح[3]

وكان هرقل قد اعتصم بأنطاكية قبل ارتحاله إلى الرها ، وهى عاصمة الإمبراطورية الرومانية فى الشرق ، وكان فتحها لدى عمر يعادل فتح المدائن ، ويتلهف على أخبارها تلهفه على أخبـــار القادسية . ولم يكن أبو عبيدة يجهل منعتها وقوة حصونها ، كما لم يغب عنه أنها مقر الذين نجوا بعد هزائمهم فى مواقع الشام كلها ، فاجتمعوا بها وعزموا على الدفاع عنها ، ولكن دفاعهم انهار أمام المسلمين ، فخرج أهلها وتركوا حصونهم حيث تلقاهم أبو عبيدة فى معركة حامية ، وحاصر المدينـــة فسلمت ونزلت على حكمه فرحل عنها . ولكن أهلها عادوا فنقضوا عهدهم ، فبعث إليهم بعياض بن غنم فقضى على انتقاضهم ، وأقام فيها حامية ثابتة كأمر الخليفـــة[4] . ولم يبق لكى يتصل الفتح فى الشام بالفرات إلا تطهير شمال الشام ؛ لذلك سار أبو عبيدة

---

(1) هيكل / الفاروق ص ٢٣٠ ..
(2) الطبرى ١/٥/٢٥٠٧ .
(3) الطبرى ١/٥/٢٥٠٨ .
(4) الطبرى ١/٥/٢٥٠٨ .

إلى حلب حيث بدد جيش الروم ، ثم فتح قورس ومنبج ، وبعث بخالد ففتح مرعش . وسار يزيد بن أبي سفيان من دمشق ففتح بيروت والثغور المجاورة[1] . ويئس هرقل فارتحل من الرها إلى القسطنطينية . ورأى جبلة بن الأيهم ما حل به فكتب إلى أبي عبيدة بإسلامه وإسلام بني غسان ، حتى حدث أن وطئ إزاره رجل من بني فزارة فتنصر والتحق بهرقل[2] .

وبينما كان أبو عبيدة يسير مظفراً في شمال الشام كان عمرو بن العاص وشرحبيل يواجهان قوات الروم ، التي اجتمعت بفلسطين لأرطبون أكبر قواد الروم وأكثرهم دهاء ، وكان قد وضع بالرملة جنداً عظيماً وبإيلياء جنداً مثله ، وترك بغزة وسبسطية ونابلس واللد ويافا حاميات . وأقام ينتظر مقدم العرب واثقاً من النصر .

وأدرك عمرو دقة الموقف ، وخشي توزع جنوده بين هذه الأماكن ، فخاطب الخليفة في ذلك . فأشار عمر بأن يتوجه معاوية إلى قيسارية ليفتحها فلا يجيء إلى أرطبون أمداد عن طريقها . وسار معاوية إليها فحصرها ، وزاحف أهلها وردهم إلى حصونهم كلما خرجوا له . وطال بهم الأمر حتى استماتوا في قتاله ذات يوم فقضى عليهم ، حتى ليقال إنه قتل منهم ثمانين ألفاً . وبسقوط قيسارية أمن المسلمون جانبها ، وامتنع كل مدد يجيء إلى الروم عن طريقها[3] .

ولم يكتف عمرو بهذا ، فقد رأى أرطبون يتقدم بقواته إلى أجنادين ، فوجه علقمة بن حكيم ومسروقاً العكي إلى إيلياء حتى يشغل الروم عنه . وجه أبا أيوب المالكي إلى الرملة لنفس الغرض . وسار عمرو في جلة الجيش إلى أجنادين ، فإذا الروم قد تحصنوا وخندقوا . واحتال عمرو فتنكر حتى دخل على أرطبون كأنه رسول ، وتأمل حصونه وعرف ما أراد . واحتال حتى خرج بعد أن كاد أمره يكتشف ، ولم يبق أمام

---

(1) هيكل الفاروق ص ٢٣٦ .
(2) الأغاني الساسي جـ ١٤ ص ٤ .
(3) هيكل / الفاروق ص ٢٤٧ .

عمرو إلا أن ينشب القتال بعد أن عرف مآخـــذه ومآتيه . وبعد أن أعد له عدته التقى الجيشان بأجنادين . كما التقى جيش الروم والمسلمين بالواقوصة ، وكذلك كان القتال شديداً ، وترجح النصر زمناً بينهما . وكان أهل فلسطين من اليهود والنصارى يقفون من حكامهم ومن غزاتهم موقف المتفرج ، لا تحركهم حماسة للروم ولا غضب على المسلمين . وساعد هذا على أن يكون المسلمون أكثر ثباتاً وصبراً ، فلما آذنت الشمس بالمغيب رأى أرطبون صفوفه تضطرب فانسحب فى الناس متقهقراً إلى بيت المقدس ، فأفسح علقمة ومسروق طريقاً ، فدخل المدينة بمن بقى من جنده معتمداً على مناعة حصونها . وعسكرا بقواتهما إلى جانب قوات أبى أيوب بأجنادين . بينما أقام عمرو ينظر فى مهاجمته أرطبون ببيت المقدس . ورأى عمرو أن يحيطوا به فيقطعوا خط الرجعة عليه من ناحية البحر ، ففتحوا رفح وغزة وسبسطية ونابلس واللد وعمواس وبيت جبرين ويافا(١) .

وكاتب أرطبون عمراً بأنه لن يفتح شيئاً بعـــد أجنادين ، فعليه أن يرجع ولا يغتر . فرد بأنه صاحب فتح هذه البلاد ، وطلب إليه أن يتدبر أمره قبل أن يدهمه ، ولكنه كان يشعر أنه بحاجة إلى مدد ، فقد أنهكت وقعة أجنادين المسلمين ؛ فكاتب الخليفة أنه يعانى حرباً كئوداً صدوماً ، وبلاداً أدخرت له ؛ وطلب رأيه . وظل محاصراً للمدينة والمقاومة تشتد ، حتى ذاق المسلمون من قسوة المنجنيقات وشدة البرد الكثير . وكان جلياً أن استماتة المدينة فى الدفاع سببها الدين . فلما أيقنوا بانقطاع المدد عنهم ، وبقسوة المنجنيقات على المسلمين خافوا على كنيستهم وقبلتهم ألا يصالحهم المسلمون على ما صالحوا عليه المدن الأخرى ؛ ولهذا فقد اشترطوا أن يتولى عقد الصلح خليفة المسلمين بنفسه . وربما ليتركوا لجنودهم فرصة ينسحبون فيهـــا إلى مصر . وكتب لهم عمر كتاباً أمنهم فيه على أنفسهم وبيعهم وصلبانهم(٢) .

---

(١) الطبرى ١/٥/٢٤٠٥ . (٢) الطبرى /١/٥/٢٤٠٥ .

وانتهز عمر وجوده بالشام فنظم إدارته ، وعـدل قيادته وقسم إقليم الشام مقاطعات تعرف بالأجناد ، ثم قفل راجعاً إلى المدينة .

ولم يشأ الروم بعد كل هذا أن يتركوا المسلمين ينعمون بالاستقرار فى بلاد الشام . وداعب الأمل هرقل فى أن يستعيد الشام فى محاولة نهائية ، وتصادف أن القبائل العربية الضاربة فى شمـالى الشام وظلت على مسيحيتها خشيت خطر المسلمين ، فراسلت هرقل تطلب عونه فى مهاجمة المسلمين ، ورأى هرقل فى ذلك فرصته فراسل هذه القبائل لتستعد ، بينما أبحرت جيوشه من الإسكندرية بقيادة ابنه قسطنطين . وألقت الحملة مرساها على شاطئ أنطاكية واستولت عليها . وهناك انضم إليها قبائل العرب المتمردة ، ولم يلبث شمالى الشام أن ثار . فألفى أبو عبيدة نفسه محصوراً فى حمص ، بينما أعداؤه يسيرون إليه براً وبحراً ؛ فراسل عمر فأمده بالقعقاع ونصحه بالتريث[1] .

وكانت الخطة أن تحصر القبائل المتمردة عن دائرة جيش الروم فطوقها عبد الله بن عتبان وسرعان ما رجعت إلى مضاربها وآثرت السلامة[2] .

واستطاع المسلمون ـ بعد انفرادهم بالروم ـ أن يحطموا مقاومتهم ، وأن يهزموهم برغم استماتتهم فى القتال ، وأخيراً ألجأهم المسلمون إلى الانسحاب ومنذ هذا اليوم عرف المسلمون قيمة الأساطيل البحرية . وقد ألمت بالمسلمين فى هذه الفترة مجاعة عنيفة ووباء شديد . أصابتهم المجاعة فى مواطنهم فى شبه الجزيرة ، وأصابهم الوباء فى الميدان . ودامت المجاعة تسعة أشهر ، وهلك فيها الزرع والنسل والضرع والحرث ، وأصاب الناس منها الجهد والبلاء . أما الطاعون فقد امتد من الشام إلى العراق فأفنى الألوف من خيرة المسلمين رجالا ونساء وجنداً ومدنيين ، حتى ارتاع له الناس أيما ارتياع . وعالج الخليفة المجاعة بصبر وحكمة ، مستعيناً بما أفاءه الله من خيرات الشام والعراق .

---

(١) الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ص ٥٢ .

(٢) ابن الأثير جـ ٢ ص ٢٢٤ .

وأما الوباء فيذهب بعض المؤرخين المتأخرين أنه نشأ عن كثرة القتلى في الميادين ، حتى تعذر دفن أكثرهم فأثار ذلك ما سبب الوباء . وعالجه عمرو بن العاص ؛ إذ أشار بإخلاء المنازل والإخلاد إلى الخلاء والاعتصام بالجبال .

واهتم عمر بأمر الوباء وما آل إليه أمر الشام بعد زواله ، فقد فنى من المسلمين خمسة وعشرون ألفاً . وانتقل من الشام إلى العراق ففتك بأهل البصرة . ولا يأمن عمر أن يكون ذلك سبباً في اضطراب النظام الاقتصادى ، بسبب مواريث من فنى ، فقد يجر توزيعها ثارات بين المسلمين ، فعول على الخروج إلى الشام ونزل الجابية ، وزار مدن سورية جميعها يستفسر عن حال المسلمين ، ووزع المواريث ونظم ثغور الشام ومسالحه ، وبذلك استقر كل أمر في نصابه ، وثبتت أقدام المسلمين بالشام وورثوا فيها الروم . ولكن المسلمين كانوا يدركون إدراكاً عميقاً أن وجودهم بالشام رهن بفتح مصر ، بعد أن رأوا في مقاومة الروم لهم من قواعد مصر البحرية في حملة قسطنطين ما أزعجهم وهدد سلطانهم فدفعهم هذا إلى التشاور مع الخليفة في مؤتمره بالجابية في فتح مصر على ضوء الأحداث والواقع .

٤ — فتوح مصر وأفريقية

كانت مسيرة عمرو بن العاص إلى مصر بإذن من عمر بن الخطاب ، لكن عمر لم يأذن بهذا السير إلا بعد تردد طويل ، استمر عامين أو أكثر ؛ فالمتواتر أن ابن العاص خاطب الخليفـــة فى غزو مصر حين فتحت بيت المقدس أبوابها للمسلمين ، وبعـــد أن صالح أمير المؤمنين أهلها فى السنة السادسة عشرة من الهجرة ، حينما انسحب قائد الروم الأرطبون بقواته من فلسطين إلى مصر[1] . ولعل عمراً أشار على الخليفة بتعقبه وهو منهزم ، قبل أن تتاح له فرصة التحصن والدفاع والمقاومة فى بلاد منيعة الحصون وفيره الميرة . ولا سيما أن إطالة أمد التفاوض فى حصار بيت المقدس ، وطلب حضور الخليفه بنفسه لعقد الصلح لم يكن الهدف من ورائهما إلا كسب الوقت ، حتى يتمكن أرطبون من الانسحاب بجنده إلى مصر .

ولعله أيضاً ذكره بما صنعه الروم حينما رأوا التجمع فى مصر ليشنوا منها هجوماً على المسلمين ، مستغلين فى ذلك إمكانياتها البحرية كما حدث فى حملة قسطنطين ، التى خرجت من شواطئ الإسكندرية واستولت على أنطاكية . وكادت بمساعدة القبائل أن تزعزع فتوحات المسلمين . وليس شك فى أن إدراك هذه الصلة بين مصر والشام ينم عن فهم لطبيعة المنطقة الجغرافية ، والضرورات الحربية التى تحتم على المسلمين الاستيلاء على مصر لضمان استقرار مكاسبهم فى الشام . ولكن الخليفة تردد وطال تردده ، فقد كانت الحرب سجالا بين المسلمين والفرس ، وكان شمال الشام يعج بالثورة

---

(١) الطبرى ١/٥/٢٤٠٤ .

والانتقاض ، بينما حدثت الكارثة التي هددت شبه الجزيرة بالفناء . ولم تكد المجاعة تنتهي حتى فشا طاعون بفلسطين وامتد حتى البصرة . وكان طبيعياً إذن أن ينسى الخليفة كل ما حدثه به عمرو بن العاص عن مصر .

ولما عادت شبه الجزيرة إلى مألوف حياتها ، وبرئت الشام من الوباء ، وجاء الخليفة إليها يصلح شئونها لزم ابن العاص أمير المؤمنين ، يدلى إليه بحجج جديدة حتى يزيل تردده ، فلو قنع المسلمون بموقفهم لحسبهم أعداؤهم تضعضعوا تحت وطأة الوباء والجوع ، ولهاجموهم فى الشام عن طريق مصر ، أما إذا نهد لهم المسلمون فى مصر ذاتها وقفوا موقف المدافع ، وتعطلت سياسة الهجوم تماماً . ولابد أن ابن العاص قد أفاض فى تزيين الفتح لأمير المؤمنين إفاضة العليم بمصر ومدنها وطرقها وحصونها ، لما أتيح له من زيارتها ، وما استخلصه من أسرى الروم الذين يعرفونها حق المعرفة . فمصر ولاية غنية بطبيعتها وثرواتها ، تسيطر على منافذ العالم المعروف كله ، وهى مركز تجارته ، وأساطيلها التجـارية تشق عباب البحرين من أقدم العصور إلى الجنوب من بلاد العرب ؛ تحمل إليه التجارة ، وتجىء منه بمختلف السلع ، وتتصل عن طريق سيناء بطريق القوافل المنحدر إلى مكة واليمن . وهـذا الاتصال أتاح احتكاكاً مباشراً بين العرب وأهل مصر ، وأدى إلى استقرار عدد غير قليل من العرب ببوادى مصر ، وإلى استقرار جالية مصرية على طريق القوافل ، كانت نواة لمدينة يثرب ، كما يذكر مؤرخو العصور القديمة .

وظلت هذه الصلات التجارية متصلة بين مصر وبلاد العرب حتى أضعفها استيلاء الروم على مصر زمناً ، ثم عادت إلى مثل ما كانت عليه ؛ ذلك أن العرب ظلوا يقومون برحلة الصيف إلى الشام ، كان منهم من ينحدر إلى مصر عن طريق للقوافل عند آيلة ، وكان أكثرهم يسيرون إلى الشام ، فإذا قضوا وطراً من التجارة توجهوا إلى مصر ، وذلك ما كان يصنعه تجار مكة كعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وعثمان بن عفان(١) .

---

(١) حسن المحاضرة /جـ ٢ ص ٤١ .

وكان العرب بحكم هذه الصلات يعرفون الكثير عن مصر . وقد تحدث القرآن الكريم عنها في مواضع كثيرة ؛ فزود العرب المسلمين بها علماً ، بنهرها العظيم وأرضها المعطاء وزروعها الناضرة وخيراتها الوفيرة ، في قصص إبراهيم وموسى وعيسى ، فأثار في نفوسهم صورة مصر الطبيعية ، وصوراً من تاريخها منذ أقدم العهود إلى عهدهم .

ولم تكن معرفة المسلمين بمصر مقصورة على ما كان من أمرها في العصور الأولى ، بل كانوا يعرفون من أمرها في زمانهم أكثر مما يعرفونه من تاريخها ؛ ذلك أن العرب كانوا يتابعون ما يجرى بين فارس والروم بعناية بالغة ؛ فقد اتصل القتال بين الدولتين بمصر زمناً غير قليل ، ذلك أن الفرس دخلوها في سنة ٦١٦ م وأقاموا بها تسع سنوات ، حتى أجلاهم هرقل عنها وعن الشام . وخلال هذه السنوات كان المسلمون يمدون أبصارهم إلى تلك الأرجاء ، مؤمنين بأن الروم سيغلبون الفرس لا محالة كما أوحى الله إلى نبيه . فلما تمت هزيمة الفرس كان رسول الله قد هاجر إلى المدينة ، وكانت سراياه تسير منها إلى ما حولها ، فلما استتب الأمر بعث رسله إلى كسرى وقيصر وملوك الحيرة وغسان وأمراء الجنوب من شبه الجزيرة ، وإلى حاكم مصر يدعوهم جميعاً إلى الإسلام .

وقد يلفت النظر أن المقوقس حاكم مصر كان أجمل الملوك والأمراء رداً على رسالة النبي وأكثرهم مجاملة له ، فبعث مع حاطب بن أبي بلتعة رسول النبي إليه بكتاب يشير فيه إلى أنه يعتقد أن نبياً سيظهر ، ولكنه ظن أنه سيظهر في الشام .

ويذكر أنه استقبل رسوله بما يجب له من إكرام ، وأنه بعث معه بهدية جاريتين وبغلة بيضاء وحمار ومقدار من المال وبعض من خيرات مصر(١) .

---

(١) صبح الأعشى /جـ ٦/ص ٤٦٧ .

وقد اصطفى محمد مارية القبطية إحدى الجاريتين لنفسه ، فولدت له إبراهيم . فرفعها النبي إلى مقام زوجاته ، وكان يقول : « استوصوا بالقبط خيراً ، فإن لهم ذمة ورحماً » .

وقد عرف المسلمون من أهل الشام ما يعرفونه عن مصر ، وفضلا عن معرفة عمرو الشخصية بما بها ، كانت صورة مصر واضحة فى ذهنه عن هذه السبل ، عندما بدأ يفاتح الخليفة فى فتحها ويزينه له ويغريه بشتى الطرق ، ويضع أمثلة لخصبها ووفرة إنتاجها تحت عينيه ، ويفيض فيما يظنه دافعاً له على الإذن بفتحها . فهى مركز خطير الأهمية بالنسبة لدولة الروم ، وهى مخزن إمداد للميرة والمؤن والغلال والجند ، وفتحها قوة للمسلمين وعون لهم ، إذ هى أكثر البلاد أموالا[1] ، وهو فى نفس الوقت حرمان للروم من أهم الشرايين التى تبعث فيهم الحياة .

وظل عمرو يلح على أمير المؤمنين مغرياً إياه بأن يأذن له ، عارضاً عليه ما آل إليه حال المصريين تحت حكم الروم من الظلم والعسف والاضطهاد وأثر المبادئ الإسلامية التى بلغتهم عدالتها وسماحتها فيهم فى تيسير الفتح.

وقد أصاب عمرو فى إشارته إلى هذه السياسة الظالمة التى اتبعها الروم ولم يكن إلحاحه وليد حبه للمغامرة التى يظهر فيها مواهبه فى مباراة خالد ابن الوليد ، كما يزعم بعض المؤرخين[2] ؛ فإن هدفاً متناهياً فى السمو كهذا لا يمكن أن يعزى إلى سبب شخصى ؛ إذ لا يعقل أن يقدم خليفة حذر كابن الخطاب على فتح مصر دون أن تكون هناك دوافع لها خطرها .

وكل ما هنالك أن عمراً قد أدرك مدى الخطر الذى يمكن أن يسببه بقاء مصر فى حوزة الروم ، بعدما رأى إبان فتح فلسطين وبيت المقدس ، ولأنه أحس بما يدور فى مصر ولمس بنفسه أخبارها ، وهجرة الألوف من أبنائها إلى الشام فراراً من الاضطهاد الدينى والمذهبى . وعرف عن تعذيب

---

(١) ابن عبد الحكم /ص ٥١ .

(٢) فيليب حتى/ص ٢١٥ .

اليعاقبة الشيء الكثير كما عرف ما يرزح تحته المصريون من أعباء الفن والضرائب والمكوس الباهظة .

فقد استهدف المصريون منذ اعتناقهم المسيحية لعدوان الروم ، فتوالت عليهم النقم من قياصرتهم قتلا وتعذيباً وتشريداً ، حتى جاء القيصر دقلديانوس فأغلق كنائسهم وأسرف فى قتلهم ، بغية استئصال شأفتهم أو ردهم إلى الوثنية ، وترتب على هذا قيام الثورات فى الإسكندرية ، مما اضطر القيصر إلى إخمادها بنفسه ، بعد أن حاصر المدينة ودمر أبنيتها ، وراحت النظم الإدارية بعد هذا ترمى إلى التشدد فى تقديس الإمبراطور وإكباره ، بغية تحويله من رئيس دينى إلى ما يشبه الإله الذى يعبد وتقدم إليه القرابين.

وقد أثارت هـــذه السياسة سخط المصريين . فلقى الروم فى سبيل تأليه إمبراطورهم مقاومة عنيفة وعناداً شموساً ، حتى أصبح عصر دقلديانوس مما يؤرخ به فى مصر ؛ إذ اعتبر اعتلاؤه العرش مبدأ تاريخ الشهداء لكثرة القتلى والمعذبين فيه[1] .

وعندما اعتلى قسطنطين العرش أعتنق المسيحية ، ولكن القبط خلصوا من اضطهاد الحكومة ليقعوا فى اختلافات مذهبيـــة حول كنه العلاقة التى يمكن أن تكون بين الله وعيسى . ولم يكد ثيـــودوسيوس يقبض على أزمة الأمور حتى قرر تنصير الإمبراطورية فى نهاية القرن الرابع ، ولكن الخلافات المذهبيـــه لم تتوقف ، وإنما تبلورت فى مذهبين متقابلين : هما اليعقوبية والملكانية .

ويعتقد اليعاقبة من أهل البلاد ، بأنه قد صار للمسيح طبيعة واحدة بعد تجسده ، نتيجة امتزاج الطبيعة الإلهية بالطبيعة البشرية ، وأن هـــذا الامتزاج كامتزاج الخمر بالماء ، حتى يصيرا شيئاً واحـــداً ؛ بينما يرى

(١) ملن/تاريخ مصر تحت حكم الرومان ص ٨٧ .

الملكانيون من الروم الحاكمين أن الإبن مولود من الأب قبل كل الدهور ، غير مخلوق ، وهو جوهره ونوره ، وأن الابن اتحد بالإنسان المأخوذ من مريم فصاراً واحداً هو المسيح ، وهذا الاتحاد كاتحاد النار فى الصفيحة المحماة .

وبرغم أن المذهبين ينتهيان إلى مايشبه النهاية الواحدة المتفقة، فهما مختلفان فى التفاصيل، وقد انعقد مؤتمر خلقدونيا فى مطلع النصف الثانى من القرن الخامس فأقر المذهب الملكانى وأوصى بعزل بطريق الإسكندرية ومؤسس المذهب اليعقوبى ، وبقتل كل من يقول بمذهبه ، واستقبل هذا القرار بالثورة ، وازداد عسف الحكام بالشعب فأباحوا المدن وأبطلوا الأعياد وأغلقوا الحمامات ، وزجوا بزعماء الثورة فى الهياكل وأحرقوها بهم ، وقطعوا إعانة الغلال ، واستمر الاضطهاد عنيفاً ، ووقعت المعارك الدموية وأحرقت الإسكندرية وقتل مائتا ألف فى كنيستها بأمر البطريق أبوليناريس ، الذى فرضه عليهم يوستنيانوس فى مطلع القرن السادس ، وجعل منه حاكماً للاسكندرية تئول إليه جميع أملاك الكنيسة[1] .

وأثمرت هذه السياسة الدموية المتعسفة فى مصر عداء دائماً وبغضاً للروم لا حد له . وأتيح للقبط فى مطلع القرن السابع أن ينعتقوا من جحيم الروم لمدة يسيرة إبان غزو الفرس لمصر ، ولكن هرقل أعادهم إلى ما كانوا فيه من التعذيب والاضطهاد . وازداد الحال سوءاً فى محاولته فرض مذهب ابتكره له سرجيوس . للتوفيق بين الملكانيين واليعاقبة . وليقضى به على الخلافات الناجمة عن التعرض لكنه المسيح وصفته وطبيعته .

ويقضى هذا المذهب بأن للمسيح إرادة واحدة وقضاء واحداً ، وكان استقبال القبط لهذا المذهب سيئاً للغاية . وحاربوه حرباً أشد من حربهم

---

(١) ملن/تاريخ مصر تحت حكم الرومان ص ١٠٠ ـ ١٠١ .

للوثنية ، وتعددت الفظائع واضطر المصريون إلى الفرار إلى الصحراء ، وشاع الاتجاه إلى الرهبنة كما فعل بنيامين البطريق ، الذى أوعز بعد فراره إلى القبط بألا يقاوموا العرب . فكان أن لم يجد عمرو فى طريقه من الفرما إلى بابليون مقاومة عنيفة ، وقد صاحب الاضطهاد الدينى اضطهاد سياسى واجتماعى . لا يقلان فى آثارهما عنه ، فإن مصر لم تكن فى اعتبار الروم غير مزرعة للغلال . وبينما كانوا يستنزفون خيراتها كان أبناؤها يعانون الكثير من الفقر والمرض والجهل ، واشتعـال الفتن والحرمان من حقوقهم ومن تولى المناصب الرفيعة ، ومن فرض الضرائب الباهظة المتعددة على الأشخاص والأشياء . وعلى المارة والموتى وصناع السفن والعاهرات وزوجات الجنود ، وتذاكر المرور وختمها ، وأثاثات المنازل وشراعات السفن وصواريها، فضلا عما كان مفروضاً على الأهالى من وجوب إيواء الموظفين والجند ، وتقديم ما يحتاجونه من وسائل النقل والغذاء[1] .

ولا شك فى أن هذه العوامل كلها لاقت اهتماماً من الخليفة ، الذى استمع إلى عمرو وإغرائه بفتح مصر ، واقتنع بوجاهة رأيه ، وكفالة كل هذه العوامل لإنجاح فتح المسلمين لمصر فعقد له لواءها . والروايات التاريخية تختلف اختلافاً بعيداً حول إذن الخليفة لعمرو بالفتح ؛ بين أن يكون عمرو قد حبذ الفتح إلى الخليفة ، أو أن يكون الخليفة هو الذى أمر به عمراً ، وبين أن يكون عمرو قد استأذن فى الفتح قبل تقدمه أو بعده[2] .

إلا أن هذه الروايات المختلفة جميعاً تتفق على تلك الإحالة التى تكاد أن تكون استخارة ، تمثلت فى الكتاب الذى أرسله الخليفـة إلى عمرو . والظاهر أن متابعة هذه الأقوال لا يتفق وتلك البواعث الحادة الملحة التى

---

(١) ملن/ص ١١٥ - ١٢٥ .

(٢) المقريزى جـ/١ ص ٢٨٨ ، ابن عبد الحكم/ص ٥١ .

لا يخالطها ريب أو تردد فى فتح مصر . استكمالا لفتح الشام والقضاء على الدولة البيزنطية قضاء مبرماً .

والذى يمكننا أن نتقبله فى ذلك هو أن الخليفة أذن لعمرو فى فتح مصر ، وأنه عقد له على أربعة آلاف رجل ، ولكنه عاد فتخوف وندم بعد أن أبان له عثمان حرج موقف عمرو لقلة من معه . فكتب إلى عمرو كتابه الشهير : يعده بإمداده إن كان قد دخل أرض مصر فعلا . وعلى هذا النحو تستقيم مدافعة عمرو للرسول الذى حمل كتاب الخليفة إلى أن يكون قد دخل بالفعل فى أرض مصر . وقد أدرك الكتاب عمراً فى قرية بين العريش ورفح داخل حدود مصر حيث فض الكتاب . ثم سار على بركة الله وبعونه[1] . فبلغ العريش بعد أن اخترق رمل سيناء ، وكان ذلك أواخر سنة ١٨ هـ ، ولم يلق كبير عناء فى فتحها[2] .

وانصرف عمرو متجهاً نحو الغرب ، دون أن يشترك مع جند الروم فى قتال حتى وصل الفرما أو بيلوز . وهى مدينة قديمة العهد حصينة ، لها كنائس وأديرة وميناء على البحر . يصل إليها جدول من النيل ، وكانت تمثل مفتاح مصر فى ذلك الوقت . وكان جند الروم يعتصمون بحصونهم ، فحاصرهم عمرو ، واستطاع المسلمون أن يسبقوهم ذات مرة إلى هذه الحصون فافتضوها ، وتم لهم احتلال المدينة أوائل سنة ١٩ هـ[3] .

وتقدم عمرو دون أن يجد مدافعة ، بعد الاستيلاء على مفتاح مصر وعلى القاعدة التى يستطيع النكوص منها إن اقتضى الأمر تراجعاً ، وتلقى الأمداد عن طريقها إذا ما تقدم . ووصل إلى بلبيس . وبعد حرب دامت

---

(١) ابن عبد الحكم/ص ٥١ — ٥٢ .

(٢) حسن المحاضرة/ج ١ ص ٤٦ ،المقريزى ج ١ ص ٢٨٨ .

(٣) ياقوت ج ٣ ص ٨٨٤ .

شهراً تم للمسلمين فتحها ، وهزم الروم وألحق بهم خسائر فادحة . وبالاستيلاء على بلبيس أصبح المسلمون على مسيرة يوم واحد من رأس الدلتا(١) .

ومضى عمرو حتى أتى أم دنين(*) شمالى حصن بابليون . وهى قرية على النيل عند مأخذ خليج تراجان ، الذى يصل مدينة مصر بالبحر الأحمر عند السويس ، وكانت حصينة يجاورها مرفأ فيه سفن كثيرة ، وكانت مسلحتها طليعة الدفاع عن حصن بابليون العظيم . وأدرك عمرو دقة الموقف فإن الروم قد لاذوا إلى الحصن بكل قواتهم ، وأمدوا أم دنين بمسلحة قوية ، وتهيئوا بذلك لقتال فاصل ، وجاءته عيونه بأنباء عرف منها أنه لن يستطيع أن يفتض هذا الحصن أو يحاصره بمن معه من الجند ، فضلا عن فتح مدينة مصر التى تقع فى حماية الحصن ، فعول على حصار أم دنين وحصنها ، فإن استولى عليه سارت السفن تحت إمرته ، وأصبح فى مقدوره أن يدبر أمره.

وكان الحذر يقتضى عمراً ألا يفرط فى رجاله ، وأن يستعجل الخليفة المدد ليضاعف الأمل فى قلوب جنده ، فبعث رسالة إلى عمر وأذاع فى الجند أن المدد موشك أن يجىء ، ثم تقدم إلى أم دنين فحاصرها ، ووقف قبالتها يمنع عنها العتاد والميرة ، ولم يفكر الروم المقيمون فى الحصن أن يخرجوا . بعد ما رأوا مصير بلبيس . أما مسلحة أم دنين فكانت تخرج إلى القتال أحياناً ثم ترتد إلى حصنها ، ولم يتغير الموقف خلال أسابيع ، وإذا بالمدد قد أقبل ورآه أهل الحصن فأسقط فى أيديهم . وكان عمرو قد عرف مداخل الحصن ومخارجه ، فتخير وقتاً أمر فيه أصحابه أن يشدوا جميعهم شدة رجل واحد . وسار فى طليعتهم ، ففتحه الله عليهم بعد مقتلة عظيمة ، وبعد أن أسروا من بقى فيه حياً(٢) .

ونزل عمرو أم دنين ، ثم عبر مع جنده النيل فى سفنها ، وساروا يتخطون الصحراء مجتازين أهرام الجيزة ، وهناك على الجانب الغربى على

---

(١) بتلر ص ١٩١ .

(*) حى الأزبكية الآن .

(٢) هيكل الفاروق جـ ١ ص ١٠٢ .

النيل دارت معركة حامية كانت للمسلمين على حنا وجنده . ثم عاد عمرو إلى بابليون . لما علم بنبأ الأمداد التي في طريقها إليه[1] .

واستطاع أن يلتقي بالمدد ، ويبلغ عسكر المسلمين في هليوبوليس ، حيث ضيع على تيودور الفرصة . واغتبط عمرو بالمدد الذي أتاه ،وفيه الزبير ابن العوام وعبادة بن الصامت والمقداد بن الأسود ومسلمة بن مخلد ، وعسكر المسلمون في عين شمس وجاءته الأنبـــاء بأن تيودور أمير جند الروم قد تداول مع أصحابه . فرأوا أن مقامهم بالحصن يظهرهم أمام المصريين بمظهر الجبن والخور . ويغري الناس بالانضمام إلى المسلمين ومعاونتهم، فعزموا على الخروج لإجلاء المسلمين عن عين شمس، ودبر عمرو خطته . فسير خمسمائة من رجاله تحت الليل من وراء الجبل حتى دخلوا مغار بني وائل عند قلعة الجبل . وأخرج خارجة بن حـــذافة في خمسمائة آخرين ساروا قبيل الفجر إلى أم دنين . ولما تنفس الصبح سار بمن معه حتى بلغ مكان العباسية الآن وأقام ينتظر . وخرج الروم وتقدموا إلى عين شمس فبلغهم أن عمراً تقدم يريد لقاءهم . فاستخفهم الطرب وأيقنوا بالظفر ، وتعاهدوا على الاستبسال . والتقى الفريقان فأنشبوا القتال . وإنهم لكذلك، إذ انحدرت الكتيبة المختبئة في مغار بني وائل فعصفت بمؤخرة الروم عصفا فاضطربوا وأخذهم الفزع وتقهقروا إلى أم دنين ، وعندئذ خرج كمين خارجة فأمعن فيهم قتلا . ولاذ معظمهم بالفرار وبلغت طائفة منهم الحصن فلاذت به ، وفزع آخرون إلى النهـــر ، ومال العرب فاستولوا على حصن أم دنين كرة أخرى . وانتصروا نصراً مؤزراً وطد أقدامهم في مصر[2] .

ثم نقل عمرو عسكره من عين شمس الى شرقي الحصن وشماله ، وجاءته الأنباء بفرار حامية الروم إلى نقيوس . فجهز كتيبة استولت على إقليم الفيوم كله ، وقوة أخرى استولت على إقليم المنوفية . وحينئذ أخذ الناس يفرون

---

(1) بتلر/ص ١٩٨ .

(2) بتلر/ص ٣٢٠ ـ ٣٢٢ .

إلى الإسكندرية هلعا (١) . ولم يكن عمرو ليبطره الظفر فيقصد إلى الإسكندرية قبل أن يفتض حصن بابليون ، وحاصره وهو يعلم أن الحصار سيطول ، لارتفاع النهر وتدافع تياره ، ولمناعة الحصن واكتفائه بما فيه من ميرة وماء وعتاد . وكان الروم يرمون المسلمين بالمنجنيق ، فيجيبهم العرب بالحجارة والسهام ، ومضى شهر ولم يتزحزح المسلمون ، بينما وهن الروم ويئسوا من وصول أمداد إليهم ، فتشاور المقوقس مع قومه على التفاوض مع العرب ، ورأوا أن تكون المفاوضة سرية ، فتسلل مع جماعة من قومه ، وركبوا السفن إلى جزيرة الروضة ، حيث أرسلوا إلى عمرو يطلبون التفاوض معه ، وكان رد عمرو بعد أن احتجز الرسل يومين أن يختاروا بين الإسلام أو الجزية أو القتال ، فرد رسله يطلبون أن يرسل المسلمون رسلا يحادثونهم . فبعث عمرو بعبادة بن الصامت ونفر معه . وتكلم عبادة وذكر ما جاء هم به رسول الله من الحق والهدى ، وأعجب المقوقس بكلامه ، ومال إلى تهديده وإغرائه فلم يفلح معه ، ولم يتزحزح عن واحدة من ثلاث خصال ، وفشلت المفاوضات وعادت الحرب ، وأمهلهم عمرو ثلاثة أيام ، غير أن عمل المقوقس ذاع في الناس فثارت ثائرتهم ، وأبوا إلا القتال.

وتجهز أهل الحصن ، وخرجوا عند انتهاء الهدنة بغتة ، فأخذوا العرب المسلمين على غرة ، ولم تذهل البغتة العرب ، وأسرعوا إلى سلاحهم ، وقاتلوا الروم قتالا شديداً ، فتكاثر المسلمون عليهم وألجئوهم إلى الحصن ، بعد أن قتلت منهم مقتلة عظيمة (٢) .

وخاطب المقوقس عمراً في الصلح فأجابه إليه . (٣) وعلق نفاذ الصلح على رضا الإمبراطور ، فإن قبل ذلك ورضيه جاز عليهم ، وإلا كانوا جميعاً على ما كانوا عليه (٤) . واستدعى الإمبراطور المقوقس إلى القسطنطينية ، حيث أنبه واتهمه بالخيانة ، ونفاه وهدده بالقتل (٥) . وعلم

---

(١) هيكل/الفاروق/ ص ١١٠ .
(٢) بتلر/ص ٢٦٢ .
(٣) ابن عبد الحكم / ص ٦٤ .
(٤) نفس المرجع .
(٥) بتلر/ص ٢٦٤ .

المسلمون برفض الصلح ، فانتهت الهدنة وعاد القتال بين الفريقين ، فألقى الروم فى الخندق حسك الحديد،وعطلوا تقدم المسلمين إلى الحصن ، وأقاموا على التراشق بالحجارة والسهام حتى تصرمت أشهر الشتاء ، وجاءت الأنباء بموت هرقل ولكن الحصن ظل يقاوم .

وضاق العرب بطول الحصار الذى استمر شهوراً سبعة ، وهانت عليهم أنفسهم حتى وهب الزبير نفسه لله ، وأتى فى جنح الليل بكتيبة آزرته فطموا الخندق ، ووضعوا سلماً علاه الزبير ، وانطلق يكبر وتبعه أصحابه وكبروا ، وأجاب المسلمون من خارج الحصن ، فلم يشك الروم فى أن العرب اقتحموا الحصن فهربوا ، وعمد الزبير إلى باب الحصن ففتحه ، ودخله المسلمون واستولوا عليه[1] .

وبعد سقوط بابليون : انفتح الطريق أمام المسلمين نحو مصر السفلى وريفها ، ولكن الترع والفيضانات والقنوات وفيضان الماء ، كل هذا جعلهم يطلبون مساعدة الأهالى ، الذين استجابوا لهم وصاروا لهم أعواناً[2] . واستغرق مسير عمرو إلى الإسكندرية اثنين وعشرين يوماً . وكان الروم قد تقهقروا إليها للاحتماء بها ، فهى قصبة البلاد وسقوطها يعنى زوال سلطان الروم عن مصر زوالا تاماً . ولهذا فقد أخذت الجيوش الجرارة تنتهى إليها عن طريق البحر ، والحاميات تفر إليها عن طريق البر ، وأغلقت حامياتها الأبواب وتحصنوا .

وكان أول صدام للمسلمين فى طريقهم بالروم عند عبورهم فرع رشيد إلى الغرب ، عند ترنوط (*) ، وكان قتال طفيف ، انتصر فيه المسلمون[3] . وأرسل عمرو من هناك حملة بقيادة شريك بن سمى . لقيت الروم عند الكوم الذى سمى باسمه ، فنصر الله المسلمين[4] .

---

(1) ابن عبد الحكم ص ٥٨ .

(2) ابن عبد الحكم/ص ٦٤ .

(3) نفس المصدر ص ٦٦ .

(4) نفس المصدر والصحيفة .

* غرب رشيد

ومضى عمرو ، إثر استنجاد شريك به ، فالتقى بالروم فى سطليس، أو سنطيس(*) ، حيث اقتتلوا قتالا عنيفاً بها ، وكانت العاقبة للمسلمين . وبعد مسيرة عشرين ميلا التقى المسلمون بالروم عند الكريون . وكانت مسلحة عليها خيل ورجال(١) ، وهناك اقتتلوا بضعة عشر يوماً قتالا شديداً ، فقد كانت الكريون آخر سلسلة من الحصون قبل الإسكندرية ،وإليها فر المنهزمون فى سطليس . وانضموا إلى سائر جند الروم فى مسلحة الكريون . وعليهم تيودور ، الذى استمات فى الصمود أمام العرب ، إذ أدرك أنهم إن ينهزموا بالكريون تنكشف العاصمة أمام العرب ، فرأى الحيلولة بين الغـزاة وبلوغ الإسكندرية خيراً من الدفاع عنها . وأخذ الروم ينسلون من الإسكندرية إلى الكريون . وأقبلت حاميات من سخا وخيس وبلهيب .

والتقى عمرو بالروم واشتد القتال شدة لم تؤلف فيما سبقها من المعارك . وظلوا هكذا حتى فصل بينهم الظلام ، ثم استحر القتال فى صبيحة اليوم الثانى ، ثم انفصل الفريقان فى آخره ، وظل القتال هكذا دائراً بضعة عشر يوماً ، ترجح فيه كفة المسلمين تارة وترجح كفة الروم تارات ، وأظهر الروم من ضروب البراعة والبسالة وشـدة البأس وصلابة العود ما أدخل الروع فى قلوب المسلمين ، حتى لقد صلى عمرو صلاة الخوف ركعة وسجدتين مع كل طائفة من جنده ، ولكن هذا لم يذهب عزم المسلمين ولم يضعف روحهم ، بل زادهم صلابة وإيمانا ، ثم أنزل الله نصره وتم فتح الله للمسلمين ،وقتل منهم المسلمون مقتلة عظيمة ،وأتبعوهم حتى بلغوا الإسكندرية(٢).

وكان الروم قد تحصنوا بالإسكندرية . وقدر عمرو أن هزيمتهم فى الكريون لابد أن تكون قد أدخلت الروع إلى نفوسهم ، فما يتردد عندما رأى ترقب الجند وحماستهم ، فأمرهم أول مقدمهم باقتحام أسوار المدينة وأبراجها . ولم يشك المسلمون فى أن المدينة ستفتح أبوابها لقاء هجمتهم . فاندفعوا مهللين

(*) ستة أميال جنوبى دمنهور .   (١) المسالك/ص ٩١

(٢) ابن عبد الحكم/ص ٦٦ ، بتـلر/ص ٢٥١ .

فلم يرعهم إلا الحجارة العظيمة تتساقط عليهم مقذوفة من المجانيق المنصوبة فوق أسوار المدينة ، ذلك أن تيودور أيقن أن الظفر سينسى المسلمين الحيطة ، فيندفعون إلى مهاجمة المدينة ، فأدخل الجيش حصون المدينة وأخلى ضواحيها ، وأقام القاذفين على أسوارها ، فعاود عمراً حذره وانسحب وراء مرمى المجانيق ، فعسكر بجنده وتأمل عمرو موقفه ، فالمدينة حصينة حصانة طبيعية ، يحميها البحر من شمالها والإمدادات مستمرة عن طريقه[1] وبحيرة مريوط تحميها من الجنوب ، وترعة الثعبان تدور حولها من الغرب ، وليس أمامه إلا الشرق وهو الطريق بينها وبين الكريون . ومن هذه الناحية كانت الحصون والأسوار أشد مناعة . واستقر رأيه أن يقف بعيداً عن مرمى المجانيق ، فإذا طال الحصار بالروم شعروا بما في ذلك من مذلة فيخرجون ، ويتمكن المسلمون منهم ، فأقام بجنده بين الحلوة وقصر فاروس شهرين كاملين[2] ، ثم نقل عسكره إلى المقس ، فخرجت إليه الجند من ناحية البحيرة ، فواقعوه وقتلوا من المسلمين نفراً بكنيسة الذهب[3] ، وارتدوا إلى حصونهم . وظل الروم محصورين لا يخرجون ، وبقي المسلمون قبالتهم لا يريمون ، لكن عمراً رأى أن الموقف قد يتجمد على هذا النحو ، مما يدفع إلى نفوس جنده السأم ، ويشعرهم بالعجز عن مناجزة عدوهم . وقد اهتدى إلى أن يحقق أغراضه جميعاً . فيزيل سأم جنده بأن يرسل كتائب تجوس خلال بلاد الدلتا تطارد الروم فيها ، وأن تبقى كثرة الجند على حصار الإسكندرية وبذلك يستكمل أيضاً ما كان بدأه من بعوث ، وهو على حصار بابليون .

وظلت كثرة الجند أمام الإسكندرية ولم يتغير الموقف . إلا ما كان يحدث من مناوشات طفيفة لا تبلغ أن تكون حرباً . على أن إمدادات الإسكندرية عن طريق البحر ما لبثت أن توقفت بعد قليل ، فقد شغل أهل بيزنطة بما ساد بلاطهم من اضطراب ، وما حل بعاصمتهم من انتفاضات

(١) ابن عبد الحكم ٦٨ ــ ٦٩ .
(٢) ابن عبد الحكم ص ٦٧ .
(٣) ابن عبد الحكم/ص ٦٨ .

بعد موت هرقل[١] ، وتزعزعت الروح المعنوية لحماة الإسكندرية ، وفت في أعضادهم توقف الأمداد ، وازدادت مخاوفهم من أن يتغلب العرب على البلاد الساحلية . فيقطعوا عنهم ميرتها ، بعد ما وصل إليهم من انتشارهم في الدلتا ومصر العليا والسفلى .

وفي هذه الفترة كان الخليفة بالمدينة يتميز غيظاً من إبطاء الفتح ، الذي كان يتنسم أنباءه يوماً إثر يوم ، وراح يعلل لصحابته إبطاء الفتح بما أحدث المسلمون ، وبما أغرتهم به خيرات مصر من تعلق بالدنيا وشره إلى نعيمها ، فكتب إلى عمرو كتاباً ضمنه هذا ودعاه فيه إلى أن يحض الجند ، وأن يرغبهم في الصبر وحسن النية ، وأن يقدم الأربعة الذين عد كل واحد منهم بألف رجل حينما أمده بهم .

وقرأ عمرو الكتاب في جنده ، ودعا بالأربعة الذين ذكروا فقدمهم ، وأمر الناس أن يتطهروا وأن يصلوا ركعتين ، ثم يرغبوا إلى الله عز وجل ويسألوه النصر على عدوهم ، ثم دعا بعبادة بن الصامت فعقد له وأولاه قتال الروم ، ثم انطلق إلى بابليون ، يدير حركة بعوثه إلى أقاليم الدلتا والصعيد .

وفتح الله الإسكندرية على يدي عبادة ودحر الروم ، وسارع المقوقس إلى عمرو في بابليون ، ليعقد معه معاهدة الإسكندرية التي تعرف بمعاهدة بابليون الثانية ، تمييزاً لها عن معاهدة بابليون الأولى[٢] . وقد نص فيها على أن يرجع المسلمون عامهم هذا حتى يرحل عنها جيش الروم ، خلال أحد عشر شهراً تنتهي في أواخر سنة ٢١ هـ .

ولما دخل المسلمون الإسكندرية ذهلوا لروعة عمارتها ومدارسها ومكاتبها وقبابها ومنارتها ومسلتها ومعابدها[٣] ، وأخذوا بعد ذلك يستقرون بمصر ، ويبنون الفسطاط والخطط ، ويرسلون البعوث لإتمام فتح

(١) بروكلمان تاريخ الشعوب الاسلامية جـ ٢ ص ١١٩ — ١٢٠ .
(٢) سيده اسماعيل الكاشف/مصر في فجر الاسلام ص ١٤ .
(٣) بتلر ص ٣١٩ .

عشرة من الفرس ، وأمعن المسلمون يتعقبون الفالة إلى الليل ، وأحصوا القتلى مائة ألف من الفرس ، تلوح عظامهم تلولا[1] .

انتصر المسلمون انتصاراً مبيناً . تطهروا فيه من عار هزيمتهم يوم الجسر ، وإن كانوا فقدوا عدداً كبيراً بين جريح وقتيل . ولم يضع المثنى وقتاً ، فأمر قواده فانطلقوا فى السواد حتى بلغوا ساباط على مرأى من المدائن وجيوش الفرس تفر أمامهم فرار النعام . وانطلق هو فغزا الخنافس والأنبار أيام سوقهما فنال منهما غنما كثيراً . فبلغ المسلمون دجلة وأغاروا على قرية بغداد . وبلغوا تكريت يقتلون المقاتلة ، ويسبون الذرية ويستاقون الأموال . ودان بهذه الغزوة العراق لسلطان المسلمين كرة أخرى[2] .

وتدبر الفرس موقفهم . فما بعد بغداد وساباط وتكريت إلا المدائن ، والخلافات عادت جذعة بين رستم والفيروزان ، حتى ضج الفرس منهما ، وأنذروهما إن لم يجتمعا على حرب المسلمين . وقد استجابا وتشاورا على تنصيب يزدجرد بن شهريار ، واجتمع الفرس عليه وتباروا فى معونته ، وأعدوا العدة للثأر . وعلم المثنى بذلك ، فكاتب الخليفة الذى أبطأ رده ، فلم ير المثنى بدأ من أن ينسحب كرة أخرى إلى تخوم شبه الجزيرة ، فنزل بذى قار ينتظر مدد الخليفة

. وفى نفس الوقت بدأ يزدجرد حركة عامة للحشد ، استعداداً لمعركة فاصلة فسمى جند الأماكن التى سيطر عليها المسلمون ، فثارت هذه الأماكن وكفر أهـــل السواد ، فى الوقت الذى خرجت فيه الزحوف من المدائن ، واهتزت الأرض بالمسلمين ، وجاءهم أمر الخليفة بأن يتفرق المسلمون بين المياه التى تلى الأعاجم على حدود أرضهم مسالح ... مسالح ، يغيث بعضهم بعضاً ، وكان قد كتب إلى عماله بألا يدعوا فارساً أو ذا نجـــدة أو سلاح أو رأى إلا اجتلبوه . وما كاد يعود من الحج حتى وافاه الجند من كل صوب ، وخرج فيهم إلى صرار فى المحرم سنة ١٤ هـ فعسكر بها ،

(١) الطبرى ١/٤/٢١٩٣ – ٢١٩٩ . (٢) الطبرى ١/٤/٢٢٠٢ – ٢٢٠٧ .

لا يدرى ما يصنع . وعقد مؤتمراً عسكرياً ، ضم أولى الرأى الذين أجمعوا على أن يقيم عمر ، وأن يبعث رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كسعد بن أبي وقاص وكان على صدقات هوازن وأجمع المسلمون عليه ، فسرحه فى أربعة آلاف ممن اجتمع إليه . وكانت بعض الجموع قد لحقت قبله بالمثنى ، وقد كان بهذا الجيش خلاصة الأمة الإسلامية وقتئذ ، إذ لم يدع عمر رئيساً ولا ذا رأى أو سلطة أو نجدة ولا شاعراً أو خطيباً إلا رماهم به ، فضلا عن بضعة وسبعين بدرياً ، وثلاثمائة من أبناء الصحابة . وقبل أن يصل سعد مات المثنى متأثراً بجراحه يوم الجسر ويوم البويب ، تاركاً وصيته لخلفه فى معالجة الفرس .

واستمرت المكاتبات بين سعد والخليفة ينصحه ويوجهه ويأمره بأن يرسل إلى الفرس من أهل المناظرة والرأى ، فاختار قوماً أجلاء ، تحدثوا إلى يزدجرد وقواده أحاديث شائقة وبارعة عن روح الإسلام ، التى لم يستطع الفرس إدراك أثرها فى حياة العرب . وفصل رستم من المدائن فى تعبئة كبرى وعدد جنوده زهاء مائة وعشرين ألفاً ، وسارت طلائعه حتى وصلت الحيرة فنزلت بها ، وسار رستم حتى أتى النجف فعسكر بها ، والطلائع تسير أمامه ، ولم يزل الجيشان يتقاربان حتى وقف رستم على العقيق ، وسعد أمامه .

والتقى الجيشان على الدعاء والمكاتبات حتى خرس صوت المنطق ، وأجمع رستم أمره على العبور ، وكان سعد قد عبأ جيشه ، فأقام بأعلى القصر لمرض كان به ، يشرف على المعركة من عل ، ويرمى بالرقاع إلى خالد ابن عرفطة وهو أسفل منه .

وكان وراء الفرس العقيق ، ووراء المسلمين الخندق ، وميدان المعركة بين ذلك ، وعند الظهر أنشب أهل النجدات القتال ، وأشعل الرجاز أوار الحماس . وكان سعد قد أمر الشماخ ، والحطيئة ، وعبدة بن الطبيب ، والمغيرة ابن شعبة ، وعاصم بن عمرو ، وعمر بن معديكرب وغيرهم ليقوموا فى الناس بما يحق عليهم ، يذكرونهم ويحرضونهم على القتال[1] .

(١) الفاروق / هيكل ص ١٦٨ .

وأقبل أهل فارس عليهم فى مثل حماسهم ، يلبون نداء من يريدون نزالهم . وكان غالب بن عبد الله الأسدى فى مقدمة من خرجوا يبارزون ، وأخذ يرتجز ، فخرج إليه هرمز فأسره غالب وجاء به سعداً ، ورجع إلى المطاردة . وبينما هو يرتجز طارد فارسياً نفر منه ، فلقى فارساً معه بغل ، ففر الفارس ، فاستاق عاصم بن عمرو البغل والرجل ، فإذا الرجل خباز الملك ، وإذا فى الرحل طعام رستم ، فنقله سعد للمسلمين ليأكلوه .

وكبر سعد التكبيرة الرابعة — وكان القراء قد انتهوا من سورة الأنفال — فالتقى الجيشان . وأبلى أبطال المسلمين بلاء لم يعرف له نظير . ورأى الفرس بنى بجيلة وعليهم جرير بن عبد الله يصولون ويجولون ، فوجهوا إليهم ثلاثة عشر فيلا ، حملوا عليهم ففرت خيلهم نفاراً ، وبقى الرجال وتكاد الفيلة تبيدهم . ورأى سعد ما أصاب بجيلة ، فأرسل إلى بنى أسد ليذبوا عنهم ، فخرج إليهم طليحة بن خويلد وجماعة من قبيلته ، فشدوا عليهم ، فما زالوا يطعنونهم حتى حبسوا الفيلة عنهم . لكن الفيلة عادت فحملت عليهم ، فأرسل سعد إلى عاصم بن عمرو ليرى رأيه فى الفيلة ، فنادى عاصم الرماة ليذبو ركبان الفيلة بالنبل ، فاستدبروها وقطعوا وضنها وضربوها بالنبل ، فارتفع عواؤها وألقت بركبانها فقتلوا . ونفس عن أسد وعن بجيلة جميعاً ، بعد أن قتل من أسد وحدها أكثر من خمسمائة[1] .

وظل سعد مشفقاً من مصير المعركة ، لما كان يراه من شدة الفرس وكثرة عددهم وفعال فيلتهم . وانقضى النهار وغربت الشمس والقتال لايزال حامياً وطيسه . فلما ذهبت هدأة من الليل رجع الجيشان كل إلى مواقعه ، وكل يحسب للغد حسابه ، والمسلمون أشد لهذا الغد حساباً ، بعد ما نزل بهم فى اليوم الأول من كوارث .

فلما تنفس الصبح شغل العرب والفرس بدفن القتلى ونقل الجرحى ، وقد دفن المسلمون قتلاهم بالعذيب . ونقلوا الجرحى إلى النساء ليقمن على

(١) مروج الذهب / جـ ٢ / ص ٢٠٥ .

العناية بهم . وبينما هؤلاء وأولئك فى شغل بهذا الأمر كان هاشم بن عتبة بن أبى وقاص يغذ السير فى ستة آلاف من المسلمين الذين فصلوا من الشام تنفيذاً لأمر عمر إلى أبى عبيدة بأن يرد جيش العراق إليه بعد أن ينصره الله بدمشق . فلما فتحت دمشق وانتصر المسلمون بفحل انطلقوا مدداً لسعد ، وعلى مقدمتهم القعقاع فى ألف من شجعان المسلمين ، وعجله هاشم أمامه ليدرك سعداً قبل فوات الوقت . وأراد القعقاع أن يشد عزائم المحاربين فى هذه الوقعة الخطيرة ، فقسم رجاله الألف عشر فرق ، وعهد إليهم ألا تسير فرقة حتى تكون الفرقة التى سبقتها على مدى البصر ، ثم سار على رأس الفرقة الأولى ، ثم تقدم الصفوف يستفتح القتال ، فخرج إليه بهمن جاذويه ، فصاح القعقاع : يالثارات أبى عبيد ! ! وانقض عليه فأورده حتفه ، وتنشط الناس وهم يرون صنيع القعقاع ولم يروا الفيلة بينهم . وبدأت فرق القعقاع تفد ، والمسلمون يكبرون ، حتى خيل إلى الفرس أن لا آخر لها ، وأبلى القعقاع وأبو محجن الثقفى فى هذا اليوم بلاء عجيباً ؛ فقد حمل القعقاع ثلاثاً وثلاثين حمله يقتل فى كل منها رجلا(1) . وصنع أبو محجن أفاعيل بالفرس تكاد تكون أساطير .

واتصل القتال إلى منتصف الليل ، والمسلمون يرون فيه الظفر . وقد رفه عن المسلمين غياب الفيلة ، وأن بنى عم القعقاع برقعوا إبلاً وجللوها ودفعوها تحمل على الفرس كأنها الفيلة ، فولت خيولهم نفاراً من منظرها ، ولقيت منها ما لقيت خيول المسلمين يوم « أرماث » فركبتهم قوات المسلمين ، وأعملوا فيها السيوف قتلاً وبتراً . وتنصف الليل والمسلمون يزاحفون عدوهم يريدون إجلاءه عن مواقعه فيصيبون منه ويكثرون القتل فيه . ويكادون يظفرون به لولا كثرة عدده وشدة مقاومته . ولم يجد كل من الفريقين بداً من أن يرجع إلى عسكره ، يعيد تنظيم صفوفه ، ليعود فى الصباح إلى الزحف ابتغاء الظفر .

---

(1) نفس المرجع .

واطمأن سعد ونام ، فقد وجد الناس مغتبطين ، يخص كل منهم إلى قبيلة . أما القعقاع بن عمرو فبات ليله يسرب أصحابه الذين جاءوا معه من الشام إلى المكان الذى كانوا فيه بالصحراء صبح أغواث ، وأمرهم أن يقبلوا مائة مائة إذا طلعت الشمس ، على نحو ما فعلوه فى أمسهم ، فإن أدركهم هاشم بن عتبة وجاء بمن معه فذاك ، وإلا فقد جددوا للناس رجاء فى المدد . وأصبح الناس والجيشان فى مواقفهم ، وبين الصفين ألفان من المسلمين بين قتيل وجريح ، وعشرة آلاف من الفرس . فدفن كل جيش قتلاه ونقل جرحاه . ووقف القعقاع فى المؤخرة حين طلعت الشمس ينظر إلى ناحية الصحراء ، فلما بدأت خيله تقبل كبر وكبر الناس معه . وكان هاشم قد أدرك رجال القعقاع وعرف ما صنع صاحبه ، فقسم رجاله فرقاً تتلاحق دراكاً ، فبلغ القادسية حين أخذ المسلمون مصافهم للقتال ، فلما رآه الناس ورآهم كبر وكبروا معه ، واندفع هاشم إلى القلب حتى بلغ النهر وهو يرمى العدو ، ثم عاد فكرر فعله فلم يجرؤ أحد على مصاولته . ولم يضعضع هذا من عزم الفرس ، فقد أصلحوا توابيت الفيلة واقتحموا بها المعركة . ومنذ طلعت الشمس ورآها سعد تفعل الأفاعيل وتفرق بين الكتائب سأل جماعة من الفرس الذين أسلموا عن مقاتلها . فقالوا : مشافرها وعيونها . وقد تمكن القعقاع وأخوه عاصم من الفيل الأبيض فوضعا رمحيهما فى عينيه ، وكذلك فعل حمال والربيل بالفيل الأجرب . وهرولت الفيلة فأحدثت هرجاً ومرجاً بين صفوف الفرس ، وتواثبت فى العقيق وقد ألقت ركبانها ، وتخطت الماء مدبرة ولم تعقب .

وواصل الجيشان القتال ، وكأنما دار بخواطر الجند من الفرس والعرب ألا يضعوا السلاح حتى يحسم بينهم . وهدأ وطيس القتال حين أقبل الليل ، وقدر سعد أن الجيشين سيقضيانه فى الاستعداد ليوم رابع ، ولكنه خشى أن يأتيه العدو من مخاضة بأسفل العسكر ، فأرسل طليحة وعمرو بن معديكرب فى جماعة وأمرهما بأن يقيما فيها حتى يأتيهما أمره ، وسولت لهما نفساهما أن يخوضاها فيأتيا العدو من خلفه ، واختلفا كيف يفعلان ، فأخذ طليحة

مكانه وراء العسكر، وكبر ثلاث تكبيرات ، ارتاع لهـا أهل فارس فظنوا أن جيش المسلمين أزمع الغدر بهم ، وظن المسلمون أن الأعاجم فتكوا برجالهم ، فأغار عمرو على جماعة من الفرس أسفل المخاضه ، فلم يعد لديهم ريب فى غدر المسلمين بهم فزحفوا ، ورأى القعقاع صنيعهم فزاحفهم دون استئذان سعد ، ولكن سعداً يطل فيراه يزاحفهم فيقول : اللهم اغفرها له وانصره ، فقد أذنت له وإن لم يستأذنى ، وتبعه المسلمون دون انتظار لتكبير سعد ، واستقبلوا الفرس بالسيوف وخالطوهم . فكان للسيوف قعقعة ، والمقاتلون لا يتكلمون بل يصيحون ، والقتال يشتد ويحمى وطيسه كلما تقدم الليل . وبات الجيشان يقتتلان أشد قتال وأقساه ، ولم يغمض لأحد من الجند تلك الليلة جفن . فلما أصبح الصباح جعل المسلمون ينتمون إلى قبائلهم ، ولم يكن النصر قد عقد لواءه لأحد من الفريقين . وسار القعقاع فى الناس يقول : إن الدائرة بعد ساعة لمن بدأ القوم ، فاصبروا ساعة واحملوا ، فإن النصر مع الصبر ، فحمل المسلمون حتى الظهيرة فى جلاد باسل ، حتى بدأت صفوف الفرس تضطرب وتراجع الفيرزان والهرمزان فى المجنبتين ، فانفرج القلب وهبت ريح أطارت طيارة رستم إلى العتيق ، وزحف القعقاع بمن معه إلى سريره ، ففر رستم إلى النهر واقتحم وراءه نفر من فرسان المسلمين ، وصعد أحدهم على سريره يصيح : قتلت رستم ورب الكعبة ! ! إلى إلى . وطاف به الجند يهللون ويكبرون . وأسقط فى يد الأعاجم ووهنت قوتهم ، وانهد ركنهم ، وقام الجالينوس يعبر بقومه النهر ، لكن الردم انهار بهم فى النهر ، فغرق بانهياره ثلاثون ألف فارس مقترنين بالسلاسل ، وانهزم جيش الفرس وانطلقت فلولهم يولون الأدبار .

وأمر سعد فخرج القعقاع وشرحبيل وزهرة بن حوية يتعقبونهم ، وأدرك زهرة الجالينوس بجمع المنهزمين فقتله . وجعل المسلمون يقتلون من يلونهم من الفرس ويأسرونهم دون مقاومة وجمع الناس الأسلاب والأموال فإذا هى شىء لا يحيط به خيال عربى ، حتى لقد بلغ عطاء الفارس ستة آلاف ، والراجل ألفين . وزاد أهل البلاء كل واحد منهم خمسمائة — فضلا عن الخمس —

وما بقى بعد ذلك كثير . نحاه سعد ليبعث به إلى المدينه ، وأمر عمر بتوزيعه فيمن لحق بسعد ولم يشهد الموقعة ، وفى حملة القرآن .

وهكذا انتهت المعركة إلى هذا النصر الحاسم ، حين كان الناس فى كل الأرجاء من شبه الجزيرة يتطلعون ببصائرهم وقلوبهم إلى ناحيتها ، وهم على أحر من الجمر شوقاً لمعرفة أنبائها من العذيب إلى عدن ، ومن الأبلة إلى بيت المقدس ، يتربصون وقعة القادسية ، يرون أن ثبات ملكهم وزواله بها ، وقد بعث أهل كل بلدة قاصداً يكشف ما يكون من خبرهم[1] .

وانطلق المسلمون فى وادى العراق من أعلاه إلى أسفله ، فعاد الناس جميعاً إلى طاعتهم ، معتذرين عن ولائهم للفرس بأنهم غلبوا على أمرهم ، وسعد يعذرهم تألفاً لهم ، وحرصاً على أن تسود الطمأنينة ربوعهم . فأقبلت قبائل العرب المنتشرة فيما بين النهرين يعلنون إيمانهم بالله ورسوله . وقد مكث سعد بالقادسية شهر المحرم سنة ١٥ هـ ، وارتحل فى نهايته بجيشه الذى أصبح معظمه فرساناً لكثرة ما غنموا من الخيل ، ولقيتهم فى سيرهم فلول القادسية ، وعليهم الهرمزان فهزمهم المسلمون . وبلغ سعداً تجمع فلول الفرس ببابل ، فسار إليهم وهزمهم . وأقام ببابل حيث سير من هناك مقدمته مع زهرة بن حوية إلى بهرسير أو المدائن الدنيا على شاطئ دجلة الغربى ، فحاصرها شهرين وفتحها الله عليهم ، ففر أهلها إلى الجهـــة الشرقية حيث المدائن القصوى — معقل الساسانيين وعاصمتهم — وأصبح من المحتم على زهرة أن يعبر دجلة ، واستطاع بمعاونة بعض أهل البلاد أن يصل إلى مخاضة عبر خلالها المسلمون خوضاً ، وفى سرعة أذهلت أهل المدائن ، الذين فوجئوا بالمسلمين دون أن يروا سفيناً يقلهم إليهم ، فتركوا المدائن وفروا . وكان يزدجرد قد سبقهم بالفرار إلى حلوان . وفى المدائن غنم المسلمون أموال كسرى وخزائنه وجواهره[2] .

وبفتح المدائن تنتهى المرحلة الثانية فى هذه الفتوح ، من الخطة التى رسمها أبو بكر ، وتبدأ المرحلة الثالثة .

---

(١) الطبرى ٢٣٦٤/٥/١ .

(٢) الطبرى ٢٤٣٤/٥/١ .

المرحلة الثالثة :

أقام المسلمون بالمدائن ما يزيد على سنة ، لاحظ خلالها الخليفة عمر انتفاء التواؤم بين المسلمين وبيئتهم الجديدة هـــذه ، فكان أن أمر بارتياد الأرض ، وباختطاط البصرة والكوفة . وقد تم للمسلمين تمصير الكوفة فى المحرم من سنة ١٧ هـ . وكانت أول أمرها مبنية بالقصب ، وبنيت بعد ذلك باللبن بعد تعرضها للحريق . وفى نفس العام بنيت الأبنية بالبصرة التى كان المسلمون قد نزلوها فى أواخرسنة ١٣ هـ ، وأوائل سنة ١٤ هـ ، ولم يتم تخطيطها إلا مع الكوفة .

ومنذ هذا التاريخ صارت الكوفة والبصرة مركزين حربيين ، تفصل منهما الجنود لحرب الفرس ، وصار لكل منها جند خاص ، ومناطق بعينها يناط بها فتحها وتنسب إليها . وصار المسلمون يفدون على عمر يشكون ضيق منازلهم بهم ، ويطلبون السماح لهم بضم مناطق بعينها إليهم دون غيرهم[١] .

وتكاد الفتوح فى أطراف فارس تكون نتيجة مجهودات أهل هذين المصرين ، بالإضافة إلى البحرين التى انطلق منها المسلمون لغزو فارس وكرمان وكان أول ذلك عمل العلاء الحضرمى . فى مغامرته التى عضـــده فيها أهل البصرة فى طاووس[٢] ، ثم فى موقعة اصطخر التى تولاها الحكم بن العاص أواخر عهد عمر ، وتمخض عنها فتح كرمان[٣] .

وأسهمت الكوفه فى إخضاع الجزيرة التى كانت بمثابة قاعدة حربية لحلفاء الروم من نصارى العرب ، مما رفه عن المجاهدين فى الشام[٤] . وتتابعت فتوح أهل الكوفه ، ففتحوا الرى وأذربيجان وأرمينية ، وطبرستان ، وجرجان[٥] . بينما فتح أهـــل البصرة الأهواز وتستر ورامهرمز ، وجند يسابور[٦] .

---

(١) الطبرى ١/ ٢٥٢٨ ـ ٢٥٣٩ .
(٢) الطبرى ١/٥/٢٥٤٥ .
(٣) الطبرى ١/٥/٢٦٩٨ .
(٤) ياقوت جـ ٢ ص ٧٤ .
(٥) الطبرى ١/٥/٢٨٠٥ ، ٢٨٣٦ .
(٦) الطبرى ١/٥/٢٥٣٤ .

وليس يعنى استقرار الجند الإسلامى فى هذين المصرين وفتحهما لهذه المناطق انتهاء المقاومة الفارسية الرسمية ؛ فإن المنهزمين فى المدائن فروا إلى جلولاء ، وأزمعوا أن يستميتوا فى درء المسلمين والتفانى فى ذلك ، فاحتفروا خندقاً حول جلولاء ، أحاطوه بحسك الخشب والحديد ، وقاموا ينتظرون المسلمين ، وأمر عمر سعداً بأن يسرح إليهم هاشم بن عتبة بن أبى وقاص ، وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو . فسار هاشم فى اثنى عشر ألفاً حتى نزل على الفرس . وكان كسرى قد أمد قواته من حلوان بالأموال والرجال . وأحاط المسلمون بالحصن ، وزاحفوا الفرس ثمانين زحفاً لم تسفر عن شىء ، إلى أن اقتحم المسلمون الحصن فى هجوم عارم ، ترك الفرس بعده المدينة للمسلمين[1] .

وبعد أن فر الفرس أرسل هاشم بالقعقاع على رأس حملة إلى حلوان ، على حافة المرتفعات الفارسية بجبال الصقر[2] ، فتتبع الفارين واحتلها ، بعد أن فر يزدجرد إلى الرى[3] .

وأخذ سعد يبسط راية الإسلام فى أنحاء الجزيرة وفارس ، فوجه عبد الله بن المعتم إلى تكريت بالجزيرة ، فاستمال من بها من إياد وتغلب والنمر ، ووجه بضرار بن الخطاب إلى ماسبذان ، حيث كان آذين أحد عظماء فارس قد جمع جمعاً عظيماً من الفرس والعرب وخرج بهم إلى السهل ، وتمكن ضرار من قتله ، والاستيلاء على الناحية[4] .

كما أرسل عمرو بن مالك الزهرى إلى « هيت » و « قرقيسيا » فاضطر أهلهما إلى النزول على الجزية[5] . وبهذا صار السواد كله بيد المسلمين ، فمهدوا طرق إدارته ، وأقاموا الجند مرابطة فى الثغور بينهم وبين الجبال .

وبعد سقوط السواد ، وهزيمة الفرس فى جلولاء ، انهارت خطوط

---

(١) الطبرى / جـ ٥ / ٢٤٧٢ م .
(٢) فيليب حتى وآخرون ص ٢١٢ .
(٣) ياقوت جـ ٢ ص ٣١٧ .
(٤) ياقوت جـ ٤ ص ٣٩٢ .
(٥) ياقوت جـ ٢ ص ٦٥ .

المقاومة الفارسية إلا أن بقاء يزدجرد – ذلك الملك الشاب – كان لا يزال رمزاً حياً للوطن السليب ، فجمع حوله الفلول ، وعلى الرغم من أن الخليفة كان يرى الاقتصار على ما بيد المسلمين من سواد العراق ، ويتمنى لو كان بين السواد والجبل سد يفصل بين العرب والفرس ، فإن المسلمين لم يجدوا بدأً من مطاردة هذا الرمز ، فظلوا يتعقبون يزدجرد ، لأنه الذى يبعث المقاومة .. « ولن يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا ، فلنسح فى بلادهم حتى نزيله عن فارس ، ونخرجه عن مملكته وزعامته ، فينقطع رجاء أهل فارس[1] » .

وكان يزدجرد قد فر من حلوان ، أمام هاشم بن عتبة إلى إقليم فارس ، جنوبى إيران ، حيث تحول إلى الرى ومنها إلى قرميسين ، يطارده المسلمون حتى استقر فى نهاوند . وفى نهاوند كان اهتمام عمر أشد من اهتمامه بالقادسية ، حتى لقد راودته نفسه الخروج إليها ، ولكن المسلمين رأوا له خلاف ما رأى لنفسه . وكذلك كان اهتمام الفرس بها عظيما ، إذ كتب يزدجرد إلى عماله ؛ فاجتمع من الفرس من أهل الجبال – من بين الباب إلى حلوان – ثلاثون ألف مقاتل ، ومن بين سجستان إلى فارس وحلوان ستون ألفاً ، ومن بين خراسان إلى حلوان ستون ألفاً أخر . واجتمعوا جميعاً إلى الفيرزان[2] .

وتحصن الفرس بالحصون والخنادق . وكان على المسلمين النعمان بن مقرن ، الذى عقد مؤتمراً عسكرياً للتشاور فى أمر الحرب ، شهده أبطال المسلمين كالقعقاع وطليحة وعمرو بن معد يكرب وغيرهم . وانتهى الرأى إلى أن يبدأ القعقاع القتال حتى يخرج إليه الفرس من حصونهم وخنادقهم فيقتلهم المسلمون . وتم هذا الترتيب الحربى كما قدر له . وبدأ القتال واشتد ، وقتل قائد المسلمين ، وأخفى خبر استشهاده ، واستلم حذيفة بن اليمان الراية ، وما أتى المساء حتى أتت معه الهزيمة للفرس ، ودخل المسلمون نهاوند واحتووا ما حولها .

---

(1) الطبرى ١/٥/٢٥٦١ .   (2) الطبرى ١/٥/٢٦٠٨ .

وقد سميت هذه الموقعة بفتح الفتوح ، لأنه لم يكن بعدها كبير حرب ، وتابع القعقاع المنهزمين حتى همذان ، فاحتواها وملكها المسلمون(١) .

وقد وضع سقوط نهاوند بعد كل هـذا الحشد الذى حشده الفرس نهاية للمقاومة الفارسية الرسمية ، وأصبحت المقاومة جهوداً فردية ، يقوم بها حكام المقاطعات فى غير تساند أو نظام لحماية « يزدجرد » فحسب . وعملا بنصيحة الأحنف بن قيس فى وجوب القضـاء على يزدجرد أذن عمر للمسلمين بالانسياح فى بلاد الفرس لقطع دابر الشغب ، حتى ييئس الملك من عودة ملكه إليه ، فلا يظل شوكة فى جنب المسلمين ، وييئس الفرس فلا يجتمعون حوله .

عين عمر رؤساء الجند لافتتاح فارس ، وأرسل إليهم بالألوية ، الأحنف ابن قيس إلى خراسان ، وعثمان بن أبى العاص الثقفى إلى اصطخر ، وسارية ابن زنيم الكنانى إلى فساودراخرد ، وسهيل بن عدى إلى كرمان ، وعاصم بن عمرو التميمى إلى سجستان ، والحكم بن عمير التغلبى إلى مكران .

وكان يزدجرد قد لجأ إلى أصفهان من نهاوند ، فتابع المسلمون تقدمهم حتى غلبوا عليها . فكان أن تحدر هو إلى اصطخر(٢) ، ولكنها لم تكن الملجأ الحصين ، إذ كان المسلمون يتقدمون من البصرة إلى الأهواز وخوزستان ، ويقفزون من البحرين إلى الشاطئ الشرقى المقابل للخليج الفارسى ، فغادر يزدجرد اصطخر إلى المقاطعات العليا من طبرستان ، يلبى دعوة جاءته من مرزبانها(٣) .

وبعد أن يحتل المسلمون اصطخر ينساحون فى مواطن متفرقة عن إذن عمر . وتترى مدن خراسان تتساقط فى يدى الأحنف . . الطبسين . . فهراه . . فمرو الشاهجان . . فنيسابور . ثم يهرب يزدجرد إلى خاقان ، ملك الترك فيما وراء النهر(٤) .

---

(١) ياقوت جـ ٤ ص ٨٢٨ . (٢) الطبرى ١/٥/٢٥٦٢ .
(٣) بروكلمان / تاريخ الشعوب الاسلامية ص ١٢٦ .
(٤) ياقوت جـ ٤ ص ٤٠٦ .

ولا يلبث ولاء أمراء المقاطعات ليزدجرد أن يتناقص بازدياد تفكيرهم في مطامعهم الشخصية ، والرغبة في الاحتفاظ بنفوذهم . وبعد سلسلة طويلة من التنقلات يقتل يزدجرد في مرو ، وبقتله يسقط التاج الساساني إلى الأبد .

وكان المسلمون قد بلغوا في تتبعهم ليزدجرد إلى حدود النهر ، فكتب عمر إلى الأحنف يطلب هـذه الوثبة بألا يجوز النهر ، وبأن يقتصر على ما دونه(١) . ولكن انسياح المسلمين لم يتوقف ، لأن انتقاض البلدان والمناطق المفتوحة لم يتوقف هو الآخر ، فلم يبق إقليم لم ينتقض بعد فتحه ، وبخاصة في أطراف المنطقة الشرقية بخراسان ، التي اشتد انتقاضها وكفرها في خلافة عثمان (٢) .

وفي الوقت الذي كان فيه المسلمون يستشرفون نهر جيحون كانت جيوش أخرى تجوز الخليج الفارسي ، لتنساح في منطقة فارس وسواحل كرمان ، ثم تتقدم بعد ذلك إلى مكران ، حتى تبلغ قريباً من السند . ويذكر أن عمر كان قد أوصى بألا يتقدم المسلمون إلى كرمان ، بعد أن أخبره صحار العبدي بسوئها ... ولكن الحكم بن عمير التغلبي يتقدم إليها ويجوزها . وتوالت ظروف الانتقاض والثورة ، فلم يستطع المسلمون الإذعان لهذا الأمر ولم يقنعوا بما في أيديهم .

وتكاد تذهب خلافة عثمان رضي الله عنه كلها في محاولة تأكيد الفتح الإسلامي ، والمحافظة على الثغور وإعادة من شق العصا إلى الطاعة ، إذا ما استثنينا فتح طبرستان ، الذي تم على يد سعيد بن أبي العاص سنة ٢٩ هـ . فهذه أذربيجان تنتقض في إمارة الوليد بن عقبة سنة ٢٥ هـ فيغزوها ويعيدها إلى ما كانت عليه (٣) . وهذه فارس تنتقض في ولاية عبد الله بن عامر على البصرة ، ويقتل أهلها أميرهم عبيد الله بن معمر ، فيسير إليهم عبد الله ابن عامر ويستردها(٤) .

(١) الطبري ١/٥/٢٦٨٥ .
(٢) الطبري ١/٥/٢٦٨٩ .
(٣) ياقوت جـ ١ ص ١٧٣ .
(٤) ياقوت جـ ٢ ص ٤١٢ .

وأخذ المسلمون يتدفقون لاستثمار انتصاراتهم فى خراسان ، معبرين عن مدى الانطلاق الروحى ، راغبين فى القضاء على المقاومات والانتقاضات. فأخذنا نسمع عن أول من عبر النهر ، كعبد الله بن عامر والحكم بن عمرو الغفارى وسعيد بن عثمان ، الذى ولاه معاوية خراسان[1] .. إلى أن يستكمل فتح هذه المنطقة قتيبة بن مسلم .

وهكذا تصير إلى العرب تلك المنطقة ، التى يحدها من الغرب نهر الفرات ، ومن الشرق نهر جيحون والسند ، ومن الجنوب المحيط الهندى ، ومن الشمال أرمينية وطبرستان فى فترة وجيزة من الزمن . برغم أن مثل هذه الأعمال العظيمة لا تقاس بالفترات ولا بالسنين .

وقد رافق الشعر المسلمين فى تقدمهم خطوة بخطوة ، طوال هذا الطريق المشرق ، وواكب المد المنطلق إلى غايته ، كما سنرى فيما بعد .

---

(1) البلاذرى ص ٤٠٨ ، ٤١٣ .

٣ — فتوح الشام

كان لموقع شبه الجزيرة العربية وعلاقات الجوار واللغة والقرابة والدم التى ربطت بين عرب الجزيرة والقبائل الضاربة فى شمالها أكبر الأثر فى اتجاه المسلمين فى انطلاقهم إلى بطائح العراق ، وإلى مشارف الشام بعد ذلك . وهذه العلاقات قديمة وبعيدة وموغلة فى التاريخ ، وترجع إلى ذلك اليوم الذى بسط فيه عرب الجنوب نفوذهم على التجارة على طول شواطئ البحر المتوسط الشرقية ، وعن طريق سلسلة من المحطات التجارية المنتشرة من اليمن إلى الشام . وكانت سيطرة العرب على المتاجر سبباً فى خلق علاقات وثيقة بين العرب والقوى السياسية المحيطة بهم وقتئذ . فبدأ تنافس خطير حول انتزاع هذه السيادة التجارية منهم ، واستبقائها فيما بينهم وبين الروم فحسب ، عندما بسط هؤلاء سلطانهم على البحر المتوسط بالاستيلاء على مصر .

وكانت محاولات الروم فى هذا السبيل تصاب بالفشل حتى القرن الخامس الميلادى ، ولم يجدوا فرصتهم إلا فى عهد الإمبراطور جوستنيان ، (٥١٨ — ٥٢٧ م) عندما سيطرت فارس على الطرق التجارية البرية ، مما دفعهم إلى التدخل فى شئون عرب الجنوب ، متذرعين بالصراع الدينى ، الذى نشب بين اليهودية والمسيحية فى عهد ذى نواس ، وأتيح لهم التدخل عن طريق أحلافهم الأحباش بعد مذبحة نجران(١) . ولكن العرب استطاعوا القضاء على النفوذ الحبشى الرومى فى عهد سيف بن ذى يزن ، الذى استعان بكسرى أنوشروان سنة ٥٧٥ م فى طردهم .

---

(١) التيجان فى ملوك حمير / ص ٣٠١ .

وأرض الشام تعتبر امتداداً لشمالى شبه الجزيرة العربية ، مما دعا عرب الشمال إلى اتخاذها دار هجرة ؛ إذ أن طبيعة بلادهم كانت السبب فى الدفع بهم إلى الاحتكاك بمن يصاقبونهم ، والزحف وراء المناطق الخصبة التى تلى بلادهم شمالا على أطراف الهلال الخصيب ، انتهازاً للإغارة على بلدانه والتسلل إليها ، حيث ينعمون بالخصب والخير ، فلم تكن الهجرات إلى الشام تنقطع عبرالزمن . وأشهر هذه الهجرات ما حدث بعد زوال السيطرة التجارية لليمن ، إذ ساءت أحوالها الاقتصادية ، وتلا ذلك تصدع سد مأرب العظيم ، فاتجهت القبائل المهاجرة تزحف إلى الشام ، كما فعلت جهينة وكلب وقضاعة التى نزلت بالبادية ، وعاملة وجذام اللتان نزلتا فى حدود فلسطين ، وغسان التى استقرت فى منطقة حوران فى شمالى بلاد العرب .

ورأى الروم فى هذه القبيلة مثلما رأى الفرس فى لخم ، واستعانوا بها فى تأسيس إمارة تضمن لهم الدفاع عن حدودهم ضـد هجمات الفرس والقبائل العربية ، التى تحترف الإغارة والسلب . واتسمت العلاقة بين الروم والغساسنة بالتأرجح ، بسبب عوامل الكبت والتضييق التى انتهجها الروم مع حلفائهم وصنائعهم ، إثر إثارة مشكلة الخلاف المذهبى بينهم ، فقد اعتنق الغساسنة المذهب المونوفيزيتى ، بينما كان سادتهم يدينون بالملكانية ، فتعرض غير أمير منهم للسجن والاضطهاد ، كما حدث للمنذر بن الحارث الذى غدروا به ونفوه إلى صقلية(١) .

وكانت إمارة الغساسنة معبراً لكثير من التأثيرات العقلية والحضارية ، عبرت عن طريقها إلى العرب ، ووفد إليها من شعرائهم فى الجاهلية من كانوا يجدون فى أمرائها أهلا لمدائحهم ومنادمتهم ، كالنابغة الذبيانى وعلقمة ، وحسان بن ثابت . وترك هؤلاء الأمراء فى الأدب العربى فضلا عن هذا

(١) أمراء غسان ص ٣١ و ٣٢ .

آثاراً قصصية وأسطورية ، كالتى تروى عن دروع امرئ القيس ، ومنادمات حسان لجبلة بن الأيهم وغير ذلك .

وعندما تبلورت زعامة مكة لشبه الجزيرة العربية ، وتبوأت مركز الصدارة على سائر مدن الحجاز ، وسيطرت على مقدراتها ، واستحقت لقب أم القرى ببيتها العتيق الذى يفد إليه كل العرب من كل صوب أخذت مكة تنظم التجارة ، وتستعيد للعرب السيطرة على طرقها بين اليمن والشام . فنظم هاشم رحلاتها ، وعقد مع الدول والممالك المجاورة للحجاز معاهدات ومحالفات ، كتلك التى عقدها مع الروم والغساسنة ؛ وأصبح لقريش بمقتضاها حق التجوال فى الشام(1) . وبطبيعة الحال أفاد العرب من هذه الصلات التجارية الشىء الكثير . ولابد أن يكون منهم من ثقف لغة عملائهم بالضرورة ؛ فقد كان التجار من رؤساء العرب وكبرائهم ، وأجدرهم بنقل مدنية الروم وحضارتهم وطرق معيشتهم وأخبارهم .

ولما بدأ الصراع بين دولتى الفرس والروم فى مستهل القرن السابع الميلادى كان العرب يتابعون أحداث هذا الصراع المرير وتطوراته ، وظهور إحداهما على الأخرى . وملأت أصداء هذه الأحداث بلاد العرب بفضل الطريق التجــارى ، الممتد بين اليمن وفلسطين وسوريا ومصر . فكان العرب يقفون على أخبارها أولا بأول . وأخـــذ المسلمون يظهرون أمام المشركين الذين كانوا يقفون بعواطفهم إلى جانب الفرس الوثنيين ضد الروم بوصفهم أصحاب كتاب كالمسلمين بمظهر الآمل فى انتصـــار الروم ، وأنهم المظفرون فى هذا الصراع عما قريب .

ولم تكن أنباء الصراع هى كل ما يثير اهتمام المسلمين ، وإنما يبدو أنهم كانوا يقفون أيضاً على حوادث الاضطهاد والتعذيب التى أخذت ترزح تحتها البلدان الخاضعة لحكم الروم ، من جراء فرض « هرقل » مذهبه الجديد ،

(1) الطبرى جـ ٣ ص ١٠٨٩ .

الذى يدعو إلى التوفيق بين الملكانيين واليعاقبة ، محاولا بشتى الوسائل حمل رعاياه عليه ، ليقضى على عوامل الفرقة المذهبية التى كان يخشى اتخاذها ذريعة للانفصال عن جسم الدولة الرومية ، ولكن النتيجة كانت عكس ما تصور « هرقل » .

فوقف أتباع المذهبين المختلفين موقفاً واحداً ضده ، ورفضوا الدخول فى مذهبه الذى عدوه زيفاً وتضليلا ، فاشتعلت نيران الفتنة . وانتشرت حركات التمرد والمقاومة السرية . ولم يتمكن هرقل من إخمادها بوسائل العنف والقهر والقمع ، وبات الناس فى أقاليم الدولة يتمنون من أعماقهم زوال حكم الروم عنهم ، ليحرروا عقائدهم وأرزاقهم من قهرهم .

وفى هذا الوقت كان النبى العربى ينشر دعوته فى بلاد العرب ، داعياً إلى الوحدة والإخاء والمساواة . ولم ينظر الروم إلى الحركة الإسلامية نظرة جدية ، وساعد هذا على أن الروم خرجوا من صراعهم مع الفرس معتدين بأنفسهم اعتداداً كبيراً ، فلم يحاولوا أن يفهموا مدى الأثر الذى أحدثه الدين الجديد فى العرب ، فى حين كان هؤلاء يتربصون بهم وبأخبارهم التى تجيئهم مع القوافل ، وعن طريق محطات التجارة ، ومع التجار المسيحيين واليهود والعرب[1] .

ويبدو أن الرسول صلى الله عليه وسلم وجد فى هذا الخلاف المذهبى مشجعاً له على أن يرسل برسائله إلى « هرقل » و « المقوقس » يدعوهما إلى الإسلام ، ذلك الدين الذى يدعو إلى عقيدة جوهرها وحدانية الله ، جعلته أقرب إلى نفوس أتباع الطبيعة الواحـــدة المسيحيين من قربه إلى نفوس الروم قادة العالم المسيحى ، المعتنقين لمذهب الطبيعتين[2] . ومما لاشك فيه أن هذا يفسر السرعة والنجاح اللذين تمت بهما فتوح الشام ، ووقوف دولة الروم

(1) الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ص ٤٢ .

(2) يدل على هذا ... دفاع الاسلام عن عيسى عليه الســـلام وتنزيهه مما يحببه الى المونوفيزيتين ، وما جرى بين نجاشى الحبشة ومسلمى الحجاز فى الهجرة الأولى .

مذهولة حيال تدفق تيارها العنيد إذا ما قورنت بفتوح العراق وفارس ؛ إذ أن العقيدة الإسلامية كانت النور الذى أضاء للجيوش الإسلامية سبيلها فى بلاد الموتوفيزيتين ، ونزلت برداً وسلاماً على سكانها ، وسط جحيم اضطهاد الروم الملكانيين[1] .

ولم يحسن الروم الرد على دعوة النبي ، وفعل صنائعهم الغساسنة مثل صنيعهم وأنكى ؛ فقتل أميرهم شرحبيل بن عمر رسول النبي إليه فى بصرى ، ولم يكن المسلمون فى حالة تسمح لهم برد هذه الإهانة . وانتظر النبي حتى السنة الثامنة للهجرة وأرسل زيد بن حارثه فى بعث مكون من ثلاثة آلاف رجل إلى الجهات الشمالية الغربية من بلاد العرب [2] .

ولم يكن هدف هذا البعث الرد على إهانة المسلمين أو الثأر فحسب ، وإنما كان الغرض إلى جانب ذلك تأمين التخوم العربية ضد الروم ، الذين تأثروا بتحريض اليهود ، بعد أن أجلاهم النبي عن المدينة وعن تيماء وفدك إلى فلسطين ، فأراد النبي بهذا البعث أن يهدد مشارف الإمبراطورية ، ليحسب الروم حساباً للمسلمين . كما كان هناك هدف آخر هو الاستطلاع بالوصول إلى مآب ، كما يظهر فى قول عبد الله بن رواحة إذ يقول :

فـــلا وأبى مــآب لآتينهـــا وإن كانت بها عرب وروم[3]

وسار المسلمون إلى مؤتة ، وبيناهم فى الطريق دنا منهم الروم عند مشارف وهى قرية من قرى البلقاء ، فانحازوا إلى مؤتة ، وكان الروم فى أعداد غفيرة ، فأراد المسلمون أن يكاتبوا النبي فيما يتهددهم ، فنهاهم عبد الله بن رواحة وقال : إنها الشهادة أو الطعن[4] .

---

(1) الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ص ٤٣ .
(٢) الطبرى ١/٣/١٦١٠ .
(٣) معجم البلدان جـ ٤ ص ٥٧١ .
(٤) نفس المرجع والصحيفة .

والتقى المسلمون بالروم ، فاستشهد زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن رواحة . وداور خالد بن الوليد بالمسلمين حتى قدم إلى المدينة (١) .

وبدا بعد ذلك أن النبي سيعاود الكرة ، فتضاعفت الرغبة فى الثأر ، وقوبل بعث مؤتة من المسلمين باستياء بالغ ، وجعل الصبيان يحثون التراب عليهم ويصيحون : يا فرّار . . فررتم من سبيل الله ، فيقول النبي : ليسوا بالفرّار ، لكنهم الكرّار إن شاء الله(٢) .

وفى العام التالى لبعث مؤتة سار عليه الصلاة والسلام بنفسه على رأس المسلمين إلى الحدود العربية الرومية ، حيث قام هناك بمناورات حربية لم تحدث فيها اشتباكات ، إذ اكتفى فيها بإظهار قوة المسلمين فى هذه الجهات(٣) وتراجع الروم دون قتال ، وأصاب المسلمون بعض الواحات التى صالحوا عليها ، كصلح النبي مع أهل جرباء وأذرح ، ومع صاحب أيلة . وأرسل خالد بن الوليد فصالح أكيدر صاحب دومة الجندل على الجزية(٤) فلا عجب — وقد أثارت هاتان الغزوتان الثارات بين المسلمين والروم — أن يجهز النبي جيش أسامة بن زيد بن حارثة ، وأن يكون تجهيز هذا الجيش بعض سياسته فى تأمين تخوم شبه الجزيرة من الروم ، وكان أسامة حدثاً لما يبلغ العشرين ، وإنما ولاه رسول الله ليجعل له من فخار النصر ما يجزى به استشهاد أبيه بمؤتة . ولقد أمره النبي أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين ، وأن ينزل على أعداء الله وأعدائه فى عماية الصبح ، وأن يمعن فيهم قتلا ، وأن يحرقهم بالنار ، وأن يتم ذلك دراكاً ، حتى لا تسبق إلى

---

(١) ابن هشام جـ ٣ ص ٢١١ و ٢١٥ .

(٢) ياقوت جـ ٤ ص ٦٧٧ .

(٣) ابن هشام جـ ٣ ص ٣٢٨ — ٣٣٨ .

(٤) الطبرى ١٧٠٢/٤/١ .

أعدائه أنباؤه ، فإذا تم له النصر فليسرع بالعودة غانماً مظفراً . غير أن النبي يلحق بربه قبل أن يجاوز جيش أسامة الخندق(1) .

وهكذا يمضى النبي مخلفاً للمسلمين خطة واضحة المعالم . ورغم ظروف ارتداد المسلمين ، وحديث الناس إلى أبي بكر بألا يفرق عنه جماعة المسلمين ، الذين يشملهم الجيش فى مثل هذه الظروف فإنه يعتزم إنفاذ جيش أسامة ولو تخطفته السباع ، ولو لم يبق فى القرى غيره (2) . ويمضى أسامة فيغزو قبائل قضاعة ، ويغير على آبل ، ويعود غانماً فى أربعين يوماً ، سوى مقامه ومنقلبه (3) .

وهكذا يبدو أن الرسول هو الذى رسم بنفسه خطة التمهيد للدعوة فى بلاد الشام ، ولأنه قد أدرك بثاقب نظره أن أشد الخطر يكمن فى الشام ويتهدد الدعوة ، حيث الروم وعمالهم ، فكان إدراكه عين الحقيقة ، فلم يكن إرسال مولى الرسول إلا ليدلهم ، وما كان سيره إليهم بنفسه وإرساله أسامة إلا لفتاً إلى هذا الخطر ، وإظهاراً لقوة المسلمين فى هذه الأنحاء ، ليقضى على هيبة الروم فى نفوس صنائعهم ، وليكسر خطوط المقاومة الأولى فى طريق الدعوة ، وليثير فى نفوس المسلمين نوازع القوة الكامنة . وبرغم أن أسامة لم يلق جيش الروم ، إذ اكتفى بأن دهم القبائل وغنم منها فإن هذه الغزوة كانت بعيدة الأثر فى حياة المسلمين ، وفى حياة العرب الذين فكروا فى الثورة بهم ، وفى حياة الروم الذين تمتد بلادهم على حدودهم ، حتى ليبعث هرقل بجيش قوى يعسكر بالبلقاء . وبرغم هذا كله لم يدر بخاطر أحد من أمراء الجيش الظافر أن يدفع أسامة لاقتفاء أثر عـــدوه ؛ ذلك أن السياسة التى جرى عليها رسول الله ، والتى كانت ماثلة فى نفوس المسلمين ؛ سيما كانت تقف عند تأمين التخوم العربية ، حتى لا يحدث الروم أنفسهم بغزو العرب انتقاماً لليهود الذين كانوا يأتمرون بالمسلمين . فكان طبيعياً إذن أن يكر أسامة راجعاً إلى المدينة ،

(1) ابن هشام جـ ٣ ص ٤٥٢ — ٤٥٣ . (2) الطبرى ١٨٤٨/٤/١ .
(3) الطبرى ١٨٥١/٤/١ .

دون أن يدور غزو الروم بخاطره . ولكن الانتصار الذى حققه أسامة كان له أثر بعيد فى اعتزاز المسلمين بأنفسهم ، وإكبارهم للذين حققوه . حتى ليصبح لانتصار أسامة هذا من الخطر مالا يتفق مع قيمته الحقة ، بل عد فيما بعد فاتحة للحملة التى وجهت لغزو الشام[1] .

أما فيما قبل فتح الشام فلم يكن له هذا الخطر ذاته ، إذ اتبع أبو بكر سياسة النبى ، فهو متبع لا يدع أمراً رأى رسول الله يصنعه إلا صنعه ؛ ولذا كانت وصيته لأسامة أن يصنع ما أمره به نبى الله ، ولا يقصرن فى شىء مما أمره .

وقد مر بنا أن أبا بكر كان يرى التفكير فى حرب الشام بعد انتهاء فتنة الردة أهون من حرب الفرس ، فمنذ بدأت طلائع النصر تساير أعلام المسلمين فى حرب الردة كان التفكير فى حرب الروم يتردد على خاطر أبى بكر ، لكنه كان يخشى إبرام هذا الأمر قبل الفراغ من المرتدين ، خشية انتقاض العرب عليه . فلما هون المثنى أمر العراق ، وانطلق خالد بن الوليد يكتسح أمامه الفرس وأهـــل البادية ، ويضع يده على الحيرة ويتخذها عاصمة للمسلمين ، ازداد تفكير أبى بكر فى أمر الشام ، وبخاصة بعد أن سلمت دومة الجندل وفتحت أبوابها للمسلمين . وكما كان بدء فتح العراق نتيجة للجهود التى بذلها بعض قادة المسلمين فى حروب الردة كالمثنى كان نفس الأمر فى فتح الشام ، فإن خالد بن سعيد بن العاص — الذى كان ردءاً بتيماء على تخوم الشام — دعا إليه القبائل بأمر أبى بكر ، فاجتمعت إليه جموع كثيرة جعلت عسكره عظيماً[2] ، وترامت إلى هرقل أنباء هذه الجموع ، فاتخذ للأمر عدته . وترامت إلى خالد بن سعيد أنباء استعدادات هرقل ، فبعث بها إلى الخليفه مشفوعة برأيه أن يأذن له فى منازلة الروم ومن انضم إليهم من قبائل العرب ، مخافة أن يأخذوه ومن معه على غرة .

---

(١) فكا / دائرة المعارف الاسلامية / فصل أسامة .
(٢) الطبرى ١/٤/٢٠٨١ .

وعقد أبو بكر مؤتمراً دعا إليه جلة أصحابه وأهل الرأى لتداول فى هذا الأمر ، وطال النظر فى الأمر والتشاور ، حتى استقر الرأى على الغزو والتجهز له ، وأن يستعين الخليفة بأهل اليمن وأهل شبه الجزيرة جميعاً . وكتب الخليفة إلى أهل اليمن وإلى عماله فى أنحاء شبه الجزيرة ، فلقيت دعوته آذاناً صاغية ، وخفوا يطلبون المدينة . وبينما أبو بكر يعد جيوشه تسلم كتاباً آخر من خالد بن سعيد باجتماع الروم ومن نفر إليهم من بهراء وكلب وتنوخ ولخم وجزام وغسان ، فكان رد الخليفة : أن أقدم ولا تحجم واستنصر الله .

فأسرع خالد بكل قوته وتخطى الحدود لمنازلة القوم . ولم يلبث الروم وأنصارهم حين رأوه دنا منهم أن تفرقوا وتركوا منازلهم ، فدخل معسكرهم وغنم ما فيه . وكتب إلى الخليفة بما صنع . فأجابه بأن يتقدم وبألا يقتحم ، حتى لا يؤتى من خلفه . وتقدم خالد حتى بلغ القسطل فى طريق البحر الميت . وهزم جيشاً من الروم على الشاطىء الشرقى لذلك البحر ، ثم تابع مسيره ؛ وثارت حمية الروم ، كما ثارت حمية أهـــل الشام ، فتجمعوا فى أعداد عظيمة[١] . وفى هذا الوقت كان أبو بكر يبعث إلى عماله يخيرهم بين العمالة والجهاد ، فآثروا الجهادَ كعمرو بن العاص والوليد بن عقبة ، وندبوا الناس معهم . وكان عكرمة بن أبى جهل قد قدم قافلا من كندة وحضرموت ، فما أن بلغ المدينة حتى أمره أبو بكر أن يسير مدداً لخالد بن سعيد ، وكذلك سار الوليد بن عقبة فأدرك خالداً ، وتقدم معه لمقابلة الروم[٢] . وكان على جيش الروم القائد الأكبر باهان ، الذى خدع المسلمين وتراجع أمامهم حتى مرج الصفر ، ثم استدار فأحاط بهم وقتل سعيد بن خالد ، واضطر خالد إلى الفرار ، تاركاً عكرمة يقود الجيش متقهقراً به إلى حدود الشام ، حيث تحصن وأقام ينتظر المدد . ورأى أبو بكر أن يزيل هذه الهزيمة ، وأن يرد المسلمين إلى الإيمان بالنصر ، ويمدهم بما ينزل فى قلوب الروم الخوف والهلع .

(١) هيكل / الصديق / ص ٢٦٢ .　　(٢) الطبرى ٢٠٨٤/٤/١ .

فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم .

انطلقوا وملء ذاكرتهم تجارب هائلة ، كان النصر فيها حليفهم فى مواطن كثيرة ، أظهرهم الله فيها على أعدائه وأعدائهم ، حتى خلص لهم وجه بلاد العرب ، وأنالهم رقاب المرتدين ، فأعادوا الأمر إلى نصابه فى بأس وحزم . وهاهم يجدون ريح الجنة ، ويتمنون الشهادة فى سبيلها ، ويترقبون اللحظة التى ينطلقون فيها نحو تخومهم ، ليحملوا إلى العرب فى الأطراف وإلى من وراءهم من العالمين هذه الدعوة التى لا يستطيعون الانطواء عليها وحدهم ، وهى تتضوأ بدفئها ونورها فى مواطن اعتقادهم ، وقد أدركوا أنهم ورثة هذا النبى الذى بعث فيهم إلى النس كافة ، يهدونهم بهديه إلى ما اهتدوا إليه ، وما ارتضوا لأنفسهم . فعليهم وحدهم يقع هذا العبء ، وما عليهم – لكى يقوموا برسالتهم – إلا أن يقطعوا هذه الطرق التى طالما قطعوها من قبل تجاراً يحملون عروض الدنيا ، لكنهم فى هذه المرة تجار لتجارة لن تبور ، يحملون دين الله الحق وهدى رسوله ، ويبشرون بما هو خير وأبقى ، متسلحين بما أفاءه عليهم الإسلام من قوة وما يستشعرونه من خطر الرسالة التى يحملونها ، متذرعين بما وعدهم الله من النصر ، مهطعين إلى دعائه :

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم » .

« واقتلوهم حيث ثقفتموهم » .

« فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين » .

« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله » .

« فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » .

« وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً » ، « الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين

كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ، فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً » .

« ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيراً وسعة ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله » .

« يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً » .

« يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » .

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » .

« يأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل ، إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليما ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير ، إلا تنصروه فقد نصره الله » .

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله » .

« ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » .

« يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم » .

« إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » .

« الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون ، يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ، خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم » .

« يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » .

وقد صدع صلى الله عليه وسلم بما أمر به ، فحرض على القتال ؛ وزين الجهاد للمسلمين وحثهم عليه ، حتى ليجعله فى تقديرهم ذروة الإسلام وأفضل الأعمال طراً عند الله بعد الإيمان به وبرسوله . فيعلن أنه أمر أن يقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإن فعلوا ذلك فقد اعتصموا وعصموا دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله . وأن الجهاد فى سبيل الله باب من أبواب الجنه ، ينجى الله تبارك وتعالى به من الهم والغم . وتمنى أن يغزو فى سبيله فيقتل ، ثم يغزو فيقتل . وحكى عن ربه عز وجل : « أيما عبد من عبادى خرج مجاهداً فى سبيلى ابتغاء لمرضاتى ضمنت له إن أرجعته أرجعه بما أصاب من أجر أو غنيمة ، وإن قبضته غفرت له » . وصور صلى الله عليه وسلم ما أعد للمجاهد من أجر فى الآخرة ؛ فجسده محرم على النار ، إذ لا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم فى أنف مسلم . وما اغبرت قدما عبد فى سبيل الله فتمسه النار . وكل ميت يختم على عمله إلا المرابط فى سبيل الله ، فإنه ينمى عمله إلى يوم القيامه ، فيؤمن من فتنة القبر . ومن مات مرابطاً فى سبيل الله أمن الفزع الأكبر ، وغدى عليه برزقه وريح الجنة . وطوبى لعبد آخذ بعنان فرسه فى سبيل الله أشعث رأسه ، مغبرة قدماه ، يطير على متن فرسه كلما سمع هيعة أو فزعة يبتغى القتل . ورباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها ، وموضع سوطه من الجنة خير من الدنيا وما عليها . والروحة يروحها العبد فى سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها . والقوة الرمى ، فمن تركه بعد ما علمه رغبة عنه فإنه نعمة كفرها . والخيل أجر وستر ، ومعقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة .

بهذا كان صلى الله عليه وسلم يحضهم على الجهاد ، ويدفعهم إلى الاستعداد له ، ويدعوهم إلى استكمال ثقافتهم العسكرية ، ويشهد بنفسه ملاعبتهم لسيوفهم ورماحهم وضروب فروسيتهم وعلومهم ، ويعجب بهم ويبدى استحسانه لما يرى من صنيعهم ، ويزين لهم تعليم أولادهم ركوب

الخيل والعدو وحيل الحرب وأفانين القتال والرماية والسباحة ، ويرغبهم فى التجمل بخلائق الفرسان ، فى النجدة والشجاعة ونبذ الجبن والخنوثة .

فأثمرت هذه التعاليم ثمرتها ، فكان الجهاد بلورة نورانية تجذب وجدان المسلمين ، وتلهب مشاعرهم ، وصورة متألقة فى ضميرهم ، تبدو الدنيا فيها مجازاً للآخرة ، والآخرة ثواباً للدنيا ، فيعيش من عاش فيها سعيداً ، ويموت من مات فيها شهيداً . ومن هنا حرصوا على الموت أكثر من حرصهم على الحياة ، لا يجزعون أمامه ، وهم مؤمنون بأن كل شىء قد قدر تقديراً ، « فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » ، وأن حينهم سوف يواتيهم فى ميقات معلوم ولو كانوا فى بروج مشيدة . فما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسهم إلا فى كتاب ، ولو كانوا فى بيوتهم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ، ولن يصيبهم بعد هذا إلا ما كتب لهم ، وأن ما يمكن أن يصيبهم لا يخرج عن أمرين : أمرّهما حلو ، فإما الشهادة المؤدية إلى الجنة ، وإما النصر الذى هو حق لهم ما أخلصوا فى قتال عدوهم ، وما نصروا الله ، فإن ينصروه ينصرهم ، والنصر من عنده يؤتيه من يشاء ، وإن ينصرهم فلا غالب لهم .

انطلق المسلمون عبر حدودهم وكل هذه المعانى تعتمل فى نفوسهم ، وتنطلق على ألسنتهم ، كما انطلقت على لسان المغيرة بن شعبة فى مسامع رستم وحاشيته « يدخل من قتل منا الجنة ، ومن قتل منكم النار ، ويظهر من بقى منا على من بقى منكم »(1) . وينطلق هذا المعنى فى كتاب خالد بن الوليد إلى رؤساء فارس « أسلموا تسلموا ، وإلا فاعتقدوا منى الجزية ، وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر »(2) . كما ينطلق على لسان ربعى بن عامر ، رسول سعد بن أبى وقاص إلى رستم فى القادسية ،

---

(1) الطبرى أوربا / جـ ٥ / ص ٢٢٧٩
(2) الطبرى أوربا / جـ ٤ / ص ٢٠١٩

وقد دخل على القائد العظيم فى ثياب صفيقة ، فوق فرس قصيرة ، ولا يزال راكبها حتى يدوس بها على طرف البساط ، ثم يترجل فيربطها ببعض الوسائد ، ويقبل وعليه سلاحه ودرعه . وبيضته فوق رأسه ، ليرد على من صاح به أن يلقى سلاحه : « إنما جئتكم حين دعوتمونى ، فإن تركتمونى هكذا رجعت » ثم يتوكأ على رمحه فوق النمارق ليقول مدوياً مجيباً من سأله عن سبب مجىء المسلمين « ماجاء بكم ؟ » . « الله ... ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام »(١)

وقد تداول هذه المعانى أولئك المجاهدون الشعراء الذين اجتذبهم ألق الجهاد ، فصم آذانهم عن كل دعاء إلا دعوة الله ، فتركوا من ورائهم أهليهم وذويهم يناشدونهم البقاء إلى جانبهم ، حرصاً عليهم ورغبة فى سلامتهم ، ولكن كيف لهم أن يمنعوا أنفسهم طلبتها . وكيف لهم أن يقعدوا عن واجب أوجبه الله ودعا إليه . وليسوا ممن يصرح لهم بالقعود ... فهذه امرأة النابغة الجعدى تناشده الله أن يبقى . ولكنه يجيبها بأنه لاعذر له فى القعود .

باتت تذكرنى بالله قاعـــدة	والدمع ينهل من شأنيهما سبلا
يا بنت عمى كتاب الله أخرجنى	كرهاً وهل أمنعن الله ما بذلا
فإن رجعت فرب الناس أرجعنى	وإن لحقت بربى فابتغى بدلا
ماكنت أعرج أو أعمى فيعذرنى	أو ضارعاً من ضنى لم يستطع حولا(٢)

وكذلك كان الشبان من المسلمين فى مقتبل العمر لا يستطيعون مقاومة اللهفة إلى الجهاد ، فيخلفون وراءهم آباء ضعافاً ، يخافون عليهم ويبكونهم ، ولكنهم لا يحفلون بهم ولا بدموعهم . كما فعل شيبان بن المخبل السعدى مع أبيه ؛ إذ خرج مع سعد بن أبى وقاص إلى غزو الفرس ، وكان أبوه قد

---

(١) الطبرى / جـ ٥ / ص ٢٢٧٠ .

(٢) الشـــعر والشـــعراء جـ ١ / ص٢٥١ / ٢٥٢ .

أسن وضعف . فما برح يناديه ، ويتحسر على وحدته بعده ، وجداً عليه وإشفاقاً وهلعاً . يقول :

أيهلكني شيبان فى كل ليـلة ... لقلبي من خوف الفراق وجيب
ويخبرنى شيبن أن لم يعقـنى ... تعـق إذا فارقتنى وتحـوب
فإن يك غصنى أصبح اليوم بالياً ... وغصنك من ماء الشباب رطيب
فإنى حنت ظهرى خطوب تتابعت ... فمشيي ضعيف فى الرجال دبيب
إذا قال صحبي يا ربيع ألا ترى ... أرى الشخص كالشخصين وهو قريب
أشيبان ما يدريك أن كل ليـلة ... غبقتك فيها والغبوق حبيب(١)

وهذا كلاب بن أميـة بن الأسكر يسأل طلحة والزبير عن أفضل الأعمال ، فيخبرانه أنه الجهاد فى سبيل الله ، فيقصد عمر رضى الله عنه يسأله الجهاد . فيبعث به إلى العراق . ولكن أباه يناشده الأبوة والعجز أن يبقى ، فيوليه ظهره ، ويتوجه إلى العراق مخلفاً أباه ينتحب ويقول :

لمن شيخان قد نشـدا كـلابا ... كتاب الله إن حفظ الكتابا
أناديه فيـولانى قفـاه ... فـلا وأبى كلاب ما أصـابا
إذا سجعت حـمامة بطن وج ... على بيضـاتها دعوا كلابا
أتاه مهاجـران تكنفـاه ... عبـاد الله قـد عقا وخـابا
تركت أباك مرعشـة يداه ... وأمك ما تسيـغ لها شرابا
فإنك والتماس الأجر بعـدى ... كباغى الماء يتبع السرابا(٢)

ولكن كلاباً لا يحفل به ، فيذهب أمية إلى المسجد يبكى لعمر ويستعطفه أن يرد عليه ابنه ، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . والعقوق — فى

---

(١) الاصـابة / جـ ٣ / ص ٢٢٧ ، الأغانى (ساسى) جـ ١٢ / ص ٣٨ .

(٢) الاصابة / جـ ١ / ص ٦٥ ، أسـد الغابة / جـ ١ / ص ١١٦ ، الأغانى (ساسى) جـ ١٨ / ص ١٥٧ ، ابن سلام ص ١٦٠ .

تصوره – معصية كبرى على هذه الصورة ، ويعلن : أنه سيشكو عمر إلى الله إذا لم يرد كلاباً :

أعاذل قد عذلت بغير قدرى ... ولا تدرين عاذل ما ألاقى
فإما كنت عاذلتى فردى ... كلاباً إذ توجه للعراق
فتى الفتيان فى عسر ويسر ... شديد الركن فى يوم التلاقى
فلا وأبيك ما باليت وجدى ... ولا شغفى عليكِ ولا اشتياقى
وإيقادى عليك إذا شتونا ... وضمك تحت نحرى واعتناقى
سأستأدى على الفاروق ربا ... له عمد الحجيج إلى بساق
وأدعو الله محتسباً عليه ... ببطن الأخشبين إلى دفاق
إن الفاروق لم يردد كلاباً ... على شيخين هامهما زواق[1]

وهكذا كان داعى الله أشد أثراً وأقوى فعلا فى نفوس المجاهدين من المسلمين ، طغى على كل دعوة إنسانية ، سواء أكانت من أب عاجز ، أم من زوجة بائسة .

وعلام يحفلون بهذه الدعوات وهذه الدموع مادام الله تعالى قد دعاهم ؟ فهذا الحتات يجيب أباه لما جزع عليه وبكاه واستعطفه ليرجع :

ألا من مبلغ عنى خريجا ... فإن الله بعدك قد دعانى
فإن تسأل فإنى مستقيد ... وإن الخيل قد عرفت مكانى[2]

وهكذا كانوا يتسابقون إلى الجهاد ، لا يعبئون بأهليهم الذين يناشدونهم عجزهم وضعفهم ، فيضربون بكل هذا عرض الحائط . إيثاراً للآخرة ، وحباً فى الظفر ، ورغبة فى المثوبة . فهذا – أبو خراش الهذلى – يقدم إلى المدينة فيجلس بين يدى عمر ؛ ليشكو إليه شوقه إلى ابنه خراش الذى أوغل

---

(١) الاصابة / جـ ١ ص ٦٦ ، ياقوت / جـ١ ص ٦٠٩ ، الأغانى (ساسى) جـ / ١٨ ص ١٥٧ ، ابن سلام ص ١٦٠ .
(٢) الاصابة / جـ ٢ ص ١٨١ .

مع جيوش المسلمين فى أرض الشام وتركه وحيداً ، بعد أن انقرض أهله ومحبوه ، وقتل إخوته ، ولم يبق له ناصر أو معين ، ثم ينشده :

ألا من مبلغ عنى خراشاً ... وقد يأتيك بالنبأ البعيد
وقد يأتيك بالأخبار من لا ... تجهز بالحذاء ولا تزيد
تناديه ليغبقه كليب ... ولا يأتى لقد سفه الوليد
فرد إناءه لا شىء فيه ... كأن دموع عينيه الفريد
وأصبح دون غابقة وأمسى ... جبال من حرار الشأم سود
ألا فاعلم خراش بأن خير الـ ... ـمهاجر بعد هجرته زهيد
رأيتك وابتغاء البر دونى ... كمخضوب اللبان ولا يصيد[1]

وأكثر من ذلك نجد كثيراً من المؤمنين والمؤمنات يدفعون بأبنائهم إلى الجهاد دفعاً ، إذ ليسوا بحاجة إليهم ، وقد انتفت حالات العجز والضعف التى دفعت بالخلفاء إلى رد الأبناء على آبائهم الضعاف ، ومنعهم من الجهاد إلا بموافقتهم . فنجد الخنساء الشاعرة المعروفة تدفع ببنيها الأربعة إلى الجهاد ليلة القادسية . وقد أخذت توصيهم قائلة : « إنكم أسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين ، ووالله الذى لا إله إلا هو.. إنكم لبنو رجل واحد وامرأة واحدة ، ما خنت أباكم ، ولا فضحت خالكم ، ولا هجنت حسبكم ، ولا غيرت نسبكم ، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل فى حرب الكافرين ، وأن الدار الباقية خير من الدار الفانية « يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » ، فإذا أصبحتم فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين ، وبالله على أعدائه مستنصرين ، فإذا رأيتم الحرب شمرت عن ساقها واضطرمت لظى على سياقها وجللت على أوراقها ، فيمموا وطيسها ، وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها ، تظفروا بالغنم والكرامة فى دار الخلد والمقامة »[2] فإذا ببنيها يباكرون مراكزهم إلى الجلاد ، وهم

---

(١) ديوان الهذليين / ج ٢ ص ١٧٠ ، الأغانى (ساسى) / جـ ٢ ص ٤٧ .
(٢) الاستيعاب / جـ ٢ : / ص ٧٤٥ .

يتغنون بهذه النصيحة شعراً ملتهباً بالإيمان ، يكشف عن تمكن روح الجهاد في نفوسهم وفعله بهم . يقول أولهم :

يا إخوتي إن العجوز الناصحة قد نصحتنا إذ دعتنا البارحة
مقالة ذات بيـــان واضـــحة فباكروا الحرب الضروس الكالحة
وإنما تلقون عنـــد الصائحـــة وأنتم بين حيـــاة صالحـــة
أو ميتة تورث غنماً رابحة

ويتقدم فيقتل ، ويحمل الثاني وهو يرتجز :

إن العجوز ذات حزم وجلـــد والنظر الأوفق والرأي السدد
قد أمرتنا بالسداد والرشـــد نصـــيحة منهـــا وبراً بالولد
فباكروا الحرب حمـــاة في العدد إما لفوز بارد على الـــكبد
أو ميتة تورثكم عـــز الأبد في جنة الفردوس والعيش الرغد

ويقاتل حتى يستشهد ، فيحمل الثالث وهو ينشد :

والله لا نعصي العجوز حرفاً قد أمرتنا حـــرباً وعطفـــا
نصحاً وبراً صادقاً ولطفـــا فبادروا الحرب الضروس زحفا
حتى تلفوا آل كسرى لفـــا أو يكشفوكم عن حماكم كشـــفا
إنا نرى التقصير منكم ضعفا والقتـــل فيكم نجـــدة وزلفى

ويظل يجالد الفرس حتى يصرع ، فيحمل الرابع منشداً :

لست لخنســـاء ولا للأخـــرم ولا لعمرو ذى السناء الأقدم
إن لم أرد في الجيش جيش الأعجم ماض على الهول خضم خضرم
إما لفـــوز عاجـــل ومغـــنم أو لوفاة في السبيل الأكرم(1)

ويخر صريعا فيلحق بإخوته إلى الرفيق الأعلى ، وحين يبلغ الخبر إلى أمهم - تلك التي جعلت من أساها على أخيها صخر مناحة أليمة في تاريخ الأدب

(1) الاستيعاب جـ ٢ ص ٧٢٦/٧٢٥ .

العربى – نجـــدها لا تهتز له إلا فخراً فتقول « الحمد لله الذى شرفنى باستشهادهم » .

وهكذا نرى هذا الدافع العقدى الجبار يدفع الأم إلى أن تقود بنيها جميعاً بيدها وبلسانها إلى الجهاد وتعدهم له ، ويدفع بالأبناء إلى أن يعصوا الآبوة فى سبيل الجهاد ولا يحفلوا بشىء ، ويدفع الرجال إلى أن يتركوا وراءهم كل ما يتشبث بهم ، وكل من يتمسك ببقائهم ، إنها قوة دافعــة لا تقاوم ، يغذيها الإيمان العميق ، والإحساس الأصيل بضرورة الانطلاق بالرسالة إلى الناس كافة ، ليتسنى لهم أن يخرجوا من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، انطلقوا جميعاً يجيبون داعى الله ، حتى غدت ديارهم خلاء موحشة ، ليس فيها غير الذئاب ، كما يصور ذلك أسامة بن الحارث الهذلى فى قوله :

فوشكة أرضنـــا أن تعــود ... خـــلاف الأنيس وحوشاً يبابا
ولم يدعوا بين عرض الوتـــ ... ـير حتى المناقب إلا الذئابا [1]

(١) ديوان الهذليين جـ ٢ ص ١٩٦ .

٢ — فتــوح الشرق

يجدر بنا أن نشير هنــا إلى خلاف المؤرخين على الزمن الذى حدثت فيه فتوحات الشرق ووقائعها خلافاً يصبح معه تتبع الحوادث فى تسلسلها التاريخى مغامرة لا تستند إلى أساس يمكن الاعتماد عليه فى شىء من الدقة . فالطبرى مثــلا يرى أن حروب الردة وقعت فى السنة الحادية عشرة للهجرة ، وأن فتح العراق تم فى السنة الثانية عشرة ، وأن فتح الشام تم فى السنة الثالثة عشرة .

ويكاد المرء يظن حينما يطالع هذا التعاقب أن فتح العراق لم يبدأ إلا بعد الفراغ من حروب الردة ، وأن فتح الشام لم يبدأ إلا بعد أن استقر الأمر للمسلمين فى العراق ، لكن شيئاً من التدقيق فى مراجعة الحوادث ووقوعها لا يلبث أن يحمل على الريبة فى مثل هذا الظن : ففتح العراق بدأ وحروب الردة لا تزال قائمة . وفتح الشام بدأ فى أعقاب حروب الردة ، وجيوش خالد بن الوليد لا تزال تعالج إقرار السكينة فى أرجاء العراق ، وتتوقع غزوات جديدة .

وقد رأينا أن التأريخ للفتوح الإسلامية يستتبع النظر العاجل فى حروب الردة ، التى أسهمت فى توجيه أنظار المسلمين إلى الامتداد خارج شبه الجزيرة ، فضلا عن تأكيدها لوحدة الأمة الإسلامية . وصهرها فى بوتقة الصراع الدامى ، كتمهيد لما ينتظرها بعد من تحمل لرسالتها الجليلة .

فلم يكد أبو بكر رضى الله عنه يقضى على عبس وذبيان وبنى بكر ومن انضم إليهم فى الأبرق حتى انحاز فلهم إلى طليحة الأسدى ببزاخة ، ورجع الصديق إلى المدينة وهو يفكر فى الوسيلة التى يقضى بها على المرتدين .

وكان جيش أسامه قد وصل إلى المدينة وقضى أياماً جم فيها ، فخرج الصديق إلى ذى القصة حيث وزع جنده لمحاربة المرتدين أحد عشر لواء ، جعل لكل منها أميراً ، وأمره أن يستنفر من يمر به من المسلمين أولى القوة ، وأن يسير لقتال المرتدين . وقد وزع الألوية توزيعاً مناسباً فى عددها وأمرائها ، مع قوة القبائل التى وجهت إليها ، ومبلغ إلحاحها فى الردة .

فتوجه خالد بن الوليد إلى طليحة بن خويلد فى بنى أسد ، فإذا منه سار إلى مالك بن نويره ، زعيم بنى تميم فى البطاح . وبنو أسد وبنو تميم كانوا أقرب القبائل المرتدة إلى المدينة ، ولهذا بدأ بهم المسلمون ، ووجهوا إليهم خالداً . وتوجه عكرمة بن أبى جهل على اللواء الثانى إلى مسيلمة فى بنى حنيفة باليمامة . وشرحبيل بن حسنة على اللواء الثالث ، ليعين عكرمة على مسيلمة ، فإذا فرغا منه لحق شرحبيل بقضاعة ، مدداً لعمرو بن العاص وقد استعصت اليمامة على عكرمة ، كما استعصت على شرحبيل . ثم كان النصر لخالد بعد أن قتل مسيلمة فى عقرباء .

وعقد للمهاجر بن أمية المخزومى اللواء الرابع لقتال الأسود العنسى باليمن وعمرو بن معديكرب الزبيدى ، وقيس بن مكشوح المرادى ورجالهم ، فإذا فرغ منهم قصد كندة وحضرموت لقتال الأشعث بن قيس والمرتدين معه . وعقد اللواء الخامس لسويد بن مقرن الأوسى ، ليتوجه إلى تهامة باليمن . وعقد اللواء السادس للعــلاء الحضرمى ، لقتال الحطم بن ضبيعة أخى بنى قيس بن ثعلبة ، والمرتدين معه بالبحرين . ووجه حذيفة بن محصن الغلفانى من حمير على رأس اللواء السابع ، لقتال ذى التاج لقيط بن مالك الأزدى المتنبى فى عمــان . وكانت وجهة اللواء الثامن إلى مهرة ، وعليه عرفجة بن هرثمة . كما توجهت ألوية ثلاثة إلى الشمال ، على أحدها : عمرو ابن العاص لقتال قضاعة ، وعلى الثانى : معن بن حاجز السلمى ، لقتال بنى سليم ومن معهم من هوازن . وعلى الثالث : خالد بن سعيد بن العاص لاستبراء مشارف الشام ، واحتفظ الخليفة بقوة لحماية المدينة ، وكانت دون لواء من هذه الألوية عدداً .

وكانت مهمة ألوية الجنوب صعبة ، إذ أن موقع هذه المناطق الجغرافى جعل لبلاط كسرى فى هذه الأنحاء من الصلة بها ، بل من السلطان عليها ما لم يكن له بغيرها من بلاد العرب ، ولسنا نستطيع أن نتجاهل أثر هذا السلطان فى تحريك البواعث التى أدت إلى انتقاض العرب وردتهم . فقد رأى عاهل الفرس فيمن رأوا فى رسالة محمد إليه وإلى غيره من الملوك والأمراء ليدينوا بالإسلام ما أدى به إلى أن يعمل على إيقاظ نار الفتنة فى بلاد ليس بها من أسباب الوحدة غير الدين الجديد ، الذى يجمع كلمتها ، ويضاعف قوتها ، ولا شىء كالفتنة يضعضع العزائم ، ويفت فى أعضاد الأمم[1] . ولقد كان سلطان فارس على اليمن ممتداً إلى أن دخل عاملها لكسرى فى الإسلام ، وصار عاملا للنبى عليها ، ولكن سلطان فارس كان أكثر وضوحاً فى البحرين وعمان ، حيث كان من أبناء فارس عدد كبير استوطنهما ، وعلت كلمته فيهما ، لما كانت تمدهم به فارس من نفوذها وقوتها كلما خشيت ثورة العرب الخلص بهم ، أو محاولتهم القضاء على سلطانها فى ربوعهم . فليس عجباً إذن أن تكون هذه البلاد آخر من دان بالإسلام على عهد الرسول فى عام الوفود ، وأن تكون أول من ارتد حين قبض ، ثم تكون آخر من يعودُ إلى الإسلام بعد حروب طاحنه ، تختم حروب الردة ، وتعيد إلى البلاد العربية وحدتها الدينية ، وتقيم فيها الوحدة السياسية . كانت الثورات فى الجنوب إذن أعنف مظاهر الانتقاض على الدين الجديد فى بلاد العرب بعد وفاة النبى . لكن اليمامة وما حاذى الخليج الفارسى من القبائل كان يتلظى ببذور الثورة فى هذا العهد ، وكان المسلمون على حذر ليظل سلطانهم قائماً وكلمتهم مسموعة ، فلا عجب إذن أن يكون ذلك أمر حواضر وبواد تبعد عن منزل الوحى بمكة والمدينة ، تتصل بالفرس وتبادلهم التجارة وتقر لهم بتفوق الحضارة ، بل لا عجب أن تكون للفرس يد خفية فى تحريك هذه الحواضر والبوادى ، لتنقض على الدين الجديد والسلطان الناشئ ، ولكن

(1) الصديق / هيكل / ص ٦٢ .

المسلمين استطاعوا أن يعيدوا الأمر إلى نصابه ، وأن يقضوا – في صرامة وحزم – على كل بواعث الفتنة قضاء مبرماً .

عادت الألوية الظافرة إلى المدينة ، إلا أن بعضها انساح في الأرض يؤمن تخوم شبه الجزيرة وأطرافها ، فأقام العلاء الحضرمي في البحرين بعد أن أرسل بانتصاره إلى الصديق ، لا يخشى شيئاً إلا غارة قبائل البادية التي ألفت الغزو والسلب ، ودسائس الفرس الذين تقلص نفوذهم في جنوب الجزيرة . على أنه كان مطمئناً بعض الشيء إذ انضم إليه قبل ذهابه إلى دارين من قبائل البحرين ومن الأبناء من كفوه مئونة ما يخشى . وكان عتيبة بن النهاس والمثنى بن حارثة الشيباني على رأس من انضم إليه ، وقد قعدوا بكل طريق للمنهزمين ، وللذين يعيثون في الأرض فساداً . وتابع المثنى المسير على شاطئ الخليج الفارسي ، يقاوم دسائس الفرس ، ويقضى على أنصارهم من القبائل والأبناء ، حتى بلغ مصب الفرات ، فكان لبلوغه هذا المبلغ ولاتصاله بأرض العراق ولدعوته إلى الإســلام هناك أثر لا نبالغ إذا زعمنا أنه كان مقدمة لفتح العراق .

وقد يبدو الأمر متناقضاً إذا ما رأينا إجمــاع المؤرخين المحققــين على أن فتح العراق وفارس وما وراءهما لم يدر بخلد المسلمين في هذه الفترة ابتداء وإنما دار هذا الخاطر بنفس أبي بكر حينما كان النصر يحالف ألويته في حروب الردة ، فذ قضى خالد بن الوليد على مسيلمة باليمامة ، ومذ نشر المهاجر بن أمية وعكرمة بن أبي جهل لواء الإسلام في أرجاء اليمن وما جاورها ، أيقن أبو بكر أن الأمر صائر إلى ما يرضى المسلمين ، من الوحدة الفكرية والسياسية لشبه الجزيرة العربية ، ولكنه كان يخشى أن يستنيم المسلمون لهذا النصر . وينسوا ما تنطوى عليه صدور العرب من حفيظة قد تضطرم فتضرم الثورة كرة أخرى . وربما يكون في اتجاه أنظار هؤلاء العرب إلى ما وراء الحدود في شبه الجزيرة ما يجعلهم ينسون حفائظهم وأحقادهم .

واتجه ذهن أبي بكر إلى اقتحام مشارف الشام وحرب قيصر ، بعد ما كان من سياسة الرسول نحو تأمين التخوم العربية بحملاته الشهيرة مما يصرف

أذهان العرب عن ثاراتهم ، ويجعل لهم من الفخار ما ينسيهم ضغنهم على المدينة وأهلها ، ويمهد لانتشار كلمة الله فى الإمبراطورية الرومية ، ولكن ... ألا يمكن أن تنقلب الآية فلا يحالف النصر ألوية المسلمين ، فتتعرض شبه الجزيرة لما هو أكثر شراً من الثورة التى أخمدتها حروب الردة ؟ حقاً لقد قامت بين إمبراطورية الروم وفارس حروب استطالت على السنين ، تداولوا فيها النصر والهزيمة ، حتى انتهى الغلب فيها للروم ، وقد استنفدت هذه الحروب من قوة الدولتين ما يحتاج جهداً ضخماً وزمناً طويلا لتعويضه ، ولكن بريق النصر الذى انتهى إليهم فى هذه الحروب لا يزال يبهر أنظار العرب ويصدهم عن حربهم ، ويجعل التفكير فيها مغامرة غير مضمونة العواقب .

وعلى الرغم مما لاقى العرب من دسائس الفرس فى فتنة الردة فلم يدر بخاطر أبى بكر أن يحارب « فارس » ، فضلا عن استشراء نفوذها فى اليمن ، فإن الحجاز لا يتصل بفارس . والبلاد العربية التى تتاخم الفرس هى البلاد التى فشت فيها الردة ، ولهذا لا يمكن الاعتماد عليها ، أو الركون إلى أهلها فى غزو دولة لا يزال لها سلطانها عليهم .

ومن هذا يتضح ضعف تلك الآراء التى تجعل من الصراع الشهير بين الدولتين الفارسية والرومية حافزاً للعرب على الفتوح . فالحقيقة السافرة أن هزيمة الدولة الفارسية على أيدى الروم لم تقض عليها ، ولم تؤد بها إلى الانهيار ، ولم تدفع العرب إلى الانقضاض عليها وإدخالها مثخنة بالجراح إلى حظيرة الإسلام كما يزعم البعض[1] ؛ فقد كان لها بعد كل هذا جيوشها الجرارة ، ونظامها وسلطانها . فإن كسرى أنوشروان الذى ولد لأول عهد النبي صلى الله عليه وسلم كان قد جعل هدفه تجديد شباب الدولة الساسانية ، فمضى فى سلسلة من الإصلاحات ، تناولت شتى النظم الإدارية والمالية والعسكرية . ورد إلى الدولة الساسانية شبابها ، فاستطاعت أن تنتزع من الإمبراطورية الرومية آسيا الصغرى وأرمينيا والشام ، ونجحت فى

---

(١) انظر الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم / العدوى ص ٤٢ .

أن تلطم العالم المسيحي لطمة قاسية بإدخالها بيت المقدس فى حوزة الوثنيين ، واستيلائها على صليب الصلبوت ، كما استولت على مصر ، وبلغ الأمر بها أن هددت أبواب القسطنطينية ذاتها [1] .

وحتى لو فرضنا أن الدولة الفارسية انهارت على يدي « هرقل » ألم يكن أقرب إلى المنطق والعقل أن يأتيهما الروم أنفسهم ، الذين طرقوا أبواب عاصمتها « المدائن » بعد هزيمتها المنكرة فى نينوى ، وإرغامها على صلح مشين فى ٦٢٨ م بطريقة أسهل من استيلاء العرب عليها ، إذا ما قارنا بين حالة الروم وحالة العرب وقتذاك .

لاريب فى أن أبا بكر كان يقدر قوة الفرس ومبلغ سلطانهم على الجنوب وأثره فى فتنة العرب ، وأنه ليفكر ويقدر فى موقف المسلمين من هاتين القوتين دون أن يجرؤ على التفكير فى حربهما ، إذ تترامى إليه الأنبـــاء بأن المثنى بن حارثة الشيباني قد سار بقواته شمالا فى البحرين حتى وضع يده على القطيف وهجر ، وحتى بلغ مصب دجلة والفرات ، وأنه قضى فى مسيرته على الفرس وعمالهم ، ممن عاونوا المرتدين بالبحرين ، وأنه تابع مسيره مساحلا الخليج الفارسي إلى الشمال ، حتى نزل فى قبائل العرب الذين يقيمون بدلتا النهرين ، فتحدث إليهم وتعاهد معهم .

وفكر أبو بكر فيما جاءه من أنباء ، فإذا به يفكر من ثم فى دفع المسلمين إلى خارج شبه الجزيرة ، حتى يصرفهم عن ثاراتهم الأولى ، فربما ينجح المثنى فى التوغل إلى العراق ، فيفتح للمسلمين المتعطشين إلى الجهاد أبوابه . وبدأت عناصر نجاح هذا التدبير تتداعى إلى خاطره ، وقبائل العرب فى العراق من بنى لخم وتغلب وإياد والنمر وبنى شيبان تهوى نفوسهم إلى منابتهم فى شبه الجزيرة ، ولم تبعد أنسابهم بعد عن أنسابها . وبرغم أن أكثر هذه القبائل قد نعم بالحضر وترفه إلا أنها ظلت شديدة التعلق بالبادية تسكن مشارفها ، وهى فى هذا لا تستطيع مقاومة الوراثة البدوية المتغلغلة فى نفوسها ، التى تأبى

(١) نفس المرجع ص ٣٢ .

الاستقرار والركون إلى حياة الحضر الوادعة ، فسكنت على شفا الصحراء . بين البادية والحضر ، لتجد في الحضر رزقها ، وفي البادية ما يستهويها من الحرية والسحر والجمال . -

وتردد فيما جاءت به أنبـــاء المثنى أن قبائل العرب التي استقرت بدلتا النهرين ، الغنية بالزروع والفاكهة والطير والحيوان ، مالت إلى الحضر والإقامة فعمل أبناؤها في زراعة الأرض ، وأن دهاقين الفرس يستولون على غلاتها ، فلا ينال أولئك العرب منها إلا القليل الذي يجود به الدهاقين عليهم ، مما يجعلهم أدنى إلى الاستجابة لكل دعوة عربية . فعاملة الدهاقين تعدهم للثورة بهم . وتمهد للمسلمين أن يستخدموهم أدوات لبث دعوتهم ، وتأمين شبه الجزيرة من دسائس الفرس وعدوانهم .

هـــذا فضلا عن أن بطوناً من ربيعة ومضر استقرت في سواد العراق والجزيرة ، فصارت لهم هناك ديار ومراع ، ونزلوا على خفارة فارس[1]. وكذلك استقرت قبيلة تنوخ غربي نهر الفرات من الحدود الفارسية . حتى أنشأ لهم سابور الأول ملك الفرس إمارة الحيرة عام ٢٤٠ م . وأمر عليها عمرو بن عدى ، لتكون هذه الأمارة درعاً يكفي دولة فارس من ورائها من الروم والأعراب ، ولكن هذه العلاقة الوطيدة بين العرب والفرس لم تمنع القبائل العربية من الإحساس بعصبيتها وتوحدها ضد الفرس في يوم ذي قار[2] .

فالعراق إذن لم يكن يوماً ما غريباً عن عرب الجزيرة ، بل كان دائماً امتداداً لمنازلهم ، ودار هجرة لهم . يجتذبهم إليه خصبه واستقرار الحياة فيه ، ويجوسون خلاله في معاناة التجارة وخفارتها . ويجدون في رحيلهم إلى الشرق والغرب فرصة مواتية للاختلاط بسكان هذه المناطق . اختلاطاً يتعدى الناحية الاقتصادية إلى التأثير والتأثر . وتعميق المعرفة بأحوالهم وبظروف حياتهم . وكان في أسواق العرب مجال لاختلاط التجار العرب والفرس . وبخاصة في دومة الجندل على أطراف العراق وشبه الجزيرة ، وعلى

(1) المسالك والممالك / ص ١٨ .

(2) العقد الفريد ، جـ ٣ / ص ٨١ .

امتـــداد خط القوافل بمحاذاة الخليج الفارسي . وكان التجار الأعاجم يقدمون إلى مكة – قبل أن يلي هاشم شئون التجارة – فيشترى منهم العرب ، ويتبايعون فيما بينهم ويبيعون من حولهم . ثم أخذ العرب بعد ذلك يقتحمون العراق وفارس بتجارتهم ؛ إذ اختص نوفل بن هاشم بالتجارة مع فارس وعقد معها حلفاً ومعاهدة تجارية فيما يقال (١) .

وليس أدل على قوة هذه الصلات من أن سكان الحيرة والأنبار كانو يكتبون اللغة العربية ، فقد وجد خالد بن الوليد بعد فتح الأنبار قوماً يكتبون بها فسألهم ممن تعلمتم ؟ فقالوا : من إياد ، وأنشدوه :

قـــومى إياد لـــو أنهم أمَمٌ ... أولو أقاموا فتهـــزل النعم
قـــوم لهم باحة العـــراق إذا ... ساروا جميعاً والخط والقلم (٢)

وكذلك وجد قوم من العرب كانوا يجيدون اللغة الفارسية إجادة مكنتهم من الاشتغال لدى ملوك الفرس بالكتابة والترجمة ، من مثل عـــدى بن زيد التميمى ، الذى كان يكتب لكسرى أنوشروان ويترجم له . وخلفه فى عمله ابنه زيد (٣) .

وكانت وفادات العرب على ملوك الفرس لا تنقطع ، وفى كل مرة كان العرب يعودون وقد حملوا معهم إلى موطنهم ألواناً من المعرفة والحضارة ؛ كما فعل الحارث بن كلدة من وفوده على كسرى أنوشروان ، وابنه النضر ابن الحارث الذى تعلم فى فارس صناعة الألحان والطب ، وكان يجلس ليتحدى الرسول بأحاديثه عن ملوك فارس (٤) . ومثل عبد الله بن جدعان الذى وفد على كسرى فاستطاب من أطعمة فارس الفالودج ، فابتاع غلاماً أعجمياً يصنعه له (٥) .

ولا يزال التاريخ يحفظ وفادات الشعراء العرب على أمراء الحيرة العرب ، التى استمرت طوال مدة حكمهم . فقد وفد عليهم طرفة بن العبد ،

---

(١) حياة محمد / هيكل / ص ٩٧ . (٢) الطبرى ٢٠٦١/٤/١ .
(٣) مروج الذهب / جـ ٢ / ص ٢٥ ، ابن خلدون جـ ٢ / ص ٢٦٦ .
(٤) السيرة (الحلبى) جـ ١ ص ٣٢١ . (٥) الأغانى (دار الكتب) ـ ٨ ص ٣٢٩

والحارث بن حلزة ، وعمرو بن كلثوم ، والنابغة الذبياني ، إذ كان هؤلاء الأمراء يعنون باللغة والأدب ، ويحبون الشعر والشعراء ، ويهتمون بجمع الأشعار وتسجيلها وحفظها في قصورهم[1] .

هـــذا وقد شاع في الأدب العربي ، وفي الحياة العقلية للعرب بعامة كثير من آثار العراق وفارس سقطت إلى العرب عن طريق الحيرة ، كأحاديث جذيمة بن الأبرش . وأساطير الزباء ، والخورنق والسدير ، وسنمار وجزائه ويومى البؤس والنعيم اللذين استنهما النعمان بن المنذر[2] ، هذا فضلا عما سقط إلى اللغة العربية من ألفاظ فارسية تجلت في استخدام القرآن الكريم لها . هذه الصـــلات الوثيقة وما يعززها من قرابة الدم والجوار واللغـــة ، وتلك العلاقات العقلية والحضارية والسياسية كانت كفيلة كلها بتوجيه أنظار المسلمين إلى العراق .

ولم يكن خافياً على أبي بكر ما وصلت إليـــه فارس صاحبة السلطان في العراق من اضطرابات داخلية ، ضربت بجرانها في البلاط الفارسي ؛ إذ يسعى كل أمير ليقتل الجالس على العرش ليأخذ مكانه ، حتى ليدعى هذا العرش في أربع سنوات تسعة من الأمراء كانوا يقتتلون عليه ، يقتل بعضهم بعضا جهراً وغيلة . وقد بدأ هذا الاضطراب في عهد كسرى أبرويز ، الذي أرسل إليه الرسول صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى الإسلام ، فكان جوابه أن كتب إلى عامله في اليمن بأن يرسل إليه ذلك الراعي ليرى رأيه فيه . وحدث أن ثار عليه ابنه شيرويه فقتله واستلب العرش . ولكنه لم يتمتع بالملك طويلا فمات بعد قليل ، تاركاً العرش لابنه الصغير . الذي ثار به أحد القواد فقتله ونصب نفسه ملكاً . واستهدف هذا الملك لثورة الأسرة المالكة به ، فقتل بعد أربعـــين يوماً من ثورته . حتى آل الأمر إلى بوران ابنة كسرى أبرويز وكان ذلك في آخر حياة الرسول .

لمح المسلمون في كل هذه الظروف المواتية فرصتهم وبشير سعودهم ،

---

(1) العمدة / جـ 1 / ص 61 . (2) فجر الاسلام / ص 18 .

وقد ارتفعت معنوياتهم بإعادة الأمور إلى نصابها ، والظفر بأهل الردة ، وبفرض كلمة الحق بالسلطان الصارم ، فراحوا يستشرفون مثل هذه الغاية التي أعدوا لها أنفسهم منذ أن كان فيهم رسول الله ، وهذه فرصة ثمينة ، يجب أن تكون خطوة لما بعدها . ولئن حالف المسلمين النجاح في هذه الخطوة لتكونن البشير بخطوات واسعة ؛ فبقاع العراق الخصبة ، التي أطلق عليها « جنة الأرض » تموج بكثرة غلالها ووفرة خيراتها وجمالها ، وقد رأى أبو بكر صدق ما يذكره المثنى ، ورأى أن من الواجب على المسلمين أن يقوموا بتأمين العرب من أهلها ، فإذا استجـــاب هؤلاء العرب من بعد للدعوة الإسلامية ، ولم يصرفهم الفرس عنها فذاك ، وإلا قاتل المسلمون الفرس ، ليكون المجال فسيحاً أمام كلمة الحق التي ستنتصر لا محالة .

ويجمع أبو بكر ولاة أمر المسلمين وأولى الرأى منهم ، للتداول فى عناصر نجاح تدبيره . وما أن ينتهى حتى يخطو الخطوة الأولى فى فتح العراق ، فيأمر المثنى بن حارثه الشيبانى بأن يسير بمن معه من قومه لقتال أهل فارس . ولما بلغته أخبار انتصاراته بدلتا النهرين رأى أن يمده ، فكتب إلى خالد بن الوليد فى المحرم من سنة ١٢ هـ يأمره أن يجمع بقية جنده ويمضى إلى العراق فيدخله من أسفله . وأمر عياض بن غنم أن يسير إلى دومة الجندل ليخضع أهلها المرتدين ، ثم يدخل العراق من أعلى ، متجها شرقاً إلى الحيرة ، فإن بلغها قبل خالد فالأمر فيها له ، وخالد فيها من قواده ، وإن سبقه خالد إليها فالأمر والقيادة له ، وعياض من قواده .. فإذا اجتمعتما فى الحيرة وقد فضضتما مسالح فارس وأمنتما أن يؤتى المسلمون من خلفهم فليكن أحدكما ردءاً للمسلمين ولصاحبه بالحيرة ، وليقتحم الآخر على عدو الله وعدوكم من أهل فارس دارهم ومستقر عزهم المدائن(١) .

وهكذا تهدف الخطة التى وضعها أبو بكر مباشرة إلى الحيرة ، ومنها إلى المدائن . وعلى هذا يمكننا أن نجعل الفتوح الشرقية مراحل ثلاثة ؛

---

(١) الطبرى / ١ / ٤ ٢٠٢ — ٢٠٢٢ .

أولاها : ماقبل الحيرة ، والثانية : تشمل مابين الحيرة والمدائن ، والثالثة : تشمل ما بعد المدائن .

المرحلة الأولى :

كانت وصية أبي بكر لأمرائه أن يتجهوا إلى الحيرة ، على ألا ينالوا العرب الفلاحين بسوء ، فهم عرب ، فضلا عما يشعرون به من ظلم الفرس الذى يجب أن يزول حين مقدم العرب . ليعمهم العدل على أيدى بنى عمومتهم .

وكان جنود خالد قد قل عددهم بعد قتـــال اليمامة ، وتسريح من شاء الرجوع بإذن الخليفة ، حتى لا يستفتح بمتكاره ، وألا يكون معه فى الغزو أحد ممن ارتد حتى يرى الخليفة رأيه فيه ؛ ولهذا استمد خالد أبا بكر ، فأمده بالقعقاع بن عمرو التميمي ؛ فلا يهزم جيش فيه مثله ، كذلك أمد عياضاً بعبد بن عوف الحميرى .

ولم يلبث خالد أن حشد ثمانية آلاف من ربيعة ومضر إلى ألفين كانا معه ، ثم سار إلى العراق على رأس عشرة آلاف قدم بهم . على ثمانية آلاف كانوا مع أمراء الجند المسلمين الذين سبقوه إليه ، والمثنى فى مقدمتهم .

وكان أمر أبى بكر إلى خالد أن يبدأ بالأبله(*) ، ولكن الرواة يجمعون على أن أول غزاة بالعراق كانت فى الحفير ، بينما يختلفون فى أمر الأبلة ، هل كان فتحها فى عهد أبى بكر أو على عهد عمر ؟ وكان أمير منطقة الحفير من قبل فارس يدعى « هرمز » ، ومن أسوأ أمراء الثغور معاملة للعرب ، حتى ليضرب به المثل فى الخبث والكفر ، وكان يعتبر نفسه حامى البلاد ، لصده هجمات العرب وغاراتهم فى البر ، وقراصنة الهنود فى البحر .

وقد سار خالد من اليمامة إلى العراق على رأس عشرة آلاف من الجند وما أن بلغ حدود هرمز حتى ألفى المثنى وجنده فى انتظاره ، وحينئذ قسم الجند كله ثلاث فرق ، وجه كل واحدة منها إلى طريق ، على أن يلتقوا جميعاً بالحفير .

(*) على الخليج الفارسى وهو الثغر الذى تسير منه التجارة الى الهند والسند وترد اليه منهما للعراق .

وسارت الفرقة الأولى بقيادة المثنى ، وتبعتها بعد يوم فرقة أخرى على رأسها عدى بن حاتم الطائى ، وبعد يوم آخر سار خالد فى المؤخرة ، وكان خالد قد أرسل إنذاراً إلى هرمز الذى بلغه مع كتاب خالد أنباء جند المسلمين ومسيرهم فكتب إلى أردشير بالخبر ، وجمع جموعه وسار إلى الكواظم ليلقى فيها خالداً ، ولكن أنباء أخيرة جاءته بأن خالداً أمر أصحابه بالسير إلى الحفير ، فأسرع بجنده إليها ، ونزل على الماء فيها . وقدم خالد ليجد جنده على غير ماء ، فيقرر معهم ضرورة مجالدتهم على الماء .

وكان على مجنبتى هرمز أميران من بيت الملك فى فارس ، هما : « قباذ » و« أنوشجان » ، وأدرك هرمز أنه لن يدرك غرضه إلا بقتل خالد ، فناداه وعهد إلى جماعة من فرسانه أن ينقضوا عليه فيقتلوه . وسمع خالد النداء ، فمشى إلى هرمز والتقيا ، فاغتنمها فرسان هرمز ، وشدوا يريدون قتل خالد واستخلاص قائدهم من يده ، لكن القعقاع بن عمرو لم يمهلهم ، فشد المسلمون وانهزم أهل فارس ، وطارد المسلمون الفرس إلى الليل ، حتى بلغوا الجسر الأعظم من الفرات ، وطار المثنى فى أثرهم يلاحقهم(1) .

وكان لهذه الغزوة الأولى أثر عظيم ، ألهب حميةُ المسلمين ؛ فقد قتل هرمز بين يدى خالد ، وغنم المسلمون ما شاء الله لهم أن يغنموا ، حتى بلغ نفل الفارس ألف درهم خلا السلاح . وزاد نصر المسلمين جلالا تنفيذ خالد للسياسة التى رسمها أبو بكر مع العرب الفلاحين بالعراق . فسبى المسلمون أبناء المقاتلة الذين كانوا يقومون بأمور الأعاجم . أما الفلاحون فتركوا وأقروا . وجعلت لهم الذمة .

ومالبث أردشير بعد أن تسلم رسالة هرمز أن دعا إليه أحد الأمراء الفارسيين المسمى قارن بن قريانس ، وجعله على رأس قوة عظيمة سارت مدداً لجيش الثغور ، وانضم إليها قباذ وأنوشجان على رأس فلول المنهزمين وعسكروا بالمذار ، وعلم المثنى فى عودته من مطاردة الفالة بأمر هذا الحشد ،

---

(1) الطبرى ٢٠٢١/٤/١ — ٢٠٢٢ .

وخشى أن يقابله دون خالد ، فكاتبه بتفصيل ما عنده وأنزل جنده منزلا قريباً من المذار ، وطار خالد بجيشه فبلغ المذار وقارن يعد للقاء المثنى . وأخاف قدوم خالد الفرس الموتورين ، وإن لم يضعف عزمهم ، وخيل إلى قارن أنهم إن هاجموا خالداً قبل أن يتخذ للموقف عدته لم يفتهم الظفر بالمسلمين وردهم إلى ديارهم . ولكن خالداً كان على أهبة الاستعداد ، فشد عليهم . ورأى المثنى فى قدوم خالد معجزة أمد الله بها المسلمين فانقلب جنده من الخوف إلى اليقين بالنصر أسوداً كاسرة ، والتحم الجمعان فإذا بقارن وقباذ وأنوشجان يذبحون بأعين جنودهم ، وسيوف المسلمين تطيح برءوس الفرس من كل جانب ، فيفرون إلى السفن يتخذونها مطاياهم للنجاة[1] . وقد أخذ الفرس تحت وطأة الهزيمة يحشدون عرب الضاحية والدهاقين لمعركة يثأرون فيها ، وفى الولجة أوقع بهم خالد ، وكانت الإصابة فى بكر بن وائل فادحة[2] .

ورأى العرب من نصارى بكر بن وائل أن يثأروا لهزيمتهم ، فكاتبوا الفرس واجتمعوا على أليس ، ولكن خالداً تمكن منهم . وقتل من العرب والفرس سبعين ألفاً[3] . واستمر خالد فى طريقه إلى أمغيشيا ، لأن أليس من مسالحها ، فخربها وفرق أهلها[4] . ثم استقل خالد النهر ، متخذاً من سفن أمغيشيا التى غنمها المسلمون مطية إلى مرزبان الحيرة ، الذى نهض فى عسكره إلى خارج الحيرة ، وأمر ابنه فسد قناطر الفرات ، ليحول دون مسيل الماء فيما وراءها ، فيعوق ذلك مسير السفن إليهم . وبينما خالد وجنده يدفعون بسفنهم شمالا إلى الحيرة إذ جنحت السفن وارتطمت بقاع النهر ، فخرج خالد فى كتيبة من فرسانه ، فلقى ابن المرزبان على فم العقيق ، وقتلوه فى جنده شر قتلة ، وأعاد خالد الماء يجرى فى النهر . فعادت المياه تقل السفن إلى الخورنق ، حيث نزل المسلمون يستعدون لفتح الحيرة[5] .

---

(1) الطبرى ٢٠٢٧/٤/١ — ٢٠٢٩ .
(2) الطبرى ٢٠٢٩/٤/١ — ٢٠٣١ .
(3) الطبرى ٢٠٣١/٤/١ — ٢٠٣٦ .
(4) الطبرى ٢٠٣٦/٤/١ .
(5) الطبرى ٢٠٣٧/٤/١ — ٢٠٣٨ .

وكان أهل الحيرة متحصنين بقصورهم ، فحاصرهم خالد ، بأن جعل أصحابه يحاصر كل منهم قصراً ، ثم دعوهم وأجلوهم يوماً فأبوا ، فناوشهم المسلمون . وانتهت المناوشة باستجابتهم إلى الجزية وعقد الصلح(١) . وما أن سقطت الحيرة حتى أخذ الدهاقين يتتابعون على صلح المسلمين ؛ إذ كانوا يترقبون ما يصنع أهل الحيرة . وبذلك بلغ سلطان المسلمين شاطئ دجلة ، وأصبحوا مهددين له ، ومن ثم أخذ خالد يكتب إلى أمراء فارس ومرازبتهم يدعوهم وينذرهم ويتوعدهم .

وبينما ينهي خالد ما نيط به من خطة أبي بكر بدخوله الحيرة لا نسمع شيئاً عن شريكه عياض، الذي يدفع بخالد إلى إرجاء المرحلة الثانية من الخطة حتى يستنقذه ، فيخلف القعقاع بن عمرو على الحيرة في طريقه إلى الأنبار ، وكان أهلها قد تحصنوا وخندقوا وأشرفوا من حصونهم ، فأمر خالد بأن ترشق عيونهم ، فأصاب منهم المسلمون ألف عين ؛ ولهذا فقد سميت تلك الوقعة بذات العيون(٢) . وأفلح خالد في أن يسد الخندق بالمناحر ، واجتازه المسلمون ، وفضوا الحصون ، وأعملوا في سكانها السيوف ، ثم خلف عليها الزبرقان بن بدر . وانطلق بعد أن صالحه أهل كلواذى يريد عين التمر ، حيث اجتمع على حربه فيها جمع كبير من الفرس والعرب من النمر وتغلب وإياد . جعلهم الفرس في مواجهة المسلمين ، حتى يقاتلوا وهم أقوياء. إذا لم يثبت العرب أمام المسلمين، ولم يثبت العرب أمام المسلمين، فقتل عقة بن أبي عقة زعيم العرب ، وفر مهران قائد الفرس ، وتمكن خالد من اقتحام الحصن الذي فر إليه الفرس وقتلهم فيه جميعاً (٣) .

بعث خالد بالأخماس إلى أبي بكر مع الوليد بن عقبة واستطاع أبو بكر أن يقف منه على سأم خالد من بقائه بالحيرة ، وضيقه بانتظار عياض ، وكان أبو بكر يرى موقف عياض مضعفاً لروح المسلمين ، فأمر

---

(١) الطبري ٢٠٣٨/٤/١ . (٢) الطبري ٢٠٥٦/٤/١ .
(٣) الطبري ٢٠٦٢/٤/١ — ٢٠٦٤ .

الوليد أن يتجه لعياض بدومة الجندل . وألفى الوليد عياضاً يحاصر القوم ويحاصرونه ، وقد أخذوا عليه الطريق ، فأشار الوليد بالاستنجاد بخالد ، وما كان لعياض أن يتردد وقد بقي سنة لايقوى على خصومه ، فبعث رسولا إلى خالد أدركه يوم فراغه من عين التمر .

وما كاد خالد يفض كتاب عياض حتى تهلل ، وورد الرسول لساعته يحمل كتابا إلى عياض فيه :

إياك أريد :

البث قليلا تأتك الحلائب يحملن آساداً عليها القاشب
كتائب تتبعها كتائب

وخلف خالد على عين التمرعويم بن الكاهل الأسلمي ، وخرج يحث السير في جنده إلى دومة الجندل ، وبينه وبينها ثلاثمائة ميل ، وقطعها في أقل من عشرة أيام بعزم لا يعرف الخطر . وما أن تسامعت القبائل بمقدمه حتى بهتت واختلفت. وكانت القبائل المعسكرة بدومة الجندل قد تضاعف عددها عما كان عليه منذ عام ؛ ذلك أن بني كلب وبهراء وغسان نفروا من العراق منحدرين إلى دومة الجندل ليثأروا من عياض لهزائمهم أمام خالد . وكان على هذه القبائل أكيدر بن عبد الملك ، والجودي بن ربيعة ، وكان من رأى أكيدر الصلح ، فلما لم يتسن له حمل قومه عليه تركهم نجاة بنفسه ، فأرسل خالد إليه من أتى به وقتله . ونزل خالد عليهم فأظفر الله المسلمين ، بعد أن أسروا رؤساء القوم ، وقتلوا من التجأ إلى الحصن ، عدا حلفاء تميم من كلب ، فقد أجارهم عاصم بن عمرو[1] .

وكان لعرب الجزيرة أن يثأروا لمقتل عقة ، وخزيمة عين التمر ، فكاتبوا الفرس فخرج روزمهر وروزبه يريدان الأنبار ، واتعدا حصيدا والخنافس ، وفي نفس الوقت خرج الهذيل بن عمران فعسكر بالمصيخ ، بينما عسكر ربيعة بن بجير بالثني . وعلم الزبرقان بن بدر أمير الأنبار بأمر

(1) الطبري ٢/٤/٢٠٦٥ — ٢٠٦٧ .

هذا الترتيب الحربي ، فكاتب القعقاع أمير الحيرة الذى بعث إليه بأعبد بن فدكي السعدى ، وأمره بالحصيد ، وبعروة بن الجعد البارق ، وأمره بالخنافس ، فخرجا فحالا بين روزمهر وروزبه ومقصديهما . وبلغت الأنباء خالداً فحث السير إلى الحيرة ، حيث خلف عليها عياضاً ، ورمى بالقعقاع وأبي ليلى بن فدكى أمامه إلى عين التمر ، فلما وافاهما وجه القعقاع إلى الحصيد وأبا ليلى إلى الخنافس ، ليعطى القوم فرصة للتجمع حتى يقاتلهم مرة واحدة مجتمعين(١) .

وسار القعقاع إلى الحصيد وعليه روزبة ، فاستغاث هذا بروزمهر فأغاثه بنفسه . والتقى المسلمون بالفرس فى الحصيد ، فقتلهم الله شر قتلة ، وقتل القعقاع روزمهر ، وقتل عبد الله الضبي روزبة . وسار أبو ليلى إلى الخنافس وعليها المهبوذان فانهزم أمام المسلمين دون قتال ، وفر جنده إلى المصيخ ، يلتحقون بمن فيها من العرب .

وعقد خالد اجتماعاً لقواده ، واتفقوا على اللقاء بالمصيخ فى ساعة بعينها ، توافوا إليها من ثلاث جهات ، فبيتوا الهذيل ومن معه ، وملئوا الفضاء بجثث القتلى . ورأى خالد أن يبغت تغلب فى دارها ، فتقدم إلى قائديه القعقاع وأبي ليلى بأن يرتحلا أمامه ، وواعدهما الغارة على تغلب فى ليلة بعينها ، واجتمع القواد الثلاثة من ثلاثة أوجه ، فلم يكد يفلت من جيش بنى تغلب أحد.

وذاعت أنباء خالد وفعاله بالقبائل وعجزها عن مقاومته ، ففت ذلك فى أعضاد رجال البادية بالعراق ، فألقوا سلاحهم وطلبوا الأمان . وجعل خالد يسير على شاطئ الفرات فيما حوله فلا يلقى إلا الإذعان ، حتى بلغ الفراض ، وهى تخوم العراق والشام ، فوجد الروم فى مواجهته ، ليس بينه وبينهم غير مجرى الفرات . وقد أغاظ الروم أن يقيم جيش المسلمين فى مواجهتهم . وأن يطيل المقام غير عابئ بهم ، ولا بكتائب الفرس القريبة ، ولا بأهل البادية من تغلب والنمر وإياد المنتشرين حولهم فى كل مكان . ولم

---

(١) الطبرى ٢٠٦٧/٤/١ - ٢٠٧٣ .

يلبث هؤلاء وأولئك أن انضموا إلى الروم وحرضوهم وأمدوهم ، فسار خالد حتى إذا لم يبق بينه وبينهم غير الماء بعثوا إليه يخبرونه بين أن يعبروا إليه أو أن يعبر إليهم ، فاختار عبورهم . وفيما يعبرون صف خالد صفوفه ودبر خطته ، والتقى الجمعان ، وأبلى المسلمون بلاء لم يعهده أعداؤهم ، فلم يثبتوا لهم ، وانكشفوا وأدبروا ، والمسلمون من ورائهم يمعنون فى قتلهم ، حتى بلغ من قتل فى هذه الواقعة مائة ألف من أعداء المسلمين(١) .

أقام خالد عشرة أيام بعد وقعة الفراض ، ثم أذن فى الناس بالرجوع إلى الحيرة ، لخمس بقين من ذى القعدة من السنة الثانية عشرة ، وأمر عاصم ابن عمرو أن يسير بالمسلمين ، وأظهر أنه بالساقة ، وفى نفس الوقت أمر شجرة بن الأعز أن يسوقهم . ومن ثم مضى هو إلى الحج — لا يعلم أحد بذلك — فى طريق غير مطروقة ، متعسفاً البلاد ، ومتسمتا مكة(٢) .

وما أن قضى نسكه حتى سارع إلى جنده فأدركهم فى دخولهم الحيرة ، فالتحق بالساقة كأن لم يكن شيء . وقد اعتبر أبو بكر هذا العمل — حينما علم به بعد ذلك — زهواً من خالد بنفسه واغتراراً . وحدث أن مست الحاجة إلى رمى الروم بمثل ما رمى به الفرس ، فتلقى خالد بالحيرة كتاباً من أبى بكر يأمره بأن يسير حتى يأتى جموع المسلمين باليرموك ، فقد شجوا وأشجوا ، على ألا يعود لمثل ما فعل ، وألا يدخله عجب ، وألا يدل بعمل . على أن يستخلف المثنى على العراق فى نصف الناس ، وأن يأخذ معه النصف ، « فإذا فتح الله عليكم فارددهم إلى العراق وأنت معهم ، ثم أنت على عملك(٣) » .

المرحلة الثانية :

انتهت المرحلة الأولى من الفتوح الشرقية باستنقاذ عياض واستقامة العراق للمسلمين أسفله وأعلاه . وبدأت المرحلة الثانية بنفس البداية ، فالمثنى وحده فى العراق بعد أن صدع خالد بأمر أبى بكر . وتوجه فى نصف

(١) الطبرى ١/٤/٢٠٧٣ - ٢٠٧٥ .
(٢) الطبرى ١/٤/٢٠٧٥ - ٢٠٧٦ .
(٣) الطبرى ١/٤/٢٠٨٩ - ٢١١٠ .

جيش العراق إلى اليرموك . ولم يكد المثنى يعود من وداع خالد إلى تخوم الصحراء حتى بدأ ينظم الدفاع عن البلاد التى فتحها المسلمون . فلا ريب أن الفرس سيتحرشون به متى علموا بسفر خالد ، ولا ريب كذلك فيما سيتكشف عنه حقد القبائل العربية التى لم يصلحها إلا بطش خالد ، ولكنه أحفظها كذلك : فباتت تترقب الثورة بالمسلمين . وقد شعر خالد قبل توجهه إلى الشام بدقة الموقف ، فبعث بالنساء والصبيان والضعفاء إلى المدينة .

ووجد المثنى نفسه فى حالة لا يحسد عليها ، فهو رائد الفتح فى هذا الميدان وطليعته ، وليس من الهين على نفسه أن يهزم فيه ، وزاد الموقف صعوبة أن الفرس استقام أمرهم على شهر براز بن أردشير ، الذى أراد إرهاب المثنى ، فوجه إليه جنداً كثيفاً ، بقيادة هرمز جاذويه ، وفى مقدمة جيشه فيل كبير . ولم ينتظر المثنى أن يقدم عليه الفرس فى الحيرة ، متخطين المناطق التى حازها المسلمون ، فخرج إليهم فى جنده ، وسار حتى بلغ أطلال بابل ، وعلى مقدمتيه أخواه المعنى ومسعود ، فعسكروا على مرتفع يبعد خمسين ميلا من المدائن . والتقى الجمعان ، وكانت معركة رهيبة ، ابتلى فيها المسلمون بالفيل الذى عانى منه الجند والخيل ، حتى دل المثنى على مقاتله فقتله ، وهاجموا الفرس فهزموهم شر هزيمة واحتلوا معاقلهم ، وتعقبوا فلولهم إلى أبواب المدائن[1] .

ونزلت الهزيمة على شهر براز نزول الصاعقة ، فحم ومات . وعاد الاضطراب إلى البلاط الفارسى من جديد ، فاطمأن المثنى قليلا ، ولكنه حسب حساب الغد حينما تنتهى هذه الخلافات ، ولابد له أن يكون مستعداً للقائهم لقاء حاسماً . والخليفة لا يمكن أن يمده وجيوشه موزعة فى الشام والعراق ، ولو كان فى الإمكان إمداده لما فصل خالد بنصف جيش العراق ، ولكنه كتب إلى الخليفة يستأذنه فى الاستعانة بمن ظهرت توبته من أهل الردة .

---

(١) الطبرى ٢١٥٢/٤/١ .

وفى انتظار رد الخليفة أقام يدبر خطته ويحكم تدبيره ، وأبطأ رد الخليفة ، ولم ير المثنى بدأ من الانسحاب إلى أدنى أرض العراق من حدود البادية ، حيث خلف على المسلمين بشير بن الخصاصية ، وذهب بنفسه إلى المدينة ليرى رأيه مع الخليفة . وفى المدينة ألفى المثنى أبا بكر مريضاً مرضاً يشفى على الموت ، ولكنه استقبله ، واستدعى عمر بن الخطاب فأوصاه أن يندب الناس مع المثنى ، لا تشغله مصيبة وإن عظمت عن وصيته .

ويقضى الخليفة الأول فى الحادى والعشرين من جمادى الآخرة سنة ١٣ هـ بعد إصدار أمره بندب المسلمين مع المثنى ، لاستكمال المرحلة الثانية من الخطة التى رسمها . ولم يضيع الخليفة الثانى وقتاً . فأخذ يندب الناس باذلا فى ذلك جهده ، حتى بلغـله من أهل المدينة ومن كان قد ارتد حشد كبير ، أمر عليه أول متـدب — أبا عبيد عمر بن مسعود الثقفى — وعجل المثنى ، فسبق أبا عبيد ، ووصل إلى الميدان بعد عشر ليال ، ليلحق به أبو عبيد بعد شهر من وصوله .

ولا يكاد المثنى يستقر بين جنده حتى يسأل عما آل إليه أمر البلاط الفارسى فيبلغه أن الفرس ولوا ابنة كسرى عليهم ثم خلعوها ، وخلفها سابور بن شهريران ، الذى تآمرت عليه ابنة عمه آزرميدخت ، فقتل وقتل وزيره الفرخزاد ، وجلست على عرش فارس . لكن القائد رستم بن الفرخزاد انتقم لأبيه ، فألحق الهزيمة بجيوش الملكة وحاصر قصرها . وأقام بوران ابنة كسرى على عرش البلاد ، فأطلقت يده فى أمور الدولة وجعلته على الجند ، وأمرت أهل فارس أن يسمعوا له ويطيعوا .

وبلغ أبو عبيد العراق ، فوجد المثنى قد انسحب إلى « خفان » على حدود البادية ، لأن رستم أوعز إلى الدهاقين بالسواد أن يثوروا بالمسلمين ، ودس فى كل رستاق رجلا يثير أهله ، ثم أرسل جنداً لمصادمة المثنى ، الذى آثر الحذر وانسحب من الحيرة ، حتى لا يؤتى من خلفه . وفى « خفان » وافاه أبو عبيد ، وأقاما يدبران خطة لملاقاة الفرس .

وكان رستم قد عهد إلى جابان – أحد قواده – أن يتجه على رأس جيش عظيم إلى الحيرة ، كما عهد إلى قائد آخر هو نرسى أن يتجه إلى كسكر . وخرج المسلمون بعد أن حموا فى « خفان » ، فالتقوا بهم عند النمارق ، واقتتلوا قتالا شديداً ، أظفر الله فيه المسلمين ، فأسروا جابان ومردا نشاه[1] .

وما أن علم رستم بهزيمة جابان حتى أمر الجالينوس بأن يسير إلى المسلمين فيلحق بنرسى فى كسكر ، ولكن أبا عبيد كان أسرع منه ، فحث بجنده السير لمواجهة نرسى ، الذى انحاز إليه فل النمارق . والتقى المسلمون بالفرس فى مكان يدعى بالسقاطية على مقربة من كسكر قبل أن يصل الجالينوس . ولم يثبت نرسى أكثر مما ثبت جابان ، ففر فى جنده تاركاً لهم مغانم كثيرة . وأقام أبو عبيد بكسكر ، بينما سرح المثنى وغيره من القواد يغيرون على النواحى القريبه ، فاحتلوا سواد العراق – أسفله وأعلاه – وأذاعوا الرعب فى القوم ، معيدين إلى ذاكرتهم أيام خالد بن الوليد . فما لبث الدهاقين حتى جاءوا أبا عبيد يصالحونه ، ويعتذرون عن ممالأة الفرس ، وأن ذلك كان بإكراههم . ولما تم الصلح معهم جاءوه ببعض الهدايا[2] ونهد أبو عبيد للجالينوس الذى كان تحول إلى باقسياثا فهزمه وألجأه إلى الفرار[3] .

وتبلغ الهزيمة رستم ، فيجهز جيشاً عليه بهمن جاذويه ، ويبعث بالجالينوس والفيلة وراية فارس الكبرى « درفش كابيان » فى جيش لم يعرفه المسلمون من قبل ، وتراجع أبو عبيد بجنده إلى قرية قس الناطف ، بعد أن عبر النهر إليها وتحصن بها ينتظر عدوه . وأقبل بهمن يفصل بينه وبين المسلمين النهر ، وبعث يخير أبا عبيد فى أن يعبر إليهم أو يعبروا إليه وأشار أصحاب أبى عبيد عليه بألا يعبر ، وأن يدع الفرس يعبرون ، لكنه أخذته العزة فقال : والله لا يكونون أجرأ منا على الموت ، بل نعبر نحن إليهم .

---

(1) الطبرى ١/٤/٢١٦٢ – ٢١٦٨ .
(2) الطبرى ١/٤/٢١٦٨ – ٢١٧٠ .
(3) الطبرى ١/٤/٢١٧٢ .

وعبر ، فعبر المسلمون واقتتلوا على الجسر . فأصيب من الفرس ستة آلاف قتيل وغريق ، ولم يبق لهم إلا الهزيمة ، برغم هول الفيلة وخيبة الخيل بإزائها . وحدث أن أبا عبيد كان يعالج فيلا فخبطه وأصابه . فتضعضع المسلمون لإصابة قائدهم ، وركب الفرس أكتافهم ، فبادر رجل من ثقيف إلى قطع الجسر ، ظناً منه أنه بذلك يمنع الفرس عن المسلمين فكانت الطامة ، إذ أخذت السيوف المسلمين من كل ناحية . فتهافتوا فى الفرات . واستطاع المثنى فى حماية نفر من المسلمين أن يعقد الجسر ، وعبر المسلمون إلى المروحة عائدين إلى مكانهم . وأصيب المثنى بجراح وهو يعقد الجسر . وفر ألفان من المسلمين وقتل أربعة آلاف منهم . وبقى المثنى فى ثلاثة آلاف فحسب[1]. وكانت هزيمة الجسر .

هذه أول هزيمة صادفها المسلمون . ولهذا كان أثرها فى المسلمين أليما وعنيفاً ، حتى ليتجاوز ميدان المعركة إلى المسلمين فى المدينة ، حيث لجأ الفارون . ورأى عمر بثاقب رأيه أن يحتضنهم ، وأن يعتبرهم متحفزين لقتال ، ليدارى افتضاحهم فى ثباتهم ورجولتهم فيقول : أنا فئة كل مسلم[2].

انحدر المثنى بجنده جريحاً إلى أليس ، فقد خشى أن يتعقبه بهمن واضعاً فى تقديره قوة عدوه وقوته ، وصح ما توقعه المثنى ؛ فقد تجهز بهمن لتعقبه ، إلا أن الأنباء وافته بتجدد الاضطرابات فى المدائن . واختلاف الفرس فرقتين ؛ إحداهما مع رستم والأخرى مع الفيروزان . فعاد بهمن إلى العاصمة ، وخلف من ورائه جابان ومردانشاه فى كتيبة من الجند ، فسارا يتعقبان المثنى ، فخرج إليهما وأسرهما وأصحابهما ، وضرب أعناقهم جميعاً . فقد خدعا أبا عبيد يوم أسرا بالمارق ، وعادا إلى حرب المسلمين . وفى هذا الوقت كان عمر فى المدينة يحشد أمداداً من بجيلة وضبة ، وممن ظهرت توبتهم من أهل الردة . وأدرك المثنى أن هذه الإمدادات تحتاج إلى وقت

---

(1) الطبرى ١/٤/٢١٧٤ – ٢١٨٢ .

(2) البلاذرى / ٢٥٢ .

طويل حتى تصل إليه ، وسرعان ما تنتهى الاضطرابات فى العاصمـة حتى يعود الجند تتقدمهم الفيلة ، فبعث إلى من يليه من قبائل العرب فتوافوا إليه فى جمع عظيم ، بينهم نصارى بنى النمر ، ونقل عسكره من أليس إلى مرج السباخ بين القادسية وخفـان ليكون على تخوم العرب يلجأ إليهم عند الحاجة . وكان عمر يتصور حال المثنى وموقفه الدقيق ، فضاعف جهده فى ندب الناس المتثاقلين ، بعد ما رأوا فالة الجسر وفرارهم ، فاستصلح عمر جرير بن عبد الله البجلى فى جمع من بجيلة ، وحذا الناس حذو بجيلة ، فانضم إليهم من فر يوم الجسر وكثير من الأزد ، وبنى كنانة ، وخلق كثير من مختلف القبائل . وتحمل الناس ومعهم نساؤهم وساروا يريدون المثنى .

وانتهى الخلاف بين رستم والفيروزان . وهالتهما أنباء الأمداد التى تسير تباعاً إلى العراق ، فجمعا جنداً عظيماً ، جعلا عليه مهران الهمذانى . وسار مهران فى جنده تتقدمه الفيلة ، وفى خاطره أن يحرز نصراً ينسى الناس انتصار بهمن يوم الجسر . وقد علم المثنى بمسيره ، فسار إلى البويب مكان الكوفة الحالية بعد أن كتب إلى أمراء الأمداد بموافاته فيها . وسار مهران حتى وقف قبالة جيش المسلمين ، لا يفصل بينهما غير النهر . وأرسل يخير المسلمين فى العبور ، ولم يكن المثنى قد نسى ما حدث لأبى عبيد . فعبر الفرس إلى البويب ، وتعبئوا فى صفوف ثلاثة على كل فيل . ولم يكد المسلمون يسمعون التكبيرة الأولى حتى أعجلهم الفرس فشدوا عليهم ، فاختلت صفوفهم ، ولكنهم عادوا فشدوا ، وترجحت المعركة حامية الوطيس حتى حمل المثنى على قائد الفرس فأزاله عن مكانه . ودخل فى ميمنته . ورأى الفرس ما حدث فاندفعوا يحمون قائدهم ، وتقهقر القلب تحت ضربات المسلمين إلى النهر يريدون العبور ، فسبقهم المثنى والمسلمون فردوهم عنه فازداد اضطرابهم بعد أن حصروا فقتلوا شر قتلة ، حتى لقد سمى يوم البويب يوم الأعشار ، لأنهم أحصوا مائة رجل من المسلمين قتل كل منهم